
أدب إنجليزي حديث
الحكاية الثالثة عشر
رواية
دايان ساترفيلد
ترجمة: محمود علي
مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/t_pdf
المحروسة

إهداء لـ ..

(NOURA) ^{2}

الحكاية الثالثة عشرة

عنوان الكتاب: الحكاية الثالثة عشرة

The Thirteenth Tale

المؤلف: دايان ساترفيلد Diane Setterfield

ترجمة: محمود على

مراجعة لغوية: محمد حمدي أبو السعود



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg

almahrosacenter

almahrosacenter

www.mahrousaeg.com

info@mahrousaeg.com

mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٨٧٥٠/ ٢٠١٩

الترقيم الدولى: 978-977-313-798-4

الحكاية الثالثة عشرة

دايان ساترفيلد

ترجمة
محمود على



الطبعة الأولى 2020





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ساترفيلد، دايان

الحكاية الثالثة عشرة/ دايان ساترفيلد ؛ ترجمة محمود علي.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2019

533 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 4-798-313-977-978

1 - القصص الأمريكية

أ-علي، محمود (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2019/28750

ينسـج الأطفـال أسـاطير عـن مولدهـم، إنـه فعـل شـائع، فـإن أردت الاطـلاع عـلى قلـب وعقـل وروح أحـد، اسـأله عـن مولـده، مـا سـيقوله لـن يكـون الحقيقـة، بـل قصـة، ولا شيء أكـثر تعبـيرًا عـن البـشر مـن القصـص.

حكايات التغيير واليأس، "فيدا وينتر".

البداية



الرسالة

إنـه نوفمـبر، ومـع أن الوقـت لم يكـن متأخـرًا، كانـت السـماء مظلمـة حـين دخلـت ممـر "لاندريـس"، أنهـى والـدى عمـل اليـوم وأطفـأ أنـوار المتجـر وأغلـق شـيش النوافـذ، لكنـه تـرك ضـوء السلالم مضاءً لأهتـدى بـه حـين عـودتى إلى الشـقة، يسـقط عـبر المسـتطيل الزجاجـى بالبـاب ضـوءٌ باهـت عـلى الرصيـف المبتـل، وبينـما أنـا واقفـة فـوق مسـتطيل الضـوء، انتبهـت للمـرة الأولى إلى الرسـالة، مسـتطيل أبيـض آخـر، مُلقـى عـلى الدرجـة الخامسـة صعـودًا، حيـث لا يمكـن ألا أراهـا.

أغلقـت البـاب ووضعـت مفتـاح المتجـر فى مكانـه المعتـاد وراء كتـاب "المبـادئ المتقدمـة فى الهندسـة" لمؤلفـه "بايـلى"، يـا لـه مـن مسـكين "بايـلى"، لم يطلـب أحـد كتابـه الرمـادى السـميك لمـدة 30 عامًـا، أحيانًـا أتسـاءل عـما يسـتفيد مـن حراسـته لمفاتيـح متجـر الكتـب، كـذا لا أفـترض أن هـذا المصير هـو مـا خطـر ببالـه حـين أمـضى عقديـن يؤلـف تحفتـه هـذه.

أرسل أحد رسالة إلىَّ، وهذا حدث مميز فى حد ذاته، كُتب العنوان على ظرف أطرافه متجعدة، سميك المحتويات رغم طيها، كُتب العنوان بخط أرهق عينى ساعى البريد بلا شك، ومع أن أسلوب الكتابة يبدو قديم الطراز، بحروفه الكبيرة المنمقة للغاية وزخارفه الملتوية، كان انطباعى الأوَّلى أن الكاتب طفل، فالحروف بدت غير ناضجة، وجرات القلم غير المتساوية إما متلاشية إلى نهايتها وإما محفورة داخل الورقة، كذا لم يبد تتالى حروف اسمى سلسًا، بل رُسم كل حرف منفصلاً كمغامرة جديدة شاقة، لكن حياتى بلا أطفال، لذا افترضت أنها يد شخص معتل.

أثار ذلك لدىّ شعورًا غريبًا، فبالأمس أو أول أمس، وبينما أنا منهمكة فى عملى بهدوء وعلى انفراد، كبّد شخص ليس بصديقى نفسه عناء رسم اسمى على هذا الظرف، تُرى من ذا الذى حدّق إلىَّ بعين عقله فى غفلة منى؟

لم أنتظر حتى أخلع معطفى وقبعتى، بل جلست على درجة السُلم لقراءة الرسالة، (لا أقرأ أبدًا دون التأكد من أننى فى موضع آمن)، تعلمت هذا منذ كانت سنى سبعة أعوام، إذ كنت أجلس على حائط مرتفع أقرأ كتاب "ذا ووتر بيبيز"، وأغوانى وصف الحياة تحت المياه لدرجة أنى أرخيت عضلاتى بلا وعى منى، وبدلاً من أن أطفو على المياه التى أحاطت بى بمنتهى الوضوح فى بالى، هويت مصطدمة بالأرض، لا أزال حتى الآن أشعر بندبة تلك الواقعة تحت رمشى، (القراءة قد تؤذى أحيانًا).

فتحت الظرف وسحبت منه نصف دستة من الأوراق، كلها مكتوبة بخط اليد المجهد للعينين نفسه، وبفضل عملى فإنى خبيرة فى قراءة ما استعصى من المخطوطات، لا ينطوى الأمر على سر عظيم للمهنة، بل يؤتى الصبر والممارسة كل المطلوب، ومعهما بصيرة الخبير، فعندما

تقرأ مخطوطة خربتها المياه أو النار أو الضوء أو مرور الزمن، فإن عينيك لا تحتاجان إلى دراسة أشكال الحروف فقط، بل والبصمات الأخرى للكاتب، ذلك مثل سرعة القلم، والإمساك والإفراج فى سريانه، ومقدار ضغط اليد على الصفحة، ولكن بالأساس يجب أن تسترخى وتصفى عقلك، إلى أن تصحو فى حلم تكون فيه قلمًا يحلق فوق ورقة، وتكون أنت الورقة حين تداعبك لمسة الحبر، حينها ستتمكن من قراءة المخطوطة، ستستقرئ نية الكاتب، وأفكاره، ومدى تردده، وما يشتاق إليه، وما يقصده، ستقرؤها بوضوح كما لو كنت ضوء الشمعة المطلة على الصفحة فى حين يمد القلم خطوط الحبر عليها.

ليس الأمر أن هذه الرسالة تضاهى بعض المخطوطات صعوبة، لقد بدأت باقتضاب فظ: "السيدة ليا"، ومن ثمَّ بدأت الطلاسم بتفكيك نفسها سريعًا إلى حروف ثم كلمات ثم جمل.

وهذا ما قرأته:

يومًا ما أجريت مقابلة مع صحيفة "بانبرى هيرالد"، يجب أن أبحث عن تلك المقابلة لتساعد فى كتابة سيرتى الذاتية، أرسلوا إلىَّ شابًا غريبًا، بل فى الواقع، كان فتى طوله طول رجل، لكن جسده ممتلئ كالأطفال، بدا محرجًا ببذلته الجديدة البنية القبيحة، كانت أكبر من سنه كثيراً وتفاصيلها كلها غير مناسبة، ياقتها، وتصميمها، ونسيجها، كانت أشبه بشىء قد تشتريه أم لولد ينهى تعليمه ويبدأ عمله الأول، متصورة أن طفلها سينمو بداخلها بطريقة ما، لكن الصبيان لا يخلعون صبيانيتهم حين يخلعون زيهم المدرسى للمرة الأخيرة.

شىء ما ميز طريقة تصرفه، درجة ما من الحدة، ففى اللحظة التى استقرت فيها عيناى عليه قلت لنفسى: "آه، تُرى عمَّ يبحث؟"

لا أحمل ضغينة تجاه من يحبون الحقيقة، بصرف النظر عن أن صحبتهم مملة، ما داموا لا يشرعون -مثلما يفعل بعضهم- فى الحديث

عـن الـسرد القصـصى والحقيقـة، فهـذا عـادةً مـا يزعجنـى، ولكـن إن تركونى وشـأنى، لـن أوذيهـم.

لا أتذمـر بشـأن محبـى الحقيقـة، بـل الحقيقـة نفسـها، فـماذا تقـدم الحقيقـة مـن عـون وعـزاء إن قارنًاهـا بقصـة؟ ومـا نفـع الحقيقـة فى ظـلام منتصـف الليـل، حـين تسـمعين صـدى الريـاح فى المدفـأة مثـل الـدب؟ وحـين يـضرب ضـوء الـبرق حائـط غرفـة نومـك، وينقـر المطـر النافـذة بأظفـاره الطويلـة؟ حـين يصنـع الخـوف والـبرد منـك تمثـالاً عـلى سريـرك، لا تنتظـرى مـن الحقيقـة الجوفـاء الهزيلـة أن تهـرع لإنقـاذك، بـل إن الراحتـين الغضتـين للقصـة هـما مـا تحتاجـين إليـه، إنهـا السـلامة المريحـة المهدهِـدة التـى تقدمهـا الكذبـة.

بالتأكيـد لا يحـب بعـض الكتـاب المقابـلات، يضيـق صدرهـم بهـا ويتذمـرون قائلـين: "إنهـا الأسـئلة المكـررة نفسـها"، ولكـن مـاذا يتوقعـون؟ فالمراسـلون مبتذلـون، لكـن نحـن -الكُتـاب- أصحـاب القيمـة الحقيقيـة، وإن طرحـوا دائمًـا الأسـئلة نفسـها، فهـذا لا يعنـى أننـا يجـب أن نقـدم الإجابـات نفسـها، أليـس كذلـك؟ أقصـد بهـذا اصطنـاع القصـص، إنـه مـا نفعلـه لكسـب العيـش، لـذا فإننـى أُجـرى عـشرات المقابـلات سـنويًا، وأجريـت مئـات المقابـلات عـلى مـدار حيـاتى، لأننـى لم أصـدق قـط أن العبقريـة يجـب أن تُخفـى لتتقـد، فعبقريتـى ليسـت بالـشىء الهـش لدرجـة أن ينكمـش خوفًـا مـن أصابـع الصحفيـين القـذرة.

فى الأعـوام المبكـرة مـن مسـيرتى اعتـادوا محاولـة اللحـاق بى، فيتحـرون ويأتـون بجـزء بسـيط مـن الحقيقـة فى جيوبهـم، ويبسـطونه فى لحظـة مواتيـة آملـين إدهـاشى حتـى أكشـف المزيـد، اضطـرنى ذلـك إلى الحـذر، فكنـت أسـوقهم ببطء نحـو الاتجـاه الـذى أريـده لهـم، وأسـتخدم طُعمـى لأسـتدرجهم بلطـف نحـو قصـة أجمـل مـن التـى تطلعـوا إليهـا، إنهـا عمليـة دقيقـة، وفى نهايتهـا تبـدأ أعينهـم فى اللمعـان، وترتخـى قبضتهـم

علـى قصاصـة الحقيقـة، إلى أن تسـقط مـن أيديهـم إلى بـئر التجاهـل، لم يفشـل هـذا الأسـلوب قـط، فالقصـة الجيـدة دائمًـا أكـثر إبهـارًا مـن قصاصـة الحقيقـة.

بعـد ذلـك وبمجـرد أن أصبحـت مشـهورة، أصبحـت مقابلة "فيـدا وينتر" علـى نحـو مـا تعميـدًا للصحفـى، فقـد عرفـوا مـا يجـب أن يتوقعـوه، وكانوا يحبطـون إن غـادروا دون قصـة، يمـرون سريعًـا بالأسـئلة العاديـة (مـا مصـادر إلهامـك؟ هـل تبنـين شـخصيات قصصـك علـى أشـخاص حقيقيـين؟ كـم بطـلاً مـن رواياتـك يمثلونـك شـخصيًّا؟) وكلـما كانـت إجاباتى علـى تلـك الأسـئلة أقـصر، أعجبتهـم أكـثر (عقـلى: لا، لا أحـد منهـم)، ثـم يـأتى الجـزء الـذى كانـوا ينتظرونـه ومـا أتـوا مـن أجلـه بالأسـاس، تعلـو وجوههـم نظـرة حالمـة منتظِـرة، كانـوا مثـل الأطفـال فى موعـد نومهـم، فيقـول أحدهـم: "وأنـت يـا سـيدة (وينـتر)، أخبرينـى بشـأنك".

فأخبرهـم، كانـت قصصًـا بسـيطة صغـيرة حقًّـا، لا تعنـى الكثـير، فقـط بعـض الخيـوط المنسـوجة معًـا لتشـكل تصميـمًا جميـلاً، فـآتى بعنـصر مميـز مـن هنـا، وقطعتـى ترتـر مـن هنـاك، إنهـا مجـرد بقايـا فى قـاع كيـس أقمشـة قديمـة، ولـدى مئـات غيرهـا، إنهـا قصاصـات مـن روايـات وقصـص وحبـكات لم أُنهِهـا، وشـخصيات ولـدت ميتـة، وأماكـن رائعـة لم أجـد لهـا اسـتخدامًا مـن قبـل، وصـدف ونهايـات حذفهـا المحـررون، حينئـذ يصبـح كل المتبقـى ترتيـب الحـواف، وحياكـة النهايـات لتصبـح جاهـزة، إنهـا سـيرة ذاتيـة جديـدة تمامًـا.

غـادروا فرحـين، تتشـبث أياديهـم بدفاترهـم كفعـل الأطفـال بالحلـوى فى نهايـة حفـل عيـد ميـلاد، سـيحكون هـذا لأحفادهـم: "فى يـوم مـن الأيـام قابلـت (فيـدا وينـتر)، وحكـت لى قصـة".

ولكـن الفتـى مـن صحيفـة "بانـبرى هيرالـد" قـال لى: "سـيدة وينـتر، أخبرينـى الحقيقـة"، وتعجبـت لهـذا الرجـاء! لقـد رأيـت أشـخاصًا يدبـرون

جميع أشكال الحيل لخداعي حتى أحكي، وأستطيع كشف هؤلاء من بُعد كيلومترات، لكن ما هذا؟! إنه مثير للضحك، ماذا توقع أن يسمع؟!

هذا سؤال جيد، ماذا توقع أن يسمع؟ كانت عيناه تلمعان بما يقصد، لقد راقبني من كثب باحثًا متحققًا، كان يسعى وراء شيء محدد جدًّا، كنت متأكدة من ذلك، رطّب العرق جبينه، ربما كانت تلك بداية إعياء، لكنه طلب مني أن أخبره الحقيقة.

راودني شعور داخلي غريب، كأنه الماضي يحيا مجددًا، كأن أشباح حياة ماضية تعبث ببطني، تُحفز موجة لتجتاح عروقي، وترسل مويجات باردة لتحتضن رأسي، الأمر يبث بي حماسًا مخيفًا.

لكنني فكرت في طلبه، قلّبت الأمر في بالي وحسبت العواقب المحتملة، لقد أزعجني هذا الفتى بوجهه الشاحب وعينيه المتقدتين.

قلت: "حسنًا".

بعد ساعة كان قد رحل، كان وداعًا باهتًا بعقل شارد وبلا التفات إلى الوراء.

لم أخبره الحقيقة، كيف يمكنني ذلك؟ لكنني حكيت له قصة، كانت قصة صغيرة فقيرة تعاني سوء التغذية، بلا بريق ولا قطع ترتر، لا شيء بها سوى رقع باهتة ومملة، مثبتة معًا بأطراف بالية، إنه نوع القصص الذي يشبه الحياة الحقيقية، أو ربما ما يتخيل الناس أنه الحياة الحقيقية، والاختلاف بينهما كبير، ليس من السهل على شخص بموهبتي أن يأتي بقصة مثل هذه.

راقبته من النافذة، كان يجر قدميه مبتعدًا، وكتفاه منحنيتان ورأسه يتدلى ويخطو الخطوة بجهد بالغ، اختفت كل تلك الطاقة

والحماس والحيوية، لقد قتلتها، ليس الأمر أننى أتحمل كل اللوم، فقد كان حريًا به ألا يصدقنى.

لم أره مجددًا أبدًا.

الشعور الذى راودنى، والموجة التى ببطنى، والمويجات برأسى وأطراف أصابعى، كل ذلك لازمنى لفترة بعدها، هاج الشعور وهدأ بتذكرى لكلمات الفتى، أخبرينى الحقيقة، قلت: "لا" مرارًا وتكرارًا، لكنه لا يهدأ، كنت ألهى نفسى فقط، وكان هذا الشعور راية حمراء، وفى النهاية عقدت اتفاقًا، قلت: "ليس بعد"، تنهد الشعور، وتململ، لكنه فى النهاية هدأ وسكن، هدأ للغاية لدرجة أنى ظننت نفسى نسيته.

كان ذلك منذ زمن بعيد، منذ ثلاثين عامًا؟ أربعين؟ ربما أكثر، الوقت يمر أسرع مما تتصورين.

جال ذاك الفتى ببالى مؤخرًا، "أخبرينى الحقيقة"، وراودتنى مؤخرًا هذه التقلبات الداخلية الغريبة، هناك شىء ينمو بداخلى وينقسم ويتكاثر، أشعر به فى بطنى، إنه دائرى وصلب وبحجم ليمونة، يسحب الهواء من رئتى، وينخرعظامى، لقد غيَّره السكون الطويل، من الوداعة والانصياع إلى التسلط، إنه رافض لكل أشكال التفاوض ويصد النقاش، ويصر على نيل حقوقه، لن يقبل بالرفض إجابةً، إنها الحقيقة تنادى على الفتى ويتردد صداها، وتراقب ظهره المبتعد، ثم تلتفت إلى، فتطبق بثقلها على أحشائى وتَقود انقلابًا، لقد عقدنا اتفاقًا، أتذكرين؟

والآن، لقد حان الوقت.

تعالى يوم الاثنين، سأرسل سيارة لتقلك من محطة "هاروجيت" حين وصولك فى الرابعة والنصف.

كـم بقيـت جالسـة عـلى السـلم بعـد قـراءة هـذه الرسـالة؟ لا أعـرف، لأننـى كنـت مأسـورة بسـحر مـا، شىء مـا يتلبّـس الكلـمات، فهـى تـأسرك حـين تنظمهـا يـدان خبيرتـان بالتلاعـب، تلتـف حـول أطرافـك كخيـوط العنكبـوت، وحـين تكـون مأسـورًا بالسـحر لدرجـة العجـز عـن الحركـة، تخـترق جلـدك، وتـسرى بدمـك، وتخـدر أفـكارك، وتبـث تعاويذهـا داخلـك، لمـا انتبهـت لنفـسى أخـيراً، لم يسـعنى إلا أن أدرك مـا كان يـدور فى ظـلام لاوعيـى، مـاذا فعلـت بى الرسـالة؟

أعـرف القليـل عـن "فيـدا وينـتر"، كنـت عـلى علـم بالألقـاب العديـدة التـى تلحـق عـادة باسـمها: الكاتبـة الأكـثر شـعبية فى إنجلـترا، و"ديكنـز" القـرن الحـالى، وأوسـع المؤلفـين الأحيـاء شـهرة فى العـالم، ومـا إلى ذلـك، كنـت أعـرف بالتأكيـد أن لهـا شـعبية كبـيرة، ومـع ذلـك تفاجـأت حـين بحثـت لاحقًـا عـن أرقـام مبيعاتهـا، نـشرت سـتة وخمسـين كتابًـا فى سـتة وخمسـين عامًـا، وتُرجمـت كتبهـا إلى تسـع وأربعـين لغـة، وحصلـت عـلى لقـب مؤلفـة الكتـب الأكـثر اسـتعارة فى مكتبـات إنجلـترا سـبعًا وعشريـن مـرة، وبُنيـت أحـداث تسـعة عـشر فيلـمًا عـلى رواياتهـا، والسـؤال الأوسـع إثـارة للجـدل مـن الناحيـة الإحصائيـة هـو: هـل باعـت نسـخًا أكـثر مـن الكتـاب المقـدس؟ ولا تكمـن الصعوبـة كلهـا فى حسـاب عـدد النسـخ التـى باعتهـا (فهـو رقـم بالملايـين دائـم التغـير)، بـل فى اسـتحالة تحديـد عـدد مؤكـد لنسـخ الكتـاب المقـدس المبيعـة، فأيًّـا كان موقفـك مـن كلـمات الـرب، تفتقـد بيانـات مبيعاتهـا أى أسـاس قـوى، ولكـن الرقـم الـذى ربمـا اعتبرتـه أكـثر أهميـة فى أثنـاء جلـوسى عـلى درجـة السـلم الأخـيرة كان اثنـين وعشريـن، هـذا عـدد كُتّـاب السـير الذاتيـة الذيـن قنعـوا بالكـف عـن محاولـة كشـف حقيقتهـا، تنوعـت الأسـباب بـين غيـاب المعلومـات، أو غيـاب الشـجاعة، أو بسـبب الإغـراءات أو التهديـدات مـن جانـب السـيدة "وينـتر" نفسـها، لكننـى لم أكـن أعلـم أيًّـا مـن هـذا حينهـا، لقـد عرفـت

حقيقـة واحـدة حينهـا، وبـدا أنهـا الأكـثر أهميـة: كـم مـن كتـب "فيـدا وينـتر" قـرأت أنـا "مارجريـت ليـا"؟ صفـر.

انتابتنـى القشـعريرة وأنـا جالسـة عـلى السـلم، وتثاءبـت ومـددت جسـدى، لأعـود إلى ذاتى وأجـد أن أفـكارى أُعيـد ترتيبهـا فى غيبتـى، وقـد بـرز مشـهدان وسـط البقايـا المهمَلـة التـى غطـت ذاكـرتى.

كان الأول مشـهدًا قصـيرًا مـع والـدى فى المتجـر، كنـا نفـرغ صنـدوق كتـب وَرد إلينـا بعـد تصفيـة مكتبـة خاصـة، وقـد حـوى عـددًا مـن أعـمال "فيـدا وينـتر"، لا نتعامـل فى متجرنـا بكتـب الخيـال المعاصر، فقلـت لوالدى: "سـآخذها إلى المتجـر الخـيرى فى سـاعة الغـداء"، وتركتهـا بجانـب المكتـب، لكـن قبـل انقضـاء الصبـاح كانـت ثلاثـة مـن الكتـب الأربعـة قـد اختفـت، لقـد بيعـت، واحـد بيـع لقـس، والثـانى لرسـام خرائـط، والثالـث لمـؤرخ عسـكرى، بـدت وجـوه زبائننـا -بالشـحوب الخارجـى والتوهـج الداخـلى المعتاديـن لـدى محبـى الكتـب- متقـدة حـين رأوا الألـوان الغنيـة لأغلفـة الكتـب، وبعـد الغـداء، حـين انتهينـا مـن التفريـغ والتصنيـف والتعليـق عـلى الرفـوف، وانقطـع تدفـق الزبائـن، جلسـنا نقـرأ كالعـادة، إنهـا أواخـر الخريـف والسـماء تمطـر والنوافـذ ضبابيـة ونحـن نسـمع فى الخلفيـة حسـيس مدفـأة الغـاز، نسـمع الصـوت ولا ندركـه، ونجلـس متجاوريـن وبيننـا أميـال، كل منـا مسـتغرق فى كتابـه.

أصحو من استغراقى لأسأل: "هل أعد الشاى؟"

ولا أجد إجابة.

فأعد الشاى على أيّة حال، وأضع الكوب بجواره على المكتب.

بعـد سـاعة كان الشـاى الـذى لم يمسسـه قـد بـرد، فأعـد إبريـق شـاى جديـدًا وجلـب كوبًـا آخـر تعلـوه الأبخـرة إلى جانـب والـدى عـلى المكتـب، إنـه غـير واع بـأى مـن حـركاتى.

أميل الكتاب الذى بين يديه برفق حتى أرى الغلاف، إنه كتاب "فيدا وينتر" الرابع، فأعيد الكتاب إلى موقعه الأصلى، وأتمعن فى وجه والدى، لا يسمعنى ولا يرانى، إنه فى عالم آخر، وأنا شبح.

كانت تلك الذكرى الأولى.

أما الثانية فكانت صورة، صورة جانبية لوجه، منحوتة بكثافة بالظل والنور، ويطل الوجه على المسافرين المنتظرين المتقزمين تحته، إنها مجرد صورة دعائية ملصقة على لوحة إعلانات بمحطة القطار، ولكن عقلى يرى فيها الفخامة المثيرة للإعجاب لدى الملكات المنسيات، والآلهة التى نحتتها الحضارات القديمة فى الصخر، الرسم الفاتن للعينين، والامتداد الواسع والسلس لعظمتى الوجنتين، ورسم عظمة الأنف بنسب لا يشوبها خطأ، لا يؤدى تأمل كل هذا إلا إلى الاندهاش من أن عشوائية التنوع البشرى يمكن أن تنتج شيئًا بمثل هذا الكمال الخارق، مثل هذه العظام، التى سيكتشفها علماء الآثار فى المستقبل، وستبدو لهم من صنع الإنسان، إنها قمة السعى الفنى الإنسانى، وهى ليس نتيجة لطبيعة تُزخرف بلا حس، أما البشرة التى تغلف هذه العظام المميزة، فإن لها لمعانًا عاتمًا كالمرمر، ومع ذلك فإنها تبدو باهتة إلى جوار خصلات الشعر النحاسية الملتوية، المرتبة بهذه الدرجة من الدقة عند الصدغين وصولاً إلى الرقبة القوية الأنيقة.

وفوق كل هذا الجمال المفرط توجد العينان، كأنه غير كاف، لونهما مكثف بفعل حيلة تصويرية ما ليكون أخضر غير بشرى، إنها درجة الأخضر التى تراها فى زجاج الكنائس، أو الزمرد، أو حلوى السكر، أرى العينين تحملقان بعيدًا أعلى رءوس المسافرين على نحو مثالى من اللاتعبير، لا أجزم بأن المسافرين الآخرين شعروا بما أثارته الصورة بداخلى، لقد قرؤوا الكتب وربما تكون لديهم رؤية مختلفة، لكن من منظورى، وأمام هاتين العينين الخضراوين الكبيرتين، لم يسعنى سوى

تذكر التعبير الشائع عن أن العينين بوابة الروح، وأتذكر أننى حينها، وأنا أحملق فى العينين الخضراوين اللتين لا تريان، فكرت فى أن هذه المرأة بلا روح.

كان هذا هو مدى معرفتى بـ"فيدا وينتر" حتى ليلة الرسالة، لم أعرف الكثير عنها، لكن عند التفكير في الأمر، ربما هذا هو كل ما يعرفه الآخرون أيضًا، ومع أن الكل عرف "فيدا وينتر" -اسمها، ووجهها، وكتبها- لم يعرفها أحد حقًّا، فهى مشهورة بأسرارها مثلما هى مشهورة بقصصها، إنها لغز مثالى.

إن كنت سأصدق الرسالة، فإن "فيدا وينتر" تريد الآن أن تحكى حقيقتها، وهذا، فى حد ذاته، أمر مثير للفضول، لكن الأكثر إثارة منه كان فكرتى التالية: لماذا تريد أن تحكيها لى؟



قصة "مارجريت"

أصعد السلم وأخطو نحو ظلام المتجر، لم أحتج إلى الضوء لأجد طريقى، إذ أعرف خريطة المتجر مثلما تحفظ أماكن طفولتك، تبث رائحة الجلد والأوراق القديمة السكينة على نحو لحظى، أمرر أطراف أصابعى بامتداد كعوب الكتب كعازف البيانو، لكل كتاب نوتته الخاصة المميزة: الكعب المحبب المغلف بالكتان لكتاب "تاريخ رسم الخرائط" لـ"دانيلز"، والجلد المشروخ لمحضر اجتماع أكاديمية رسامى الخرائط بسان بطرسبرج لكاتبه "لاكيونين"، ومغلف متهالك يحوى خرائطه المرسومة والملونة باليد، يمكنك أن تعصب عينى وتتركنى بأى مكان فى أدوار المتجر الثلاثة، وسأعرف مكانى بتمرير أصابعى على الكتب.

نرى بضعة زبائن فى متجر الكتب الخاص بـ"ليا"، نصف دستة هزيلة من الزبائن يوميًا فى المتوسط، لكن سبتمبر يجلب موجة من النشاط حين يأتى الطلاب لشراء نسخ من النصوص الدراسية للعام الجديد، ويشهد مايو موجة أخرى حين يردون تلك النسخ بعد

الاختبارات، يصف والدى تلك الكتب بالمرتحِلة، وفى أوقات أخرى من العام يمكن أن تمر أيام بلا زبون واحد، أما الصيف فيجلب لنا السائح الغريب الذى ساقته قدماه إلى خارج طريقه وداخل متجرنا، والذى يدفعه فضوله إلى الخروج عن أشعة الشمس ودخول متجرنا، حيث يقف لبرهة ويرمش لتتكيف عيناه مع الضوء الداخلى، وقد يبقى فى متجرنا من أجل بعض من الظل والهدوء أو لا، حسب مدى ضجره من تناول المثلجات ومراقبة القوارب فى النهر، أما الزوار الأكثر ترددًا علينا فهم من سمعوا عنا من صديق، حين يجدون أنفسهم قرب "كامبريدج" فيميلون عن قصد إلى عطفتنا، هؤلاء يعلو وجوههم الترقب مع دخولهم المتجر ويعتذرون قليلاً لإزعاجنا، إنهم لطفاء وهادئون وودودون كالكتب نفسها، ولكن فى غالب الأوقات يكون الوالد وأنا والكتب، فقط.

فكيف تلبى الكتب احتياجاتنا؟ قد يدور ببالك هذا السؤال إن لاحظت قلة عدد الزبائن المترددين، ولكن المتجر من الناحية المالية لا يمثل إلا عملاً إضافيًا، والعمل الأساسى يحدث فى مكان آخر، فنحن نكسب عيشنا اعتمادًا ربما على ست معاملات تجارية سنويًا، هكذا يتم الأمر: الوالد يعرف جميع جامعى الكتب العظماء فى العالم، ويعرف أعظم مجموعات الكتب فى العالم، إن رأيته فى المزادات أو معارض الكتب التى يحضرها بانتظام، ستلاحظ تكرار أن يقترب منه أشخاص هادئو الصوت والملبس ليطلبوا كلمة على انفراد، أعينهم تشى بكل ما هو غير هادئ، فيسألونه إن كان على علم بشىء ما، أو إن كان قد سمع من قبل بكذا، عند ذلك يذكرون كتابًا، يجيب الوالد بغموض، الأمر غير مبشر، وعادة لا تثمر هذه المقابلات شيئًا، لكن على الجانب الآخر، إن كان قد سمع عن كتاب السائل، وإن كان لا يملكه بالفعل، فإنه يسجل عنوان السائل فى دفتر أخضر صغير، ثم لا يحدث شىء لفترة، لكن لاحقًا -بعد أشهر قليلة أو كثيرة، لا نعلم

تحديدًا- فى مزاد أو معرض آخر، يرى شخصًا آخر، ويسأل مجددًا عن الكتاب بأسلوب متردد جدًّا، وفى الغالب ينتهى الأمر هنا، لكن أحيانًا بعد تلك المحادثات قد يحدث تبادل للرسائل، إذ يقضى الوالد وقتًا طويلاً فى كتابة الرسائل بالفرنسية والألمانية والإيطالية أو حتى باللاتينية أحيانًا، وفى تسع مرات من كل عشرة، يكون الرد رفضًا مهذبًا من سطرين، لكن أحيانًا -ست مرات سنويًّا- يكون الرد مقدمة لرحلة يستلم فيها الوالد كتابًا من هنا، ويسلمه هناك، نادرًا ما يسافر لمدة تزيد على 48 ساعة، هذه المرات الست هى سبيل معاشنا.

لا يحقق المتجر نفسه أى أموال تقريبًا، إنه مكان للكتابة واستقبال الرسائل، مكان لانتظار المعرض الدولى المقبل، يرى مدير المصرف الذى نتعامل معه فى هذا تساهلاً، لكنه تساهل استحقه والدى بفضل نجاحه، لكن فى الواقع -واقع والدى وواقعى، فلا أدعى أن الجميع يرى الواقع نفسه- يمثل المتجر قلبًا لعلاقتنا، إنه مستودع للكتب، ومكان آمن لجميع الكتب، التى كُتبت سابقًا بحب شديد، لكن يبدو ألا أحد يريدها الآن.

وهو مكان للقراءة.

تعلمت الأبجدية فى هذا المتجر، (أ) أوستن، (ب) برونتى، (ج) جاسكل، (د) ديكنز، يتجول والدى بطول الرفوف، وأنا بين ذراعيه، يشرح لى الأبجدية فى حين يعلمنى النطق، تعلمت الكتابة هناك أيضًا، إذ كنت أنسخ أسماء مؤلفين وكتب على بطاقات الفهرسة، والتى لا تزال موجودة فى صندوق الإيداع لدينا حتى الآن بعد 30 عامًا، كان المتجر بيتى وعملى، ومدرسة لى أفضل من أى مدرسة ارتدتها، وبعدها كان جامعتى الخاصة جدًّا، لقد كان حياتى.

لم يدسس والدى قط أى كتاب فى يدى، ولم يمنعنى عن أى كتاب، بل كان يدعنى أتجول وأحملق لأقرر تفضيلاتى الخاصة الملائمة إلى حد

مـا، قـرأت حكايـات دمويـة عـن البطولـة التاريخيـة التـى أعتبرهـا آبـاء القـرن التاسـع عـشر مناسـبة للأطفـال، وقصـص الأشـباح القوطيـة التـى بالتأكيـد لم تكـن مناسـبة للأطفـال، قـرأت حكايـات عـن رحـلات شـاقة عـبر أراض غـادرة قامـت بهـا عوانـس يرتديـن تنانـير منتفخـة، وقـرأت كتيبـات عـن الليـاقـة والإتيكيـت موجهـة للشـابات ذوات الحسـب والنسـب، وقـرأت كتبًـا بهـا صـور، وكتبًـا بـلا صـور، وكتبًـا بالإنجليزيـة والفرنسـية، وكتبًـا بلغـات لم أفقههـا، فكنـت أختلـق قصصًـا بنـاء عـلى بضـع كلـمات أخمـن معانيهـا، كنـت غارقـة وسـط الكتـب.

طـوال أعـوام دراسـتى أبقيـت كل قـراءة المتجـر هـذه لنفسـى، فقـد وجـد بعـض الفرنسـية المهجـورة التـى تعلمتهـا مـن كتـب القواعـد القديمـة طريقـه إلى مقـالاتى المدرسـية، لكـن المعلمـين اعتـبروه أخطـاءً إملائيـة، ومـع ذلـك فإنهـم لم يتمكنـوا أبـدًا مـن إلغائهـا مـن عقـلى، أحيانًـا قـد يمـس درس تاريـخ إحـدى طبقـات المعرفـة العميقـة، والعشـوائية أيضًـا التـى راكمتهـا عـبر القـراءة غـير المنظمـة فى المتجـر، يمـر أمامـى الملـك "شـارلمان"، فأتعجـب سرًّا قائلـة: "(شـارلمان)؟ (شـارلمان) الـذى عرفتـه بالمتجـر؟"، فى مثـل هـذه الأوقـات كنـت ألتـزم الصمـت، مذهولـة مـن التصـادم اللحظـى لعالمـين لم يكونـا ليلتقيـا أبـدًا.

أسـاعد والـدى فى عملـه بـين جـولات قـراءتى، ففـى سـن التاسـعة، سـمح لى بتغليـف الكتـب بـورق بنـى وكتابـة عناويـن زبائننـا الأبعـد، وفى العـاشرة، سـمح لى بأخـذ هـذه الطـرود إلى مكتـب البريـد، وفى الحاديـة عـشرة أرحـت والـدتى مـن دورهـا الوحيـد فى المتجـر: التنظيـف، فكنـت أتـدرع بغطـاء للـرأس ورداء منـزلى فى مواجهـة الأوسـاخ والجراثيـم، والكراهيـة الكامنـة فى الكتـب القديمـة، لقـد اعتـادت أن تمـر عـلى الرفـوف بريشـة إزالـة الأتربـة شـديدة الحساسـية، وتـزم شـفتيها بشـدة محاولـة عـدم استنشـاق الأتربـة، وبـين الحـين والآخـر تثـير الريشـة سـحابة تخيليـة مـن الأتربـة، فكانـت ترتـد عـن الرفـوف وهـى تسـعل، بالطبـع مزقـت

صناديـق الكتـب جواربهـا الطويلـة، إنـه أمـر متوقـع نظـرًا إلى الـشر الكامـن فى بعـض الكتـب، لكـن السـبب الحقيقـى هـو أن تلـك الصناديـق كانـت موجـودة خلفهـا فقـط، فعرضـت عليهـا أن أتـولى تنظيـف الأتربـة، وقـد امتنـت لتخلصهـا مـن تلـك المهمـة، فلـم تعـد بحاجـة إلى الخـروج إلى المتجـر بعـد ذلـك.

حـين بلغـت الثانيـة عـشرة، كلفنـى الوالـد بالبحـث عـن الكتـب المفقـودة، وقـد اعتبرنـا الكتـب مفقـودة عندمـا تكـون متوافـرة فى السـجلات، لكنهـا غـير موجـودة فى مكانهـا الصحيـح عـلى الرفـوف، ربمـا سُرقـت، لكـن المرجـح أكـثر، أن متصفحًـا شـارد الذهـن تركهـا فى المـكان الخطـأ، فقـد كانـت بالمتجـر سـبع غـرف، تصطـف الكتـب بهـا مـن الأرض إلى السـقف، إنهـا آلاف الكتـب.

قال الوالد: "وأنتِ تقومين بذلك، تفقدى الترتيب الأبجدى".

كانـت تلـك مهمـة قـد تسـتغرق أبـد الدهـر، أتسـاءل الآن مـا إذا كان جـادًا تمامًـا فى إيـلائى مثـل هـذه الثقـة حينهـا، ولكـن الحقيقـة أن الإجابـة بالـكاد تهمنـى لأننـى كنـت جـادة فى تـولى المهمـة.

اسـتغرقنى الأمـر صباحـات صيـف كامـل، لكـن فى مطلـع سـبتمبر حـين بـدأت الدراسـة كانـت الكتـب الضائعـة كلهـا قـد رُدت، وعـاد كل كتـاب تائـه إلى موضعـه، ليـس هـذا فقـط، بـل ولامسـت أصابعـى كل كتـب المتجـر، وإن كانـت لمسـة سريعـة، وحـين أتأمـل الآن، أرى أن هـذا أهـم مـا فى الأمـر.

كنـت أقـدم لوالـدى الكثـير مـن المسـاعدة بحلـول مراهقتـى، لدرجـة أن فى عـصر بعـض الأيـام الهادئـة بالـكاد تبقـى لدينـا عمـل حقيقـى لننهيـه، فبمجـرد انتهـاء عمـل الصبـاح، وتسـكين الكتـب الجديـدة بالرفـوف، وكتابـة الرسـائل، وبمجـرد تناولنـا لشـطائرنا عنـد النهـر وإطعـام البـط، كنـا نعـود إلى المتجـر للقـراءة، وبالتدريـج أصبحـت قـراءتى أقـل عشـوائية، ووجـدت

نفسى أعرج أكثر فأكثر على الطابق الثانى، إنه طابق أدب القرن التاسع عشر، والسير الذاتية بأقلام أصحابها أو غيرهم، والمذكرات، واليوميات، والرسائل.

لاحظ والدى اتجاهى فى القراءة، فكان يعود من المعارض ومواسم التخفيضات إلى المنزل ومعه كتب ظن أنها قد تثير اهتمامى، إنها كتب صغيرة مهترئة، غالبها مطبوع بالآلة الكاتبة، وصفحاتها مصفرة ومربوطة معًا بشريط أو خيط، وأحيانًا تكون مربوطة يدويًّا، كتب عن الحياة العادية لأشخاص عاديين، فلم أقرأها فحسب بل كنت أفترسها، ومع أن شهيتى للطعام أخذت فى الضعف، كانت شهيتى للكتب فى ازدياد، كانت تلك بدايات إدراكى لحبى لهذه المهنة.

لست كاتبة سير ذاتية لها اعتبار، فى الواقع أنا بالكاد أعتبر كاتبة سير ذاتية من الأساس، فقد كتبت من أجل متعتى الشخصية عددًا من دراسات السير الذاتية القصيرة عن شخصيات غير بارزة فى تاريخ الأدب، واهتممت دائمًا بكتابة السير الذاتية للخاسرين، الذين عاشوا طوال حياتهم فى ظل الشهرة، وغرقوا فى بئر الغموض بعد موتهم، أحب أن أنبش حياة دُفنت فى دفتر يوميات مهجور لمئة عام أو أكثر على رفوف الأرشيف، وغاية سعادتى أن أبث الحياة فى مذكرات شخصية لم تُطبع منها نسخ جديدة منذ عقود.

بين الحين والآخر تكون كتاباتى مهمة كفاية لتثير اهتمام ناشر أكاديمى محلى، لذا نُشر باسمى عدد قليل من الكتابات، ليست كتبًا وليست شيئًا عظيمًا بل مجرد مقالات، بضع صفحات من الكتابة الرديئة مُدبسة بغلاف ورقى، إحدى مقالاتى عنوانها "إلهام أخوى"، عن الأخوين "لانديير"، "إدموند" و"جول"، واليوميات التى كتباها معًا، لفتت عين محرر تاريخ، وضمها إلى مجموعة مقالات مغلفة بورق مقوى عن الكتابة والأسرة فى القرن التاسع عشر، لا بد أن هذا المقال

هـو مـا لفـت انتبـاه "فيـدا وينـتر" إلىَّ، لكننـى أعتـبر وجـود هـذا المقـال وسـط تلـك المجموعـة شيئًا مضلـلاً، فهـو محـاط بأعـمال أكاديميـين وكتـاب محترفـين، وكأننـى كاتبـة سـير ذاتيـة ذات اعتبـار، رغـم أنى فى الواقـع محبـة للكتابـة، مجـرد هاويـة موهوبـة.

تمثـل قصـص الحيـاة -المنتهيـة- هوايـة لى، إنهـا عمـلى الحقيقـى فى المتجـر، فعمـلى ليـس بيـع الكتـب -هـذه مهمـة والـدى- بـل العنايـة بهـا، وبـين الحين والآخـر أُخـرج مجلـدًا وأقـرأ منـه صفحـة أو اثنتـين، ففـى النهايـة تمثـل القـراءة طريقـة للعنايـة إن جـاز التعبـير، وهـذه الكتـب ليسـت قديمـة كفايـة لتكتسـب أهميتهـا لقدمهـا فقـط، وليسـت مهمـة كفايـة ليسـعى وراءهـا جامعـو الكتـب، لكنهـا عزيـزة عـلىَّ حتـى وإن كان محتواهـا -كـما هـى الحـال فى غالبهـا- ممـلاً كغلافهـا، لا يهمنـى مـدى ابتـذال المحتـوى، فالكتـب دائمًـا بهـا مـا يمسـنى، لأن أحدهـم ظـن فى وقـت مـا أن هـذه الكلـمات مهمـة كفايـة لدرجـة أن يدوّنهـا.

يختفـى النـاس حـين يموتـون، وتذهـب معهـم أصواتهـم وضحكاتهـم ودفء أنفاسـهم ولحمهـم وشـحمهم، وفى النهايـة عظامهـم، وتنتهـى ذاكرتهـم الحيـة، وهـذا مخيـف وطبيعـى فى آن واحـد، ولكـن هنـاك استثناء للبعـض مـن هـذا الفنـاء، لأنهـم يعيشـون فى مـا أنتجـوه مـن كتـب، فيمكـن أن نعيـد اكتشـافهم، واكتشـاف حسـهم الفكاهـى ونـبرة أصواتهـم وأمزجتهـم، وبكلماتهـم يمكنهـم إغضابـك أو إسـعادك أو طمأنتـك، أو حتـى إربـاكك، يمكنهـم التأثـير فيـك، كل هـذا عـلى الرغـم مـن أنهـم أمـوات، ومثلـما تُحفـظ حـشرة داخـل قطعـة كهرمـان، أو تُحفـظ الجثـث فى الثلـج، ويُفـترض وفـق قوانـين الطبيعـة أنهـا بذلـك قـد رحلـت، تحفـظ معجـزة الحـبر عـلى الـورق أصحابهـا، ذلـك مـن ضروب السـحر.

ومثلـما يرعـى أحدهـم قبـور المـوتى أرعـى أنـا الكتـب، أنظفهـا وأصلـح هيكلهـا قليـلاً وأحفظهـا فى حالـة جيـدة، وأفتـح يوميًـا مجلـدًا أو اثنـين،

أقرأ بعض السطور أو الصفحات وأتيح لأصوات الموتى المنسيين بعض الصدى داخل عقلى، أيشعر هؤلاء الموتى المنسيون بكتبهم حين تُقرأ؟ أيمد ذلك شعاع ضوء ليؤنس وحشتهم؟ أتحرك نسمة أرواحهم حين يقرأ عقل آخر ما دار بعقولهم؟ آمل ذلك، فلا بد أن فى الموت أشد الوحشة.

مع أننى تعرضت هنا لبعض مما يشغل بالى على نحو سرى للغاية، ما زلت أرى أننى أتجنب الأمر الأهم، فأنا لست معتادة على تعرية أفكارى، بل يبدو أننى حتى أدفع نفسى إلى تجاوز تحفظى المعتاد، كتبت كل وأى شىء لأتجنب كتابة الأمر الوحيد المهم.

ومع ذلك فإننى سأكتبه، "الصمت ليس البيئة الطبيعية للقصص"، بحسب ما أخبرتنى السيدة "وينتر"، "إنها بحاجة إلى الكلمات، ومن دون الكلمات تزداد القصص شحوبًا وتمرض وتموت، ثم تطاردك".

إنها محقة، لذا إليكم قصتى.

كانت سنى عشرة أعوام حين اكتشفت السر الذى كانت أمى تخفيه، وسبب أهميته هو أنه لم يكن متعلقًا بها، بل بى.

كان والداى خارج المنزل فى ذلك المساء، لم يعتادا الخروج، لكن حينما يخرجان، كانا يبعثاننى لأجلس فى مطبخ جارتنا السيدة "روب"، كان منزل جارتنا مثل منزلنا تمامًا لكنه معكوس، وذلك الانعكاس كان يشعرنى بدوار البحر، لذا كنت كلما أراد والداى الخروج مساءً أجادلهما بأننى كبيرة وواعية كفاية ليتركانى فى المنزل بلا جليسة أطفال، لم تكن توقعاتى للنجاح كبيرة، لكن فى تلك المرة وافق والدى، وسمحت والدتى لنفسها بالاقتناع، فقط على شرط أن تأتى السيدة "روب" لتطمئن علىَّ فى الساعة الثامنة والنصف.

تركا المنزل فى الساعة السابعة، واحتفلت بصب كوب من الحليب وشربه على الأريكة، وكلى إعجاب بعظمتى، أصبحت "مارجريت ليا"

كبيرة كفاية لتبقى فى المنزل بلا جليسة، وبعد شرب الحليب شعرت بملل غير متوقع، ماذا أفعل بهذه الحرية؟ فانطلقت فى جولة لأحدد مساحة حريتى الجديدة، غرفة الطعام، الممر، مرحاض الطابق السفلى، كل شىء كان مثلما كان دائمًا، وبلا أى سبب محدد، تذكرت أحد مخاوف طفولتى المرتبطة بحكاية "الذئب والخنازير الثلاثة"، فكان الذئب يقول: "سأنفخ بقوة وسأهدم منزلكم!" وما كان الذئب ليواجه أى مشكلة فى أن ينفخ ويهدم منزل والدىّ، فالغرف الفسيحة الباهتة أضعف من أن تقاوم، والأثاث الهش سينهار مثل كومة من عيدان الثقاب إن فكر ذئب فى هذه الخطوة، نعم، ذلك الذئب سيهدم المنزل بنفخة فقط، وسيصبح ثلاثتنا وجبة له فى الحال، حينها بدأت أتمنى لو كنت فى المتجر، حيث لم أخف أبدًا، يمكن للذئب أن ينفخ بكل ما أوتى من قوة، فبوجود كل هذه الكتب التى تضاعف سمك الجدران، سأكون ووالدى بمأمن كما لو كنا فى حصن.

أمعنت النظر فى مرآة الحمام بالطابق العلوى، كان ذلك من أجل الاطمئنان، لأرى كيف سأبدو حين أكون بالغة، أملت رأسى يسرة ويمنة، ودرست انعكاسى من جميع الزوايا، منتظرة أن أرى شخصًا آخر، لكننى لم أرَ غيرى يحملق إلى انعكاسى.

لم تبث غرفتى أى أمل فى إنقاذ الموقف، فأنا أعرف كل تفاصيلها وهى تعرفنى، جعلنا ذلك رفيقتين مملتين، لذا فضّلت أن أدفع باب غرفة الضيوف، بدت خزانة الثياب معدمة التفاصيل وطاولة الزينة العارية مؤيدتين لفكرة أننى يمكننى تمشيط شعرى وتغيير ملابسى هنا، لكننى على نحو ما أدرك الخواء الكامن وراء هذه الأبواب والأدراج، كذا لم يبد السرير مرحِّبًا، بملاءته المشدودة للغاية وبطانياته المطوية بعناية، وبدت الوسادات الضئيلة كما لو أن الحياة قد مُنعت عنها، أطلقنا على هذه الغرفة دائمًا "غرفة الضيوف"، لكننا لم نستقبل قط أى ضيوف، بل كانت والدتى تنام بها.

وأمام تحيرى انسحبت من الغرفة ووقفت على السُلم.

هـذا يكفـى، إنـه طقـس التعميـد، أن أبقـى فى المنـزل وحـدى، فأنـا أنضـم بهـذا إلى صفـوف الأطفـال البالغـين، وغـدًا فى سـاحة اللعـب يمكننـى القـول إننـى بالأمـس لم أحتـج إلى جليسـة، وبقيـت فى المنـزل وحـدى، سـتُذهل الفتيـات الأخريـات، لقـد أردت هـذا منـذ زمـن، والآن بعدمـا بلغتـه، لم أعـرف مـاذا أفعـل بـه، توقعـت أننـى سأنبسـط تلقائيًّـا إلى أن تلائمنـى التجربـة، وأننـى سـأرى لمحـة عـن الشـخص الـذى قُـدر لى أن أكونـه، توقعـت مـن العـالم أن يتخلـى عـن مظهـره الطفـولى المألـوف، وأن يرينـى أسراره ووجهـه الآخـر الخـاص بالبالغـين، ولكـن بـدلاً مـن ذلـك، كان استقلالى الجديـد أكـبر منـى، شـعرت بأننـى أصغـر مـن أى وقـت مـضى، أكان بى خطـب مـا؟ هـل سـأعرف قـط كيـف أكـبر؟

غازلتنـى فكـرة أن أمـر بالسـيدة "روب"، لكـن لا، لـدى مـكان أفضـل، زحفـت إلى أسـفل سريـر والـدى.

تقلصـت المسـاحة بـين الأرض وهيـكل السريـر منـذ آخـر زيـارة لى، وتصلبـت حقيبـة الإجـازات أمـام إحـدى كتفـى، وكان لونهـا فى تلـك الظلمة رماديًّـا مثلـما هـو فى ضـوء النهـار، وقـد حملـت كل لوازمنـا الصيفيـة: النظـارات الشمسـية، وفيلـمًا إضافيًّـا للكامـيرا، وملابـس السـباحة التـى لم ترتدهـا والـدتى قـط، لكنهـا لم تتخلـص منهـا، وعـلى الجانـب الآخـر يوجـد صنـدوق مـن الـورق المقـوى، تحسسـت يـداى جـدران الصنـدوق المموجة، ووجـدت طريقهـا لتنقـب بداخلـه، إنهـا أسـلاك أضـواء شـجرة عيـد الميـلاد المتشـابكة، ويغطـى ريـش المسـند الأرضى الخـاص بالشـجرة، أتذكـر أن فى آخـر زيـارة لى هنـا كنـت أصـدق وجـود "سـانتا"، لكننـى أقلعـت عـن ذلـك، أهـذا نـوع مـن البلـوغ؟

وأنـا أتلـوى فى طريقـى للخـروج مـن تحـت السريـر، حركـت صفيحـة بسـكويت قديمـة، إنهـا أمامـى تطـل بنصفهـا مـن تحـت كشكشـة سـتارة

قصيرة، تذكرت علبة القصدير، لقد كنت هناك دائمًا، إنها صعبة الفتح وعلى غطائها صورة لصخور وأخشاب التنوب الإسكتلندية، حاولت بشرود أن أرفع الغطاء، فأستسلم سريعًا لأصابعي بعدما أصبحت أكبر وأقوى حتى إنني ذُهلت قليلاً، وجدت بالداخل جواز سفر والدي وأوراقًا متنوعة مختلفة الأحجام، واستمارات أجزاء منها مطبوعة وأخرى مكتوبة، وتوقيعات هنا وهناك.

أن أرى شيئًا معناه أن أقرأه، هكذا اعتقدت دومًا، نفضت الغبار وأنا أتصفح الوثائق، إنها وثيقة زواج والديّ، وشهادتا ميلادهما، وشهادة ميلادي، وكتابة حمراء على ورقة صفراء وعليها توقيع والدي، طويتها مجددًا بعناية ووضعتها مع الوثائق الأخرى التي قرأتها وانتقلت إلى الوثيقة التالية، لكنهما كانتا متطابقتين، ما حيرني بعض الشيء، لماذا استخرجا لي شهادتي ميلاد؟

قرأتها، تتطابق الشهادتان في اسم الأب واسم الأم وتاريخ ومحل الميلاد، لكن الاسمين مختلفان.

ماذا حدث لي في تلك اللحظة؟ تفكك رأسي وتشابك مجددًا بشكل مختلف، كان ذلك أشبه بحركة المشكال.

أنا لي أخت توأم.

تجاهلت الجلبة الواقعة بدماغي، وفتحت أصابعي الفضولية ورقة ثانية.

إنها شهادة وفاة.

ماتت توأمي.

الآن فقط عرفت ما عابني.

مع أن هذا الاكتشاف أشعرني بالخدر، فإنني لم اتفاجأ، لقد راودني دائمًا شعور ما، وعرفت دائمًا أن هناك خطبًا ما، وقد بدا الاكتشاف مألوفًا جدًّا لدرجة أنني لم أحتج إلى أن يُقال لي، إنها صفة متغيرة في

الهـواء المحيـط بى، إنــه تكتـل للضـوء، شىء بـدا لى مميـزًا جعـل الخـواء ينبـض بالحيـاة، إنــه ظـلى الشـاحب.

ضغطــت بيــدى عــلى جانبــى الأيمــن، وأدرت رأسى حتــى كاد أنفــى يلمـس كتفـى، إنهـا حركـة قديمـة لى، دائمًـا تحـدث لى حـين أكـون متأملـة أو فى حـيرة أو تحـت أى مـن صـور الإكـراه، لكنهـا كانـت مألوفـة للغايـة لدرجـة أنى لم أتأملهـا قبـل الآن، وقـد كشـف لى مـا عرفتـه للتـو معناهـا، كنـت أبحـث عـن توأمـى، حيـث يُفـترض أن تكـون، بجانبـى.

حـين رأيـت الورقتـين، وهـدأ العـالم وعـاد إلى دورانـه البطـىء، فكـرت فى أن هاتــين الورقتــين تفـسران كل شىء، الخســارة، والحــزن، والوحــدة، هنـاك شـعور يبعـدنى عـن الآخريـن -ويؤنسـنى- طـوال حيـاتى، والآن بعـد اطلاعــى عــلى الشــهادتين، عرفـت حقيقـة هـذا الشـعور، إنهـا أختـى.

بعــد وقــت طويــل ســمعت انفتــاح بــاب المطبــخ بالطابــق الســفلى، وعـلى الرغـم مـن تنميـل سـاقى، ذهبـت إلى طـرف السـلم ورأيـت السـيدة "روب" بالأســفل.

"أكل شىء بخير يا (مارجريت)؟"

"نعم".

"أينقصك أى شىء؟"

"لا".

"عظيم، مرى بى إن احتجت إلى أى شىء".

"حسنًا".

"لن يتأخر والداك".

وغادرت.

أعـدت الوثيقتـين إلى العلبـة، وأرجعتهـا إلى تحـت السريـر، وتركـت الغرفـة وأغلقـت البـاب خلفـى، وأمـام مـرآة المرحـاض، شـعرت بالذهـول إذ حملقـت عينـاى إلى عينـين أخريـين، اضطـرب وجهـى أمـام حملقتهـا حتـى شـعرت بعظامـى تحـت جلـدى.

لاحقًا، شعرت بخطوات والدى على السلم.

فتحت الباب وعانقنى والدى أمام السلم.

وقال: "أحسنتِ، يبدو أنك أحسنت صنعًا".

بـدت والـدتى شـاحبة ومتعبـة، فالخـروج مـن المنـزل يمكـن أن يصيبهـا بالصـداع.

لكنها اتفقت معه وأردفت: "فتاة صالحة".

"كيف كان الأمر يا حلوتى؟ أن تكونى وحدك بالمنزل؟"

"لا بأس به".

فقـال والـدى: "هـذا مـا توقعتـه"، ثـم عانقنـى مجـددًا كأنـه رد فعـل لا إرادى، كان عناقًـا سـعيدًا دافئًـا، وقبّـل قمـة رأسى، وتابـع: "حـان وقـت النـوم، لا تقـرئى كثـيرًا".

"لن أفعل".

لاحقًـا سـمعت أصـوات اسـتعدادات والـدى للنـوم: يفتـح والـدى خزانة الأدويـة ويمـلأ كوبًـا بالمـاء، سـمعت صوتـه يقـول كالعـادة: "ستشـعرين بتحسـن بعـد نـوم هانـئ"، ثـم أُغلـق بـاب غرفـة الضيـوف، وبعـد دقائـق، سـمعت صريـر سريـره فى الغرفـة الأخـرى، ثـم صـوت إطفـاء الضـوء.

كنـت أعـرف بشـأن التوائـم، جوهـر الأمـر أن خليـة يجـب حسـب المعتـاد أن تصبـح شـخصًا واحـدًا، لكنهـا لسـبب غـير مفهـوم تصبـح شـخصين متطابقـين.

أنا أخت توأم.

وتوأمي ميتة.

تُرى ماذا أكون في هذه الحالة؟

تحت الأغطية ضغطت بيدي على الهلال الفضي الوردي الموجود على جذعي، إنه الظل الذي خلفته أختي، ومثل عالمة آثار، أنقب في جسدي وعلى جلدي عن أدلة على وجودها التاريخي، كان جسدي باردًا كالجثة.

لا تزال الرسالة في يدي، وقد تركت المتجر وصعدت السلم إلى شقتي، يضيق السلم عند كل من طوابق المتجر الثلاثة، وأنا أصعد وأطفئ الأنوار خلفي، أبدأ في استحضار جمل لأكتبها بخطاب رفض مهذب، فأنا بحسب ما يمكن أن أخبر السيدة "وينتر"، من النوع الخطأ من كتاب السير الذاتية، فأنا لست مهتمة بالكتابة المعاصرة، ولم أقرأ أيًّا من كتبها، وأشعر بالألفة في المكتبات وبين السجلات، ولم أجر مقابلة مع كاتب على قيد الحياة من قبل، كنت مرتاحة أكثر مع الأموات، ولأكون صادقة، يوترني الأحياء.

لكن آخر معلومة لم تكن ضرورية في الرسالة.

لم أقدر على إعداد وجبة، فكان كوب من الكاكاو كافيًا.

وأنا أنتظر أن يسخن الحليب، نظرت إلى الليل عبر النافذة، وفي زجاج النافذة رأيت وجهًا شاحبًا للغاية لدرجة أنك تمكنك رؤية ظلام السماء عبره، ضغطت خدي بخدها الزجاجي البارد، ولو رأيتنا لعرفتِ أنه لولا هذا الزجاج، ما كان أحد ليفرق إحدانا عن الأخرى.

ثلاث عشرة حكاية

أخبرينى الحقيقة، كلمات الرسالة كانت محبوسة فى دماغى، تبدو محبوسة تحت السقف المائل لشقتى التى بالعليّة، مثل طائر سقط عبر المدخنة، كان طبيعيًا أن تؤثر بى مناشدة الفتى، أنا التى لم تُخبَر بالحقيقة من قبل، بل تُركت لأكتشفها بنفسى فى السر، لكن لا بد لصوته أن يسكت.

لكننى قررت أن أُخرج الكلمات والرسالة من عقلى.

لقد حان الوقت تقريبًا، فتحركت سريعًا، غسلت وجهى بالصابون وأسنانى فى المرحاض، وقبل الثامنة بثلاث دقائق كنت مرتدية ملابس النوم ومنتعلة خفى القدمين وأنتظر غليان المياه فى الغلاية، وسريعًا، وقبل الثامنة بدقيقة، كانت زجاجة المياه الساخنة خاصتى جاهزة، وملأت كوبًا بمياه الصنبور، كان الوقت شديد الأهمية، لأن فى الساعة الثامنة ينتهى العالم، فذلك وقتى المخصص للقراءة.

كانت الساعات بين الثامنة مساءً والواحدة أو الثانية صباحًا دائمًا ساعاتى السحرية، على غطاء السرير الأزرق الذى رُسمت عليه فتيلة شمعة، وتحت ضوء مصباح دائرى، كانت بوابتى إلى عالم آخر، لكن فى تلك الليلة فشل السحر، فخيوط الحبكة التى تركتها مشدودة بالتشويق منذ الليلة الماضية أصبحت بدرجة ما مرتخية خلال النهار، ووجدت أننى لم أعد مهتمة بما سيؤول إليه الأمر فى النهاية، بذلت جهدًا لأوصل نفسى إلى إحدى محطات الحبكة، لكن بمجرد أن بلغتها، اعترضنى صوت "أخبرينى الحقيقة" والذى فك عقدة الحبكة وتركها فضفاضة تتخبط مجددًا.

لذا حامت يدى حول مفضلاتى القديمة: "ذات الرداء الأبيض"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"جين أير"...

لكن بلا فائدة، أخبرينى الحقيقة...

لم تخذلنى القراءة من قبل، بل كانت دائمًا المرتكز الوحيد، فأطفأت الضوء، وأرحت رأسى على الوسادة وحاولت النوم.

صدى صوت وقصاصات قصة، سمعتها كلها بصوت أعلى فى الظلام، أخبرينى الحقيقة...

فى الساعة الثانية صباحًا نهضت من سريرى وانتعلت جوربى، وفتحت باب الشقة مرتدية ثوب النوم، وهبطت السلم نحو المتجر.

فى مؤخر المتجر لدينا غرفة ضئيلة، لا تزيد مساحتها كثيرًا على مساحة خزانة، نستخدمها حين نريد تغليف كتاب لنرسله بالبريد، تحتوى الغرفة على طاولة، وعلى رف يوجد ألواح من الورق البنى، ومقصات وبكرة خيط، بها أيضًا خزانة خشبية بسيطة المظهر تضم نحو دستة من الكتب.

نادرًا ما تتغير محتويات الخزانة، لو تفقدتها اليوم ستجد فيها ما رأيته في تلك الليلة: كتابًا بلا غلاف يستقر على جانبه، وبجواره مجلد سيئ التغليف، وكتابان باللاتينية منتصبين، ونسخة قديمة من العهد القديم، وثلاثة مجلدات عن علم النباتات، واثنان عن التاريخ، وكتاب وحيد مهترئ عن علم الفلك، وكتاب باليابانية، وآخر بالبولندية، وبعض القصائد بالإنجليزية القديمة، لماذا نبقي تلك الكتب بعيدة؟ لماذا ليست موجودة مع رفيقاتها من الكتب على رفوفنا المعنونة بعناية؟ هذه الخزانة هي مستقر الكتب النادرة القيّمة محدودة الجمهور، تساوي قيمة تلك المجلدات كامل بقية محتويات المتجر، أو ربما أكثر.

كان الكتاب الذي أبحث عنه في غير مكانه، وبجانب كل هذه التحف، وهو كتاب له غلاف مقوى وأبعاده عشرة سنتيمترات في خمسة عشر سنتيمترًا، وعمره خمسون عامًا أو نحو ذلك، ظهر هذا الكتاب قبل شهرين، وأتصور أنه وصل إلى هناك بسهو من الوالد، أردت أن أسأله عن الكتاب وأن أعلقه على رف ما، لكن على سبيل الاحتياط، ارتديت قفازين أبيضين، فنحن نبقي القفازات في الخزانة لنرتديها حين نتعامل مع الكتب لأن -بفعل معضلة طريفة- بقدر ما تحيا الكتب بقراءتنا لها فإن الزيوت على أطراف أصابعنا تدمرها مع طيِّنا للصفحات، على أيّ حال فبالنظر إلى أن غلافه سليم وزواياه حادة، فإن الكتاب في حالة جيدة، إنه واحد من سلسلة معروفة أُنتجتها على مستوى عالٍ دار نشر لم تعد موجودة، إنه مجلد جذاب وهذه طبعة أولى، لكنه ليس من نوع الكتب التي قد تجدها بين كنوز الكتب، ففي الأسواق والمعارض الخيرية يمكن أن تجد مجلدات أخرى من السلسلة نفسها مقابل ثمن بخس.

كان لون الغلاف أصفر وأخضر: تشكلت الخلفية من نمط منتظم من أشكال تشبه قشور الأسماك، وتُرك مستطيلان بلا لون، أحدهما

مـن أجـل رسـم خطـى لعـروس بحـر، والآخـر لعنـوان الكتـاب واسـم المؤلفـة، "ثلاثـون عامًـا مـن التغيـير واليـأس"، لـ"فيـدا وينـتر".

أغلقـت الخزانـة، وأعـدت المفتـاح والكشـاف إلى مكانيهـما، وصعـدت السـلم متجهـة إلى سريـرى، والكتـاب فى يـدى مرتديـة القفـاز.

لم أنـوِ القـراءة، ليـس كثـيرًا، بـل كل مـا أردتـه هـو بضـع جمـل، أردت كلـمات جريئـة وقويـة كفايـة لأسـكّن كلـمات الرسـالة التـى ظلـت تـتردد فى عقـلى، سـأحارب النـار بالنـار مثلـما يقولـون، سـأقرأ جملتـين، أو ربمـا صفحـة، ثـم سـأتمكن مـن النـوم.

أزلـت عـن الكتـاب الغـلاف الـذى يحميـه مـن الغبـار، وتركتـه مـن باب الأمـان فى درج خصصتـه لمثـل هـذه الأغـراض، فحتـى إن ارتديـت القفـازات لـن أكـون حريصـة كفايـة، تنشـقت وأنـا أفتـح الكتـاب، إن رائحـة الكتـب القديمـة حـادة جـدًا وجافـة جـدًا لدرجـة أنـك تسـتطيع اسـتطعامها.

وجدت المقدمة كلمات قليلة فقط.

لكن عينىّ كانتا قد أغويتا بالفعل وهما تمسحان السطر الأول.

ينسـج الأطفـال أسـاطير عـن مولدهـم، إنـه فعـل شـائع، فـإن أردت الاطـلاع عـلى قلـب وعقـل وروح أحـد، اسـأله عـن مولـده، مـا سـيقوله لـن يكـون الحقيقـة، بـل قصـة، ولا شىء أكـثر تعبـيرًا عـن البـشر مـن القصـص.

أحسست كأننى غطست فى ماء بارد.

الفلاحـون والأمـراء، حجـاب المحاكـم وأولاد الخبازيـن، والتجـار وحوريـات البحـر، شـعرت فى الحـال بالألفـة تجـاه شـخصيات الحكايـات، لقـد قـرأت تلـك القصـص مئـات، بـل آلاف، المرات، كلهـا قصـص يعرفهـا الجميـع، لكـن بالتدريـج، ومـع تقدمـى فى القـراءة، سـقطت عنهـا ألفتهـا، أصبحـت غريبـة، أصبحـت جديـدة، هـذه الشـخصيات ليسـت تلـك المانيكانـات الملونـة التـى أتذكرهـا مـن كتـب طفولتـى المصـورة، التـى

تـؤدى القصـة بشـكل ميكانيـكى فى كل مـرة، بـل هـم أشـخاص حقيقيـون، فالـدم الـذى سـقط مـن إصبـع الأمـيرة عندمـا لمسـت إبـرة المغـزل أصبـح مبلـلاً، وتـرك طعـمًا معدنيًـا عـلى لسـانها حـين لعقـت إصبعهـا قبـل أن تـروح فى سـبات عميـق، وحـين جُلبـت الابنـة الغارقـة فى سـباتها إلى والدهـا الملـك، تركـت دمـوع الملـك ملوحـة حارقـة عـلى وجهـه، رأيـت أحـداث القصـص بمنظـور غـير مألـوف، حقـق الجميـع كل مـا تـاق إليـه: اسـتعاد الملـك ابنتـه بقبلـة مـن شـخص غريـب، وجُـرد الوحـش مـن فـروه وتُـرك عاريًـا كأنـه إنسـان، واسـتطاعت الحوريـة أن تمـشى، لكنهـم لم يدركـوا إلا بعـد فـوات الأوان الثمـن الـذى يجـب أن يدفعـوه لأنهـم تجنبـوا أقدارهـم، أصبحـت "عاشـوا فى سـعادة للأبـد" ملوثـة، والمصـير الـذى بـدا فى البدايـة قابـلاً جـدًّا للتغيـير، ومنطقيًـا جـدًّا، ومتاحًـا جـدًّا للتفـاوض، انتهـى بـه الأمـر بفـرض انتقـام قـاسٍ مـن أجـل السـعادة.

كانت الحكايات قاسية وحادة وحابسة للأنفاس، لقد أحببتها.

حـين وصلـت إلى "حكايـة حوريـة البحـر" -الحكايـة الثانيـة عـشرة- شـعرت برجفـة قلـق غـير مرتبطـة بالقصـة نفسـها، لقـد كنـت مشـتتة، كان إبهـام وسـبابة يـدى اليمنـى يرسـلان إلىّ رسـالة: لم يتبـق الكثـير مـن الصفحـات، ظلـت هـذه الفكـرة تلـح عـلىّ بـإصرار أكـثر حتـى طويـت الكتـاب لأتحقـق مـن صحتهـا، ولقـد كنـت محقـة، لا بـد أن الحكايـة الثالثـة عـشرة كانـت قصـيرة للغايـة.

تابعت القراءة، وأنهيت الحكاية الثانية عشرة وطويت الصفحة.

إنها بيضاء.

طويت ذهابًا وعودة ولم أجد شيئًا.

لا توجد حكاية ثالثة عشرة.

حدثت فجأة جلبة مفاجأة فى رأسى وشعرت بغثيان غطّاسى أعماق البحار حين يصعدون إلى السطح سريعًا.

عادت زوايا الغرفة إلى مجال رؤيتى واحدة تلو الأخرى، غطاء سريرى، والكتاب الذى بيدى، والمصباح الذى لا يزال يضيء ولكن بشحوب بسبب ضوء الصباح الذى بدأ يتسلل عبر الستائر الرقيقة.

إنه الصباح.

وليست هناك حكاية ثالثة عشرة.

***

فى المتجر كان والدى جالسًا عند مكتبه ورأسه بين يديه، سمعنى أهبط السلم فتطلع إلىّ شاحبًا.

اندفعت إلى الأمام: "ماذا بك؟"

كانت الصدمة تمنعهمن الكلام، رفع يديه فى تعبير صامت عن اليأس، قبل أن يحركهما ببطء على عينيه المذعورتين، وتأوه.

مسدت كتفه لكننى لم أكن معتادة على ملامسة الناس، لذا سقطت يدى على السترة الصوفية التى علقها على ظهر الكرسى.

سألته: "هل من شيء يمكننى فعله؟"

حين تكلم كان صوته حزينًا مرتعشًا: "يجب أن نتصل بالشرطة خلال دقيقة، خلال دقيقة..."

"الشرطة؟ يا أبى.. ماذا حدث؟"

"أحد اقتحم المتجر"، كان وقع صوته كأنه نهاية العالم.

تفحصت المتجر حولى متحيرة، كان كل شىء مرتبًا ومنظمًا، وأقفال الأدراج غير مكسورة، والرفوف غير منهوبة، والنافذة غير مكسورة.

فقال: "إنها الخزانة"، وحينها بدأت أفهم.

أردفت: "تقصد (الحكاية الثالثة عشرة)، إنها فى شقتى، لقد استعرتها".

تطلع إلىّ والدى، واعتلى وجهه مزيج من الارتياح والدهشة التامة، وأردف: "استعرتها؟"

"نعم".

"أنت استعرتها؟"

"نعم"، كنت مرتبكة، فدائمًا ما أستعير أشياء من المتجر، مثلما يعرف.

"لكن، (فيدا وينتر)...؟"

وأدركت أن الموقف بحاجة إلى بعض التوضيح.

أنا أقرأ الروايات القديمة، والسبب بسيط: أننى أفضّل النهايات اللائقة، الزواج والموت، والتضحيات النبيلة والإحياء الإعجازى، والفراق المأسوى ولم الشمل بعد اليأس، والسقطات العميقة وتحقيق الأحلام، هذه كلها فى نظرى تمثل نهايات تستحق الانتظار، يجب أن تحدث بعد المغامرات والمخاطر والمعضلات، وأن تغلف إلى النهايات بشكل لطيف ومنمق، هذه النهايات أجدها أكثر شيوعًا فى الروايات القديمة مقارنة بالجديدة، لذا أقرأ الروايات القديمة.

لم أعرف الكثير عن عالم الأدب المعاصر، ولقد أنبنى والدى مرات عديدة خلال أحاديثنا اليومية عن الكتب، إنه يقرأ كثيرًا مثلى، لكن على نطاق أوسع، وأنا أحترم آراءه للغاية، لقد وصف بكلمات دقيقة ومدروسة الأسى الجميل الذى يشعر به عند نهاية الروايات التى تحمل رسالة أن المعاناة الإنسانية بلا نهاية، بل يجب تحملها، كما تحدث

عـن النهايـات الصامتـة التـى يبقـى صداهـا فى الذاكـرة أعـلى وأقـوى مـن أى اسـتنكار منطـوق، وشرح سـبب مـس هـذا الغمـوض لقلبـه أكـثر مـن أسـلوب النهايـة بالمـوت والـزواج الـذى أفضلـه.

خـلال تلـك الأحاديـث، أسـتمع بأشـد درجـات الاهتـمام وأومـئ بـرأسى، لكننـى دائمًـا أسـتمر عـلى عـاداتى القديمـة، لا أقصـد أنـه يلومنـى عـلى نحـو مـا، فهنـاك شىء اتفقنـا عليـه: العـالم بـه كتـب أكـثر مـن أن نسـتطيع قراءتهـا فى حيـاة واحـدة، لـذا يجـب أن ترسـم حـدودًا مـا لاهتماماتـك.

أخـبرنى والـدى فى مـرة عـن "فيـدا وينـتر": "هنـاك كاتبـة عـلى قيـد حيـاة قـد تناسـب اهتماماتـك".

لكننـى لم أقـرأ أيًـا مـن كتبهـا، ولمـاذا قـد أفعـل وهنـاك الكثـير جـدًا مـن الكتـاب الأمـوات الذيـن لم أكتشـفهم بعـد؟

لكننـى نزلـت فى منتصـف الليـل لآخـذ كتـاب "الحكايـات الثـلاث عـشرة" مـن الخزانـة، تسـاءل والـدى عـن السـبب، وكان سـؤاله منطقيًـا.

أوضحت: "تلقيت رسالة بالأمس".

أومأ برأسه.

"رسالة من (فيدا وينتر)".

رفع والدى حاجبيه، لكنه انتظر منى أن أُتابع.

"يبدو أنها دعوة لى لزيارتها بغية كتابة سيرتها الذاتية".

ارتفع حاجباه بضع مليمترات أخرى.

"لم أستطع النوم، لذا هبطت لأُحضر الكتاب".

انتظـرت ردًا مـن والـدى، لكنـه لم يعقـب، بـل كان يفكـر، فبـدا عليـه بعـض العبـوس الـذى جعـد جبينـه، بعـد وهلـة تكلمـت مجـددًا، "لمـاذا أبقيتـه فى الخزانـة؟ مـا الـذى يجعلـه قيـمًا إلى هـذه الدرجـة؟"

قطع والدى حبل أفكاره ليجيبنى، "جزئيًا لأن هذه الطبعة الأولى من الكتاب الأول للكاتبة باللغة الإنجليزية الأوسع شهرة، لكن فى المقام الأول، لأنها معيبة، فكل نسخة لاحقة من الكتاب عُنونت بـ(حكايات التغيير واليأس)، دون ذكر الرقم "ثلاث عشرة". ألاحظت أن الكتاب يضم اثنتى عشرة حكاية فقط؟"

أومأت.

"يُحتمل أن عدد الحكايات كان يُفترض أن يكون 13، لكن الكاتبة قدمت 12 فقط، لكن حدث خلط فى تصميم الغلاف وطُبع الكتاب بعنوانه الأصلى وبـ12 قصة فقط، فاضطروا إلى سحبه من المكتبات".

"لكن نسختك هذه..."

"أفلتت من أيديهم، فإحدى الدفعات أُرسلت بالخطأ إلى متجر فى (دورست)، حيث اشترى زبون نسخة قبل أن يتلقى المتجر رسالة سحب الكتاب، وأدرك الزبون قبل ثلاثين عامًا القيمة المحتملة للكتاب وباعه لجامع كتب نادرة، وعُرضت ممتلكات جامع الكتب للبيع بالمزاد فى سبتمبر الماضى فاشتريته بإيرادات صفقة (أفينيون)".

"صفقة (أفينيون)؟" لقد استغرق عقد هذه الصفقة عامين من التفاوض، لقد كان واحدًا من أكثر نجاحات والدى إدرارًا للأرباح.

سألنى بخجل: "ارتديت القفازات أليس كذلك؟"

"ماذا تظننى؟"

ابتسم قبل أن يردف: "كل هذا الجهد ذهب هباءً".

"ماذا تقصد؟"

"سحب كل تلك النسخ بسبب خطأ فى العنوان، فالناس لا يزالون يسمونه (ثلاث عشرة حكاية)، مع أنه نُشر بعنوان (حكايات التغيير واليأس) لمدة نصف قرن".

"لماذا؟"

"هـذا مـا يفعلـه مزيـج مـن الشـهرة والسريـة، فالمعلومـات الحقيقيـة عنهـا قليلـة للغايـة، لـذا تصبـح قصاصـات المعلومـات مثـل قصـة الطبعـة الأولى المسـحوبة ذات أهميـة تتجـاوز حقيقتهـا، لقـد أصبحـت جـزءًا مـن أسـطورتها، إنـه لغـز الحكايـة الثالثـة عـشرة، وهـذا يتيـح للنـاس مسـاحة لبسـط نظرياتهـم".

سـاد صمـت وجيـز، ثـم وجّـه نظـره إلى الفـراغ غـير البعيـد، وغمغـم بصـوت خفيـض لأختـار أن أرد عـلى كلامـه أو أتجاهلـه، وهـو مـا فعلتـه: "والآن سـتكتب سـيرة ذاتيـة.. كـم هـذا مفاجـئ".

تذكـرت الرسـالة، وخـوفي حيـال أن الكاتبـة ليسـت محـل ثقـة، وتذكرت إصرار الفتـى: "أخبرينـى الحقيقـة"، وتذكـرت "الحكايـات الثـلاث عـشرة" التـى تملكتنـى بكلماتهـا الأولى وأسرتنـى بطـول الليـل، أردت أن أُوسر مجـددًا.

قلت لوالدى: "لا أعرف ماذا أفعل".

"الأمـر مختلـف عـما فعلتـه مـن قبـل، (فيـدا وينـتر) كائـن حـى، وسـتضطرين إلى إجـراء المقابـلات بـدلاً مـن التنقيـب فى السـجلات".

أومأت.

"لكـن يجـب أن تعـرفي الشـخصية التـى كتبـت (الحكايـات الثـلاث عـشرة)".

أومأت مجددًا.

وضـع والـدى يديـه عـلى ركبتيـه وتنهـد، إنـه يعـرف مـا تفعلـه القـراءة، ويعـرف كيـف تـأسر الكتـب القارئ.

"متى تريدك أن تذهبى؟"

أجبت: "يوم الاثنين".

"سأوصلك إلى المحطة، موافقة؟"

"شكرًا لك، و..."

"ماذا؟"

"أيمكننى الحصول على إجازة؟ يجب أن أقرأ أكثر قبل أن أذهب إليها".

رد: "نعم"، بابتسامة لم تخفِ قلقه، "نعم، بالتأكيد".

حينئذ بدأت واحدة من أكثر فترات حياتى تألقًا، فللمرة الأولى فى حياتى توجد على الطاولة بجوار سريرى كومة من الكتب الجديدة اللامعة التى اشتريتها من متجر للكتب العادية، كلها تحمل اسمًا واحدًا: "فيدا وينتر"، وأغلفتها، التى رسمها فنان واحد، تبث الحرارة والقوة بألوان الكهرمان والقرمزى والذهبى والأرجوانى الداكن، واشتريت أيضًا نسخة من "حكايات التغيير واليأس" الذى بدا عنوانه عاريًا من دون كلمتى "ثلاث عشرة" التى تجعل نسخة والدى قيّمة للغاية، ورددت نسخته إلى الخزانة.

بالطبع حين يقرأ المرء لكاتب جديد فإنه يتطلع دائمًا إلى شىء مميز، وقد بثت السيدة "وينتر" فىّ درجة الحماس نفسها التى سيطرت علىّ حين اكتشفت يوميات "لانديير" مثلاً، بل وأكثر من ذلك، كنت دائمًا قارئة، قرأت فى جميع مراحل حياتى، ولم أمر بوقت لم تكن فيه القراءة مصدر أعظم فرحتى، ومع ذلك، لن أدعى أن قراءتى كبالغة تضاهى قراءات طفولتى فى تأثيرها فى روحى، فأنا لا أزال أومن بالقصص، لا أزال أنسى نفسى حين أستغرق فى كتاب جيد، لكن هناك اختلافًا، يجب أن أوضح أن الكتب فى نظرى هى الشىء الأهم، وما لا أنساه أن فى فترة من حياتى كانت الكتب أكثر عادية وأكثر أهمية فى الوقت ذاته بالمقارنة بالفترة الحالية، فحين كنت طفلة، كانت الكتب

هـى كل حيـاتى، لـذا يوجـد بداخـلى دائمًـا حنـين متقـد نحـو تلـك المتعـة المفقـودة، ليـس الحنـين الـذى يمكـن توقـع إشـباعه أبـدًا، خـلال هـذه الفـترة التـى قـرأت فيهـا طـوال اليـوم ونصـف الليـل، حـين نمـت تحـت لحـاف مـن الكتـب، حـين كان نومـى بـلا ملامـح ولا أحـلام ويمـر كالـبرق لأصحـو وأقـرأ مجـددًا، عـادت إلىّ مباهـج القـراءة المفقـودة، أعـادت إلىّ السـيدة "وينـتر" السـمات العذريـة للقـارئ المبتـدئ، ثـم أسرتنـى بقصصهـا.

بـين الحـين والآخـر، قـد يطـرق والـدى البـاب أعـلى السُـلم، يحـدق إلىّ، بالتأكيـد يعلـو وجهـى ذلـك الذهـول الناتـج عـن القـراءة المكثفـة، فيعلـق والـدى: "لـن تنسـى أن تـأكلى، أليـس كذلـك؟" وهـو يسـلمنى كيـس البقالـة أو كـوب حليـب.

كنـت لأود أن أبقـى فى شـقتى إلى الأبـد مـع تلـك الكتـب، لكـن إن كنـت سـأذهب إلى يوركشـاير للقـاء السـيدة "وينـتر"، فهنـاك مهمـة أخـرى يجـب تنفيذهـا، توقفـت عـن القـراءة لمـدة يـوم وذهبـت إلى المكتبـة، وفى غرفـة الصحافـة، تصفحـت صفحـات الكتـب فى جميـع الصحـف الوطنيـة خـلال الأيـام التاليـة لإصـدار روايـات السـيدة "وينـتر" الأخـيرة، لأن مـع إصـدار كل كتـاب جديـد، كانـت تسـتدعى عـددًا مـن الصحفيـين إلى فنـدق فى هاروجيـت، حيـث تلتقيهـم واحـدًا تلـو الآخـر وتعطـى كلاً منهـم، عـلى حـدة، مـا تطلـق عليـه قصـة حياتهـا، لا بـد أن هنـاك العـشرات مـن تلـك القصـص، بـل ربمـا المئـات، لقـد وجـدت عشريـن منهـا دون جهـد شـديد.

بعـد نـشر كتابهـا "بـين بينـين" كانـت الابنـة السريـة لكاهـن ومعلمـة، وبعـد عـام فى الصحيفـة نفسـها أشـهرت روايـة "مسـكون" بحكايـة أنهـا كانـت طفلـة هاربـة لمومـس باريسـية، أمـا بعـد روايـة "مـسرح الدمـى"، توضـح صحـف عـدة أنهـا كانـت يتيمـة نشـأت فى ديـر سـويسرى بعدمـا كانـت طفلـة شـارع بأزقـة الطـرف الشرقـى مـن لنـدن، والفتـاة الوحيـدة المكبوتـة بعائلـة مـن عـشرة أولاد صاخبـين، أعجبتنـى عـلى نحـو خـاص

تلك القصة التى تقول فيها إنها إثر انفصالها بلا قصد عن والديها المبشرين الإسكتلنديين فى الهند، شقت طريقها بنفسها وسط شوارع بومباى، حيث كسبت عيشها برواية القصص، وحكت قصصًا عن أشجار الصنوبر التى بدت رائحتها مثل الكزبرة المقطوفة للتو، وجبال تضاهى تاج محل جمالاً، وأطباق الهاجيس الإسكتلندية الألذ من أى باكورة هندية تُباع فى الشارع، وعن مزمار القربة الإسكتلندى، ويا لجمال صوت ذاك المزمار! جماله يفوق الوصف، وحين عادت إلى إسكتلندا بعد أعوام كثيرة -وهو بلد تركته وهى طفلة صغيرة- أُحبطت بشدة، فأشجار الصنوبر لم تفح منها أى رائحة للكزبرة، والثلوج باردة، وأطباق الهاجيس بلا طعم.

ساخرة وعاطفية، مأساوية وحادة، فكاهية وماكرة، كل واحدة من تلك القصص مثلت تحفة فنية مصغرة، ولو كانت كاتبة من نوع آخر، لكانت تلك القصص قمة إنجازاتها، لكن فى نظر "فيدا وينتر"، كانت تلك مجرد بقايا، ولا أعتقد أن أحدًا قد يصدق أنها الحقيقة.

كان الأحد اليوم السابق على مغادرتى، وقد قضيت فترة العصر فى منزل والداى، ذلك المنزل لا يتغير أبدًا، نفخة واحدة من الذئب يمكنها أن تحيله أنقاضًا.

ابتسمت أمى ابتسامة متوترة وتحدثت ببهاء ونحن نحتسى الشاى، تحدثت عن حديقة الجيران، وأعمال صيانة الطريق فى البلدة، والعطر الجديد الذى أصابها بطفح جلدى، إنها محادثة خفيفة خاوية من أجل إبعاد الصمت، الصمت الذى تعيش فيه شياطينها، وقد كانت مسرحية جيدة: تجنبت فيها ذكر أى شىء يكشف أنها بالكاد يمكنها تحمل مغادرة المنزل، وأن أتفه الأحداث غير المتوقعة يصيبها بصداع نصفى، وأنها لا تستطيع قراءة أى كتب خوفًا من المشاعر التى قد تجدها فيها.

انتظـرت ووالــدى حتــى ذهبــت والــدتى لإعــداد الشــاى الســاخن لنتحــدث عــن الســيدة "وينــتر".

قلـت: "هـذا ليـس اسـمها الحقيقـى، فلـو كان هـذا اسـمها الحقيقـى، لـكان مـن السـهل تعقبهـا، وكل مـن حـاول استسـلم لنقـص المعلومـات، لا أحـد يعـرف ولـو حقيقـة بسـيطة عنهـا".

"كم هذا مثير للفضول".

"كأنهــا جــاءت مــن الفــراغ، كأنهــا قبــل أن تصبــح كاتبــة لم تكــن موجــودة، كأنهــا كتبــت شــخصيتها وكتابهــا الأول معًــا".

عقّـب والـدى: "نحـن نعـرف الاسـم الـذى اختارتـه لتنشر بـه كتبهـا، لا بـد أن يكشـف هـذا شـيئًا".

"(فيـدا)، مـن كلمـة (فيتـا) اللاتينيـة التـى تعنـى (الحيـاة)، ولا أسـتطيع تجاهـل التفكـير فى معناهـا الفرنـسى أيضًـا".

فكلمــة "فيــدا" الفرنســية تعنــى الفــراغ، الخــواء، العــدم، لكننــا لا نســتخدم كلــمات مثــل هــذه فى منــزل والــدى، فتركــت الاســتنتاج لــه.

أردف: "بالفعل"، وتابع: "وماذا عن (وينتر)؟"

إنــه الشــتاء، بحثــت فى النافــذة عــن الإلهــام، رأيــت وراء شــبح أختــى الأغصـان عاريـة ممتـدة بطـول السـماء المعتمـة، وحدائـق الأزهـار خاليـة، والتربـة سـوداء، لم يـقِ الزجـاج مـن الـبرد، فعـلى الرغـم مـن نـار المدفئـة، بـدت الغرفـة معبـأة باليـأس الحالـك، مـاذا يعنـى الشـتاء لى؟ يعنـى شـيئًا واحـدًا: المـوت.

ســاد الصمــت، وحــين أصبــح ضروريًــا أن أقــول شــيئًا حتــى لا أضيــف إلى المحادثـة السـابقة ثقـلاً لا يُطـاق، قلـت: "إنـه اسـم ذو نهايـات مدببـة بسـبب حـرف الـ(فـى) والـ(دابليـو) البادئـين للاسـمين (فيـدا وينـتر)، إنـه مدبـب الأطـراف جـدًا".

عادت أمى، وهى تضع الأكواب على الأطباق، وتصب الشاى، تحدثت باستفاضة، بدا صوتها متحركًا بحرية فى رقعة حياتها ذات الحدود الصارمة، وكأن مساحتها شاسعة جدًّا.

تجولت بعينى فى الغرفة، على الرف أعلى الموقد يوجد الشىء الوحيد الذى قد يُعتبر زينة، صورة فوتوجرافية، تقترح والدتى بين الحين والآخر حفظها من الأتربة فى أحد الأدراج، لكن والدى يحب أن يراها، وبما أنه نادرًا ما يعارض والدتى، فقد تراجعت إذعانًا له، فى الصورة يوجد عريس وعروس، شابين، يبدو والدى مثلما يبدو دائمًا: وسيم بلا تكلف بعينين داكنتين عميقتين: لا يغيره مرور السنين، لكن المرأة بالكاد يبدو شكلها مألوفًا، لها ضحكة عفوية بعينين ضاحكتين تحدقان إلى والدى بدفء، تبدو سعيدة.

لكن المأساة تغير كل شىء.

لقد وُلدت، واختفت المرأة التى فى صورة الزفاف.

تطلعت إلى الحديقة الميتة، ولاح ظلى فى الزجاج أمام الضوء المتلاشى، متطلعًا إلى الغرفة الميتة، سألت نفسى، ماذا فعلت بنا؟ ما رأيها بمحاولاتنا لإقناع أنفسنا بأن هذه هى الحياة وأننا نعيشها حقًّا؟

الوصول

غادرت المنزل فى يوم شتاء تقليدى، وقطع القطار بى أميالاً تحت سماء شفافة، ثم بدّلت القطار واحتشدت السحب، أصبح أكثف وأدكن وأكثر امتلاءً مع تقدمى نحو الشمال، توقعت فى أى لحظة أن أسمع أولى قطرات المطر على زجاج النافذة، لكن السماء لم تمطر.

فى هاروجيت، كان سائق السيدة "وينتر" غير راغب فى الكلام، وهو رجل ملتحٍ داكن الشعر، امتننت لهذا، فقد أتاح لى الصمت مساحة لدراسة المناظر غير المألوفة التى تكشفت على جانبى الطريق ونحن نغادر البلدة، فأنا لم أزر الشمال من قبل، وقد قادتنى أبحاثى إلى لندن، وعبرت بى مرة أو مرتين قناة المانش إلى مكتبات وسجلات باريس، لكن يوركشاير مقاطعة عرفتها من الروايات فقط، روايات من قرون سابقة على سبيل الدقة، وبمجرد أن خرجنا من البلدة تراجعت علامات العالم المعاصر، فأصبح ممكنًا أن أصدق أننى أسافر عبر الزمن مثلما أسافر إلى عمق الريف، كانت القرى عتيقة وغريبة بكنائسها وحاناتها وأبنيتها الحجرية الصغيرة، وكلما تقدمنا، أمست

القرى أصغر وزادت المسافة بينها إلى أن باتت بيوت المزارعين المنعزلة الشىء الوحيد الذى يزين الحقول العارية فى الشتاء، وفى الأخير لم نعد نرى حتى بيوت المزارعين فى حين أن الليل يهبط، أرتنى مصابيح السيارة الأمامية مساحات شاسعة من المناظر الطبيعية عديمة الألوان والملامح، بلا أسيجة ولا جدران ولا حدود ولا أبنية، بل مجرد طريق بلا حواف تمتد على جانبيه تضاريس مظلمة غامضة.

سألت: "أهذه هى الأراضى البور؟"

رد السائق: "نعم"، فملت لأقترب من النافذة، لكن كل ما استطعت رؤيته كان السماء المعبأة بالمياه التى وطدت إلى الأرض والطريق والسيارة، على نحو خانق، وبعد مسافة معينة، خبا حتى ضوء سيارتنا.

وعند تقاطع طرق بلا ملامح، انحرفنا عن الطريق وتقدمنا بحذر لثلاثة كيلومترات تقريبًا على طريق حجرى، وتوقفنا مرتين حتى يفتح السائق بوابة ثم يغلقها وراءنا، وتابعنا طريقنا، نرتج ونهتز لمسافة كيلومتر آخر.

يقع بيت السيدة "وينتر" بين مرتفعين متدرجين فى الظلام، أشباه تلال تبدو كأنها متداخلة، ولا تكشف عن سهل وبيت إلا عند الانعطاف الأخير للطريق، السماء تسطع بأطياف أرجوانية ونيلية ورمادية، ويجثم المنزل تحتها بطوله وانخفاضه وظلمته الشديدة، فتح السائق باب السيارة من أجلى، وهبطت لأجده قد أنزل حقيبتى، كان جاهزًا للانطلاق، تاركًا إياى وحدى أمام شرفة المدخل غير المضاءة، وقد حجب شيش النوافذ ذات القضبان ما وراءها، بلا أى علامات على سكن البشر، يبدو المكان منفرًا للزوار بانغلاقه على نفسه.

رننـت الجـرس، وكان رنينـه خافتًـا عـلى نحـو غريـب فى الهـواء الرطـب، تطلعـت إلى السـماء منتظـرة، وتسـلل الـبرد عـبر فتحـات أصابـع حـذائى، رننـت الجـرس مجـددًا، لكـن لم يجـب أحـد.

كنـت عـلى وشـك رن الجـرس للمـرة الثالثـة حـين فُتـح البـاب عـلى نحـو مفاجـئ وبـلا أى صـوت.

ابتسـمت السـيدة عنـد المدخـل ابتسـامة متحفظـة واعتـذرت لإبقـائى منتظـرة، بـدت السـيدة مـن أول نظـرة تقليديـة للغايـة، شـعرها القصـير الأنيـق لـه لـون بشرتهـا الشـاحبة، عيناهـا ليسـتا زرقاويـن ولا رماديتـين ولا خضراويـن، ولكـن ليـس غيـاب اللـون هـو مـا يجعلهـا تبـدو عاديـة، بـل غيـاب أى تعبـير فى عينيهـا، أظـن أن وجـود بعـض دفء التعبـير فى عينيهـا يمكـن أن يجعلهـما تلمعـان بالحيـاة، وبـدا لى وهـى تبادلنـى النظـرة المتفحصة نفسـها أنهـا لم تبـقِ عـلى تلـك النظـرة الجافـة مـن أى تعبـير إلا عـن قصـد.

قلت: "مساء الخير، أنا (مارجريت ليا)".

"كاتبة السير الذاتية، كنا بانتظارك".

مـا الـذى يمكّـن البـشر مـن استشـفاف حقيقـة الآخريـن وراء أقنعتهـم؟ لأننـى فهمـت بوضـوح جـدًّا فى تلـك اللحظـة أنهـا كانـت قلقـة، ربمـا للمشـاعر رائحـة أو طعـم، ربمـا نبثهـا بـلا وعـى منّـا عـبر اهتـزازات فى الهـواء، أيًّـا كانـت الوسـيلة، أدركـت تمامًـا أن مـا يقلقهـا ليـس أنـا تحديـدًا، بـل حقيقـة أننـى جئـت وأننـى غريبـة.

أرشـدتنى إلى الداخـل وأغلقـت البـاب ورائى، دار المفتـاح داخـل القفـل بـلا صـوت، ولم تُحـدث الترابيـس المزيَّتـة جيـدًا أى صريـر وهـى تعـود إلى مكانهـا.

وقفـت فى الممـر مرتديـة معطفـى، حينهـا اختـبرت للمـرة الأولى الصفـة الأغـرب فى المـكان، بيـت السـيدة "وينـتر" صامـت تمامًـا.

أخبرتنى السيدة أن اسمها "جوديث" وأنها مدبرة المنزل، سألتنى عن رحلتى وأخبرتنى بأوقات الوجبات وأفضل الأوقات لأجد المياه الساخنة، تفتح فمها وتغلقه، وبمجرد أن تخرج الكلمات من بين شفتيها، تختنق بغطاء الصمت الذى هبط وأخمدها، ابتلع الصمت أصوات خطواتنا وكتم أصوات فتح وإغلاق الباب خلال جولة تعريفى بالغرف واحدة تلو الأخرى، غرفة الطعام، والمرسم، وغرفة الموسيقى.

ما من سحر وراء ذلك الصمت: بل السحرُ سحرُ المفروشات الناعمة، فالأرائك متخمة ومكدسة بالوسائد المخملية، عليها مساند ممتلئة للقدمين، ومقاعد للتمدد ومقاعد بذراعين، مُدت الأنسجة على الجدران واستُخدمت كأغطية للأثاث المحشو بالقطن، غطى السجاد كل الأرضيات، وكل سجادة تغطيها البُسُط، وبدا الدمقس الذى كسا النوافذ كأنه يموه الجدران، ومثلما يمتص الورق الحبر، امتص كل هذا الصوف والمخمل الصوت، باختلاف واحد: فالورق يمتص الحبر المكثف فقط، أما تلك الأنسجة فإنها تمتص كل أثر لما ننطقه من كلمات.

تتبعت مدبرة المنزل، انعطفنا يسرة ويمنة، ثم يمنة ويسرة، وصعدنا وهبطنا سلالم حتى أصبحتُ حائرة تمامًا، وسريعًا فقدت كل إحساس بتوافق الداخل المعقد مع البساطة الخارجية للمنزل، وافترضت أنه قد تغير بمرور الوقت، فأضيفت التفاصيل هنا وهناك، على الأرجح كنا فى جناح أو ملحق ما لا يُرى من الواجهة، قالت المدبرة حين رأت وجهى: "ستعتادين عليه"، وفهمتها كأننى أقرأ الشفاه، وأخيرًا توقفنا بعد انعطاف فى السُلم، فتحت بابًا أدخلنا إلى صالون، وجدت بالصالون ثلاثة أبواب، قالت لى وهى تفتح أحدها: "هذا المرحاض"، وفتحت آخر معقبة: "وهذه غرفة النوم"، وفتحت الأخير: "وهذه غرفة الدراسة"، تمتلئ الغرف بالوسائد والستائر والمعلقات كحال سائر المنزل.

سألتنى: "هل ستأكلين وجباتك فى غرفة الطعام أم هنا؟" قاصدة الطاولة الصغيرة والكرسى المنفرد بجوار النافذة.

لم أعرف إن كان تناول الوجبات فى غرفة الطعام يعنى تناولها مع مضيفتى، ولم أكن متأكدة من وضعى فى المنزل (هل أنا ضيفة أم موظفة؟) ترددت، فكرت فى ما إذا كان الأكثر تهذبًا أن أقبل أم أن أرفض، علقت المدبرة التى بدا أنها خمنت سبب ترددى، كأنها تحاول تجاوز عادة التكتم: "السيدة (وينتر) تأكل وحدها دائمًا".

"إذا كانت الأمور سواء، فسآكل هنا".

"سأحضر لك الحساء والشطائر فى الحال، حسنًا؟ لا بد أنك جائعة بعد رحلة القطار، لديك ما يلزم لإعداد القهوة والشاى هنا"، وفتحت خزانة فى زاوية غرفة النوم لتكشف بداخلها عن غلاية والأدوات اللازمة لإعداد المشروبات، بل وثلاجة صغيرة أيضًا، وأضافت: "سيوفر هذا عليك عناء الصعود والهبوط إلى المطبخ"، وألقت ابتسامة خجلة، أظنها على سبيل الاعتذار لأنها لا تريدنى فى مطبخها.

وتركتنى لأفرغ حقيبتى.

فى غرفة النوم استغرق الأمر دقيقة لأُفرغ ملابسى القليلة وكتبى ومستلزمات المرحاض، وأزحت أدوات الشاى والقهوة إلى جانب ووضعت مكانها كيس الكاكاو الذى جلبته معى من المنزل، ثم تبقى لى فقط الوقت الكافى لتجربة السرير العتيق المرتفع قبل أن تعود المدبرة بالطعام، السرير المغطى بترف بالغ بالوسائد لدرجة أن من الممكن أن يوجد أى شىء تحتها وما كنت لأعرف.

"تدعوك السيدة (وينتر) للقائها بالمكتبة فى الساعة الثامنة".

بذلت ما بوسعها لتجعل الأمر يبدو كدعوة، لكننى فهمت أن هذا أمر، وهو ما قصدته بلا شك.

لقاء السيدة "وينتر"

لست متأكدة إن كان من قبيل المصادفة أم الحظ أننى وجدت طريقى إلى المكتبة قبل عشرين دقيقة كاملة من موعدى، ولكنها لم تكن مشكلة، فأى مكان أفضل من المكتبة لقتل الوقت؟ وبنظرى، أى طريقة لمعرفة شخص أفضل من اختياراته من الكتب ومعاملته لها؟

تشكل انطباعى الأول عن الغرفة بالكامل، وقد أدهشتنى باختلافها الملحوظ عن بقية المنزل، فالغرف الأخرى مثقلة بجثث كلماتنا المختنقة: لكن هنا فى المكتبة تستطيع التنفس بسلاسة، إنها غرفة مصنوعة من الأخشاب، بدلاً من الأقمشة، أرضيتها عبارة عن ألواح، ويغطى الشيش نوافذها الطويلة، وجدرانها مخططة برفوف من البلوط الصلب.

الغرفة مرتفعة السقف، أكثر بكثير من كونها عريضة، فى أحد جوانبها امتدت خمس نوافذ من السقف إلى الأرض تقريبًا وتعلوها أقواس، صُفَّت عند قاعدتها مقاعد تجاه النافذة، وفى الجهة المقابلة

رُصَّت خمس مرايا تشبه النوافذ شكلاً لتعكس المشهد الخارجى، لكن فى تلك الليلة كانت تعكس ألواح شيش النوافذ ذات النقوش، امتدت رفوف الكتب من الجدران إلى عمق الغرفة، مشكلة ما يشبه الخلجان، وفى كل مساحة مواتية وُضع مصباح أصفر الضوء على طاولة صغيرة، تلك المصابيح هى مصدر الإضاءة الوحيد، بخلاف الموقد الذى فى الطرف الآخر من الغرفة، وقد صنعت حولها هالات رقيقة دافئة، عند أطرافها تذوب صفوف الكتب فى الظلام المحيط.

استكشفت طريقى إلى مركز الغرفة، متفحصة خلجان الكتب على يمينى ويسارى، وبعد نظراتى الأولية، وجدت نفسى أومئ إعجابًا، إنها مكتبة لائقة وتحظى بالاهتمام اللازم، المكتبة نظيفة وكتبها مرتبة حسب الأبجدية والتخصص، كأننى رتبتها بنفسى، كل مفضلاتى موجودة، إلى جانب عدد كبير من المجلدات النادرة والقيمة، بخلاف النسخ العادية المستهلكة، لم أجد روايات "جين أير"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"ذات الرداء الأبيض" فقط، بل ووجدت أيضًا "قلعة أوترانتو"، و"سر السيدة أودلى"، و"ذا سبيكتر برايد"، وفُتنت حين صادفت نسخة من رواية "دكتور جيكل ومستر هايد" نادرة جدًّا لدرجة أن والدى تخلى عن الاعتقاد بوجودها.

تحت تأثير ذهولى بالمجموعة المختارة بعناية من المجلدات على رفوف السيدة "وينتر"، استكشفت طريقى نحو الموقد فى طرف الغرفة، وعند الخليج الأخير إلى اليمين تبرز مجموعة معينة من الرفوف حتى ولو من بُعد: فبدلاً من الكعوب العتيقة البنية فى غالبها المميزة للكتب القديمة، تراوحت ألوان تلك المجموعة بين الأزرق الفضى، والأخضر الداكن، والوردى الرملى، ذلك المزيج المميز لكتب العقود الأخيرة، تلك هى الكتب الحديثة الوحيدة فى الغرفة، إنها كتب السيدة "وينتر" نفسها، وقد وضعت مؤلفاتها المبكرة فى الأعلى ورواياتها الأخيرة فى الأسفل، وكل عمل تمثله نسخة من كل

طبعة، بل ومن كل لغة، لم أرَ "ثلاث عشرة حكاية"، الكتاب ذا العنوان الخطأ الذى قرأته فى المتجر، لكن توجد أكثر من دستة من الطبعات تحت عنوانه الآخر "حكايات عن التغير واليأس".

اخترت نسخة من كتاب السيدة "وينتر" الأخير، فى الصفحة الأولى، تصل راهبة مسنة إلى منزل صغير فى الشوارع الخلفية لبلدة بلا اسم لكنها بدت فى إيطاليا، ويرشدها أحد إلى غرفة حيث يحبُّها شاب منتفخ الذات، نفترض أنه إنجليزى أو أمريكى، يبدو متفاجئًا بعض الشىء، (طويت الصفحة، فقد جذبتنى الفقرات الأولى ليس إلا، مثلما يحدث فى كل مرة أفتح كتابًا لها، ومن دون تخطيط، أشرع فى قراءتها بنهم)، لا يدرك الشاب فى البداية ما يفهمه القارئ: أن زائرته جاءت من أجل مهمة خطيرة، مهمة ستغير حياته بطرق لا يُتوقع أن يتخيلها، وتبدأ الراهبة فى الشرح، وتتحمل بصبر حين يعاملها هو بطيش الشباب المدلل، وحين طويت الصفحة، كنت قد نسيت أمر المكتبة، والسيدة "وينتر"، ونفسى...

عند ذلك قطع شىء طريق قراءتى وأخرجنى من الكتاب، إنه وخز فى مؤخر عنقى.

أحد يراقبنى.

أعرف أن ذلك الشعور فى مؤخر العنق شائع إلى حد ما، لكن هذه أول مرة أختبره، مثل الكثير من الوحيدين، حواسى معتادة على وجود الآخرين، فأنا معتادة على أن أكون المتجسِسة الخفية فى الغرفة أكثر من كونى المتجسَس عليها، والآن أحد يراقبنى، وليس هذا فقط، بل وكان يراقبنى لبعض الوقت، لكم من الوقت ظل هذا الشعور غير القابل للشك يدغدغنى؟ تأملت الدقائق الأخيرة محاولة تتبع ذاكرة جسدى مع أحداث الكتاب، أكنت أراقَب منذ أن بدأت الراهبة الحديث إلى الشاب؟ منذ أن أُرشدت إلى داخل المنزل؟ أم قبل ذلك؟

حاولـت أن أتذكـر مـن دون تحريـك عضلـة واحـدة، كنـت منكبـة عـلى الصفحـة كأن شـيئًا لم يحـدث.

ثم أدركت.

شعرت به قبل حتى أن ألتقط الكتاب.

احتجـت إلى دقيقـة لأمسـك بزمـام أفـكارى، فطويـت الصفحـة واسـتمررت فى ادعـاء القـراءة.

"لا تستطيعين خداعى".

سمعتها بنبرة معلنة آمرة لا سبيل لتجاهلها.

لم يكن بوسعى سوى الاستدارة ومواجهتها.

لم تقصـد "فيـدا وينـتر" بمظهرهـا أى شىء سـوى أن تكـون ملحوظـة، كأنهـا ملكـة أو سـاحرة أو معبـودة قديمـة، انتصـب جسـدها المشـدود كأنهـا ملكـة تسـتقر بـين وفـرة مـن الوسـائد الحمـراء والأرجوانيـة المنتفخـة، طيـات الملابـس الخضراء والفيروزيـة الملتفـة حـول كتفيهـا، والتـى غطـت جسـدها، لم تخفـف حـدة قوامهـا، ورُتـب شـعرها النحـاسى اللامـع فى شـكل خليـط طويـل مـن الثنايـا والتموجـات، ووجههـا، المرسـوم بشـكل محكـم كأنـه خريطـة، يغطيـه مسـحوق أبيـض وبـه لمسـة أخـيرة مـن أحمـر الشـفاه القرمـزى الجـرىء، وفى حجرهـا تسـتقر يداهـا كأنهـا كتلـة مـن الياقـوت والزمـرد والعُقـل البيضـاء النحيلـة، وأظفارهـا، غـير اللامعـة، والقصيرة المربعـة مثـل أظفـارى، هـى الـشىء الوحيـد الـذى بـدا غريبًـا عنهـا.

مـا أفقـدنى شـجاعتى أكـثر مـن كل هـذا هـو نظارتهـا الشمسـية، التـى منعتنـى مـن رؤيـة عينيهـا، لكننـى تذكـرت الحدقتـين الخضراويـن غـير البشريتـين فى الصـورة بمحطـة القطـار، بـدت نظارتهـا السـوداء كأنهـا

تستحضر قوة كشاف ضوئى: تكوّن لدى انطباع بأن هذه النظّارة تجعل جلدى شفافًا وتمكنها من اختراق أعماق روحى.

شددت غطاءً على نفسى، والتزمت الحياد، واختبأت وراء ملابسى.

أظن أنها للحظة كانت متفاجئة من أننى لست شفافة، وأنها لا تستطيع اختراق روحى، لكنها أمسكت بزمام أفكارها سريعًا، أسرع منى.

قالت بنبرة حادة: "حسنًا"، وابتسمت كأن ابتسامتها لنفسها أكثر مما هى لى، "لنبدأ العمل، فهمت من رسالتك أن لديك تحفظات بشأن النسبة التى عرضتها عليك".

"نعم، هذا..."

جاء ردها كأنه قطار لا سبيل لإيقافه: "أقترح زيادة الراتب الشهرى والأجر النهائى".

عضضت شفتى باحثة عن الرد المناسب، وقبل أن أتكلم، كانت نظارة السيدة "وينتر" الداكنة قد فحصتنى من أساسى إلى رأسى، من قصة شعرى البنية المنبسطة مرورًا بتنورتى المكوية إلى سترتى الزرقاء، وابتسمت ابتسامة شفقة، وعطلت نيتى أن أتكلم، "لكن يبدو واضحًا أن الاهتمام بالمال ليس من طبيعتك، كم هذا طريف"، بنبرة جافة، "لقد كتبت عمَّن لا يهتمون بالمال، لكننى لم أتوقع أن أقابل أحدهم أبدًا"، ومالت إلى الوراء مستندة إلى الوسائد، "وبالتالى أستنتج أن المشكلة تتعلق بالنزاهة، فمن يغيب عن حياتهم التوازن الذى يحققه الحب الصحى للمال يعانون من هوس مروع بالنزاهة الشخصية".

لوحت بيدها، رافضة ردى قبل أن ينطق به لسانى، "تخافين أن تكتبى سيرة ذاتية بإذن صاحبها لأن هذا قد يهدد استقلاليتك، تشكين فى أننى أريد بسط سيطرتى على محتويات الكتاب، تعرفين أننى

قاومت عروض كاتبى السير الذاتية فى الماضى وتتساءلين عن هدف من تغيير رأيى الآن، وفوق كل هذا". رأيت مجددًا ذلك التحديق بالنظارة الشمسية، "تخافين أن أتعمد الكذب عليك".

فتحت فمى لأعترض، لكنه لم يجد ما ينطق به، فهى محقة.

"ليس لديك رد، أليس كذلك؟ أتخجلين من اتهامى بأنى أريد الكذب عليك؟ لا يحب الناس أن يتهم بعضهم بعضًا بالكذب، وبحق السماء فلتجلسى".

جلست وقلت بلطف: "لا أتهمك بأى شىء..."، لكنها قاطعتنى على الفور.

"لا تكونى مهذبة، لو أن هناك شيئًا واحدًا لا أتحمله فهو التهذب".

اختلج جبينها، وارتفع حاجب أعلى حدود نظاراتها، كان كقوس أسود قوى ليست له علاقة بأى حاجب طبيعى".

"التهذب، إنها فضيلة المغلوب على أمره، هلا أخبرتنى، ما الجدير بالإعجاب فى الوداعة؟ ففى النهاية، الوداعة سهلة جدًّا، لا يتطلب الأمر موهبة خاصة حتى يكون المرء مهذبًا، بل على النقيض، أن تكونى لطيفة هو آخر ما يتبقى لك بعد أن تفشلى فى كل شىء، الطموحون لا يشغلهم ما يظنه الناس عنهم، لا أفترض أن (ريتشارد فاجنر) كان يؤرق منامه التفكير في ما إذا كان قد آذى مشاعر أحد ما، لكنه كان عبقريًّا".

وانطلق حديثها بلا هوادة، ذاكرة المثال وراء المثال على العبقرية ورفيقتها الأنانية، وطيات شالها لم تتزحزح طوال حديثها، قلت لنفسى إنها بالتأكيد مصنوعة من الصلب.

فى النهايـة اختتمـت محاضرتهـا بقولهـا: "التهـذب فضيلـة ليسـت لـدى، ولا أحـترم وجودهـا لـدى الآخريـن، فـلا حاجـة لنـا لنشـغل بالنـا بهـا"، ثـم سـكتت، كأنهـا قـد حسـمت الأمـر بـلا مجـال للنقـاش.

علقتُ: "أنت من أثار موضوع الكذب، وهذا أمر قد نشغل بالنا به".

"مـن أيَّـة ناحيـة؟" عـبر النظـارة المعتمـة، اسـتطعت رؤيـة حركـة رمـوش السـيدة "وينـتر"، جثمـت وارتجفـت حـول عينيهـا مثلـما تفعـل أرجـل العنكبـوت الطويلـة حـول جسـده.

"لقـد قدمـت تسـع عـشرة نسـخة مختلفـة من قصـة حياتـك للصحفيين خـلال العامـين الماضيـين فقـط، وذلـك عـدد مـا وجدتـه ببحـث سريـع، هنـاك المزيـد، ربمـا المئـات".

هزت كتفيها استهجانًا: "هذا عملى، أنا راوية قصص".

"وأنا كاتبة سير ذاتية، ولا يستقيم عملى إلا بالحقائق".

قلَّبـت رأسـها وتحركـت معهـا تموجـات شـعرها كأنهـا خصلـة واحـدة: "هـذا ممـل حـد البشـاعة، مـا كنـت أبـدًا لأكـون كاتبـة سـير ذاتيـة، ألا تعتقديـن أن الحقيقـة يمكـن أن تُحـكى أفضـل بواسـطة قصـة؟"

"ليس بواسطة القصص التى حكيتها للعالم حتى الآن".

استسـلمت بإيمـاءة وأردفـت بنـبرة أبطـأ: "آنسـة (ليـا)، كانـت لـدى أسـبابى لأحجـب مـاضٍ وراء سـتار، وأؤكـد لـك أن تلـك الأسـباب لم تعـد موجـودة".

"أى أسباب؟"

"الحياة معقدة".

أرمشتُ.

"تظنين أنه شيء غريب أن يُقال، لكنه حقيقى، حياتى وتجاربى كلها، والأحداث التى حلَّت على، وكل من عرفتهم، وكل ذكرياتى، وأحلامى، وخيالاتى، وكل ما قرأته، كل ذلك رُمى فى كومة تحللت بمرور الزمن لتكوِّن سمادًا عضويًا غنيًّا داكنًا، وعملية التحلل تجعلها بلا ملامح، يسمى الآخرون هذا الخيال، لكننى أعتبره كومة سماد، فبين الحين والآخر آخذ فكرة وأزرعها فى السماد، وأنتظر، إنها تتغذى على الشىء المظلم الذى كان حياتى، وتستمد منه طاقتها، ثم تنبت، وتهبط جذورها، وتمتد أغصانها، وما إلى ذلك، إلى أن أجد أمامى فى يوم هادئ قصة، أو رواية".

أومأت معجبة بالتشبيه.

أردفت السيدة "وينتر": "القراء مغفلون، يعتقدون أن الكتابة كلها متعلقة بسيرة الكاتب الذاتية، وهى فى الواقع هكذا، ولكن ليس مثلما يظنون، فحياة الكاتب تحتاج إلى بعض الوقت لتنضج قبل أن يستخدمها فى إنماء عمل خيالى، يجب أن تُترك لتتحلل، لذا لم أستطع أن أترك الصحفيين وكتاب السير الذاتية يعبثون بماضٍ، مسترجعين أجزاء وقطعًا منه، ومحتفظين بها فى كلماتهم، فحتى أكتب كتبى، احتجت إلى ترك الماضى فى سلام، حتى يفعل الزمن أفاعيله".

تأملت إجابتها ثم سألتها: "وماذا حدث ليتغير هذا الآن؟"

"أنا مسنة ومريضة، ضعى هاتين الحقيقتين معًا يا كاتبة السير الذاتية وأخبرينى علامَ تحصلين؟ أعتقد أنها نهاية القصة".

عضضت شفتى: "ولماذا لا تكتبين الكتاب بنفسك؟"

"لقد تأخرت جدًّا، إلى جانب أن من سيصدقنى؟ لقد أرسلت استغاثات كاذبة كثيرة".

سألتها: "وهل تنوين إخبارى الحقيقة؟"

قالـت: "نعـم"، لكننـى سـمعت ترددهـا مـع أنـه اسـتمر لجـزء مـن الثانيـة.

"ولماذا تريدين أن تقوليها لى؟"

سـكتت لبرهـة، "أتعلمـين، ظللـت أسـأل نفـسى هـذا السـؤال طـوال ربـع السـاعة الماضيـة، أى نـوع مـن البـشر أنـت يـا آنسـة (ليـا)؟"

ثبّـتُّ القنـاع الـذى أخفيـت نفـسى وراءه قبـل أن أرد: "أنـا مسـاعدة فى متجـر، أعمـل فى متجـر للكتـب النـادرة، وأنـا كاتبـة سـير ذاتيـة هاويـة، أفـترض مسـبقًا أنـك قـرأت كتـابى عـن الأخويـن (لانديـر)".

"هـذا ليـس كافيًـا، ألا تتفقـين؟ إن كنـا سـنعمل معًـا، سـأحتاج إلى أن أعـرف المزيـد عنـك، مـن الصعـب أن أفـشى أسرار حيـاتى بالكامـل لشـخص لا أعـرف عنـه شـيئًا، لـذا أخبرينـى عـن نفسـك، مـا كتبـك المفضلـة؟ بـم تحلمـين؟ مـن تحبـين؟"

وفى الحال شعرت بالإهانة لدرجة منعتنى من الإجابة.

"هيـا! أجيبـى! بحـق السـماء! هـل سـأترك غريبـة تعيش تحت سـقفى؟ هـل سـتعمل معـى غريبـة؟ الأمـر غـير معقـول، أخبرينـى، أتصدقـين وجـود الأشباح؟"

حينئذ حركنى شىء أقوى من المنطق، فنهضت من الكرسى.

"ماذا تفعلين؟ إلى أين تذهبين؟ انتظرى!"

خطـوت الخطـوة وراء الأخـرى، محاولـة ألا أجـرى، وسـمعت إيقـاع ضرب خطـواتى عـلى الألـواح الخشـبية، فى حـين نـادت هـى بصـوتِ مَـنْ كاد يسـقط مـن حافـة الذعـر.

فصرخت: "عودى! سأحكى لك قصة، قصة رائعة!"

لكننى لم أتوقف.

"فى يوم من الأيام كان هناك بيت مسكون..."

بلغت الباب، وقبضت يداى المقبض.

"فى يوم من الأيام كانت هناك مكتبة..."

فتحت الباب وكنت على وشك الخروج نحو الخواء، حين قالت بصوت أبحّه الخوف كلماتٍ جعلتنى أتجمد فى مكانى.

"فى يوم من الأيام كانت هناك توأمتان..."

انتظرت حتى تلاشى صدى كلماتها ثم نظرت إلى ورائى رغمًا عنى، رأيت مؤخر رأسها ويديها المرتجفتين تغطيان وجهها الذى أشاحته عنى.

عدت بخطوة حذرة إلى داخل الغرفة، ومع وقع خطواتى، تحول رأسها ذو الشعر النحاسى إلىّ.

كنت مذهولة، لقد خلعت النظارة، ورأيت عينين خضراوين ساطعتين كالزجاج، تنظران إلىّ بشىء من التوسل، للحظة بادلتها التحديق، ثم قالت بصوت مرتعش: "آنسة (ليا)، هلا تجلسين إذا سمحت"، ولولا أنى رأيتها تتحدث، ما كنت لأصدق أن هذا صوتها.

حركنى شىء يتجاوز قدرتى، فاقتربت من الكرسى وجلست.

قلت بصوت مُتعَب: "لن أعدك بأى شىء".

ردت بصوت ضعيف: "لست فى موضع مناسب لطلب أى وعود".

إنها هدنة إذًا.

سألتها مجددًا: "لماذا اخترتنى؟" وأجابت فى هذه المرة.

"بسبب كتابك عن الأخوين (لانديير)، لأن تجربة الأخوّة ليست غريبة عنك".

"وهل ستخبرينني الحقيقة؟"

"سأخبرك الحقيقة".

كان ردها غير غامض بدرجة كفاية، لكنني سمعت أيضًا الرجفة التى قيَّدتها، إنها تقصد أن تقول الحقيقة، لم أشك فى ذلك، قررت أن تقولها، ربما حتى لم تقرر ذلك فقط، بل أرادته أيضًا، إلا أنها لم تصدق تمامًا أنها ستفعل ذلك، ويأتى وعدها بالصراحة بهذا الوضوح حتى تقنع نفسها مثلما تريد أن تقنعنى، وقد سمعت هى رجفة الشك فى صوتها مثلما سمعتها أنا.

لذا اقترحت شيئًا: "سأطلب منك ثلاث حقائق، حقائق متاحة فى السجلات العامة، وحين أرحل من هنا، سأتمكن من التحقق بشأنها، إن وجدت أنك قلت الحقيقة، فسأقبل بالنسبة التى عرضتها علىّ".

"نعم، قاعدة الثلاثة، الرقم السحرى، ثلاث محاولات قبل أن يفوز الأمير بيد الأميرة الجميلة، ثلاث أمنيات قدمتها السمكة السحرية للصياد، قصة الدببة الثلاثة، وقصة العنزات الثلاث، يا آنسة (ليا)، لو سألتنى سؤالين أو أربعة أسئلة ربما لأتمكن من الكذب، لكن ثلاثة..."

أخرجت قلمى من كعب دفترى وفتحته.

"ما اسمك الحقيقى؟"

ازدردت ريقها وردت: "أمتأكدة من أن هذه أفضل طريقة لنبدأ؟ يمكننى أن أحكى قصة أشباح جيدة، ولا أقول إنها جيدة لأننى من ستحكيها، قد تكون هذه طريقة جيدة لنصل إلى حقيقة الأمور..."

هززت رأسى معترضة: "أخبرينى اسمك".

انتقلت كتلة الياقوت وعُقل الأصابع إلى حجرها، وتوهجت أحجارها فى ضوء النار.

"اسمى (فيدا وينتر)، ولقد اتخذت كل الإجراءات القانونية اللازمة لأحصل على هذا الاسم على نحو قانونى وصريح، ما تريدين معرفته هو الاسم الذى عُرفت به قبل هذا التغير، هذا الاسم هو..."

سكتت للحظة، كانت فى حاجة إلى تجاوز حاجز ما بداخلها، وحين نطقت الاسم اتسمت نبرتها بحيادية ملحوظة، غياب كامل لأى مشاعر، كأنها كلمة من لغة أجنبية لم تجتهد كفاية لتتعلمها: "هذا الاسم هو (آديلاين مارش)".

أردفت بنبرة حادة كأنها تريد تبديد أقل اهتزازة يحدثها هذا الاسم فى الهواء: "آمل ألا تسألينى عن تاريخ مولدى، ففى مثل سنى هذه يصبح عاديًّا أن أنساه".

"لا بأس بذلك إن أخبرتنى بمحل مولدك".

أطلقت تنهيدة منزعجة: "يمكننى أن أخبرك بمعلومات أفضل كثيرًا، فقط إن سمحت لى بأن أقولها بطريقتى".

"هذا ما اتفقنا عليه، ثلاث حقائق مسجلة فى السجلات العامة".

زمَّت شفتيها: "ستجدين فى السجلات العامة أن (آديلاين مارش) ولدت فى مشفى القديس بارثولوميو بلندن، من الصعب أن تنتظرى منى تقديم أى ضمانة شخصية على صحة هذه التفصيلة، فمع أننى شخصية استثنائية، أنا لست استثنائية لدرجة أنى أتذكر مولدى".

دونت هذه المعلومة.

والآن السؤال الثالث، يجب أن أعترف بأننى لم أعدّ سؤالاً ثالثًا معينًا، لم ترد أن تخبرنى بسنها، وأنا بالكاد أحتاج إلى سنها، فبناء على تاريخ أعمالها الطويل، وتاريخ نشر أول كتبها، لا يمكن أن تبلغ أقل من ثلاثة أو أربعة وسبعين عامًا، وبناء على مظهرها، مع أنه متغير بسبب المرض ومساحيق التجميل، فإنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت

الثمانين، لكن هذه الضبابية لم تهمنى، فباسمها ومحل ميلادها يمكننى أن أتوصل إلى تاريخ مولدها بنفسى، وبفضل سؤالىَّ السابقيْن، أصبحت لدى المعلومات الكافية لأعرف إن كان أحد باسم "آديلاين مارش" قد عاش قط، عم أسألها إذًا؟ ربما شعرت برغبتى فى أن أسمع السيدة "وينتر" تحكى حكاية، لكن حين لاحت الفرصة لأستخدم سؤالى الثالث كيفما يحلو لى، انتهزتها.

تقدمت ببطء وحذر: "أخبرينى"، فى كل قصص السحرة، دائمًا ما تكون الأمنية الثالثة هى ما يُذهب كل ما كسبه المتمنى هباءً بعدما كابد الخطر، "أخبرينى بشىء حدث لك قبل تغيير اسمك ويمكن العثور عليه فى السجلات العامة". فكرت فى النجاحات التعليمية، أو الإنجازات الرياضية خلال الدراسة، تلك الانتصارات الصغيرة التى تُسجل حتى يفخر بها الآباء وتستلهمها الأجيال القادمة.

خلال الصمت الذى تلى السؤال، بدا أن السيدة "وينتر" تنسحب إلى داخلها، لقد نجحت وهى جالسة أمام ناظرىّ فى أن تكون غائبة، حينها فهمت كيف لم أرها منذ قليل وهى فى الغرفة نفسها، رأيتها أمامى بلا أى تفاعل مع ما يحدث خارج جسدها، أذهلنى فى هذه اللحظة مدى استحالة معرفة ما يدور داخل رأسها.

ثم ارتدت مجددًا.

"أتعلمين لماذا حققت كتبى نجاحًا بالغًا؟"

"لأسباب كثيرة جدًّا".

"يُمكن، فى الغالب، لأن بها بداية ومنتصفًا ونهاية، بالترتيب الصحيح، بالتأكيد لكل القصص بداية ومنتصف ونهاية، ولكن ما يهم هو أن يكون الترتيب صحيحًا، لهذا تعجب كتبى الناس".

تنهـدت وتململـت بيديهـا: "سـأجيب عـن سـؤالك، سـأحكى لـك شـيئًا حـدث قبـل أن أصبـح كاتبـة وأغـير اسـمى، وهـو مسـجل فى السـجلات العامـة، إنـه أهـم مـا حـدث لى فى حيـاتى، لكننـى لم أتوقـع أن أجـد نفسـى أحكيـه لـك مبكـرًا جـدًّا هكـذا، سـأضطر إلى كـسر إحـدى القواعـد التـى ألزمـت نفسى بهـا، سـأخبرك بنهايـة قصتـى قبـل بدايتهـا".

"نهاية قصتك؟ كيف يمكن أنها حدثت قبل أن تشرعى بالكتابة؟"

"ببسـاطة لأن قصتـى الشـخصية الخاصـة جـدًّا انتهـت قبـل أن أبـدأ فى الكتابـة، ومنذئـذ كان حـكى القصـص مجـرد طريقـة لمـلء الوقـت بعدمـا انتهـى كل شىء".

انتظـرتُ، أخـذت هـى نفسًـا كلاعـب شـطرنج وجـد قطعتـه الأهـم محـاصرة.

"مـا كنـت لأحـكى لـك هـذا بهـذه السرعـة، لكننـى وعدتـك، إنهـا قاعدة الثلاثـة الحتميـة، قـد يسـتجدى السـاحر الفتـى لكيـلا يتمنـى الأمنيـة الثالثـة، لأنـه يعـرف أنهـا سـتنتهى بكارثـة، لكـن الفتـى سـيتمنى الثالثة عـلى أيَّـة حـال، والسـاحر مُلـزم بتحقيقهـا لأنهـا قواعـد القصـة، طلبـت منـى أن أخبرك الحقيقـة بشـأن ثلاثـة أشـياء، ويجـب أن أفعـل ذلـك، لكـن سـأطلب منـك شـيئًا فى المقابـل".

"ماذا؟"

"بعـد إجابتـى، لـن أتجـاوز ترتيـب أيٍّ مـن مراحـل القصـة، بـدءًا مـن الغـد، سـأحكى لـك قصتـى، بدايـة مـن البدايـة، مـرورًا بالمنتصـف، وختامًـا بالنهايـة، كل مرحلـة فى وقتهـا، بـلا أيَّـة حيـل ولا اسـتثناءات ولا أسـئلة، ولـن تسـترقى النظـر إلى الصفحـات الأخـيرة".

هـل لهـا الحـق فى فـرض شروط عـلى اتفاقنـا بعـد أن وافقـت عليـه؟ ليـس حقًّـا، ولكـن مـع ذلـك أومـأتُ موافقـة.

"اتفقنا".

لم تتمكن من النظر إلىّ وهى تحكى.

"كنت أعيش فى آنجلفيلد".

ارتجف صوتها إثر نطق اسم ذلك المكان، ثم حكّت باطن يدها بحركة عفوية متوترة.

"كان عمرى ستة عشر عامًا".

أصبح صوتها منقبضًا وهجرته السلاسة.

"وحدث حريق".

كانت تطرد الكلمات من حنجرتها جافة وصلبة، كأنها تقذف حجارة.

"فقدت كل شىء".

ثم هربت صرخة من بين شفتيها أخفقت فى إيقافها: "أوه يا (إيميلاين)!"

يُعتقد فى بعض الثقافات أن الاسم يحتوى على كل قوى الشخص الروحانية، وأن الاسم يجب أن يكون معروفًا للرب ولحامله وللقليل جدًّا من المحظوظين، فنطق مثل هذا الاسم، سواء أكان بلسان صاحبه أو أحد آخر، يمثل دعوة للخطر، وقد بدا أن هذا ينطبق على ذلك الاسم.

ضمت السيدة "وينتر" شفتيها، لكنها تأخرت جدًّا فى ذلك، فقد مرت رجفة تحت جلدها.

الآن أدركت أننى وصلت إلى القصة، لقد عثرت على قلب الحكاية التى كُلفت بروايتها، إنها عن الحب والفقدان، فماذا قد يسبب حزن تلك الصرخة سوى فاجعة الفقد؟ وفى التو رأيت ما وراء قناع

مساحيق التجميل البيضاء والستار الغريب، لمدة بضع ثوانٍ بدا لى أننى أرى ما بقلب السيدة "وينتر"، وما يدور بعقلها، لقد عرفت جوهرها: وكيف أخطئه وهو جوهرى أنا أيضًا؟ كلتانا كانت توأمة وحيدة، بعدما أدركت هذا، ضاق زمام القصة على معصمى، وقطع الخوف فجأة حبل حماستى.

سألتها: "أين أجد هذا الحريق بالسجلات العامة؟" محاولة ألا أبدى مشاعرى المضطربة فى صوتى.

"فى الصحف المحلية، صحيفة بانبرى هيرالد".

أومأتُ، ودونت ذلك فى دفترى وأغلقته.

عقبت: "مع أن هناك سجلاً من نوع آخر يمكن أن أريه لك الآن".

رفعت حاجبى.

"اقتربى".

انتصبتُ واقتربت خطوة حتى أصبحت بمنتصف المسافة بيننا.

رفعت ذراعها اليمنى ببطء، وقرّبت إلى قبضتها المغلقة التى بدت كالجوهرة من أحد جوانبها، وبحركة دلت على جهد كبير، أدارت يدها وفتحتها، كأنها أخفت بداخلها هدية مفاجئة وكانت على وشك تقديمها إلى.

لكن لم تكن هناك هدية، فالمفاجأة هى اليد نفسها.

كان لحم كفها مختلفًا عن أى يد رأيتها من قبل، لم تحمل نتوءاته البيضاء وتجاعيده القرمزية أيّة علاقة بالقاعدة الوردية التى تستقر عليها أصابعى، ذلك السهل الشاحب بكف يدى، أذابت النار جلد كفها، وبرد ليشكل منظرًا بلا أى ملامح مميزة، مثل مشهد تدفقت الحمم البركانية عبره فغيرته للأبد، لم تنفتح أصابعها تمامًا، بل كانت أشبه بالمخلب بسبب تقلص نسيج الندب، وفى قلب كفها، يوجد

ندب داخل ندب، وحرق داخل حرق، إنه أثر بشع للحريق، الندب غائر جدًّا فى قبضتها، غائر لدرجة أننى، وبشعور مفاجئ بالغثيان، تساءلت عما حدث للعظمة التى يُفترض أن توجد هناك، جعل ذلك شكل الوضعية الغريبة ليدها عند المعصم منطقية، كان أثر الحريق على شكل دائرة راسخة فى كفها، وتمتد من الكف بخط قصير نحو الإبهام.

الحرق يشبه حرف "كيو" الإنجليزى، لكن فى لحظتها، وإثر صدمة هذا الكشف المؤلم والمفاجئ، لم يكن شكل الأثر بهذا الوضوح، وأزعجنى مثلما قد يزعجنى ظهور رمز غير مألوف من لغة مفقودة أجهلها وسط صفحة باللغة الإنجليزية.

سيطر علىّ دوار مفاجئ وحاولت الوصول إلى مقعدى ورائى.

سمعتها تقول: "أنا آسفة، يعتاد المرء على أهواله الشخصية وينسى أنها تخيف الآخرين".

جلست وبدأت الظلمة التى حاصرت رؤيتى فى الانحسار.

أغلقت السيدة وينتر أصابعها على كفها المشوه، وأدارت معصمها وجذبت قبضتها المرصعة بالمجوهرات إلى حجرها، وفى حركة تحفظية، غلفت تلك اليد بأصابع يدها الأخرى.

"أنا حزينة لأنك لم تريدى أن تسمعى حكايتى عن الأشباح يا آنسة (ليا)".

"سأسمعها فى مرة أخرى".

وانتهت المقابلة.

فى طريق عودتى إلى غرفتى، فكرت فى رسالتها إلىّ، واليد المرهقة المثابرة التى لم أر مثلها من قبل، حينها أرجعت سبب بدائية الخط إلى الاعتلال، ربما التهاب المفاصل، والآن عرفت السبب، منذ كتابها

الأول وطـوال مسـيرتها كلهـا، كتبـت السـيدة "وينـتر" كل تحفهـا الفنيـة بيدهـا اليـسرى.

فى غرفـة الدراسـة، السـتائر المخملية خـضراء، ويغطـى الجـدران السـاتان الذهبـى الباهـت ذو العلامـات المائيـة، وعـلى الرغـم مـن ذلـك الصمـت المبهـم، سررت بالغرفـة، لأن المكتـب الخشـبى العريـض والكـرسى البسـيط الجاثـم تحـت النافـذة يخففـان ثقـل جوهـا العـام، أضـأت مصبـاح المكتـب وأخرجـت رزمـة الـورق التـى أحضرتهـا معـى، وأقلامـى الرصـاص الاثنـى عـشر، تلـك الأقـلام جديـدة تمامًـا: أعمـدة حمـراء غـير مشـحوذة، وهـذا تحديـدًا مـا أود أن أبـدأ مشروعًـا جديـدًا بـه، وآخـر مـا أخذتـه مـن حقيبتـى كان المـبراة، ركَّبتهـا عنـد طـرف المكتـب ووضعـت سـلة الأوراق تحتهـا مبـاشرة.

فجـأة قـررت أن أصعـد فـوق المكتـب وأصـل إلى العارضـة أعلى السـتارة القصـيرة العريضـة، تلمسـت أصابعـى قمـة السـتارة وتحسسـت الكلابـات والغـرز التـى ربطـت بعضهـا ببعـض، لم تكـن تلـك مهمـة شـخص واحـد قـط، فالسـتائر تمتـد بطـول الجـدار، ومحاكـة بطـرق مختلفـة، أمـا وزنهـا فشـعرت بـه حـين هـوى عـلى كتفـى، كان سـاحقًا، لكـن بعـد دقائـق عـدة، كانـت أول سـتارة مطويـة وموضوعـة فى الخزانـة، ثـم الثانيـة، وقفـت فى منتصـف الغرفـة وعاينـت نتيجـة عمـلى.

النافـذة عبـارة عـن امتـداد واسـع مـن الزجـاج الداكـن وفى منتصفـه وقـف شـبحى المظلـم الشـفاف يحـدق إلى، عالمـه ليـس مختلفًـا عـن عالمـى: إطـار شـاحب لمكتـب فى الجانـب الآخـر مـن الزجـاج، وخلفـه يقـع كـرسى بذراعـين بـه أزرار عميقـة فى دائـرة الضـوء الصـادر عـن مصبـاح تقليـدى، لكـن كـرسى أحمـر، وكرسـيُّه رمـادى، وفى حـين اسـتقر كـرسى عـلى سـجادة هنديـة، محاطًـا بجـدران ذهبيـة فاتحـة، لاح كرسـيه كالطيـف

فى ظلمة بلا نهاية ولا معالم بدت فيها أشكال غريبة، تشبه الموج، تتحرك وتتنفس.

بدأنا معًا طقس تحضير مكتبينا سريعًا، قسَّمنا رزمة الأوراق إلى أكوام أصغر ونفضنا كل ورقة منها لنسمح لها بالتنفس، وشحذنا أقلامنا واحدًا تلو الآخر، مديرين يد المبراة ونشاهد الطبقات المتساقطة تلتف حول نفسها وتتدلى فى طريقها إلى سلة الأوراق أسفلها، وحين شُحذ آخر قلم حتى أصبح طرفه مدببًا، لم نضعه جانبًا مع الأقلام الأخرى، بل ظللنا ممسكين به.

قلت لشبحى: "هيا، أنا جاهزة للعمل".

فتحت فمها، بدا كأنها تتحدث معى، لكننى لم أتبين ما تقوله.

لم أمارس الكتابة الاختزالية، فخلال المقابلة، أدون ببساطة واختصار قوائم بكلمات مفتاحية، وآمل أننى إن كتبت مقابلاتنا بعدها على الفور، فإن هذه الكلمات ستكون كافية لتنشيط ذاكرتى، ومنذ اللقاء الأول، كان ذلك الأسلوب ناجحًا، وأنا أسترق النظر إلى دفترى بين الحين والآخر، ملأت أوراقى بكلمات السيدة "وينتر"، أستحضر صورتها فى بالى، أستمع إلى صوتها، أرى طريقتها المميزة، وبعد فترة قصيرة، كنت بالكاد أنتبه إلى دفترى، لكن حين أفرغ المقابلة كنت أتلقى الإملاءات من السيدة "وينتر" التى فى عقلى.

تركت هوامش واسعة، فى الهوامش اليسرى أدون السلوكيات والتعبيرات والإيماءات التى بدا أنها تضيف شيئًا للمعنى، وتركت الهوامش اليمنى بيضاء، لاحقًا، حين أعيد قراءة ما دونته، سأكتب فى هذا الجانب أفكارى وتعليقاتى وأسئلتى.

شعرت كأننى عملت لساعات، وقفت لأعد لنفسى كوبًا من الكاكاو، لكنه لم يستغرق الكثير من الوقت ولم يعكر صفو تسليتى، عدت إلى عملى والتقطت حبل أفكارى من حيث تركته.

كتبت أخيراً فى وسط الصفحة: "أنا آسفة، يعتاد المرء على أهواله الشخصية وينسى أنها تخيف الآخرين"، وأضفت إلى اليسار ملحوظة تصف كيف احتضنت قبضة يدها المتأذية المغلقة بيدها الأخرى السليمة.

رسمت خطًا مزدوجًا تحت آخر سطر من النص، وتمددت، وفى النافذة وجدت شبحى يتمدد مثلى، ثم أخذ أقلام الرصاص التى استهلكت رءوسها وشحذها واحدًا تلو الآخر.

كان شبحى فى منتصف تثاؤب حين بدأ شىء فى الحدوث بوجهه، فى البداية رأيت لطخة مفاجئة فى منتصف جبهتها، مثل بثرة، ثم ظهرت علامة أخرى على خدها، ثم تحت عينها، وعلى أنفها، وعلى شفتيها.

كل تشوه جديد يصحبه صوت مكتوم، كان إيقاعًا يتسارع باطراد، وفى خلال ثوان قليلة، بدا أن وجهها بالكامل قد تحلل.

لكن ذلك لم يكن الموت، بل المطر، المطر المنتظَر طويلاً.

فتحت النافذة، وأخرجت يدى لتغتمر بالمطر، ثم مسحت بالمياه وجهى وعينى، اختلجت وشعرت أن وقت النوم قد حان.

تركت النافذة مواربة لأستمع إلى المطر وهو يهطل بنعومة مكتومة ومنتظمة، سمعته وأنا أخلع ملابسى، وخلال القراءة، وخلال نومى، صاحب أحلامى طوال الليل مثل مذياع مهجور غير مضبوط الموجة، يذيع ضوضاء ساكنة غامضة تنتقى أذنى منها همسات بالكاد مفهومة بلغات أجنبية وتختلس منها حديثًا من محطات غير مألوفة.

وهكذا بدأنا..

فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى بعثت السيدة "وينتر" فى طلبى، فذهبت إليها فى المكتبة.

الغرفة مختلفة جدًّا فى ضوء النهار، فحين يُفتح شيش النوافذ، تفسح النوافذ بكامل ارتفاعها الطريق لضوء السماء الباهتة، والحديقة التى لا تزال أمطار الليلة الماضية تبللها، لمعت تحت شمس الصباح، والنباتات الغريبة قرب مقاعد النافذة بدت كأنها تمد أوراقها لتلمس شقيقاتها القويات المبللات خارج النافذة، والإطار الرقيق الذى ثبت ألواح الزجاج لم يبدُ أصلب من الخيوط اللامعة لشبكة عنكبوت ممتدة بين فروع الأشجار، أما المكتبة نفسها، الأبسط والأضيق مما بدت عليه الليلة الماضية، فبدت كأنها سراب من الكتب فى الحديقة الشتوية المبللة.

على النقيض من السماء الزرقاء الباهتة والشمس البيضاء كاللبن، كانت السيدة "وينتر" تشع طاقة وحيوية، إنها وردة دفيئة غريبة

وسط حديقة شتوية شمالية، لم ترتد نظارتها الشمسية اليوم، لكن جفنيها حملا لونًا أرجوانيًا، يطوِّقه خط كحل على طريقة كليوباترا، ويؤطرهما الرمشان الأسودان الكثيفان اللذان رأيتها بالأمس، وفى ضوء النهار الصافى، رأيت ما لم أره ليلة الأمس: بطول الفرق المستقيم كالمسطرة فى شعر السيدة "وينتر" النحاسى يوجد هامش ضيق من الأبيض النقى.

قالت: "تتذكرين اتفاقنا"، وأنا أجلس على الكرسى على الجانب الآخر من الموقد، "بداية من البداية، مرورًا بالمنتصف، وختامًا بالنهاية، كل مرحلة فى وقتها، بلا أيَّة حيل ولا استثناءات ولا أسئلة، ولن تسترقى النظر إلى الصفحات الأخيرة".

كنت متعبة، نمت على سرير غريب فى مكان غريب، واستيقظت بلحن ممل بلا نغم يرن فى رأسى، قلت لها: "ابدئى من حيث تودين".

"سأبدأ من البداية، مع أن بالتأكيد البداية ليست حيث تظنينها أبدًا، فحياتنا مهمة جدًّا لنا لدرجة أننا نميل إلى الاعتقاد أن قصتها تبدأ بمولدنا، فى البدء لم يكن شيئًا، ثم ولدت أنا، مع أن هذا غير صحيح، فحياة الإنسان ليست خيطًا يمكن فصله عن خيوط الآخرين ثم شده ليكون خطًا مستقيمًا، فالعائلات عبارة عن شبكات، ويستحيل لمس جزء منها من دون أن تهتز بقيتها، ويستحيل فهم جزء منها من دون إدراك الصورة الكاملة.

"قصتى ليست خاصة بى وحدى، إنها قصة آنجلفيلد، آنجلفيلد القرية، وآنجلفيلد البيت، وعائلة (آنجلفيلد) نفسها، (جورج) و(ماتيلدا)، وطفليهما (تشارلى) و(إيزابيل)، و(إيميلاين) و(آديلاين)، بيتهم، وثرواتهم، ومخاوفهم، وشبحهم، يجب على المرء دائمًا الانتباه للأشباح، أليس كذلك يا آنسة (ليا)؟"

رمقتنى بنظرة حادة، ادعيت أننى لم أرها.

"الميـلاد ليـس البدايـة الفعليـة، فحيواتنـا فى بداياتهـا ليسـت ملكنـا، بـل هـى امتـداد لقصـة شـخص آخـر، وإليـك أنـا عـلى سـبيل المثـال، إن نظـرت إلىَّ الآن لاعتقـدت أن ميـلادى كان بـلا شـك حدثًـا مميـزًا، مصحوبًـا بالبشـائر الغريبـة، وحضرتـه السـاحرات والجـدات الجنيـات، لكـن لا، هـذا ليـس صحيحًـا بالمـرة، فى الواقـع، حـين ولـدت، لم أكـن إلا حدثًـا فى حبكـة فرعيـة".

"أسـمعك تفكريـن، لكـن كيـف عرفـت القصـة التـى سـبقت مولـدى؟ مـا مصـادرى؟ مـن أيـن حصلـت عـلى المعلومـات؟ ولكـن السـؤال هـو: مـن أيـن تـأتى أيّـة معلومـة فى بيـت مثـل آنجلفيلـد؟ إنهـم الخـدم بالتأكيد، وسـيدة خـدم المنـزل بالتحديـد، ليـس الأمـر أننـى عرفـت ذلـك مـن فمهـا مبـاشرة، أحيانًـا حـدث هـذا، فهـى كانـت تسـتغرق فى ذكريـات المـاضى وهـى جالسـة تنظـف الفضيـات، وتبـدو كأنهـا نسـيت وجـودى وهـى تتكلـم، وقـد عبسـت حـين تذكـرت شـائعات القريـة ونميمتهـا المحليـة، لقـد وصلـت الأحـداث والمحادثـات والمشـاهد إلى شـفتيها لتحـدث مـن جديـد عـلى مائـدة المطبـخ، لكـن عاجـلاً أو آجـلاً، تقودهـا أحـداث القصـة إلى أجـزاء غـير مناسـبة للأطفـال -وغـير مناسـبة لى تحديـدًا- ثـم تتذكـر فجـأة وجـودى، وتقتطـع حكايتهـا فى منتصـف جملـة، وتبـدأ فى فـرك أدوات المائـدة بشـدة كأنهـا تمسـح المـاضى، لكـن لا توجـد أسرار فى بيـت بـه أطفـال، فقـد جمعـت أجـزاء القصـة بطريقـة أخـرى، فحـين تتحـدث سـيدة الخـدم مـع البسـتانى خـلال فقـرة شـاى الصبـاح، تعلمـت أن أترجـم السـكوت المفاجـئ الـذى تخلـل مـا يبـدو كمحادثـات بريئـة، ودون أن يبـدو أننـى لاحظـت شـيئًا، أرى النظـرات الصامتـة التـى تسـتدعيها كلـمات معينـة بينهـما، وحـين كانـا يظنـان أنهـما وحدهـما ويمكـن أن يتحدثـا عـلى انفـراد، لم يكونـا وحدهـما، وبهـذه الطريقـة عرفـت قصـة أصـولى، ولاحقًـا، حـين لم تعـد سـيدة الخـدم مثلـما كانـت مـن قبـل، وحـين أربكهـا سـنها وأطلـق لسـانها، أكـدت أحاديثهـا الممطوطـة القصـة التـى ظللـت أخمنهـا

لسنوات، إنها تلك القصة التى جمعتها من التلميحات والنظرات والسكتات، والتى سأترجمها لك إلى كلمات الآن".

تنحنحت السيدة "وينتر"، واستعدت لتبدأ.

"كانت (إيزابيل آنجلفيلد) غريبة".

بدا أن صوتها يهرب منها، وسكتت متفاجئة، وحين تكلمت مجددًا كانت نبرتها حذرة.

"وُلدت (إيزابيل آنجلفيلد) خلال عاصفة ممطرة".

ثم حدث ذلك الانقطاع المفاجئ للصوت مجددًا.

كانت معتادة جدًّا على إخفاء الحقيقة لدرجة أنها ضمرت بداخلها، فبدأت بداية غير موفقة، ثم حاولت مجددًا، لكن كحال موسيقى موهوب بعد سنوات من هجر الموسيقى، تناولت أداتها الموسيقية مجددًا، ووجدت طريقها.

حكت لى قصة "إيزابيل" و"تشارلى".

***

كانت "إيزابيل آنجلفيلد" غريبة.

وُلدت "إيزابيل آنجلفيلد" فى أثناء عاصفة ممطرة.

من المستحيل معرفة ما إذا كانت ثمة علاقة بين هاتين الحقيقتين أم لا، لكن حين تركت "إيزابيل" البيت للمرة الثانية، بعد عقدين ونصف، تذكر أهل القرية أبدية المطر فى يوم مولدها، تذكر البعض تأخر الطبيب بسبب الفيضانات التى سببها إغراق النهر لضفتيه كأنه حدث بالأمس، وتذكر آخرون بلا أدنى شك أن الحبل السُرى التف حول عنق الطفلة وكاد يميتها خنقًا قبل حتى أن تولد، حسنًا، لقد كانت ولادة صعبة بلا شك، فعندما دقت الساعة السادسة، ساعة

ولادة الطفلة ورن الطبيب للجرس، ألم تنتقل أمها من هذا العالم إلى الحياة التالية؟ تُرى ماذا لو كان الطقس معتدلاً، وحضر الطبيب مبكرًا، ولم يحرم الحبل السُرى الطفلة من الأكسجين، ولم تمت أمها...

وماذا لو، وماذا لو، مثل هذا التفكير عديم الجدوى، فـ"إيزابيل" كانت "إيزابيل"، وهذا كل ما يمكن أن يُقال بهذا الشأن.

كانت الرضيعة أشبه بقطعة صغيرة من الغضب، وبلا أم، وفى البداية، بدا أنها ستكون بلا أب أيضًا، لأن والدها، "جورج آنجلفيلد"، سقط فى بئر من الضعف، فحبس نفسه فى المكتبة، ورفض بكل بصراحة أن يخرج، قد يبدو هذا تصرفًا مبالغًا فيه، فعشر سنوات من الزواج عادة تكون كافية لتقليل المودة الزوجية، لكن "آنجلفيلد" كان رجلاً غريبًا، وهكذا كان حاله، لقد أحب زوجته، "ماتيلدا" الجميلة الكسولة سيئة المزاج، أحبها أكثر مما أحب أحصنته، بل وأكثر من كلبه، أما ابنهما "تشارلى"، وهو ابن التاسعة، فلم يخطر قط على بال "جورج" أن يتساءل إذا ما كان يحبه أكثر أم أقل من "ماتيلدا"، بسبب حقيقة أنه لم يفكر فى "تشارلى" قط من الأساس.

يقضى "جورج آنجلفيلد" يومه كله فى المكتبة، ثاكل ويدفعه الحزن نحو الجنون، لا يأكل شيئًا ولا يرى أحدًا، وبات لياليه هناك أيضًا، على الأريكة التى تُحال سريرًا، لا ينام بل يحملق بعينين حمراوين إلى القمر، استمر هذا لأشهر، وأصبح خداه الشاحبان أكثر شحوبًا، وفقد وزنه، وانقطع عن الكلام، استُدعى الأطباء من لندن لأجله، وجاء القس وراح، ووهن الكلب لغياب المحبة، وبالكاد لاحظ "جورج آنجلفيلد" موته.

وفى النهاية ضاقت سيدة خدم المنزل بكل هذا، فأخذت الرضيعة "إيزابيلا" من سريرها فى الحضانة ونزلت بها إلى الطابق السفلى، خطت خطوات واسعة وهى تمر بكبير الخدم متجاهلة اعتراضاته ودخلت

إلى المكتب دون طرق الباب، وتقدمت حتى المكتب وألقت الرضيعة بين يدى "جورج آنجلفيلد" من دون كلمة، ثم استدارت وغادرت، وأغلقت الباب بعنف وراءها.

همّ كبير الخدم بالدخول حتى يستعيد الرضيعة، لكن سيدة خدم المنزل رفعت إصبعها واستهجنته: "لن تجرؤ!" وقد صدمه ذلك لدرجة أنه أطاعها، تجمع خدم المنزل أمام باب المكتبة، يتبادلون النظرات دون دراية بما يجب فعله، لكن شدة إقناع سيدة خدم المنزل شلت حركتهم، ولم يفعلوا أى شيء.

كانت تلك فترة عصر طويلة، وفى نهايتها ركضت إحدى الخادمات المساعدات نحو الحضانة: "لقد خرج! لقد خرج السيد!"

هبطت السيدة بسرعتها وطريقتها العادية لترى ما حدث.

وقف الخدم متفرجين فى الممر لساعات، يسترقون السمع عبر الباب ويختلسون النظر عبر ثقب المفتاح، فى البداية جلس سيدهم هناك بلا حركة، فقط ينظر إلى الرضيعة وعلى وجهه نظرة فاترة ومتحيرة، تلوَّت الرضيعة وغرغرت، وحين سُمع "جورج آنجلفيلد" يداعبها ضاحكًا، تبادل الخدم نظرات ذهول، لكنهم ذُهلوا أكثر لاحقًا حين سمعوا تهويداته له، فنامت الرضيعة وساد الصمت، وذكر الخدم أن والدها لم يرفع عينيه عن وجه ابنته، ثم استيقظت جائعة وشرعت فى البكاء، أخذت صرخاتها تزداد قوة وحدة إلى أن انفتح الباب.

وقف جدى هناك برضيعته بين يديه.

رأى خدمه يقفون متفرجين، فحدق إليهم وانفجر صوته: "أيُترك الرضع ليجوعوا فى هذا المنزل؟"

ومنذ هذا اليوم، تولى "جورج آنجلفيلد" مسئولية ابنته بنفسه، فكان يطعمها ويحممها وما إلى ذلك، ونقل سريرها إلى غرفته فى حال

بكت من الوحدة ليلاً، وصنع حاملاً لها لتتنقل معه، وكان يقرأ لها (رسائل العمل، وصفحات الرياضة والروايات الرومانسية)، وشارك معها كل أفكاره وخططه، باختصار، تصرف كأن "إيزابيلا" رفيقته العاقلة اللطيفة، وليست طفلة جاهلة جامحة.

ربما كان شكلها ما جعل والدها يحبها، فـ"تشارلى"، الطفل الأكبر المهمَل الذى يكبر "إيزابيل" بتسعة أعوام، كان ابن أبيه: ولد أحمر الشعر، شاحب الوجه، أحمق، بطىء الحركة والتعبير، لكن "إيزابيل" ورثت شكلها من كلا والديها، فالشعر البرتقالى الذى تتشاركه ووالدها وشقيقها كان لامعًا لدرجة كستنائية غنية، وفيها امتدت بشرة "آنجلفيلد" الشاحبة على وجه فرنسى الملامح، وحصلت على ذقن أفضل من ذقن والدها، وفم أفضل من فم والدتها، ونالت عينى "ماتيلدا" الضيقتين ورموشها الطويلة، لكن حين تفتحهما كانا يكشفان عن حدقتين زمرديتين مذهلتين، والتى كانت من سمات آل "آنجلفيلد"، كانت "إيزابيل" تجسيدًا للكمال، على الأقل جسديًّا.

تأقلم المنزل مع الحالة غير التقليدية للأمور، وعاش سكانه باتفاق ضمنى أن يتصرفوا كأن الأمر طبيعى جدًّا لأب أن يولع بطفلته الرضيعة، فلم يُعتبر من غير الرجولى، أو غير اللائق أو السخيف أن يبقيها بجانبه دائمًا.

لكن ماذا عن "تشارلى" شقيق الرضيعة؟ كان طفلاً غبيًّا يدور عقله فى دوائر حول مكامن هوسه واهتماماته القليلة، والذى لم ينجح أحد فى إقناعه بتعلم أفكار جديدة أو التفكير بمنطقية، تجاهل "تشارلى" الرضيعة، ورحب بالتغيرات التى جلبتها إلى المنزل، فقبل "إيزابيل" كان يوجد والدان يمكن لسيدة الخدم أن تبلغهما بما يقدم عليه "تشارلى" من سلوك سيئ، والدان من المستحيل توقع ردود فعلهما، كانت والدته غير متسقة فى ردود فعلها التأديبية، فأحيانًا تأمر بضرب مؤخرته لسوء

سلوكه، وأحيانًا أخرى كانت تكتفى بالضحك، أما والده فمع أنه كان صارم، كان كذلك مشتتًا، والعقوبات التى كان يأمر به عادة ما كانت تُنسى، لكن رؤيته للولد كانت تسبب لديه شعورًا غامضًا بأنه ارتكب مخالفة ما ويجب تصحيحها، فيضرب مؤخرة الولد ظانًا أنه حتى لو لم يرتكب خطأ فإن العقوبة مقدمة من أجل المرة التالية، أدرك الولد درسًا هامًا: من الأفضل ألا يوجد فى مجال رؤية والده.

تغير كل هذا بمجىء الرضيعة "إيزابيل". فقد رحلت الأم، ولم يضف وجود الأب الكثير، الذى انشغل بصغيرته "إيزابيل" أكثر من الشكاوى الهستيرية للخادمات بشأن شواء الفئران مع غداء يوم الأحد، أو دق يدين خبيثتين للمسامير فى قطع الصابون، تصرف "تشارلى" مثلما يحلو له، وما يحلو له هو أن يزيل ألواح الأرضية فى قمة سلم العليا ويشاهد الخادمات وهن يتعثرن وتلوى كواحلهن.

كان بإمكان سيدة الخدم أن توبخه، لكنها ليست إلا سيدة الخدم، وفى هذه الحياة الجديدة الحرة، يستطيع "تشارلى" أن يُقعد الخادمات ويصيبهن ملء سعادته مع علمه بأن ليست لأفعاله عواقب، يُقال إن سلوك البالغين المتسق يفيد الأطفال، وذلك التجاهل المستمر بالتأكيد ناسب هذا الطفل، لأن فى السنوات المبكرة من شبه اليتم الذى عاشه "تشارلى آنجلفيلد"، كان سعيدًا بطول يومه.

استمر شغف "جورج آنجلفيلد" بابنته رغم كل التجارب التى قد تفرضها طفلة على والدها، وحين بدأت الكلام، اكتشف أنها خارقة الموهبة، ومصدر حقيقى للإلهام، وبدأ فى استشارتها فى كل شىء، حتى أصبح المنزل يدار وفق أهواء ابنة الثلاثة أعوام.

نادرًا ما رأى البيت زوارًا، وعندما انزلق المنزل من الغرابة إلى الفوضى، أصبح الزوار أكثر ندرة، ثم بدأ الخدم فى التذمر فيما بينهم، وترك كبيرهم المنزل قبل أن تتم الطفلة عامين، صمدت الطاهية لعام

إضافى فى مواجهة المواعيد غير المنتظمة للوجبات حسب طلب الطفلة، حتى جاء اليوم الذى أعلنت فيه نيتها الرحيل، وحين رحلت، أخذت معها مساعدة المطبخ، وفى النهاية تُرك الأمر لسيدة الخدم أن توفر الكعك وحلوى الهلام فى ساعات غريبة من اليوم، لم تشعر الخادمات بأى التزام تجاه الأعمال المنزلية، فقد اعتقدن أن رواتبهن الضئيلة بالكاد تعوض الجروح والكدمات والكواحل الملوية وآلام المعدة التى جلبتها عليهن تجارب "تشارلى" السادية، وهذا منطقى إلى حد كبير، فرحلن، وحل محلهن سلسلة من المساعدين المؤقتين الذين لم يستمر أى منهم طويلاً، وفى النهاية، حتى المساعدين المؤقتين جرى الاستغناء عنهم.

بإتمام "إيزابيل" لعامها الخامس، كان المنزل قد ضاق إلا بـ"جورج آنجلفيلد"، والطفلين، وسيدة الخدم، والبستانى، وحارس الصيد، ومات الكلب، وخوفًا على القطط من "تشارلى"، أُبقيت خارج المنزل حيث تلجأ إلى كوخ الحديقة حين يصبح الجو باردًا.

لو لاحظ "جورج آنجلفيلد" عزلة القطط وبؤسها، لما كان أسِف عليها، فما دامت لديه "إيزابيل" فهو سعيد.

أكثر من افتقد الخدم هو "تشارلى"، فمن دونهم لا يجد ما يُجرى عليه تجاربه، وهو يتجول باحثًا عن أحد ليؤذيه، وقعت عيناه على أخته، وهو ما كان حتميًا عاجلاً أم آجلاً.

لم يكن "تشارلى" ليتحمل عواقب أن يجعلها تبكى أمام والده، وبما أنها نادرًا ما تبرح جانب والدها، لم يكن الأمر يسيرًا عليه، كيف يُبعدها عنه؟

عبر الإغواء، بالهمس بوعود بالسحر والمفاجآت، قاد "إيزابيل" إلى خارج الباب الجانبى، بطول أحد جوانب الحديقة معقدة التصميم،

بـين حدودهـا الطويلـة، ثـم عـبر الحديقـة التوبيارية[1] وبطـول طريـق أشجار الـزان نحـو الغابـة، ثمـة مـكان يعرفـه "تشـارلى"، كـوخ قديـم بـارد وبـلا نوافـذ، مـكان مناسـب لـلأسرار.

كان "تشـارلى" يبحــث عــن ضحيــة، وبالطبــع بــدت أختــه الســائرة وراءه، الأصغـر سـنًا وحجـمًا والأضعـف منـه، ضحيـة مثاليـة، لكنهـا كانـت غريبـة وذكيـة، ولم تـسر التجربـة مثلـما توقـع تمامًـا.

رفــع "تشــارلى" كــم أختــه وجرطــرف قطعــة ســلكيغطيها الصــدأ البرتقـالى بطـول الجـزء الداخـلى الأبيـض مـن سـاعدها، حدقـت "إيزابيـل" إلى كريـات الـدم الحمـراء التـى انبثقـت مـن الخـط المـزرق، ثـم حولـت تحديقهـا إليــه، اتسـعت عيناهــا الخـضراوان مــن المفاجـأة، وشىء مــن اللـذة، وحـين مـدت يدهـا لتحصـل عـلى السـلك، أعطاهـا إيـاه بـلا تفكـير، فرفعـت كمهـا الآخـر، وثقبـت جلدهـا وجـرت السـلك حتـى معصمهـا تقريبًـا، كان الجـرح الـذى أحدثتـه أعمـق مـن ذلـك الـذى أحدثـه أخوهـا بهـا، وسـال منـه الـدم فى الحـال، أخرجـت زفـرة رضـا وهـى تنظـر إلى الجـرح، ثـم لعقـت الدمـاء، وقدمـت لـه السـلك وطلبـت منـه أن يرفـع كمـه.

كان "تشـارلى" متحـيرًا، لكنـه حفـر ذراعـه بالسـلك لأنهـا أرادت ذلـك، وضحـك ليتجـاوز الألم.

بــدلاً مــن أن يجــد لنفســه ضحيــة، شــعر "تشــارلى" أنــه أغــرب مــن خطــط لــلأذى.

هكــذا اســتمرت حيــاة آل "آنجلفيلــد"، بــلا حفــلات، بــلا رحــلات صيـد، بـلا خادمـات، وبـلا معظـم مـا يعتـبره معظـم أبنـاء طبقتهـم مـن مسـلمات الحيـاة فى تلـك الأيـام، فولـوا ظهورهـم إلى جيرانهـم، وتركـوا

(1) نـوع مـن الحدائـق تنتـشر بـه الأشـجار المعمـرة وتُقـص وتُهـذب لتكـون أشـكالاً هندسـية أو خياليـة.

إدارة ممتلكاتهـم إلى نزلائهـا، واعتمـدوا عـلى حسـن نيـة سـيدة الخـدم والبسـتانى وأمانتهـما فى إجـراء المعامـلات اليوميـة مـع العـالم، التـى كانـت ضروريـة لاسـتمرار الحيـاة فى المنـزل.

نـسى "جـورج آنجلفيلـد" أمـر العـالم، ولفـترة، نـسى العـالم أمـره، ثـم تذكـره، بسـبب الأمـوال.

ضـم الجـوار منـازل أخـرى كبـيرة، تسـكنها عائـلات أخـرى أرسـتقراطية بدرجـة مـا، وبينهـم كان رجـل يـولى أموالـه رعايـة خاصـة، كان يبحـث عـن أفضـل نصيحـة لزيـادة مالـه، فاسـتثمر مبالـغ كبـيرة حيـث تُمـلى الحكمـة، وضـارب بمبالـغ صغـيرة حيـث المخاطـرة أكـبر والأربـاح فى حـال إثمارهـا أكـبر، فخسر المبالـغ الكبـيرة كلهـا، وأثمـرت المبالـغ الصغـيرة، ولـو بدرجـة معتدلـة، فوجـد الرجـل نفسـه فى مـأزق، كـذا كان لديـه ابـن كسـول مبـذر، وابنـة جاحظـة العينـين سـميكة الكاحلـين، لـذا كان مضطـرًا إلى فعـل شيء مـا.

لم يـر "جـورج آنجلفيلـد" أحـدًا قـط، وبالتـالى لم تُقـدم لـه أيّـة نصائـح ماليـة، حـين أرسـل إليـه محاميـه توصياتـه تجاهلهـا، وحـين أرسـل إليـه مصرفـه رسـائل لم يردهـا، نتيجـة لذلـك، بـدلاً مـن أن تضاعـف أموالهـا نفسـها وأن تطـارد الصفقـات المتتاليـة بعضهـا البعـض، استرخت أموالـه فى خزانـة البنـك وثقلـت حركتهـا.

الأموال لها حسيس، وهو مسموع.

سـألت زوجـة الجـار الـذى يوشـك عـلى إعـلان الإفـلاس: "أليـس لـ(جـورج آنجلفيلـد) ابـن؟ كـم سـتكون سـنه الآن؟ سـتة وعشريـن؟"

إذا لم يزوجـا الابـن لابنتهـما "سـيبيلا"، فلـم لا يزوجـا الابنـة لابنهـما "رولانـد"؟ أو هكـذا فكـرت الزوجـة، فـلا بـد أن الابنـة قـد بلغـت سـن الـزواج الآن، ومعـروف أن والدهـا يحبهـا حـب الجنـون، أى أنهـا لـن تـأتى خاليـة اليديـن.

قالت: "الجو مناسب لنزهة"، وعلى طريقة الأزواج، لم يبد زوجها مهتمًا.

جثمت الدعوة لأسبوعين على حافة نافذة الصالون، وربما كانت لتظل هناك حتى تبيّض الشمس الحبر عليها، لولا "إيزابيل"، ففى عصر أحد الأيام، وبعدما لم تجد ما تفعله، هبطت السُلم، ونفخت خديها ملأً، وأخذت الرسالة وفتحتها.

علق تشارلى: "ما هذا؟"

"إنها دعوة، إلى نزهة".

نزهة؟ تفكر "تشارلى" فى الأمر، بدا الأمر غريبًا، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة ونسى الأمر.

لكن "إيزابيل" وقفت واتجهت إلى الباب.

"إلى أين تذهبين؟"

"إلى غرفتى".

عمد "تشارلى" إلى تتبعها، لكنها أوقفته، "دعنى وشأنى، لست فى مزاج مناسب".

تذمر، وأمسك ملء قبضته من شعرها ومرر أصابعه على مؤخر عنقها، حيث وجد كدمات أحدثها بها فى المرة الأخيرة، لكنها تلوّت حتى انفكت من بين يديه وصعدت السلم مسرعة وأغلقت الباب.

بعد ساعة، وإثر سماعه صوت هبوطها السلم، ذهب إلى المدخل، "تعالى معى إلى المكتبة".

"لا".

"إذًا تعالى إلى حديقة الغزلان".

"لا".

لاحظ أنها قد غيرت ملابسها، "لِمَ تبدين هكذا؟ تبدين غبية".

كانت ترتدى فستانًا صيفيًا خص والدتها فى الماضى، مصنوع من مادة بيضاء رقيقة ويزينه اللون الأخضر، وبدلاً من حذاء التنس المعتاد برباطيه الباليين، انتعلت صندلاً أخضر أكبر من قدميها بدرجة -يخص والدتها أيضًا- وعلقت وردة فى شعرها بعدما مشطته، ووضعت أحمر شفاه.

أظلم قلبه وسألها: "إلى أين تذهبين؟"

"إلى النزهة".

أمسك بها من ذراعها، وشبث أصابعه بها وجذبها نحو المكتبة.

"لا!"

جذبها بقوة أكبر.

استهجنت: "(تشارلى)، قلت لا!"

حينها أطلق سراحها، فقد عرف أنها حين تقول لا بهذه الطريقة فإنها تعنيها، وهو ما اكتشفه فى الماضى، أنها يمكن أن يسيطر عليها مزاج سيئ لأيام.

أولته ظهرها وفتحت الباب الأمامى.

تطلع "تشارلى" المستشيط غضبًا بحثًا عن شىء يضربه، لكنه كسر سابقًا كل ما يمكن كسره، وكل الأشياء المتبقية كانت لتؤذى قبضته أكثر مما قد يؤذيها هو، فتراخت قبضتيه، وتبع "إيزابيل" عبر الباب إلى النزهة.

جسَّد الشباب عند ضفاف البحيرة صورة جميلة من بعيد بقمصانهم وبفساتينهن البيضاء، وامتلأت الكئوس التى حملوها بسائل تلألأ تحت ضوء الشمس، وبدا العشب تحت أرجلهم ناعمًا كفاية

ليمشوا عليه حفاة الأقدام، ولكن فى الواقع، كان المتنزهون يتعرقون بشدة تحت ملابسهم، وكانت الشامبانيا دافئة، ولو فكر أحدهم فى خلع حذائه لاضطر إلى أن يتحسس طريقه بين فضلات الإوز، ومع ذلك، كانوا مستعدين للتظاهر بالبهجة، أملاً فى أن تستثير ادعاءاتهم بهجة حقيقية.

أحد هؤلاء الشباب يقف عند طرف اجتْماعهم، والذى رأى بنظرة خاطفة حركة قرب المنزل، فتاة ترتدى ملابس غريبة ومعها ما يبدو أنه رجل، بدا أن بها خطب ما.

لم يستجب إلى مزحة رفيقه، فتطلع رفيقه ليرى ما جذب انتباهه، وباء بدوره بالصمت، ومجموعة الشابات المنتبهات بلا كلل إلى أفعال الشباب، حتى ولو كانت وراء ظهورهن، التفتن ليتبيَّنَّ سبب هذا الصمت المفاجئ، تلا ذلك نوع من الأثر المتموج، حيث التفتت الوجوه كلها نحو القادمين، وحالما ترى القادمين كانت المفاجأة تسكتها.

على العشب الفسيح كانت "إيزابيل" تخطو.

اقتربت من الجمع، فانفلق الجمع مثلما انفلق البحر لموسى، وتقدمت عبره إلى حافة البحيرة، وقفت على حجر مستوٍ بارز فوق المياه، ولوَّحت بأنها لا تريد حينما اقترب منها أحدهم ومعه كأس وزجاجة، كانت الشمس ساطعة، والتمشية طويلة وتستلزم أكثر من الشامبانيا لتنتعش.

خلعت حذاءيها وعلقتهما على شجرة ومدت ذراعيها وتركت نفسها لتسقط فى المياه.

شهق الجمع، وعندنا صعدت إلى السطح تشكلت المياه المتدفقة من "إيزابيل" بطرق تُذكر بمولد الإلهة "أفروديت"، فشهقوا مجددًا.

تلك القفزة فى المياه كانت شيئًا آخر تذكره الناس لسنوات لاحقة، بعد أن تركت المنزل للمرة الثانية، لقد تذكروا، وهزوا رءوسهم بمزيج من الشفقة والاستنكار، فما حل بها تبين أنه كان بها طوال الوقت، لكن فى ذلك اليوم تعلق الأمر بالروح المعنوية تمامًا، وكان الناس ممتنون لها، فقد بثت "إيزابيل" بمفردها الحياة فى الحفلة بالكامل.

أحد الشبان أو أجرؤهم، له شعر أشقر وضحكة عالية، خلع حذائيه مسرعًا وربطة عنقه، وقفز إلى البحيرة معها، تبعه ثلاثة من أصدقائه، لم يستغرق الأمر وهلة حتى كان كل الشبان فى المياه، يغوصون ويتصايحون ويتبارون فى الألعاب الرياضية والقفز فى المياه.

بالتفكير سريعًا، لم ترَ الفتيات أمامهن إلا طريقًا واحدًا، فعلقن صنادلهن فى أفرع الأشجار، وأظهرن أقصى درجات الحماس على وجوههن، وقفزن فى المياه، مطلقات صيحات أملن أن تبدو متدللة، ويفعلن ما بوسعهن لتجنب الترطيب المفرط لشعرهن.

لكن جهودهن ذهبت سدى، فقد كان كل أعين الرجال على "إيزابيل".

لم يلحق "تشارلى" بأخته إلى المياه، بل وقف بعيدًا قليلاً يتفرج، بشعره الأحمر ووجهه الشاحب، كان مخلوقًا من أجل المطر والمطاردات داخل المنزل، فقد تحول وجهه إلى اللون الوردى تحت الشمس، واحمرت عيناه إثر هبوط العرق من جبينه إليهما، لكنه كان بالكاد يرمش، إذ لم يتحمل أن يرفع عينيه عن "إيزابيل".

كم ساعة مرت حتى وجد نفسه معها مجددًا؟ بدا كأن دهرًا قد مر، استمرت النزهة لوقت أطول كثيراً مما توقع الجميع بعدما بثت "إيزابيل" بها الحياة، ومع ذلك فقد شعر الضيوف الآخرون أن الوقت مر بلمح البصر، وكانوا ليظلوا لوقت أطول لو استطاعوا، تفرق الجمع

وببالهـم أفـكار مواسـية عـن النزهـات التاليـة، وبجولـة مـن الدعـوات الموعـودة والقُبـل الرطبـة.

حـين اقـترب منهـا "تشـارلى"، كانـت "إيزابيـل" تغطـى كتفيهـا بسـترة أحـد الشـبان، والشـاب نفسـه فى راحـة يدهـا، وعـلى مسـافة غـير بعيـدة، كانـت فتـاة تتسـكع، غـير واثقـة مـا إذا كان وجودهـا مرغـوب فيـه أم لا، كانـت أنثـى بدينـة عاديـة الجـمال، ومـع ذلـك فـإن الشـبه الـذى تشـاركته والشـاب أوضـح أنهـا أختـه.

"هيا"، قالها "تشارلى" بخشونة لأخته.

"سريعًا هكذا؟ ظننت أننا سنتمشى، مع (رولاند) و(سيبيلا)".

ابتسـمت بلطافـة لأخـت "رولانـد"، وردَّت "سـيبيلا" الابتسـامة متفاجئة باللطـف غـير المتوقع.

يبلـغ "تشـارلى" مـراده مـن "إيزابيـل" فى البيـت -أحيانًـا- عـبر إيذائهـا، لكنـه لا يجـرؤ عـلى ذلـك فى العلـن، لـذا استسـلم.

مـاذا حـدث خـلال تلـك التمشـية؟ لم يكـن هنـاك شـهود عـلى الأحداث التـى وقعـت فى الغابـة، وبسـبب غيـاب الشـهود لم يُـثر القيـل والقـال، أو عـلى الأقـل ليـس فى البدايـة، لكـن الأمـر لا يتطلـب عبقريًـا ليسـتنتج مـن الأحـداث التاليـة مـا حـدث تحـت أوراق الأشـجار الصيفيـة فى ذلك المسـاء.

يمكن تخيل الأمر كالتالى:

ستجد "إيزابيل" ذريعة لتُبعد الرجال.

"حـذائى! لقـد تركتـه عـلى الشـجرة!" وسترسـل "رولانـد" ليبحـث عنـه، و"تشـارلى" أيضًـا، بحثًـا عـن شـال "سـيبيلا" أو أى غـرض آخـر.

اسـتقرت الفتاتـان عـلى بقعـة مـن الأرض اللينـة، وانتظرتـا عـودة الرجلـين فى الظلمـة المتزايـدة، ناعسـتين بتأثـير الشـامبانيا، وتتنفسـان مـا تبقـى مـن حـرارة الشـمس ومـع أنفاسـهما يـزداد الظـلام، ظـلام الليـل

وظـلام الغابـة، بـدأ دفء جسـديهما فى امتصـاص رطوبـة فسـتانيهما، وفى حـين جفـت ثنايـا النسـيج، انفصلـت عـن الجلـد تحتهـا وبثـت شـعورًا مدغدغًـا.

عرفـت "إيزابيـل" مـا تريـده: أن تقـضى وقتًـا مـع "رولانـد" وحديهـما، لكـن لتحصـل عـلى ذلـك، عليهـا التخلـص مـن أخيهـا.

بـدأت بالحديـث، فى حـين اسـترختا مسـتندتين إلى شـجرة: "إذًا فمـن منهـم حبيبـك؟"

أكدت "سيبيلا": "ليس لى حبيب حقًّا".

"لكـن يجـب أن يكـون لـك حبيـب"، تقلبـت "إيزابيـل" إلى جانبهـا، وأخـذت ورقـة شـجر السرخـس الريشـية الشـكل ومررتهـا عـلى شـفتيها، ثـم مررتهـا عـلى شـفتى رفيقتهـا.

تمتمت "سيبيلا": "هذا يدغدغنى".

فعلتهـا "إيزابيـل" مجـددًا، وابتسـمت "سـيبيلا" بعينـين نصـف مغلقتين، ولم توقفهـا حـين مـررت "إيزابيـل" ورقـة الشـجر الناعمـة عـلى رقبتهـا وحـول رقبـة فسـتانها، موليـة اهتمامًـا دقيقًـا لـبروز صدرهـا، أطلقـت "سـيبيلا" ضحكـة شـبه أنفيـة.

حين بلغت الورقة خصرها وما تحته، فتحت "سيبيلا" عينيها.

وتذمرت: "لقد توقفت".

ردت "إيزابيـل": "لم أتوقـف، لكنـك لا تشـعرين بمـا أفعله عبر فسـتانك"، فرفعـت حاشـية فسـتان "سـيبيلا" وتلاعبـت بالورقـة بطـول كاحليهـا، "هـذا أفضل؟"

أغلقت "سيبيلا" عينيها مجددًا.

وجـدت الورقـة الخـضراء طريقـة مـن الكاحـل السـميك بدرجـة مـا إلى الركبـة المكتنـزة المميـزة، هربـت همهمـة خفيفـة مـن بـين شـفتى "إيزابيـل"، مـع أنهـا لم تتحـرك حتـى بلغـت الورقـة قمـة رجليهـا، ولم تزفـر حتـى اسـتعانت "إيزابيـل" بأصابعهـا الرقيقـة بـدلاً مـن النبتـة.

لم تفـارق عينـا "إيزابيـل" الحادتـينِ وجـه الفتـاة الأكـبر منهـا سـنًا، ولحظـة أن أظهـر جفنـا الفتـاة أول دليـل عـلى الحركـة، جذبـت يدهـا بعيـدًا.

أكدت: "بالفعل، الحبيب هو ما تحتاجين إليه".

اسـتيقظت "سـيبيلا" مرغمـة مـن نشـوتها غـير المكتملـة وفهمـت ببـطء، اضطـرت "إيزابيـل" للتوضيـح: "مـن أجـل الدغدغـة، الأمـر أفضـل كثـيراً مـع الحبيـب".

وحـين سـألت "سـيبيلا" صديقتهـا الجديـدة: "كيـف تعرفـين ذلـك؟" كانـت إجابتهـا جاهـزة: "بسـبب (تشـارلى)".

وبعـودة الفتيـان وبأيديهـما الحـذاء والشـال، كانـت "إيزابيـل" قـد حققـت غرضهـا، تأملـت "سـيبيلا" فى "تشـارلى"، بمظهـر غـير مرتـب واضـح عـلى تنـورة فسـتانها وحشـوته، وبنظـرة تـشى بالاهتـمام الدافـئ.

أما "تشارلى" غير المبالى بنظراتها، فكان يتطلع إلى "إيزابيل".

سـألت "إيزابيـل" بـلا مبـالاة: "هـل لاحظـت مـدى الشـبه بـين اسـمى (إيزبيـل) و(سـيبيلا)؟" حـدق إليهـا "تشـارلى" بغضـب، "أقصـد وقـع الاسـمين، إنهـما قابلـين للتبـادل تقريبًـا، ألا تـرى ذلـك؟" أرسـلت نظـرة حـادة إلى أخيهـا، مرغمـة إيـاه عـلى فهـم نواياهـا، "سـأذهب و(رولانـد) لنتمـشى قليـلاً، لكـن (سـيبيلا) متعبـة، ابـق معهـا"، وجذبـت "إيزابيـل" ذراع "رولانـد".

نظر "تشارلى" ببرود إلى "سيبيلا"، وانتبه إلى بعثرة فستانها، حدقت هى إليه بعينين متسعتين، وبفم مفتوح مشدوه قليلاً.

وحين أعاد النظر إلى حيث ذهبت "إيزابيل"، كانت قد اختفت بالفعل، لم يسمع إلا ضحكتها قادمة من الظلام، ضحكتها وهمهمة منخفضة بصوت "رولاند"، لكنه سيحصل على ما يريده لاحقًا، ستدفع "إيزابيل" ثمن هذا مرارًا وتكرارًا.

وإلى أن يحدث ذلك، اضطر إلى التنفيس عن مشاعره على نحو ما.

التفت إلى "سيبيلا".

كان الصيف مليئًا بالنزهات، ومن جهة "تشارلى"، كان مليئًا بالـ"سيبيلات"، لكن من جهة "إيزابيل"، لم يكن لديها إلا "رولاند" وحيد، فكانت تتسلل يوميًا بعيدًا عن أنظار "تشارلى"، وتهرب من قبضته وتختفى على دراجتها، لم يستطع "تشارلى" أبدًا معرفة مكان التقائهما، وكان أبطأ من أن يلحق بها حين تدور عجلتى دراجتها تحتها ويحلق شعرها وراءها، فى بعض الأحيان كانت لا تعود إلا بحلول الظلام، وأحيانًا تتأخر عن ذلك، وحين وبخها، ضحكت بوجهه وأولته ظهرها كأنه ببساطة غير موجود، حاول إيذاءها، وتشويهها، لكنها أفلتت منه مرة تلو الأخرى، وتسربت من بين أصابعه مثل المياه، فأدرك إلى أى مدى اعتمدت لعبتهما على موافقتها، فبصرف النظر عن مدى قوته، كانت سرعتها وذكاؤها يعنيان أنها ستنجح فى الفرار منه فى كل مرة، وكخنزير برى ساخط بسبب نحلة، كان عاجزاً.

فى مرة بين الحين والآخر، وفى محاولة للتهدئة، كانت تستسلم لتوسلاته، لمدة ساعة أو ساعتين، كانت تطوع نفسها لرغبته، سامحة له بالاستمتاع بوهم أنها عادت له للأبد وأن كل شىء بينهما عاد مثلما كان دائمًا، لكنه كان وهمًا، مثلما عرف "تشارلى" سريعًا، بل وكان غيابها المتجدد بعد تلك الاستراحات أكثر إيلامًا.

ينسى "تشارلى" ألمه لحظيًّا فقط مع الـ"سيبيلات"، ظلت أخته تمهد الطريق له معهن لفترة، لكن فى حين تصبح هى أكثر سعادة باطراد مع "رولاند"، تركت "تشارلى" ليتولى أمر نفسه، لكنه افتقد أسلوب أخته الرقيق: وفى مرة كادت طريقته تؤدى إلى فضيحة، فأخبرته "إيزابيل" المغتاظة أنه إن كانت نيته هكذا فى تصريف أموره، فإنه سيضطر إلى اختيار نوع آخر من النساء، فتحول من فتيات الأرستقراطيين الصغار إلى فتيات البيطاريين والمزارعين والحراجيين، هو شخصيًّا لم يشعر بفرق، ويبدو أن أحدًا لم يمانع ذلك التحول.

لكن الفتيات مانعن، والنسيان لم يدم طويلاً، تلك العيون المصدومة، والأذرع المكدومة، والأفخاذ الدامية، كانت تُمسح من ذاكرته فى اللحظة التى يبعد نظره عنها، فلا شىء يمكنه أن يمس الوله الأعظم فى حياته: مشاعره تجاه "إيزابيل".

فى أحد الصباحات قرب نهاية الصيف، طوت "إيزابيل" الصفحات الخاوية فى دفتر يومياتها وعدت الأيام، ثم أغلقت الدفتر وأعادته إلى الدرج وبالها منشغل، وحين حسمت قرارها، هبطت السلم إلى مكتب والدها.

تطلع والدها: "(إيزابيل)!" كان مسرورًا لرؤيتها، فمنذ اعتادت الخروج من المنزل أكثر، كان ممتنًا على نحو خاص لمجيئها إليه هكذا.

ابتسمت له: "عزيزى بابا!" لمح فى عينيها بريقًا ما.

"أثمة خطب ما؟"

سافرت عيناها إلى زاوية السقف وابتسمت، ودون أن تحول عينيها عن الزاوية المظلمة، أخبرته أنها سترحل عن المنزل.

فى البداية وجد صعوبة فى فهم ما قالته، وشعر بنبضه فى أذنيه، وغُشِّى بصره، أغلق عينيه، لكن داخل عقله كانت هناك براكين

ونيـازك هابطـة وانفجـارات، وحـين خمـدت ألسـنة اللهـب، لم يتبـق شيء بداخلـه سـوى مشـهد مدمـر وصامـت، ففتـح عينيـه.

ماذا فعل؟

وجـد فى يـده خصلـة شـعر وفى طرفهـا قطعـة جلـد داميـة، "إيزابيـل" هنـاك وظهرهـا إلى البـاب ويداهـا وراءهـا، إحـدى عينيهـا الخضراويـن محتقنـة بالدمـاء، وبـدا أحـد خديهـا أحمـر ومتورمًـا قليـلاً، تسـيل بعـض الدمـاء مـن جمجمتهـا، ووصلـت إلى حاجبهـا وانحرفـت بعيـدًا عـن عينهـا.

كان مذعـورًا مـن نفسـه ومنهـا، وأعـرض عنهـا صامتًـا وغـادرت هـى الغرفـة.

جلـس بعـد ذلـك لسـاعات، يـبرم الشـعر الكسـتنائى الـذى وجـده فى يـده، ويبرمـه أكـثر ويضيقـه عـلى إصبعـه، حتـى حفـر بعمـق فى جلـده، وحتـى تعقـد لدرجـة اسـتحالة فكـه، وأخـيراً، حـين أكمـل الشـعور بـالألم رحلتـه البطيئـة مـن إصبعـه إلى وعيـه، بـكى.

غـاب "تشـارلى" عـن المنـزل فى ذلـك اليـوم، ولم يعـد حتـى منتصـف الليـل، وبعدمـا وجـد غرفـة "إيزابيـل" خاويـة، تجـول فى المنـزل، وهـو يدرك بحاسـة سادسـة مـا أن كارثـة قـد وقعـت، ولمـا لم يجـد أختـه بـأى مـكان، ذهـب إلى مكتـب والـده، ونظـرة واحـدة إلى وجـه الرجـل المذعـور أخبرتـه بـكل شيء، تأمـل الأب والابـن بعضيهـما للحظـة، لكـن حقيقـة أنهـما يتشـاركان الخسـارة لم توحدهـما، فـلا شيء يمكـن لأحدهـما أن يفعلـه للآخـر.

جلـس "تشـارلى" فى غرفتـه عـلى الكـرسى المقابـل للنافـذة، جلـس هنـاك لسـاعات، بـدا كشـبح أمـام مسـتطيل مـن ضـوء القمـر، وفى لحظة مـا، فتح الـدرج وأخـرج المسـدس الـذى حصـل عليـه عـبر ابتـزاز شـخص يصطـاد دونَ إذن فى الأنحـاء، ورفعـه إلى صدغـه مـرة أو اثنتـين، وفى كل مـرة، كانـت قـوى الجاذبيـة تعيـده إلى حجـره.

فى الرابعة صباحًا أبعد المسدس، وأخرج بدلاً منه الإبرة الطويلة التى اختلسها من صندوق الحياكة الخاص بسيدة الخدم قبل عقد، والتى استُخدمت كثيرًا منذ حينها، رفع ساق بنطاله، وأنزل جوربه، وأحدث ثقبًا فى جلده، اهتزت كتفاه، لكن يده كانت ثابتة وهو ينقش على ساقه كلمة واحدة: "إيزابيل".

فى ذلك الوقت كانت "إيزابيل" قد رحلت منذ وقت طويل، إذ عادت إلى غرفتها لدقائق معدودة وغادرتها، وهبطت عبر السلم الخلفىّ إلى المطبخ، حيث عانقت سيدة الخدم عناقًا قويًا وغريبًا، وهو ما لم يتسق مع شخصيتها مطلقًا، ثم تسللت عبر الباب الجانبى واندفعت عبر حديقة المطبخ نحو باب الحديقة الذى هو جزء من جدار حجرى، كان نظر سيدة الخدم يخفت منذ فترة طويلة، لكنها طورت قدرة على إدراك حركات الأشخاص عبر استشعار اهتزازات الهواء، وكان لديها انطباع بأن "إيزابيل" ترددت لأقصر وهلة ممكنة قبل أن تغلق باب الحديقة خلفها.

حين أصبح واضحًا لـ"جورج آنجلفيلد" أن "إيزابيل" قد رحلت، ذهب إلى مكتبته وأقفل الباب، رفض الطعام والزائرين، لم يتبق سوى القس والطبيب، ولقى كلاهما منه معاملة سيئة، فكانت جملتا "قل لإلهك أن يذهب إلى الجحيم" و"هلا تركت حيوانًا مصابًا يموت فى سلام!" أقصى ترحاب حصلا عليه.

بعد أيام قليلة عادا ودعيا البستانى لكسر باب المكتبة، حيث وجدا "جورج آنجلفيلد" ميتًا، وكان الفحص السريع كافيًا للتأكد من أن الرجل مات بالتسمم الدموى الناتج عن لفافات الشعر البشرى التى كانت منغرسة بعمق فى لحم خنصره.

لم يمت "تشارلى"، مع أنه لم يفهم لماذا لم يمت، هام على وجهه فى المنزل، وأحدث سلسلة من آثار الأقدام على الغبار، وتتبعها كل

يـوم، بدايـة مـن قمـة المنـزل ونـزولاً، وغـرف نـوم العليـا غـير المسـتخدمة لأعـوام، وغـرف الخـدم، وغـرف العائلـة، والمكتـب، والمكتبـة، وغرفـة الموسـيقى، والمرسـم، والمطابـخ، كان بحثًـا يائسًـا بـلا كلـل ولا نهايـة، وفى الليـل كان يخـرج ليطـوف بأملاكـه، تدفعـه قدمـاه بـلا تعـب، وفى أثنـاء ذلـك، ضرب إبـرة سـيدة الخـدم التـى فى جيبـه بإصبعـه، مـا أغـرق أطـراف أصابعـه فى فـوضى داميـة مقرفـة، لقـد اشـتاق إلى "إيزابيـل".

عـاش "تشـارلى" عـلى هـذه الحـال خـلال سـبتمبر، وأكتوبـر، ونوفمـبر، وديسـمبر، ويناير، وفبرايـر، وفى مطلـع مـارس عـادت "إيزابيـل".

كان "تشـارلى" فى المطبـخ يتتبـع آثـار أقدامـه حـين سـمع صـوت حوافـر وإطـارات تقـترب مـن المنـزل، فذهـب متجهـمًا نحـو النافـذة، فهـو لم يـرد أى زوار.

هبطت من العربة شخصية مألوفة، وعندها توقف خفقان قلبه.

ركـض مـن البـاب إلى السـلم إلى العربـة فى لحظـة واحـدة، وكانـت "إيزابيـل" هنـاك.

حملق إليها.

ضحكـت "إيزابيـل"، "إليـك، خـذ هـذه"، وسـلمته صرة ثقيلـة تغطيهـا قطعـة قـماش، وبلغـت مؤخـر العربيـة وأخرجـت شـيئًا: "وهـذه أيضًـا"، أخذهـا مستسـلمًا ووضعهـا تحـت ذراعـه، "والآن، أكـثر مـا أريـده فى العـالم هـو كأس برانـدى كبـيرة جـدًا".

تبـع "تشـارلى" المذهـول "إيزابيـل" إلى داخـل المنـزل وإلى المكتـب، ذهبـت مبـاشرة إلى خزانـة المشروبـات وأخرجـت كأسـين وزجاجـة، وصبـت منهـا جرعـة سـخية وتجرعتهـا عـلى مـرة واحـدة، مظهـرة بيـاض عنقهـا، ثـم مـلأت كأسـها مجـددًا والـكأس الثانيـة التـى عرضتهـا عـلى أخيهـا، ووقف هـو هنـاك، عاجـزًا عـن الـكلام والحركـة، يـداه ممتلأتـان بالـصرة المغطـاة

بإحكام، دوت ضحكة "إيزابيل" فى أذنيه مجددًا وكان الأمر أشبه بالوقوف قريبًا جدًّا من جرس كنيسة ضخم، بدأ رأسه فى الدوران وانطلقت الدموع من عينيه، أمرته "إيزابيل": "اتركها، سنشرب نخبًا"، أخذ منها الكأس واستنشق رائحة الكحول: "نخب المستقبل!" وابتلع البراندى على مرة واحدة وسعل بسبب لذعته غير المعتادة.

سألته: "لم ترهما حتى، أليس كذلك؟"

عبس وجهه.

"انظر"، وتحولت "إيزابيل" نحو الصرة التى وضعتها على المكتب، وجذبت الغلاف الخفيف وابتعدت حتى يرى، وببطء حول رأسه ونظر، كانت الصرة عبارة عن رضيعتين توأمين، رمش بعينيه ولاحظ بغباء أن الموقف يتطلب منه استجابة ما، لكنه لم يعرف ما يفترض به أن يقول أو يفعل.

"استيقظ يا (تشارلى) بحق السماء!" وأخذت أخته كلتا يديه بيديها وجذبته إلى رقصة جنونية حول الغرفة، أدارته بدوامة استمرت طويلاً، حتى بدأ الدوار فى تصفية عقله، وحين توقفا أخذت وجهه بين يديها وتحدثت معه، "مات (رولاند) يا (تشارلى)، لم يتبق إلا أنا وأنت الآن، أتفهمنى؟"

أومأ برأسه.

"جيد، والآن أين بابا؟"

حين أخبرها، أصابتها هستيريا شديدة، وسيدة الخدم، التى أيقظتها فى المطبخ الصرخات الصاخبة، جاءت لتضعها فى سريرها بغرفتها القديمة، وحين عادت لهدوئها مجددًا أخيرًا سألتها: "هاتان الرضيعتان، ماذا تدعيان؟"

أجابت: "مارش".

لكن سيدة الخدم عرفت ذلك، فأخبار الزواج بلغتها قبل شهور، وأخبار الولادة (لم تحتج إلى عد الشهور على أصابعها، لكنها فعلت ذلك على أيَّة حال وزمت شفتيها)، لقد عرفت بشأن وفاة "رولاند" نتيجة الالتهاب الرئوى قبل أسابيع قليلة، وعرفت أيضًا أن السيد والسيدة "مارش" المسنين، المحطمين بسبب وفاة ابنهما الوحيد والمشمئزين بسبب اللامبالاة الطفولية التى لدى زوجة ابنهما الجديدة، قد نبذا "إيزابيل" وطفلتيها، بلا أيَّة رغبة إلا فى أن يحزنا.

"ماذا عن اسميهما الأولين؟"

ردت بصوت نعس: "(إيميلاين) و(آديلاين)".

"وكيف تميزين إحداهما عن الأخرى؟"

لكن الطفلة الأرملة كانت قد نامت بالفعل، وهى مستغرقة فى أحلامها بسريرها القديم، كانت قد نسيت مغامرتها وزوجها، وعاد إليها اسمها العذرى، وحين استيقظت فى الصباح، كان الأمر كأن زواجها لم يحدث قط، كأنها ليست أم هاتين الرضيعتين -لم تُظهر ولو ذرة شعور بالأمومة- بل كأنهما مجرد روحين فى المنزل.

نامت الرضيعتان أيضًا، وفى المطبخ، مالت سيدة الخدم والبستانى نحو وجهيهما الناعمين الشاحبين وتحدثا بصوت خفيض.

سأل: "ما اسم كل منهما؟"

"لا أعرف".

ظلا يتفرجان على الرضيعتين بعدما وضعا كل واحدة فى جانب من سرير الأطفال، زوجا رموش أشبه بنصفى قمر، وفمان غضان، ورأسان أملسان، رفرف أحد جفنى طفلة منهما سريعًا وفتحت عينها نصف فتحة، حبس البستانى وسيدة الخدم أنفاسهما، لكن العين أُغلقت مجددًا وغطت الرضيعة فى النوم.

همست سيدة الخدم: "هذه يمكن أن تكون (آديلاين)"، أخذت منشفة شاى مخططة من أحد الأدراج وقصت منها شريطين، وصنعت من الشريطين ضفيرتين، وربطت الشريطة الحمراء حول رسغ الرضيعة التى اضطربت، والبيضاء حول رسغ الأخرى.

ظلت السيدة والبستانى يتفرجان، وكل منهما يضع يدًا على سرير الرضيعتين، حتى نظرت إليه بنظرة ممتنة وحنونة وتحدثت مجددًا.

"رضيعتان، حقًّا يا (ديج)، فى سننا هذه!"

حين رفع عينيه عن الرضيعتين، رأى الدمعة التى غشت عينيها الدائريتين البنيتين.

مد يده الخشنة عبر سرير الطفلتين، مسحت دموعها وارتباكها وابتسمت، ووضعت يدها الصغيرة السمينة بيده، شعر ببلل دموعها على أصابعه.

تحت القوس الذى شكلاه بعناق يديهما، وتحت الخط المرتجف لتحديقهما المتبادل، كانت الرضيعتان تحلمان.

***

كان الوقت قد تأخر حين انتهيت من تفريغ قصة "إيزابيل" و"تشارلى"، السماء مظلمة والمنزل نائم، كنت منكبة على المكتب طوال فترة العصر والمساء وجزء من الليل، فى حين تُحكى القصة وتُعاد فى أذنى ويمد قلمى الخط تلو الآخر، مطيعًا ما أمليه عليه، أوراقى مكتظة بالنص: إنه فيضان كلمات السيدة "وينتر"، وبين الحين والآخر، تحركت يدى نحو اليسار ودونت سريعًا ملاحظة فى الهامش الأيسر، حيث بدت نبرة صوتها أو إيماءاتها جزءًا من القصة.

والآن أبعدت آخر ورقة عنى، ووضعت قلمى وضممت أصابعى الموجوعة ومددتها، ولمدة ساعات، استحضر صوت السيدة "وينتر" عالمًا

آخـر، أيقظـت المـوتى أمامـى، ولم أرَ شـيئًا سـوى عـرض الدمـى الـذى قدمته كلماتهـا، لكـن حـين سـكت صوتهـا فى رأسى، ظلـت صورتهـا قائمـة وتذكـرت القـط الرمـادى الـذى ظهـر عـلى حجرهـا، كأنـه ظهـر بفعـل السـحر، جلس القـط بصمـت تحـت يدهـا المداعبـة، يتأملنـى بثبـات بعينيـه الدائريتـين الصفراويـن، لا أعلـم إن كان قـد رأى أشـباحى، أو أسرارى، فهـو لم يبد سـاكنًا تمامًـا، لكنـه كان يكتفـى بالرمـش والاسـتمرار فى التحديـق بـلا مبـالاة.

سألت: "ما اسمه؟"

ردت بشرود: "(شادو)".

أخـيرًا لجـأت إلى السريـر، أطفـأت الأنـوار وأغلقـت عينـىّ، مـا زلـت أشـعر بتلـك البقعـة فى إصبعـى حيـث أحـدث القلـم علامـة عـلى جلـدى، وفى كتفـى اليمنـى، أحدثـت الكتابـة الطويلـة عقـدة ليسـت جاهـزة للفـك بعـد، ومـع أن الغرفـة مظلمـة وعينـىّ مغلقتـان، كل مـا اسـتطعت رؤيتـه هـو صفحـة مـن أوراقـى، وخطـوط مـن كتابـة يـدى وهوامـش عريضـة، لفـت الهامـش الأيمـن نظـرى، كان الهامـش يتوهـج بلونـه الأبيـض الأصلى بـلا أيَّـة كتابـة، لقـد سـبب وخـزًا فى عينـىّ، إنـه الهامـش الـذى حجزتـه لتعليقـاتى وملاحظـاتى وأسـئلتى.

فى الظـلام، التفـت أصابعـى حـول قلـمٍ خيـالى، وانتفضـتُ اسـتجابة للأسـئلة التـى اخترقـت نعـاسى، تسـاءلت عـن الوشـم الـسرى الـذى حملـه "تشـارلى" عـلى جسـده، اسـم أختـه المحفـور عـلى عظامـه، لكـم مـن الوقـت ظـل ذلـك النقـش موجـودًا؟ أتسـتطيع عظمـة حيـة أن تصلـح نفسـها؟ أم أنـه ظـل معـه حتـى مـات؟ وفى نعشـه تحـت الأرض، ولحمـه يتعفـن منفصـلاً عـن عظامـه، هـل انكشـف اسـم "إيزابيـل" فى الظـلام؟ "رولانـد مـارش"، الـزوج المتـوفى، الـذى نُـسى سريعًـا، و"إيزابيل" و"تشـارلى"، "تشـارلى" و"إيزابيـل"، مـن كان والـد التوأمـين؟ ومـن وراء أفـكارى، تصدر

الجرح الذى براحة يد السيدة "وينتر" المشهد، حرف الـ"كيو" الدال على الأسئلة، محفور بالنار على اللحم البشرى.

وأنا أشرع بالكتابة نائمة لتدوين أسئلتى، بدا أن الهامش يتسع، نبضت الورقة بالضوء، إنها تتضخم، لقد ابتلعتنى، حتى أدركت بمزيج من الذعر والانبهار أننى فى كنف الورقة، وأننى مغمورة فى داخل القصة نفسها، شعرت بانعدام الوزن فتجولت طوال الليل فى قصة السيدة "وينتر"، أرسم مناظرها، وأضبط ملامحها، وأخطو على أطراف أصابعى عند حدودها، وأتطلع إلى الألغاز المتجاوزة لحدودها.

الحدائق

استيقظت مبكرًا، مبكرًا جدًّا، يُحدث جزءٌ من لحن رتيب صريرًا برأسى، سأضطر إلى الانتظار لأكثر من ساعة حتى تطرق "جوديث" الباب من أجل وجبة الإفطار، فأعددت لنفسى كوبًا من الكاكاو وشربته ساخنًا للغاية، وخرجت من المنزل.

حديقة السيدة "وينتر" أشبه بالمتاهة، فبداية، مساحتها الهائلة تذهلنى، وما ظننته أول ما رأيته أنه طرف الحديقة -سياج من أشجار الصنوبر على الجانب الآخر من أحواض الزهور- لم يكن إلا جدارًا داخليًّا يفصل بين جزء وآخر من الحديقة، والحديقة ممتلئة بمثل هذه التقسيمات، ثمة أسيجة من شجر الزعرور والزان، وجدران حجرية مغطاة باللبلاب، والياسمين البرى الشتوى، والسيقان العارية المتسلقة للورود المتعرشة، وأسوار خشبية مؤطرة بأناقة أو محفورة فى أشجار الصفصاف.

تجولت بين الأجزاء المختلفة عبر اتباع المسارات المجهزة، لكننى عجزت عن تخيل الشكل الخارجى للحديقة، الأسيجة التى بدت من الأمام مصمتة، أحيانًا تكشف عن ممر منحرف حين رؤيتها بزاوية، من السهل التجول بين الشجيرات، ومن شبه المستحيل الهروب منها، نوافير وتماثيل ظننت أننى تركتها ورائى، أجدها تظهر من جديد، قضيت الكثير من الوقت ساكنة بلا حركة، أنظر حولى فى حيرة وأهز رأسى، صنعت الطبيعة من نفسها متاهة، وكانت تخطط عمدًا لتعجيزى.

اتجهت إلى إحدى الزوايا، فصادفت الرجل الملتحى المتحفظ الذى أقلنى من المحطة، قدم الرجل نفسه على مضض: "يدعوننى (موريس)".

أردت أن أعرف: "كيف لا تتوه؟ هل هناك حيلة ما فى الأمر؟"

"إنه مرور الوقت فقط"، رد دون أن يرفع عينيه عما يشتغل به، كان راكعًا على ركبتيه على رقعة من التربة المنبوشة، ويسويها ويضغط على الأرض المحيطة بجذور النباتات.

تكون لدى انطباع بأن "موريس" لا يرحب بوجودى فى الحديقة، لم أمانع ذلك، بما أننى بالأساس ذات طبيعة انعزالية، بعد ذلك حرصت كلما رأيته على أن أمضى فى الاتجاه المعاكس، وأعتقد أنه شاركنى هذا الحذر، ففى مرة أو اثنتين، لمحت حركته بطرف عينى، فأتطلع لأجد "موريس" يتراجع عند مدخل ما أو يلتفت فجأة فى اتجاه مختلف، وبهذا نجح كلانا فى ترك الآخر يعيش فى سلام، هناك مجال واسع أمامنا ليتجنب كل منا الآخر من دون أى شعور بالاضطرار.

لاحقًا فى ذلك اليوم، ذهبت إلى السيدة "وينتر" وأخبرتنى المزيد عن المنزل فى "آنجلفيلد".

========

اسـم سـيدة الخـدم هـو "دان"، لكنهـا كانـت دائمًـا "السـيدة" بنظـر أطفـال العائلـة، وبـدا كأنهـا عاشـت فى المنزل مـدى الحيـاة، وهـذه حالـة نـادرة: فعـمال المنـزل يأتـون ويرحلـون سريعًـا فى "آنجلفيلـد"، وبمـا أن معـدلات المغـادرة أعـلى قليـلاً مـن معـدلات المجـىء، جـاء اليـوم الـذى أصبحـت فيـه الخادمـة الداخليـة الوحيـدة المتبقيـة، هـى نظريًـا مدبـرة المنـزل، لكنهـا فعليًـا تفعـل كل شىء، تنظـف الأوعيـة وتوقـد المدفـأة مثـل خادمـة صغـيرة، وفى أوقـات الوجبـات تـؤدى دور الطاهيـة، وتتـولى تقديـم الطعـام، لكـن حـين ولادة التوأمـين كانـت تتقـدم نحـو الشـيخوخة، كان سـمعها ضعيفًـا، ونظرهـا أضعـف، وزاد مـا لم تسـتطع توليـه، مـع أنهـا لم تحـب الاعـتراف بذلـك.

عرفـت السـيدة كيـف يجـب تنشـئة الأطفـال: أوقـات وجبـات منتظمـة، أوقـات نـوم منتظمـة، واسـتحمام منتظـم، نشـأت "إيزابيـل" و"تشـارلى" عـلى تدليـل مفـرط، وتجاهـل مفـرط فى الوقـت نفسـه، وفطـر الأمـر قلبهـا أن تـرى مـا انتهـى إليـه أمرهـما، وقـد كان تجاهلهـما للتوأمـين فرصتهـا لكـسر هـذا النمـط، أو هكـذا أملـت السـيدة، وأصبـح لديهـا خطـة، فقـد أرادت أن تـربى فتاتـين صغيرتـين عاديتـين فى قلـب تلـك الفـوضى وأمـام ناظـر الأخ وأختـه، ثـلاث وجبـات مغذيـة يوميًـا، والنـوم عنـد السادسـة، والكنيسـة يـوم الأحـد.

لكن الأمر أصعب مما توقعت.

فبدايـة عليهـا التعامـل مـع الشـجار، "آديلايـن" تنقـض عـلى أختهـا وتضربهـا باللكـمات والأرجـل، وتنتـزع شـعرها وتسـدد الضربـات أينـما اسـتطاعت، لاحقـت "آديلايـن" أختهـا وهـى تحمـل بملقـط النـار قطعًـا من الفحـم السـاخن لدرجـة الاحمـرار، وحـين أمسـكت بهـا أحرقـت شـعرها، لم تكـن السـيدة متأكـدة مـما يقلقهـا أكـثر: أهـو عـدوان "آديلايـن" المسـتمر بـلا رحمـة، أم تقبـل "إيميلايـن" التـام والمسـتمر لـه؟ مـن جهـة "آديلايـن"،

ومع أنها ناشدت أختها حتى تتوقف عن تعذيبها، فإنها لم تنتقم ولو لمرة واحدة، بل كانت تحني رأسها بخضوع وتنتظر توقف الضربات التي انهمرت على كتفيها وظهرها، لم ترَ السيدة "إيميلاين" ترفع يدها قط لتضرب "آديلاين"، حمل قلبها ما يعادل طيبة طفلتين، وحمل قلب "آديلاين" ما يعادل شر طفلتين، بدا الأمر منطقيًا على نحو ما، أو هكذا افترضت سيدة الخدم.

ثم هناك مشكلة الطعام المزعجة، ففي أوقات الوجبات، في غالب الأحيان، تعجز السيدة ببساطة عن العثور على الطفلتين، لقد عشقت "إيميلاين" الأكل، لكن هذا العشق لم يترجم نفسه قط إلى انتظام في الوجبات، جوعها لم يمكن إشباعه بثلاث وجبات يوميًا، لقد كان جوعها شديدًا ومتقلبًا، فكان يضرب عشرة أو خمسة عشر أو عشرين مرة في اليوم، فتطلب الطعام بإلحاح، وحين تسترضي جوعها ببضع لقيمات من شيء ما، تغادرها تلك الرغبة، ويصبح الطعام غير مهم مجددًا، تُصان سمنة "إيميلاين" بواسطة جيب ممتلئ باستمرار بالخبز والزبيب، إنها وليمة متنقلة تغترف منها حيثما وحينما تريد، فكانت تأتي إلى المائدة فقط لتملأ جيوبها قبل أن تهيم على وجهها لتسترخي قرب المدفأة أو لتستلقي في ساحة بمكان ما.

أختها مختلفة عنها تمامًا، فقد خُلقت "آديلاين" على هيئة سلك به عقد تمثل الركبتين والكوعين، وقودها ليس الغذاء مثل غيرها من البشر، فالوجبات لم تكن لها، ولم يرها أحد قط تأكل: مثل آلة الحركة الدائمة، كانت كأنها دائرة مغلقة تعمل بطاقة تحصل عليها من مصدر داخلي ما إعجازي، لكن الآلة دائمة الحركة مستحيلة، وعندما تلاحظ السيدة في الصباح طبقًا خاليًا كانت به حتى الليلة الماضية شريحة من لحم الخنزير المقدد، أو رغيف خبز يفتقد قطعة غير صغيرة، خمنت مصيرهما وتنهدت، لماذا لا تأكل طفلتيها من الأطباق، مثل الأطفال العاديين؟

ربما كانت لتدير شئونهما بشكل أفضل لو كانت أصغر سنًا، أو لو كانت فتاة واحدة بدلاً من اثنتين، لكن دماء آل "آنجلفيلد" حملت صفات لا يستطيع أى كم من طعام الأطفال أو الروتين الصارم أن يغيرها، لم ترد أن تدرك ذلك، وحاولت ألا تدركه لفترة طويلة، لكنها أدركته فى النهاية، التوأمين غريبتين، ليس بذلك شك، كانتا غريبتين بكل ما تحمله الكلمة من معنى، غريبتين حتى الصميم.

على سبيل المثال: طريقة كلامهما، كانت تراهما عبر نافذة المطبخ، كائنتان غير واضحتى الملامح يبدو أن فميهما يتحركان بلا توقف، ومع اقترابهما من المنزل، تلتقط أجزاءً من طنين كلامهما، ثم تدخلان المنزل ويسيطر عليهما الصمت، تقول لهما دائمًا: "ارفعا صوتيكما!" لكنها كانت تقترب من الصمم وهما خجولتان، كانتا تتبادلان الحديث فى ما بينهما، وليس مع الآخرين، "لا تكن سخيفًا"، هكذا ردت على "ديج" حين أخبرها أن الفتاتين لا تستطيعان التحدث على نحو سليم، "لا مجال لإيقافهما حين تبدآن".

لكنها أدركت ذلك فى أحد أيام الشتاء، فى مرة بقيت الفتاتان داخل المنزل، إذ أقنعت "إيميلاين" أختها بأن تبقيا فى الدفء، قرب المدفأة وبعيدًا عن الأمطار، عادة ما تعيش سيدة الخدم برؤية ضبابية، لكن فى هذا اليوم كانت محظوظة بوضوح مفاجئ فى الرؤية، وحدة سمع غير معتادة، وحين مرت بباب المرسم التقطت أذنيها جزءًا من ضوضائهما وتوقفت، كانت الأصوات تجىء وتروح بين الفتاتين، مثل كرة التنس فى مباراة ما، أصوات تجعلهما تبتسمان أو تضحكان أو تتبادلان نظرات شريرة، ارتفع صوتاهما فى هيئة تتمّات للحديث، وهوى على هيئة همسات، من أيَّة مسافة، قد تظن أنها الثرثرة الحية المنطلقة للأطفال العاديين، لكن قلبها تحطم، فتلك لم تكن مثل أيَّة لغة سمعتها من قبل، هذه ليست اللغة الإنجليزية، ولا الفرنسية التى اعتادت سماعها قبل وفاة زوجة "جورج"، "ماتيلدا"، والتى لا

يزال "تشارلى" يستخدمها مع "إيزابيل"، إن "جون" محق، إنهما لا تتحدثان على نحو سليم.

جمدتها صدمة الإدراك فى المدخل، ومثلما يحدث أحيانًا، فتح الاكتشاف الباب لاكتشاف آخر، إذ رنت الساعة التى على رف المدفأة، وكالعادة، أخرجت الدائرة الميكانيكية التى وراء الزجاج طائرًا صغيرًا من قفص ليرفرف بواسطة دائرة ميكانيكية أخرى قبل أن يدخل إلى القفص مجددًا من الجهة الأخرى، بمجرد أن سمعت الفتاتان الرنة الأولى، تطلعتا إلى الساعة، زوجان من الأعين الخضراء الواسعة تتفرجان ولا ترمشان فى حين يخرج الطائر من الساعة ويرفرف صعودًا ونزولاً.

لم يشِ تحديقهما بالبرود على نحو محدد أو بعدم الإنسانية على نحو خاص، إنها فقط طريقة تطلع الأطفال نحو الجمادات المتحركة، لكنها جمدت سيدة الخدم فى مكانها، لأنها كانت الطريقة ذاتها التى تنظران إليها بها، حين توبخهما، أو تعنفهما، أو تنصحهما.

قالت لنفسها: "إنهما لا تدركان أننى على قيد الحياة، إنهما لا تعرفان أن هناك أحياء غيرهما".

لم تعتبرهما وَحشَين، نظرًا لطيبتها، بل شعرت بالأسف تجاههما.

لا بد أنهما وحيدتان للغاية.

وتحركت من المدخل تجر قدميها.

منذ ذلك اليوم أعادت النظر فى توقعاتها منهما، مواعيد الوجبات والاستحمام المنتظمة، والكنيسة يوم الأحد، طفلتان عاديتان ولطيفتان: كل تلك الأحلام قفزت عبر النافذة، أصبحت لديها مهمة واحدة فقط: أن تُبقِى الفتاتين سالمتين.

قلبت الأمر فى رأسها، وظنت أنها فهمت سبب هذه الحال، إنهما توأمان، وهما دائمًا معًا، ودائمًا اثنتان، إن كان العادى فى عالمهما أن

يكونا اثنتين، فكيف يبدو لهما الآخرون الذين أتوا بصورة أحادية وليست ثنائية؟ لا بد أنهما يروننا كأنصاف، هكذا افترضت سيدة الخدم، وتذكرت كلمة، كلمة بدت غريبة حين سمعتها، ويُشار بها إلى الأشخاص الذين فقدوا أجزاء من أنفسهم: بُترًا، هكذا تعتبرنا الفتاتان: بترًا.

هل الأمر عادى؟ لا، الفتاتان ليستا عاديتين، ولن تكونا عاديتين أبدًا، لكنها طمأنت نفسها بأن الأمور مثلما كانت، والتوأمان تتصرفان مثل توأمين، ربما كانت غرابتهما أمرًا طبيعيًّا.

بالتأكيد يتوق كل البُتر إلى حالة التوأمة، فالأشخاص العاديون، غير التوائم، يبحثون عن توأم روحهم، ويتخذون محبين، ويتزوجون، يسعون جاهدين ليكونوا جزءًا من ثنائى، إذ يعذبهم نقصانهم، وسيدة الخدم لم تكن مختلفة عن الكل فى هذا الصدد، بل كان لديها نصفها الآخر: "جون ذا ديج".

لم يكونا مرتبطين بالمعنى التقليدى، فهما لم يتزوجا، ولم يكونا حتى عاشقين، فهى تكبره بما يقارب الخمسة عشر عامًا، فلم تكن كبيرة كفاية لتكون أمه، لكنها أكبر من أن يتخذها زوجة، حين تقابلا، كانت فى سن لم تعد تتوقع فيه أن تتزوج، فى حين توقع هو أن يتزوج وهو الرجل فى عزه، لكنه لم يتزوج قط، كما أنه بمجرد أن عمل معها، وشرب الشاى معها كل صباح وجلس إلى مائدة العشاء ليأكل طعامها كل مساء، تخلى عن عادة السعى وراء مرافقة الشابات، فبالقليل من الخيال، يمكن أن يتجاوزا حدود توقعاتهما، يمكن أن يعترفا بصدق بمشاعرهما المتبادلة، الحب بصورته الأعمق والأكثر احترامًا، فى زمن آخر وثقافة أخرى، يمكن أن يطلبها للزواج، وربما كانت لتوافق، فعلى الأقل، يمكن تخيل أنه فى إحدى ليالى الجمعة، وبعد أن يتناولا السمك مع البطاطس المهروسة، وبعد التحلية بفطيرة الفواكه والكاسترد، ربما

يأخذها من يدها -أو تأخذه من يده- ليقود أحدهما الآخر فى صمت خجول إلى أحد أسرتهما، لكن الفكرة لم تمر برأسيهما قط، لذا أصبحا صديقين، على طريقة الأزواج المسنين، واستمتعا بالولاء الحنون الذى ينتظر الشخص المحظوظ بعد العشق، دون أن يعيشا العشق نفسه.

اسمه "جون ذا ديج" أيْ (جون الحارث)، أو "جون ديجنس" لمن لم يعرفوه، لم تكن الكتابة أفضل مميزاته، فبمجرد انقضاء أعوام دراسته (وقد انتهت سريعًا لأنها لم تكن كثيرة)، اعتاد التخلى عن الحروف الأخيرة من اسمه الأخير لتوفير الوقت، فقد بدت الحروف الثلاثة الأولى أكثر من كافية: أليست معبرة عن هويته ووظيفته بإيجاز وبدقة أكثر من اسمه الكامل؟ لذا اعتاد التوقيع باسم "جون ديج"، وفى نظر الأطفال أصبح "جون ذا ديج".

كان رجلاً غنيًا بالألوان، عيناه زرقاوان مثل قطعتين من الزجاج الأزرق تقف الشمس وراءهما، وشعره الأبيض ينمو على قمة رأسه مثل النباتات الساعية وراء الشمس، وخداه يتحولان إلى الوردى المشرق مع الإجهاد حين يحرث الأرض، لا أحد يستطيع أن يحرث الأرض مثله، له طريقة مميزة فى البستنة تتهادى بمراحل القمر: يزرع حين يتعاظم القمر، ويقيس الوقت بدورات القمر، وفى المساء، يتأمل جداول من الأرقام ليحسب أفضل وقت لفعل كل شىء، مارس جده الأكبر البستنة هكذا، وكذا فعل جده ووالده، لقد توارثوا المعرفة.

عملت عائلة "جون ذا ديج" دائمًا فى البستنة بـ"آنجلفيلد"، فى الماضى حين كان بالمنزل مدير للبستنة وسبعة مساعدين، اقتلع جده الأكبر سياجًا مربعًا من الأشجار الواقعة تحت نافذة، وحتى لا يبدد الشجيرات، اقتطع منها مئات من الأجزاء الصغيرة، وأنماها فى أحواض، وحين بلغت طول ربع متر، زرعها فى الحديقة، وقلم بعضها ليكون أسيجة منخفضة حادة الأطراف، وترك بعضها ينمو على نحو أشعث،

وحين أصبحت عريضة كفاية، أخذ مجزّاته إليها وصنع منها أشكالاً كروية، أدرك أن بعض تلك الشجيرات أرادت أن تتشكل على شكل أهرامات، أو مخاريط، أو قبعات، ولتشكيل كل الشجيرات، تعلم ذلك الرجل ذو اليدين الكبيرتين الخشنتين الصبر والرقة التى يتمتع بهما حائك الدانتيل، لم يشكل الأشجار على هيئات الحيوانات ولا البشر، فالأشكال التى قد تراها فى الحدائق الأخرى مثل الطاووس والأسود والإنسان بحجمه الطبيعى على دراجة لم تكن أعماله المفضلة، بل كان يُسر بأشكال هندسية صارمة أو تجريدية مذهلة بأبعاد بارزة.

بحلول سنوات عمره الأخيرة، كانت الحديقة التوبيارية هى كل ما يهمه، حرص دائمًا على أن يُنهى أعماله اليومية الأخرى، فكل ما أراده هو أن يكون فى الحديقة "خاصته"، وأن يمرر يديه على أسطح الأشكال التى صنعها، وهو يتخيل الوقت الذى ستصل فيه حديقته إلى أتم النضج، ربما بعد خمسين أو مئة عام.

فى فراش موته، أورث مجزّاته إلى ابنه، وبعد عقود أورثها ابنه إلى حفيده، ثم حين مات هذا الحفيد، أورثها إلى "جون ذا ديج"، الذى أنهى فترة تدريبه فى حديقة كبيرة على بعد خمسين كيلومترًا تقريبًا، وعاد منها ليتولى العمل المقرر له، ومع أنه كان مساعد بستانى، فإن الحديقة التوبيارية كانت مسئوليته منذ اليوم الأول، وكيف لا؟ لقد التقط المجزات، التى شكلت يدا والده مقابضها الخشبية، وشعر بأن أصابعه تعرف طريقها وسط هذه الحزوز، شعر "جون" هناك بأنه فى بيته.

فى الأعوام التى تلت فقدان "جورج آنجفيلد" لزوجته، حين تقلص عدد العاملين بالمنزل بشدة، بقى "جون ذا ديج"، ترك البستانيون المنزل ولم يحل أحد محلهم، وحين شب أصبح، بطبيعة الحال، كبير البستانيين، مع أنه كان البستانى الوحيد، كان العمل هائلاً، ولم يهتم

صاحب المنزل، فكان يعمل بلا شكر، هناك وظائف أخرى، وحدائق أخرى، وكان لينال أيَّة وظيفة يتقدم إليها: فمجرد رؤيته تبعث على الثقة، لكنه لم يغادر آنجلفيلد قط، وكيف عساه يغادر؟ فبعمله فى الحديقة التوبيارية، وإغماده لمجزّاته فى أغمدتها الجلدية مع هبوط الظلام، لم يحتج إلى التفكير فى أن الأشجار التى يشذبها هى الأشجار نفسها التى زرعها جده الأكبر، وروتين وخطوات عمله هى نفسها التى مارستها عائلته لثلاثة أجيال، كل ذلك كان محفورًا بعمق فى عقله لدرجة أنه لا يتطلب أى تفكير، كان الأمر كالمسلمات، وكحال أشجاره، كان هو مزروعًا فى آنجلفيلد.

بم شعر فى ذلك اليوم حين دخل حديقته ووجدها مدمرة؟ وجد فجوات كبيرة فى جوانب أشجار الصنوبر، فجوات تكشف عن أخشابها البنية التى فى قلبها، الرءوس الشجرية مقطوعة وملقاة عند أقدامها، فقدت الأهرامات توازنها بعدما كانت مثالية، والمخاريط مشوهة، والقبعات مقطعة إلى أشلاء، حدق طويلاً إلى الأفرع الطويلة التى لا تزال خضراء وطازجة، المنثورة على العشب، رأى ذبولها البطىء، وتقوسها وهى تجف، وموتها لم يحن أوانه بعد.

كان مصدومًا، سرت رجفة من قلبه إلى ساقيه إلى الأرض تحته، حاول أن يفهم ما حدث، هل هبطت صاعقة من السماء بعدما اختارت حديقته لتدمرها؟ لكن أيَّة عاصفة تلك التى تضرب فى صمت؟

لا، هذا بفعل فاعل.

وهو يلتفت إلى إحدى الزوايا وجد الدليل: متروكًا على العشب الندى، شفرات منفرجة الفم، والمجزّات الكبيرة وبجوارها منشار.

حين لم يأتِ للغداء، قلقت سيدة الخدم وخرجت لتبحث عنه، بمجرد بلوغها الحديقة التوبيارية رفعت يدها إلى فمها رعبًا، ثم أمسكت بمئزرها وتابعت المشى متعجلة.

حـين وجدتـه، رفعتـه عـن الأرض، ومـال بثقلـه عليهـا وهـى تقـوده بعنايـة حنـون إلى المطبـخ حيـث أجلسـته عـلى كـرسى، أعـدت الشـاى مسـكرًا وسـاخنًا، وحملقـت فى الخـواء دون أن تـرى شـيئًا، ودون أن تنطـق كلمـة، رفعـت الكـوب إلى شـفتيه وأمالتـه ليرتشـف مـن المـشروب السـاخن للغايـة، وأخـيرًا تطلعـت عينـاه إليهـا، وحـين رأت الخسـارة فى عينيـه، شـعرت بدموعهـا تنـزل.

"أعرف يا (ديج)، أعرف!"

أمسك كتفيها بيديه وانتقلت رجفة جسده إلى جسدها.

لم تظهـر الفتاتـان فى ذلـك العـصر، ولم تبحـث عنهـما سـيدة الخـدم، وحـين ظهرتـا فى المسـاء، كان "جـون" لا يـزال فى كرسـيه شـاحب الوجـه، جفـل حـين رآهـما، بفضـول وبـلا مبـالاة، مـرت أعينهـما الخـضر عـلى وجهـه مثلـما مـرت عـلى سـاعة الحائـط فى المرسـم.

قبـل أن تضـع الطفلتـين فى سريرهـما، ضمـدت الجـروح التـى عـلى يديهـما مـن المنشـار والمجـزات، قالـت متذمـرة: "لا تلمسـا الأغـراض التـى فى كـوخ (جـون)، إنهـا حـادة وسـتؤذيكما".

كانـت لا تـزال غـير منتظـرة لأيَّـة اسـتجابة: "لم فعلتـما ذلـك؟ أوه، لم فعلتـما ذلـك؟ لقـد فطرتمـا قلبـه".

شـعرت بيـد إحـدى الطفلتـين عـلى يدهـا وقالـت: "سـيدة الخـدم حـزن"، كانـت تلـك "إيميلايـن".

اندهشـت، ورمشـت لتزيـح غمامـة الدمـوع عـن عينيهـا وحدقـت إلى الطفلـة.

تابعت الطفلة: "(جون ذا ديج) حزن".

همست سيدة الخدم: "نعم، نحن حزينان".

ابتسمت الطفلة، كانت تلك ابتسامة بلا خبث، بلا شعور بالذنب، بل كانت ببساطة ابتسامة رضا لأنه لاحظت شيئًا ووصفته بشكل صحيح، لقد رأت دموعًا، وكانت متحيرة، لكنها الآن وجدت إجابة اللغز، إنه الحزن.

أغلقت سيدة الخدم الباب وهبطت السلم، كان ذلك تطورًا كبيرًا، لقد تمكنت الطفلة من التعبير، وعلى الأرجح كانت تلك بداية شيء أعظم، أيمكن أن تتمكن الطفلة من الفهم فى أحد الأيام؟

فتحت باب المطبخ وانضمت إلى "جون" مجددًا فى يأسه.

***

راودنى حلم فى تلك الليلة.

كنت أتمشى فى حديقة السيدة "وينتر"، وقابلت أختى.

بدت مشرقة ومدت جناحيها الشاسعين الذهبيين، كأنها تحتضننى، وملأنى ذلك سعادة، لكن حين اقتربت منها رأيت عينيها مصابتين بالعمى، ولم تستطع أن تراني، فملأ اليأس قلبى.

حين استيقظت، ضممت نفسى على هيئة كرة حتى هدأت الحرارة المستعرة فى جسدى.



"ميرلى" وعربة الرضيع

بيت السيدة "وينتر" منعزلٌ جدًّا، وحياة سكانه منفردة للغاية، لدرجة أننى تفاجأت خلال أسبوعى الأول هناك بسماع صوت عربة تصل على الحصى أمام المنزل، وبالنظر عبر نافذة المكتبة، رأيت باب سيارة سوداء كبيرة يُفتح ولمحت رجلاً طويلاً أسود الشعر، اختفى الرجل فى المدخل وسمعت صوت رن الجرس.

رأيته مجددًا فى اليوم التالى، كنت فى الحديقة، ربما على بعد ثلاثة أمتار من الشرفة الأمامية، حين سمعت خشخشة الإطارات على الحصى، ظللت واقفة، ثم تراجعت إلى الداخل، كنت واضحة تمامًا لمن يريد أن ينظر، لكن حين يتوقع الناس ألا يروا شيئًا، فإنهم عادة لا يرون شيئًا، فلم يرنى الرجل.

كان وجهه حادًا، ظلل حاجباه الكثيفان عينيه، فى حين ميز بقية وجهه سكون كأنه فاقد الحس، وصل إلى سيارته ليحضر حقيبته، وأغلق الباب بعنف وصعد ليرن الجرس.

سمعت صوت فتح الباب، لم يتبادل و"جوديث" ولو كلمة واحدة، واختفى داخل المنزل.

لاحقًا فى ذلك اليوم، أخبرتنى السيدة "وينتر" قصة "ميرلى" وعربة الأطفال.

***

مع نمو الطفلتين استكشفا بيئتهما أكثر وأكثر، وعرفتا سريعًا كل المزارع والحدائق فى محيطهما، لم تفهما على أى نحو مفهوم الحدود، ولا فكرة الملكية، لذا تجولتا حيث شاءتا، فتحتا أبوابًا ولم تهتما دائمًا بإغلاقها، تسلقتا الأسيجة حين وقفت فى طريقهما، حاولتا فتح أبواب المطابخ، وحين نجحتا -وعادة ما كانتا تنجحان، فسكان آنجلفيلد لم يهتموا كثيرًا بإقفال الأبواب- كانتا تدخلان، لم تتورعا عن تناول أى شىء يبدو لذيذًا فى غرفة المؤن، ونامتا لساعة على الأسرة فى الطابق العلوى إن شعرتا بالتعب، وأخذتا القدور الصغيرة والملاعق لإخافة الطيور فى الحقول.

استاءت العائلات المحلية من الأمر، ومقابل كل اتهام من أحدهم، يقول أحد إنه رأى الفتاتين فى الوقت ذاته فى مكان آخر بعيد، أو على الأقل رأى واحدة منهما، أو على الأقل هكذا ظنوا، حينئذ تذكروا كل قصص الأشباح القديمة، فلا يوجد بيت قديم بلا قصص، ولا يوجد بيت قديم بلا أشباح، وحقيقة أنهما توأمتان كانت تضفى بعدًا خاصًا من الرعب، فهناك شىء غير مريح بشأنهما، أو هكذا اتفق الجميع، وسواء أكان ذلك بسبب الفتاتين نفسيهما أو لسبب ما آخر، فإن ذلك أدى إلى العزوف عن الاقتراب من البيت القديم، وقد سرى ذلك بين الكبار مثلما سرى بين الأطفال، خوفًا مما قد يرونه هناك.

لكـن فى النهايـة تفـوق الإزعـاج الـذى تسـببه غـارات الفتاتـين عـلى الخـوف مـن قصـص الأشـباح، وزادت النسـاء غضبًـا، ففـى مـرات عديـدة كانـت النسـاء تحاصرهـما متلبسـتين، وتـصرخ بهـما، كان الغضـب يغـير ملامـح وجوههـن، وتُفتـح أفواههـن وتُغلـق بسرعـة جـدًّا مـا يجعـل الفتاتـين تضحـكان، لم تفهـم النسـاء سـبب ضحـك الفتاتـين، لم يعرفـن أن سرعـة خـروج الكلـمات مـن أفواههـن وتخبطهـا هـو مـا يحـير الفتاتـين، ظنـن أنـه ليـس إلا سـلوكًا شـيطانيًّا خالصًـا وصرخـن أكـثر، فى مـرة وقفـت الفتاتـان لتتفرجـا عـلى مشـهد غضـب أهـل القريـة، ثـم التفتتـا وسـارتا مبتعدتـين بـكل بسـاطة.

حـين عـاد أزواجهـن مـن الحقـول، تذمـرت النسـاء، وقلـن إن شـيئًا يجـب أن يُفعـل، فيقـول الرجـال: "أنـت تتجاهلـين أنهـما طفلتـا البيـت الكبـير"، فـترد النسـاء: "البيـت الكبـير أو غـيره، يجـب ألا يُسـمح للأطفـال بالجمـوح بـلا قيـود هكـذا، هـذا ليـس صحيحًـا ويجـب التـصرف"، فيجلـس الرجـال أمـام أطبـاق البطاطـس واللحـم يهـزون رءوسـهم ولا يفعلـون شـيئًا.

استمر ذلك حتى حادثة عربة الرضيع.

امـرأة بالقريـة تدعـى "مـارى جايمسـن"، زوجـة "فريـد جايمسـن" أحـد عـمال المزرعـة، عاشـت مـع زوجهـا ووالديـه فى أحـد المنـازل الريفيـة، كانـا متزوجـين حديثًـا، وقبـل زواجهـا كان اسـمها "مـارى لَى"، مـا يفـسر الاسـم الـذى ابتكرتـه الطفلتـان لهـا بلغتهـما الخاصـة: أطلقتـا عليهـا "مـيرلى"، وقد كان اسـمًا جيـدًا لهـا، أحيانًـا قـد تذهـب وتلاقـى زوجهـا فى الحقـول، حيـث يجلسـان تحـت أحـد الأسـيجة فى نهايـة اليـوم ويدخـن هـو سـيجارة، إنـه رجـل طويـل بنـى اللـون لـه قدمـان كبيرتـان، وقـد اعتـاد لـف ذراعـه حول خصرهـا ودغدغتهـا والنفـخ أسـفل مقـدم فسـتانها ليضحكهـا، حاولـت ألا تضحـك لتغيظـه، لكنهـا كانـت تريـد الضحـك بشـدة، وفى النهايـة تضحـك.

كانـت لتعتـبر امـرأة عادية لـولا ضحكتهـا هـذه، شـعرها داكـن أكـثر مـن أن تعتـبر شـقراء، وذقنهـا كبـير وعيناهـا صغيرتـان، لكنهـا تميـزت بتلـك الضحكـة، صوتهـا جميـل لدرجـة أنـك إن سـمعته، كأنـك رأيتهـا بعينيـك عـبر أذنيـك وقـد تغـيرت ملامحهـا، إذ تختفـى عيناهـا أعـلى خديهـا الممتلئـين كأنهـما قمريـن، وفجـأة، فى غيـاب عينيهـا، تلاحـظ فمهـا، شـفتيها الممتلئتـين بلـون الكـرز، وأسـنانها- مـن المؤكـد أن لا أحـد فى آنجلفيلـد لديـه مثـل هـذه الأسـنان- ولسـانًا ورديًـا صغـيرًا مثـل قطـة صغـيرة، وذلـك الصـوت، إنهـا موسـيقى جميلـة متموجـة لا تتوقـف تنبعـث مـن حنجرتهـا مثـل نبـع الميـاه مـن تيـار تحـت الأرض، صوتهـا صـوت السـعادة، وهـو تزوجهـا مـن أجـل ذلـك، حـين تضحـك، كان صوتـه يـرق، ويضـع شـفتيه عـلى رقبتهـا وينطـق اسـمها: "مـارى"، مـرارًا وتكـرارًا، فتدغدغهـا اهتـزازات صوتـه عـلى جلدهـا وتضحـك بـلا توقـف.

خـلال الشـتاء، فى حـين لا تـبرح الفتاتـان الحدائـق، رزقـت "مـيرلى" برضيـع، فقضـت أول أيـام الربيـع الدافئـة فى الحديقـة، تعلـق ملابـس الرضيـع عـلى حبـل، وخلفهـا عربـة الرضيـع، لا أحـد يعلـم مـن أيـن أتـت بهـا، ففتيـات القريـة لا يحظـين بمثـل هـذه الأشـياء، ولا شـك بـأن للعربـة مالـك أو مالكـين سـابقين، واشـترته العائلـة بثمـن بخـس (مـع أنهـا بـلا شـك تبـدو لفتـة طيبـة جـدًا)، دلالـة عـلى أهميـة هـذا الطفـل والحفيـد الأول، عـلى أيَّـة حـال، فى حـين تنحنـى "مـيرلى" لتأخـذ سـترة أخـرى صغـيرة، وقميصًـا آخـر صغـيرًا، وتثبتهـما عـلى الحبـل، كانـت تغنـى كالعصافـير المزقزقـة حولهـا، وبـدا أن أغنيتهـا موجهـة إلى عربـة الرضيـع السـوداء الجميلـة، عجلاتهـا فضيـة ومرتفعـة جـدًا، لـذا مـع أنهـا كبـيرة وسـوداء ومسـتديرة، فإنهـا توحـى بالسرعـة وخفـة الـوزن.

أطلـت الحديقـة عـلى الحقـول خلفهـا، وفـرق سـياج بينهـا، لم تعـرف "مـيرلى" أن وراء السـياج يوجـد زوج مـن الأعـين الخـضراء لا يحيـد عـن عربـة الرضيـع.

ينتج الرضع الكثير من الملابس اللازم غسلها، و"ميرلى" أم مجتهدة ومخلصة، تخرج إلى الحديقة يوميًا لتعلق ما غسلته وتأخذ ما جف، ومن نافذة المطبخ، وهى تغسل الحفاضات والسترات فى الحوض، أبقت عينيها على عربة الرضيع الرائعة فى الشمس، بدا أنها تخرج سريعًا كل خمس دقائق لتعدل غطاء العربة، أو لتزود الرضيع ببطانية إضافية، أو ببساطة لتغنى.

لم تكن "ميرلى" الوحيدة التى كرست جهودها لخدمة العربة، فقد فُتنت "إميلاين" و"آديلاين" بها.

خرجت "ميرلى" فى أحد الأيام من تحت الشرفة الخلفية ومعها سلة المغسولات تحت ذراعها، ولم تجد العربة، توقفت فجأة، وفتحت فمها ورفعت يديها إلى خديها، سقطت السلة سريعًا فى حوض زهور، وانقلبت الأقمصة والجوارب على النباتات والزهور، لم تنظر "ميرلى" ولو لمرة نحو السياج ونباتات العلق، بل نظرت يسرة ويمنة كأنها لا تصدق ما تراه، وتابعت النظر يسرة ويمنة، والذعر يتصاعد بداخلها، وفى النهاية أطلقت صرخة، أو ضجيجًا مجلجلاً ارتفع إلى السماء الزرقاء كأنه يشقها إلى نصفين.

تطلع السيد "جريفين" من بقعة زراعة الخضراوات خاصته على بعد ثلاثة منازل وجاء إلى السياج، وعبست الجدة "ستوكس" الجارة أمام حوض المطبخ وخرجت إلى شرفتها، نظرا مندهشين إلى "ميرلى"، متسائلين إن كانت جارتهما الضحوك قادرة على إطلاق مثل هذا الصوت، ونظرت هى إليهما بحدة، مصدومة، كأن صرختها اختصرت حياة كاملة من الكلمات.

فى النهاية قالتها: "لقد اختفى رضيعى".

بمجرد أن نطقت تلك الكلمات شرعوا بالتصرف، فقفز السيد "جريفين" عبر ثلاثة أسيجة فى مرة واحدة، وجذب "ميرلى" من ذراعها

وقادها فى جولة إلى مقدم منزلها قائلاً: "اختفى؟ أين اختفى؟" كذا اختفت الجدة "ستوكس" من شرفتها الخلفية وتردد صوتها فى الأنحاء من الحديقة الأمامية، تنادى طلبًا للمساعدة.

ثم تصاعدت الجلبة: "ما الأمر؟ ماذا حدث؟"

"اختُطف! من الحديقة! فى عربة الرضيع!"

"أنتما الاثنان اذهبا بهذا الاتجاه، وأنتم من هنا".

"فليذهب أحد للبحث عن زوجها".

حدث كل تلك الجلبة والاضطراب أمام المنزل.

أما فى الخلف فكان كل شىء هادئًا، تمايلت مغسولات "ميرلى" تحت أشعة الشمس، واستقرت مجرفة السيد "جريفين" فى سكينة على التربة المحروثة جيدًا، ولامست "إيميلاين" مكابح العربة الفضية بنشوة هادئة متهورة، ورفعتها "آديلاين" حتى تتمكنا من تحريك ذلك الشىء.

أسمتا العربة بلغتهما "ڤووم".

جرَّت الفتاتان العربة بطول الواجهة الخلفية للمنازل، تبين أن الأمر أصعب مما ظنتا، فبداية، العربة أثقل مما تبدو عليه، كما أنهما جرتاها على أرض غير مستوية، وطرف الحقل مائل قليلاً ما أمال العربة بدرجة ما، بإمكانهما جعل العجلات الأربع على المستوى نفسه، لكن الأرض المحروثة حديثًا لينة أكثر هناك، وقد غرزت العجلات وسط كتل الطين، كانت معجزة أنهما استمرتا بالتقدم بعد أول عشرين مترًا، فقد علِقت الأشواك ونبات العليق فى المكابح وأبطأت العربة، لكن فى الواقع لم يكن ذلك مزعجًا لهما، إذ دفعتا بكل ما أوتيتا من قوة لإيصال تلك العربة إلى البيت، وبذلتا كل قوتهما، لكن بالكاد بدا عليهما الشعور بكل ذلك المجهود، دَمِيَت أصابعهما

إثـر إزالـة الأشـواك مـن العجـلات، لكنهـما اسـتمرتا، لا تـزال "إيميلايـن" تدنـدن أغنيـة الحـب للعربـة، وتعطيهـا ضربـة مختلسـة بأصابعهـا بـين الحـين والآخـر، وتقبِّلهـا.

أخـيراً وصلتـا إلى نهايـة الحقـول وأصبـح المنـزل فى مرمـى بصرهـما، لكـن بـدلاً مـن الاتجـاه إليـه مبـاشرة، انعطفتـا نحـو منحـدرات حديقـة الغـزلان، فقـد أرادتـا اللعـب، فدفعتـا العربـة نحـو قمـة أطـول منحـدر فى الحديقـة بـلا كلـل، وجعلتاهـا فى وضـع الاسـتعداد، أخرجتـا الرضيـع منهـا ووضعتـاه عـلى الأرض، ورفعـت "آديلايـن" نفسـها إلى داخـل العربـة، لاصقـت ذقنهـا بركبتيهـا، ممسـكة بجانبـى العربـة، ووجههـا شـاحب، وبإشـارة مـن عينيهـا، دفعـت "إيميلايـن" العربـة بـكل مـا لديهـا مـن قـوة.

فى البدايـة انطلقـت ببـطء، فـالأرض وعـرة، والمنحـدر فى بدايتـه ليـس حـادًا، لكـن سرعـة العربـة ازدادت باطـراد، ولمعـت العربـة السـوداء فى شـمس المغيـب مـع دوران عجلاتهـا، أسرع فـأسرع، حتـى أصبحـت المكابح بـلا فائـدة تقريبًـا، ثـم بـلا فائـدة تمامًـا، يـزداد المنحـدر حـدة، وتتسـبب نتـوءات الأرض فى اهتـزاز العربـة مـن جانـب إلى آخـر حتـى أصبحـت عـلى وشـك الانقـلاب.

عبأت ضجة الأجواء.

"اااااااااااااااااااه!"

صاحـت "آديلايـن" مـن اللـذة مـع اندفـاع العربـة نحـو قـاع المنحـدر، وتهتـز معهـا عظامهـا وتفقـد معهـا صوابهـا.

فجأة أصبح ما على وشك الحدوث واضحًا.

اصطدمـت إحـدى العجـلات بجـزء بـارز مـن صخـرة، وظهـرت شرارة مـع احتـكاك المعـدن بالحجـر، وفجـأة أصبحـت العربـة مسرعـة ولكـن ليـس نحـو الأسـفل، بـل فى الهـواء، تطـير نحـو الشـمس وعجلاتهـا تجـاه

السماء، طارت فى مسار منحنى وخلفها زرقة السماء، حتى هبطت بعنف لتلتقطها الأرض، وعندها سُمع صوت انكسار شىء، صوت يدعو للقرف، وبعد تردد صوت ابتهاج "آديلاين" فى السماء، أصبح فجأة كل شىء هادئًا جدًّا.

جرت "إيميلاين" بسرعة نحو قاع التل، العجلة المواجهة للسماء منبعجة ونصفها مفقود، والعجلة الأخرى لا تزال تدور، ببطء، بعدما فقدت كل زخمها.

امتدت ذراع بيضاء من تجويف العربة السوداء المحطمة، واستقرت بزاوية غريبة على الأرض الحجرية، وعلى اليد توجد بقع من نبات العليق وخدوش أحدثتها الأشواك.

جثت "إيميلاين"، وبدا كل شىء مظلمًا داخل تجويف العربة المحطمة.

لكن حدثت حركة، زوج من الأعين الخضراء يبادلها النظرات.

قالت: "ڤووم"، وابتسمت.

انتهت اللعبة، وحان وقت العودة إلى المنزل.

***

بصرف النظر عن القصة نفسها، قليلاً ما تحدثت السيدة "وينتر" خلال لقاءاتنا، ففى أول أيامى هناك اعتدت أن أسألها: "كيف حالك؟" حالما أصل إلى المكتبة، لكنها كانت تكتفى بالإجابة: "مريضة، ماذا عنك؟" بنبرة تشى بسوء المزاج، كأننى حمقاء لسؤالى، لم أجب عن سؤالها قط، وهى لم تنتظر ردى، لذا سريعًا ما بلغت أحاديثنا نهايتها، كنت أدلف المكتبة بخفة، قبل دقيقة بالضبط من موعدنا، وأبلغ مكانى على المقعد بالجانب الآخر من الموقد، وأخرج دفترى من حقيبتى، ثم بلا أيَّة مقدمات، تلتقط طرف قصتها من حيث تركته،

لم يحكم الوقت نهاية هذه الجلسات، أحيانًا قد تتحدث السيدة "وينتر" حتى تصل إلى النهاية الطبيعية لحكاية اليوم، فتنطق الكلمات الأخيرة، ويكون لصوتها عند نهاية الحكايات وقع لا يخفى، يتبع ذلك صمت غير مبهم مثل المساحة البيضاء فى نهاية كتاب، فأدوّن ملاحظة أخيرة فى دفترى، وأطوى غلافه، وأجمع أغراضى وأرحل، ولكن فى أحيان أخرى كانت تتوقف بلا مقدمات، فى منتصف مشهد، وأحيانًا فى منتصف جملة، فأتطلع إليها لأرى وجهها الشاحب حادًا كأنها تضع قناعًا من التحمل، فى أول مرة رأيتها على هذه الحال سألتها: "أهناك شىء يمكننى فعله؟" لكنها اكتفت بإغلاق عينيها والإشارة إلىَّ بالانصراف.

حين انتهت من حكاية "ميرلين" وعربة الرضيع، وضعت قلمى ودفترى فى حقيبتى وانتصبت، قلت: "سأغيب لبضعة أيام".

كان ردها صارمًا: "لا".

"أخشى أن هذا ضرورى، كنت أتوقع أن أبقى هنا لبضعة أيام فقط فى البداية، وها أنا هنا منذ أكثر من أسبوع، ليست معى أغراض كافية لإقامة مطولة".

"سيأخذك (موريس) إلى البلدة لتشترى كل ما تحتاجين إليه".

"أحتاج إلى كتبى..."

أشارت إلى رفوف مكتبتها.

هززت رأسى: "آسفة لكننى حقًّا يجب أن أغادر".

"آنسة (ليا)، يبدو أنك تظنين أن لدينا كل ما يلزمنا من الوقت، ربما لديك أنت، لكن دعينى أذكرك، أنا امرأة منشغلة، لا أريدك أن تخبرينى مجددًا عن المغادرة، فلتكن هذه المرة الأخيرة".

عضضت شفتى وشعرت للحظة أننى مجبرة على الإذعان، لكننى استجمعت شجاعتى: "أتذكرين اتفاقنا؟ الحقائق الثلاث؟ أحتاج إلى التحقق منها".

ترددت هى، "ألا تصدقيننى؟"

تجاهلت سؤالها، "ثلاث حقائق يمكننى التحقق منها، لقد وعدتنى".

زمت شفتيها بغضب، لكنها وافقت.

"بإمكانك المغادرة يوم الاثنين لمدة ثلاثة أيام لا أكثر، (موريس) سيوصلك إلى المحطة".

كنت فى منتصف كتابتى لقصة "ميرلين" وعربة الرضيع حين سمعت طرقًا على باب غرفتى، لم يحن وقت العشاء بعد، لذا تفاجأت، "جودث" لم تقاطع وقت عملى من قبل.

قالت: "هلا تأتين إلى المرسم؟ الطبيب (كليفتون) هنا ويريد التحدث إليك".

حالما بلغت الغرفة، انتصب الرجل الذى رأيته حين وصل إلى المنزل، لا أفضل المصافحة لذا كنت ممتنة حين بدا أنه قرر ألا يمد يده، لكن ذلك تركنا بلا تمهيد للحديث.

"فهمت أنك كاتبة السيرة الذاتية للسيدة (وينتر)، صحيح؟"

"لستُ متأكدة".

"لستِ متأكدة؟"

"إن كانت تخبرنى الحقيقة، فأنا كاتبة سيرتها الذاتية، وإلا فأنا مجرد كاتبة إملاء".

"هممم"، وسكت برهة، "هل لذلك أهمية؟"

"بنظر من؟"

"بنظرك".

لم أعرف، لكننى أعرف أن سؤاله وقح، لذا لم أجب عنه.

"أفترض أنك طبيب السيدة (وينتر)، صحيح؟"

"صحيح".

"لم طلبت مقابلتى؟"

"فى الواقع الأمر متعلق بالسيدة (وينتر)، هى من طلبت منى مقابلتك، تريدنى أن أتأكد من أنك على دراية تامة بحالتها الصحية".

"حسنًا".

بوضوح علمى لا تشوبه أى انفعالات عاطفية، باشر توضيح حالتها لى، وأخبرنى بكلمات قليلة اسم العلة التى تقتلها، والأعراض التى تعانيها، ودرجة ألمها وأفضل ساعات اليوم لها بمساعدة الأدوية وأسوأها، ذكر عددًا من الحالات المرضية الأخرى التى تعانى منها، والتى كانت خطيرة كفاية فى حد ذاتها، لكن الأمر أن المرض الآخر سينال منها أولاً، وأوضح قدر ما استطاع التقدم المحتمل للمرض، والحاجة إلى ترشيد زيادات جرعة الدواء لإبقاء أى شىء احتياطيًّا للمستقبل، حين، مثلما قال تحديدًا، تحتاج إليه حقًّا.

سألته حين انتهى من الشرح: "كم لديها من الوقت؟"

"لا أستطيع أن أجزم، لو كان شخصًا آخر مكانها لمات بالفعل، السيدة (وينتر) قوية حتى النخاع، ومنذ أن أتيتِ..."، قطع جملته، واستشعرت أنه مثل من يجد نفسه دون قصد على وشك تقديم اعتراف.

"منذ أن أتيتُ...؟"

تطلع إليَّ وبدا متحيراً، لكنه حسم قراره: "منذ أن أتيت، يبدو أنها تحرز بعض التحسن، تقول إنه التأثير المخدر لحكى القصص".

لم أكن واثقة بشأن استنتاجى من هذه المعلومة، وقبل أن أتفكر فى الأمر، تابع الطبيب: "أتفهم أنك ستغادرين..."

"ألهذا طلبت منك أن تتحدث إلى؟"

"كل الأمر أنها تريدك أن تفهمى أن الوقت هو العامل الأهم".

"يمكنك إبلاغها أننى فهمت".

انتهت مقابلتنا، وأمسك لى الباب حتى أخرج، وبعدما تجاوزته، وجه حديثه إليَّ مجددًا، كانت همسة غير متوقعة: "الحكاية الثالثة عشرة...؟ لا أفترض أنها..."

لمحت فى وجهه الساكن دائمًا، باستثناء تلك اللحظة، التوق المتلهف المحموم الخاص بالقراء.

قلت: "لم تذكرها، وحتى إن ذكرتها، لن تكون لدى حرية أن أخبرك".

هدأت عيناه وسرت رعشة من فمه إلى زاوية أنفه.

"يومك سعيد يا آنسة (ليا)".

"يومك سعيد أيها الطبيب".

الطبيب "مودسلى" وزوجته

فى يومى الأخير حكت لى السيدة "وينتر" قصة الطبيب والسيدة "مودسلى".

***

ترك الأبواب مفتوحة والتجول فى منازل الآخرين شىء، والتجول برضيع فى عربته شىء آخر تمامًا، حقيقة أن الرضيع، حين عُثر عليه، كان سالمًا رغم اختفائه المؤقت، لم تكن الحقيقة الأهم، فقد خرجت الأمور عن السيطرة، ودعت الحاجة إلى فعل شىء ما.

لم يشعر أهل القرية بأنهم قادرون على الحديث مع "تشارلى" مباشرة بهذا الشأن، فقد أدركوا أن أمورًا غريبة كانت تحدث فى المنزل، وكانوا شبه خائفين من الذهاب إلى هناك، من الصعب الجزم إن كان ذلك تأثير "تشارلى" أم "إيزابيل" أم الشبح الذى شجعهما على الانعزال، بدلاً من ذلك، تحدثوا مع الطبيب "مودسلى"، وهو ليس الطبيب الذى ربما تسبب فشله فى الوصول سريعًا فى موت والدة

"إيزابيل" فى أثناء الولادة، بل هو رجل آخر كان قد عمل فى القرية لمدة ثمان أو تسع سنوات بحلول ذلك الوقت.

لم يكن الطبيب "مودسلى" شابًا، فمع أنه كان فى منتصف الأربعينات، فإنه يعطى انطباعًا بصغر سنه، ليس طويلاً، ولا يتمتع بجسد قوى للغاية، لكنه يحظى بهالة من الحيوية والقوة، ساقاه طويلتان قياسًا إلى جسده، واعتاد أن يمد الخطى دون أن يبدو عليه بذل الجهد، بإمكانه المشى أسرع من الجميع، فأصبح معتادًا على أن يتحدث ويلتفت فجأة ليجد مسايريه وراءه ببضعة أمتار، يلهثون محاولين اللحاق به، تضاهى تلك الطاقة الجسدية حيوية عقلية عظيمة، يمكنك سماع صدى قوة عقله فى صوته، الذى كان هادئًا مع كونه سريعًا، ويجيد العثور على الكلمة المناسبة للشخص المناسب فى الوقت المناسب، يمكنك أيضًا أن ترى ذلك فى عينيه: لونهما بنى داكن ولامعتان جدًا، مثل أعين الطيور، يقظة وعازمة وفوقها حاجبان قويان ومهندمان.

تمتع "مودسلى" بموهبة نشر حيويته حوله، وهذه ليست سيئة للطبيب، فبمجرد أن يخطو على الطريق، أو أن يطرق الباب، يبدأ مرضاه بالشعور بالتحسن، ولقد أحبوه على نحو خاص، كأنه منشط فى حد ذاته، أو هكذا اعتبره الناس، يهتم إذا ما عاش مرضاه أو ماتوا، وحين يعيشون -وهي الحال دائمًا تقريبًا- يهتم بجودة عيشهم.

حمل الطبيب "مودسلى" حبًا عظيمًا للأنشطة العقلية، المرض فى نظره أشبه باللغز، تهجره الراحة حتى يحله، اعتاد المرضى زيارته لهم فى الصباح الباكر جدًا بعدما قضى الليل مفكرًا فى أعراضهم، ليسألهم سؤالاً واحدًا إضافيًا، وبمجرد أن يتوصل إلى التشخيص، يلوح أمامه لغز العلاج ليحله، كان يستشير الكتب بالتأكيد، وهو عارف تمامًا بالعلاجات المعتادة، لكنه تمتع بعقل مبتكر ظل يتفكر بشىء ببساطة

احتقان الحنجرة من منظور مختلف، فيبحث أكثر وباستمرار عن أيَّة معلومة ولو صغيرة، قد لا تمكنه من معالجة احتقان الحنجرة فقط، بل وفهم ظاهرة احتقان الحنجرة من منظور جديد تمامًا، إنه نشيط وذكى ولطيف، إنه طبيب جيد على نحو استثنائى، وشخص أفضل من المتوسط، ولكن كحال كل البشر، لديه بقعة عمياء.

ضم وفد أهل القرية والد الطفل وجده وصاحب الحانة، وهو رجل يبدو ضجرًا ولا يحب أن يبقى بعيدًا عن قلب الأحداث، رحب الطبيب "مودسلى" بالثلاثى واستمع بانتباه فى حين حكى اثنان منهم ما لديهما، بدأت الحكاية بترك الأبواب مفتوحة، ووصلا إلى المشكلة المزعجة الخاصة بالقدور المفقودة ووصلا بعد دقائق معدودة إلى ذروة القصة: اختطاف الرضيع فى عربته.

واختتم "فريد جايمسن" الشاب: "إنهما بلا ضابط ولا رابط".

وأضاف "فريد جايمسن" العجوز: "خارجتان عن السيطرة".

سأل الطبيب "مودسلى" الرجل الثالث: "وما رأيك؟" بعدما ظل "ويلفريد بونر" الذى التزم مكانه الجانبى والصمت حتى الآن.

خلع السيد "بونر" قبعته وأخذ نفسًا بطيئًا له صفير: "لست متخصصًا فى الطب، لكن يبدو لى أن الفتاتين ليستا طبيعيتين"، وصحب كلماته بنظرة ذات دلالة، ثم تحسبًا لئلا يكون مقصده قد فُهم، نقر على رأسه ثلاث مرات.

نظر الرجال الثلاثة بقلق إلى أحذيتهم.

رد الطبيب: "اتركوا الأمر لى، سأتحدث إلى العائلة".

غادر الرجال، لقد فعلوا ما بإمكانهم، والأمر الآن بيد الطبيب، الذى أصبح الآن كبير القرية.

ومع أنه قال إنه سيتحدث إلى العائلة، فما فعله الطبيب حقًّا هو أنه تحدث مع زوجته.

علقت زوجته بعدما حكى القصة: "أشك أن الطفلتين قصدتا أى أذى بذلك، أنت تعرف الأطفال، اللعب بالرضيع أكثر إمتاعًا بكثير من اللعب بدمية، لكنهما ما كانتا لتؤذياه، ومع ذلك، يجب أن تؤمرا بألا تكررا ذلك، مسكينة (مارى)"، ورفعت عينيها عما تحيكه والتفتت إلى زوجها.

السيدة "مودسلى" جذابة على نحو استثنائى، لها عينان بنيتان كبيرتان برموش طويلة ملتوية على نحو جميل، وشعرها الداكن الذى لم تصل إليه أى من درجات الرمادى تضمه إلى الخلف بطريقة بسيطة للغاية لا تظهر إلا جمالاً حقيقًا، وحين تمشى، كان لجسدها جمال أنثوى ناضج.

عرف الطبيب أن زوجته جميلة، لكنهما تزوجا منذ فترة طويلة حتى أصبح الأمر لا يشكل فارقًا بنظره.

"يظنون فى القرية أن الفتاتين متأخرتان ذهنيًّا".

"بالتأكيد لا!"

"هكذا يظن (ويلفريد بونر) على الأقل".

هزت رأسها متعجبة، "إنه خائف منهما لأنهما توأمان، مسكين (ويلفريد)، إنه الجهل المتوارث، أشكر الرب على أن الأجيال الأصغر أكثر تفتحًا".

الطبيب رجل علم، ومع أنه عرف أن من غير المرجح إحصائيًّا أن تعانى الطفلتان من أى تأخر عقلى، فقد قرر ألا يستبعد هذا الاحتمال حتى يراهما، ولكنه لم يتفاجأ بأن زوجته، التى يحرم دينها أن تظن

السوء بأى شخص، قد تصدق أن تلك الشائعة مجرد نميمة بلا أساس سليم .

تمتم: "واثق بأنك على حق"، بنبرة غامضة وشت بثقته بأنها على خطأ، لقد أقلع عن محاولة إقناعها بتصديق ما هو حقيقى فقط، فقد نشأت على نوع من التدين لا يميز بين ما هو حقيقى وما هو صحيح.

سألته: "ماذا ستفعل إذًا؟"

"سأذهب وأقابل العائلة، (تشارلز آنجلفيلد) أشبه قليلاً بالزاهد المنزوى، لكنه بالتأكيد سيقابلنى إن ذهبت".

أومأت السيدة "مودسلى" برأسها، وهى طريقتها فى عدم موافقة زوجها، مع أنه لم يدرك ذلك، "ماذا عن الأم؟ ماذا تعرف عنها؟"

"القليل جدًا".

وتابع الطبيب تفكيره فى صمت، وتابعت السيدة "مودسلى" الحياكة، وبعد ربع ساعة، قال الطبيب: "ما رأيك أن تذهبى إليهم يا (ثيودورا)؟ الأم قد تفضل أن تلتقى امرأة أخرى وليس رجلاً، ما رأيك؟"

وبعد ثلاثة أيام وصلت السيدة "مودسلى" إلى المنزل وطرقت الباب الأمامى، مندهشة من عدم الرد، عبس وجهها -فقد أرسلت رسالة بأنها ستأتى- وتجولت حول المنزل حتى وصلت إلى الخلف، كان باب المطبخ مواربًا فدخلت بعد طرق سريع، لم تجد أحدًا هناك، تطلعت السيدة "مودسلى" حولها، على المائدة ثلاث تفاحات، لونها بنى ومتجعدة وفى طريقها للانهيار، وقماشة صحون سوداء بجوار حوض ترتفع الأطباق المتسخة بداخله، ونافذة قذرة للغاية لا تميز عبرها الليل من النهار، اشتم أنفها الأبيض الرقيق الهواء داخل

المنزل، فأخبرها بكل ما تحتاج إلى معرفته، زمت شفتيها، ويبست كتفيها، وأطبقت قبضتها على مقبض حقيبتها الذى على هيئة هيكل سلحفاة وانطلقت فى حملتها بالمنزل، تنقلت من غرفة إلى أخرى بحثًا عن "إيزابيل"، تلاحظ فى طريقها القذارة والفوضى والوسخ المنتشر فى كل مكان.

تشعر سيدة الخدم بالتعب بسهولة، ولا تستطيع أن تنظف السلالم جيدًا، وبصرها آخذ فى الضعف، وكثيرًا ما تظن خطأ أنها نظفت أشياء، أو تخطط لتنظيفها ثم تنسى، وبصراحة إنها تعرف أن لا أحد يهتم، لذا ركزت معظم جهدها على إطعام الطفلتين، وكانتا محظوظتين لأنها نجحت فى ذلك، لذا كان المنزل قذرًا ومغبرًا، ولو مال إطار إحدى الصور المعلقة، يظل مائلاً لمدة عقد، وإن لم يجد "تشارلى" سلة القمامة فى مكتبه، فإنه يكتفى برمى الأوراق على الأرض حيث كانت السلة، وقد اكتشف سريعًا أن الأمر أيسر أن يخرج القمامة مرة سنويًا عن أن يخرجها مرة أسبوعيًا.

لم تعجب السيدة "مودسلى" بما رأته على الإطلاق، استاءت أمام الستائر نصف المغلقة، وتنهدت أمام الأدوات الفضية الباهتة، وهزت رأسها اندهاشًا حين رأت القدور على السلالم والأوراق الموسيقية المنثورة على الأرض بطول المدخل، وفى المرسم انحنت على نحو تلقائى لالتقاط ورقة لعب، ورقة الثلاثة من البستوني[1]، التى كانت ملقاة أو منسية فى وسط أرضية الغرفة، لكن حين تطلعت حولها بحثًا عن بقية المجموعة، كانت كالتائهة، فلا شىء هناك سوى الفوضى، عادت بنظرها يائسة إلى الورقة وقد أدركت الآن أنها مغطاة بالغبار، وكونها امرأة حساسة تجاه النظافة وصعبة الإرضاء، غلبتها رغبة فى أن تترك الورقة فى مكان ما، ولكن أين؟ لمدة ثوانٍ قليلة، شل الذعر حركتها،

---

(1) أوراق اللعب ذات رمز القلب.

وأحسـت بالحصـار بـين الرغبـة فى إنهـاء العلاقـة بـين قفازهـا الـذى يبـدو جديـدًا وورقـة اللعـب المغـبرة اللزجـة قليـلاً، وعـدم اسـتعدادها لوضـع الورقـة فى مـكان غـير مكانهـا، وفى النهايـة، برعشـة واضحـة عـلى كتفيهـا، وضعتهـا عـلى ذراع الكـرسى الجلـدى، وخرجـت مـن الغرفـة بارتيـاح.

بـدت المكتبـة أفضـل حـالاً، بالطبـع هـى مغـبرة، والسـجاد رث، لكـن الكتـب نفسـها بـدت فى مكانهـا الصحيـح، وهـو أمـر مميـز، ولكـن حتـى فى المكتبـة، وفى اللحظـة التـى ظنـت فيهـا أن هنـاك ذرة حـس بالنظـام لـدى تلـك العائلـة القـذرة الفوضويـة، صادفـت سريـرًا مؤقتًـا، السريـر مدسـوس فى زاويـة مظلمـة بـين مجموعتـين مـن الرفـوف، وهـو عبـارة عـن بطانيـة تسـكنها البراغيـث ووسـادة قـذرة، فى البدايـة ظنتـه سريـر قطـة، ثـم بالنظـر مجـددًا، لاحظـت طـرف كتـاب ظاهـر مـن تحـت الوسـادة، فأخرجتـه ووجدتـه روايـة "جـين أيـر".

مـرت مـن المكتبـة إلى غرفـة الموسـيقى حيـث وجـدت الفـوضى نفسـها التـى فى كل مـكان، الأثـاث منسـق بشـكل غريـب كأن الهـدف منه تسـهيل لعـب الغميضـة، الشـيزلونج الطويـل موجـه نحـو الحائـط، ويوجـد كـرسى نصفـه مختـفٍ بواسـطة خزانـة جُـرت مـن مكانهـا تحـت النافـذة ووراءهـا مسـاحة مـن السـجاد عريضـة وممسـوحة، حيـث الغبـار أقـل كثافـة واللـون الأخـضر أكـثر وضوحًـا، وعـلى البيانـو تحتـوى زهريـة عـلى سـيقان نباتـات مسـودة وجافـة، وحولهـا دائـرة منتظمـة مـن بتـلات الأزهـار الشـبيهة بالرمـاد، مـدت السـيدة "مودسـلى" يدهـا نحـو إحـدى البتـلات والتقطهـا، فتفتـت تاركـة بقعـة قـذرة لونهـا بـين الأصفـر والرمـادى بـين أصابـع قفازهـا الأبيـض.

يبدو أن السيدة "مودسلى" تركت نفسها لتهوى على مقعد البيانو.

لم تكـن زوجـة الطبيـب امـرأة شريـرة، بـل كانـت مقتنعـة كفايـة بأهميتهـا، لدرجـة اعتقادهـا بـأن الـرب مطلـع عـلى كل مـا تفعله ويسـتمع

إلى كل ما تقوله، وقد كانت مأخوذة جدًّا بفكرة التخلص من الفخر الذى قد تشعر به تجاه قداستها، ما كان يمنعها بدرجة ما من أن تلاحظ أى عيوب قد تكون لديها، كانت تريد إصلاح الكون، ما يعنى أن السوء الذى فعلته، قد فعلته دون إدراكها.

ماذا كان يدور بعقلها حين جلست على مقعد البيانو تحملق إلى الخواء؟ هؤلاء أناس لم يحافظوا على الحياة فى زهرياتهم، لا عجب أن طفلتيهما تسيئان التصرف! بدا فجأة أن مدى المشكلة انكشف أمامها من خلال الأزهار الميتة، وقد خلعت قفازيها وحركت أصابعها على مفاتيح البيانو السوداء والرمادية بعقل شارد.

تردد فى الغرفة أقصى ما يمكن تخيله من الأصوات المزعجة، أبعد ما تكون عن صوت البيانو، يعود هذا جزئيًّا إلى الإهمال الذى أصاب البيانو، إذ لم يُستخدم ولم تُضبط نغماته لأعوام، كما أن اهتزاز أوتار الآلة مصحوب لحظًا بضوضاء أخرى، لا تقل نشازًا عن صوت البيانو، صوت أشبه بهسهسة قوية، صرير من نوع جامح، مثل قطة وجدت ذيلها تحت قدمك.

أحدث ذلك الصوت زلزالاً داخل السيدة "مودسلى" أخرجها من خيالاتها، حين سمعت ذلك العواء، حملقت إلى البيانو غير مصدقة ووقفت ويداها على خديها، وفى خضم ذهولها، كان لديها أقل من لحظة لتدرك أنها ليست وحدها.

مسكينة السيدة "مودسلى".

لم يسعفها الوقت لتدرك أن الشىء المتشح بالبياض أمامها يلوح مهددًا بآلة كمان، وأن هذا الكمان يهوى سريعًا وبشدة على رأسها، وقبل أن تستوعب أيًّا من هذا، بلغ الكمان جمجمتها، وغمرها الظلام وهوت أرضًا بلا وعى.

ذراعاهـا ممددتـان بـلا هيئـة محـددة، ومنديلهـا الأبيـض الأنيـق لا يـزال مدسوسًـا داخـل حـزام سـاعتها، بـدا كأن الحيـاة ضلـت الطريـق إلى جسـدها، وهبطـت سـحب الغبـار الصغـيرة التـى ارتفعـت مـن السـجاد متبخـترة.

ظلـت مكانهـا لنصـف سـاعة كاملـة، حتـى عـادت سـيدة الخـدم مـن المزرعـة حيـث كانـت تجمـع البيـض، ولمحـت بالصدفـة جسـمًا داكنًـا، حيـث لم تـر مـن قبـل أى أجسـام داكنـة.

لم يوجد أى أثر لكائن متشح بالبياض.

***

وأنـا أفـرغ الأحـداث مـن ذاكـرتى، بـدا لى أن صـوت السـيدة "وينـتر" يمـلأ غرفتـى بدرجـة الواقعيـة نفسـها التـى مـلأ بهـا المكتبـة، لديهـا طريقـة فى الحديـث تنقـش الأحـداث فى ذاكـرتى، وتجعلهـا موثوقـة كأنهـا تسـجيل صـوتى، لكـن فى لحظـة قولهـا: "لم يوجـد أى أثـر لكائـن متشـح بالبيـاض"، سـكتت لوهلـة، وأتوقـف أنـا الآن لوهلـة، قلمـى يحـوم عـلى الصفحـة، أفكـر فى مـا حـدث بعدهـا.

كنـت مسـتغرقة فى القصـة، لـذا احتجـت إلى لحظـة لأنقـل تركيـزى مـن مشـهد زوجـة الطبيـب الممـددة أرضًـا إلى راويـة القصـة نفسـها، وحـين فعلـت ذلـك أصابنـى الفـزع، فشـحوب وجـه السـيدة "وينـتر" العـادى أفسـح المجـال للـون بـين الأصفـر والرمـادى، وجسـدها، الـذى يجـب ذكـر أنـه متصلـب دائمًـا، بـدا فى تلـك اللحظـة أنـه يحمـى نفسـه مـن هجـوم مـا خفـى، لاحظـت رجفـة حـول فمهـا، وظننـت أنهـا عـلى وشـك خسـارة معركـة السـيطرة عـلى شـفتيها، وأن تجهـمًا مكبوتًـا اقـترب مـن الظفـر بوجههـا.

انتصبت من مقعدى فزعة، لكننى ليست لدى فكرة عما يجب فعله.

صحت عاجزة: "سيدة (وينتر)، ماذا بك؟"

أظنني سمعتها تقول: "إنه ذئبي"، لكن الجهد الذي بذلته لتتحدث كان كافيًا لترتجف شفتاها مجددًا، أغلقت عينيها، وبدا أنها تصارع لضبط أنفاسها، وبينما كنت على وشك الإسراع لإيجاد "جوديث"، استعادت السيدة "وينتر" سيطرتها، وهدأ صعود وهبوط صدرها، وتوقف ارتعاش وجهها، ومع أنها لا تزال شاحبة كالموتى، فتحت عينيها وتطلعت إليّ.

قالت بوهن: "الآن أفضل..."

عدت ببطء إلى مقعدي.

"أظنني سمعتك تقولين شيئًا عن ذئب".

"نعم، إنه الوحش الأسود الذي ينخر عظامي كلما واتته الفرصة، إنه يتسكع في الزوايا وخلف الأبواب معظم الوقت، لأنه يخاف هذه"، وأشارت إلى الحبوب البيضاء على الطاولة المجاورة لها، "لكنها لا تستمر للأبد، الساعة قاربت الثانية عشرة وقد بدأ تأثيرها في الخفوت، إنه يتنفس عند رقبتي، بعد مرور نصف ساعة سيغرز أسنانه وحوافره في جسدي، حتى الساعة الواحدة، حينئذ يمكنني تناول قرص آخر وسيضطر إلى الرجوع إلى زاويته، نحن في حالة ترقب دائم لعقارب الساعة، أنا وهو، يعجل هجومه خمس دقائق كل يوم، لكنني لا أستطيع أن أتناول أقراصي قبل موعدها بخمس دقائق، فيبقى الوضع على ما هو عليه".

"لكن الطبيب بالتأكيد..."

"بالتأكيد، يعدل الجرعة مرة أسبوعيًا أو مرة كل عشرة أيام، لكن هذا ليس كافيًا أبدًا، وهو لا يريد أن يقتلني بالدواء، لذا فحين أموت، سيكون الذئب هو من قتلني".

نظرت إلىَّ، أو لأكون دقيقة، تراجعت.

"الأقراص هناك، انظرى، وهذه كأس المياه، إن أردتُ، يمكننى إنهاء كل هذا بنفسى، وقتما أريد، فلا تأسفى لحالى، لقد اخترت هذا الطريق لأن لدى ما يجب فعله قبلها".

أومأت: "حسنًا".

"إذًا فلنفعل اللازم، أين وصلنا؟"

"زوجة الطبيب، فى غرفة الموسيقى، مع الكمان".

وتابعنا عملنا.

***

لم يكن "تشارلى" معتادًا على التعامل مع المشكلات.

كانت لديه مشكلات، الكثير منها، ثمة ثقوب فى السقف، وزجاج نوافذ مكسور، وطيور تتحلل فى غرف العليا، لكنه تجاهلها جميعًا، أو ربما كان غائبًا جدًا عن العالم لدرجة أنه لم يلحظها، وحين بلغ تغلغل الشتاء مستوى سيئًا، اكتفى ببساطة بغلق غرفته واللجوء إلى غيرها، ففى النهاية، البيت كبير كفاية، يتساءل المرء إن كان قد أدرك بعقله بطىء الاستيعاب أن الآخرين يصونون منازلهم، لكن مجددًا، الخراب بيئة "تشارلى" الطبيعية، وشعر بأنها بيته.

لكن أن تبدو زوجة طبيب كالميتة فى غرفة الموسيقى، فهذه ليست مشكلة يمكنه تجاهلها، إلا لو كانت واحدة من سكان المنزل، لكن المشكلة أنها غريبة، لهذا فالأمر مختلف، يجب فعل شىء ما، مع أنه ليس لديه فكرة عما قد يكونه ذلك الشىء، فحملق إلى زوجة الطبيب والكرب بادٍ عليه وهى ترفع يدها إلى رأسها المضطرب وتتأوه، قد يكون غبيًا، لكنه عرف ما يعنيه ذلك، هناك كارثة فى الطريق.

بعثت سيدة الخدم "جون ذا ديج" بحثًا عن الطبيب، ووصل فى الوقت المناسب، بدا لوهلة أن الهواجس المترقبة للكارثة لم يكن لها أساس سليم، بعدما تبين أن زوجة الطبيب ليست متأذية بشدة، بل بالكاد ارتج دماغها، رفضت جرعة من البراندى، وقبلت بالشاى، وبعد وهلة كانت سليمة مثلما جاءت، قالت: "كانت امرأة، امرأة متشحة بالبياض".

علقت سيدة الخدم: "هذا هراء"، مطمئنة لها ورافضة لادعائها فى آن، "لا توجد بالمنزل امرأة متشحة بالبياض".

لمعت الدموع فى عينى السيدة "مودسلى" البنيتين، لكنها تمسكت بروايتها: "نعم، امرأة ذات جسد محدد قليلاً، هناك على الشيزلونج الطويل، لقد سمعت البيانو وانتصبت و..."

سألها الطبيب "مودسلى": "هل رأيتها طويلاً؟"

"لا، فقط للحظة".

قاطعتها سيدة الخدم: "حسنًا، أترون؟ هذا غير معقول"، ومع أن صوتها كان متعاطفًا، فإنه كان صارمًا أيضًا، "ليست هناك امرأة متشحة بالبياض، لا بد أنك رأيتِ شبحًا".

ثم وللمرة الأولى، سُمع صوت "جون ذا ديج": "بالفعل يُقال إن هذا البيت مسكون".

للحظة تطلع المتجمعون إلى الكمان المكسور الذى تُرك على الأرض، وفكروا فى النتوء الذى يبرز على صدغ السيدة "مودسلى"، لكن قبل أن يستجيب أحد لتلك النظرية، ظهرت "إيزابيل" فى المدخل، نحيفة وممشوقة القوام، ترتدى فستانًا لونه ليمونى باهت، وشعرها معقود أعلى دماغها بشكل عشوائى وأشعث، وعيناها جامحتان رغم جمالهما.

سأل الطبيب زوجته: "أيمكن أن تكون هذه المرأة التى رأيتها؟"

قارنـت السـيدة "مودسـلى" "إيزابيـل" بالصـورة التـى ببالهـا، كـم مـن الدرجـات تفصـل بـين الأبيـض والأصفـر الباهـت؟ أيـن تحديـدًا الخـط الفاصـل بـين الجسـد النحيـف والجسـد المحـدد؟ كيـف قـد تؤثـر ضربـة عـلى الـرأس عـلى ذاكـرة الإنسـان؟ تـرددت، ثـم قـررت حالمـا رأت العينـين الزمرديتـين وجدتهـا مطابقـة لمـا فى ذاكرتهـا.

"نعم، إنها هى".

تجنبت سيدة الخدم و"جون ذا ديج" تبادل أيَّة نظرات.

منـذ تلـك اللحظـة، كانـت "إيزابيـل" محـط اهتـمام الطبيـب، ناسـيًا زوجتـه نفسـها، نظـر إليهـا مـن كثـب وبرفـق، والقلـق يلـوح فى عينيـه وهو يطـرح عليهـا السـؤال تلـو الآخـر، حـين رفضـت الإجابـة ظـل محتفظًـا بهدوئـه، لكـن حـين كلفـت نفسـها عنـاء الإجابـة -أحيانًـا بتلاعـب، وأحيانًـا بتـبرم، وأحيانًـا بحماقـة- اسـتمع بعنايـة، يومـئ وهـو يـدوّن ملاحظاتـه فى مذكرتـه الطبيـة، تنـاول رسـغها لقيـاس نبضهـا، ولاحـظ مذعـورًا الجـروح والندبـات التـى ميـزت الجـزء الداخـلى مـن سـاعدها.

"أتفعل هذا بنفسها؟"

تمتمت سيدة الخدم الصادقة بتردد: "نعم"، فزم الطبيب شفتيه قلقًا.

التفـت إلى "تشـارلى": "أيمكـن أن نتحـدث عـلى انفـراد يـا سـيدى؟" نظـر إليـه "تشـارلى" بـلا أى تعبـير، لكـن الطبيـب جذبـه مـن مرفقـه: "ربمـا فى المكتبـة؟" وقـاده بحـدة إلى خـارج الغرفـة.

فى المرسـم انتظـرت سـيدة الخـدم وزوجـة الطبيـب وتظاهرتـا بعـدم الانتبـاه إلى الأصـوات الآتيـة مـن المكتبـة، صـدرت همهمـة ليسـت لصوتين، بـل لصـوت واحـد، هـادئ ومحكـم، وحـين سـكت، سـمعنا "لا"، ثـم "لا!" مجـددًا بصـوت "تشـارلى" المرتفـع، ثـم مجـددًا النـبرات الهادئـة للطبيـب، بعـد بعـض الوقـت، سـمعنا اعتراضـات "تشـارلى" المتكـررة قبـل أن ينفتـح

الباب ويخرج الطبيب، يبدو جادًا ومهزوزًا، ومن ورائه أتى صراخ قوى من اليأس والضعف، لكن الطبيب اكتفى بأن جفل وأغلق الباب وراءه.

قال لسيدة الخدم: "سأتولى الترتيبات اللازمة لإدخالها المصحة، وكذا توصيلها، هل الساعة الثانية مناسبة؟"

أومأت برأسها وهى مرتبكة، ونهضت زوجة الطبيب لتغادر.

فى الساعة الثانية جاء ثلاثة رجال إلى المنزل، واقتادوا "إيزابيل" خارجًا إلى عربة يجرها حصانان فى المدخل، سلمت نفسها إليهم مثل الحمل، وجلست فى مقعدها بإذعان، لم تنظر حتى إلى الخارج قط مع تقدم الحصانين ببطء فى الممر نحو البوابات.

أما الطفلتان فكانتا ترسمان دوائر بأصابع أرجلهما وسط حصى الممر.

وقف "تشارلى" على السلم يتابع العربة وهى تتضاءل، يبدو كطفل تؤخذ منه لعبته المفضلة، ويعجز عن تصديق أن هذا يحدث فعلاً، لم يدرك الأمر بعد.

راقبته من الردهة سيدة الخدم و"جون ذا ديج" بقلق، ينتظران أن يدرك ما حدث.

بلغت العربة البوابات واختفت عبرها، استمر "تشارلى" فى التحديق إلى البوابات المفتوحة لثلاث أو أربع أو خمس ثوانٍ، ثم انفتح فمه، دائرة واسعة ترتعش وتنتفض، كشفت لسانه المرتعش، واحمرار حنجرته، وخيوط اللعاب على قمة تجويف مظلم، تفرجنا مذهولين، منتظرين تلك الضوضاء المروعة التى ستخرج من الفم الفاغر المرتج، لكنه لم يكن جاهزًا للخروج بعد، تعاظم الصوت خلال ثوان طويلة، فقد ظل يتراكم بداخله حتى بدا أن جسده بالكامل ممتلئ بصوت مكبوت، وبعد طول انتظار هبط على ركبتيه على السلم وصدرت

عنه تلك الصرخة، لم تكن الجأرة الشديدة التى توقعناها، بل كانت شخرة أنفية رطبة.

رفعت الفتاتان أعينهما عن دوائرهما للحظة، ثم عادتا إليها بلا مبالاة، زم "جون ذا ديج" شفتيه وابتعد عائدًا إلى الحديقة والعمل، لم يكن لديه ما يفعله هناك، وذهبت سيدة الخدم إلى "تشارلى"، ووضعت يدها المواسية على كتفه وحاولت إقناعه بالدخول إلى المنزل، لكنه كان كالأصم أمام كلماتها، واكتفى بالشخر والصرير مثل طفل خاسر.

وهذا كل ما فى الأمر.

***

هذا كل ما فى الأمر؟ هذه الكلمات تعليق ختامى مخفف على نحو غريب على اختفاء والدة السيدة "وينتر"، بدا واضحًا أن السيدة "وينتر" لم تقدر كثيرًا مهارات الأمومة لدى "إيزابيل"، بالفعل بدت كلمة "أم" غائبة من قاموسها، ربما الأمر مبرر: فمما لاحظته، كانت "إيزابيل" أقل النساء اهتمامًا بالأمومة، لكن من أنا لأصدر أحكامًا على علاقة الآخرين بأمهاتهم؟

أغلقت دفترى، ودسست قلمى فى الحلزون ووقفت.

ذكرتها: "سأغيب لثلاثة أيام، سأعوم يوم الخميس".

وتركتها وحيدة مع ذنبها.

مكتب "ديكنز"

انتهيت من كتابة ملاحظات ذلك اليوم، أصبحت دستة أقلام الرصاص كلها ثلمة، وأمامى مهمة شحذ طويلة، أدخلت رءوس الأقلام فى المبراة واحدًا تلو الآخر، إن أدرت مقبض المبراة ببطء وتساوٍ، قد تحصل أحيانًا على لفافة طويلة من خشب الأقلام، والتى ستلتف على نفسها وتتدلى مرة واحدة إلى سلة المهملات، لكن فى تلك الليلة كنت متعبة، وظلت اللفافات تنكسر تحت ثقل وزنها.

فكرت بشأن القصة، بدأت أعجب بسيدة الخدم و"جون ذا ديج"، أثار "تشارلى" و"إيزابيل" أعصابى، ورأيت أن لدى الطبيب وزوجته أفضل الدوافع، لكن تدخلهما فى حياة الفتاتين لن تُحمد عواقبه.

أما الفتاتان نفسهما فقد حيرتانى، عرفت رأى الآخرين بشأنهما، اعتقد "جون ذا ديج" أنهما لا تتحدثان على نحو سليم، واعتقدت سيدة الخدم أنهما لا تدركان أن الآخرين أحياء، وظن أهل القرية أنهما تعانيان من مشكلة عقلية ما، ما لم أعرفه -وأثار فضولى أكثر

مـن أى شىء آخـر- هـو مـا ظننتـه راويـة القصـة، حـين تحـكى حكايتهـا، تكـون السـيدة "وينـتر" مثـل الفنـار الـذى يـضىء لما حولـه ويغـرق هـو فى الظـلام، كانـت هـى النقطـة العميـاء فى قلـب الأحـداث، تتحـدث بالضمـير "هـم"، ومؤخـرًا تحدثـت بالضمـير "نحـن"، ومـا حـيرنى هـو غيـاب الضمـير "أنـا".

أعـرف ردهـا إن سـألتها بشـأن ذلـك: "آنسـة (ليـا)، بيننـا اتفاق"، سـألتها بالفعـل عـن تفصيلـة أو اثنتـين بقصصهـا، ومـع أنهـا قـد تجيـب مـن حـين إلى آخـر، فإنهـا كانـت تذكـرنى بلقائنـا الأول حينـما لا تريـد الإجابـة: "بـلا أيَّـة حيـل ولا أسـئلة، ولـن تسـترقى النظـر إلى الصفحـات الأخـيرة".

تصالحـت مـع فكـرة أن أظـل فضوليـة لفـترة طويلـة، ومـع ذلـك وفى حـين يـراودنى الفضـول، حـدث شىء فى ذلـك المسـاء سـلط ضـوءً مميـزًا عـلى تلـك النقطـة.

رتبـت مكتبـى وشرعـت فى تحقيـب أشـيائى حـين سـمعت طرقًـا عـلى بـابى، فتحـت ووجـدت "جوديـث" فى الممـر.

"تتسـاءل السـيدة (وينـتر) إن كانـت لديـك دقيقـة لمقابلتهـا أم لا"، كانـت تلـك ترجمـة "جوديـث" المهذبـة لأمـر "أحـضرى الآنسـة (ليـا)"، لم أشـك بذلـك.

طويت بلوزتى وهبطت إلى المكتبة.

كانـت السـيدة "وينـتر" جالسـة فى وضعهـا المعتـاد ونـيران الموقـد مسـتعرة، لكـن بقيـة الغرفـة مظلمـة.

سألتها من الممر: "أتودين أن أضىء بعض الأنوار؟"

سـمعت إجابتهـا مـن بُعـد: "لا"، فتقدمـت نحوهـا، كانـت السـتائر مفتوحـة والسـماء المظلمـة ذات النجـوم المنثـورة منعكسـة فى المرايـا.

حين وصلت إلى جانبها، أرانى ضوء الموقد الراقص أن السيدة "وينتر" شاردة الذهن، جلست فى مقعدى بصمت، يهدهدنى دفء النيران، وأحملق إلى سماء الليل المنعكسة فى مرايا المكتبة، مر ربع ساعة وهى متأملة وأنا أنتظر.

ثم تكلمت.

"أرأيت من قبل تلك الصورة لـ(ديكنز) فى مكتبه؟ أظن أن من رسمها رجل يدعى (بوس)، لدى نسخة منها فى مكان ما، سأبحث عنها من أجلك، على أيَّة حال، فى الصورة، كان قد جذب كرسيه بعيدًا عن مكتبه ويغلبه النعاس، عيناه مغلقتان، وذقنه الملتحى على صدره، ينتعل خفيه، وحول رأسه تحوم شخصيات من كتبه مثل دخان سيجار، بعض الشخصيات متزاحمة فوق الأوراق على مكتبه، وشخصيات أخرى منجرفة وراءه، أو طافية فى اتجاهها للنزول، كأنها تظن نفسها قادرة على المشى بأقدامها على الأرض، ولم لا؟ إنها مرسومة بالخطوط الثقيلة نفسها التى رُسم هو بها، فلم لا تكون حقيقية مثله تمامًا؟ تبدو حقيقية أكثر من الكتب على الرفوف، الكتب المرسومة بأخف درجات الخطوط، وتتلاشى فى بعض النقاط إلى لا شىء كالأشباح.

"لماذا ذكرتُ الصورة الآن؟ لا بد أنك تتساءلين، أتذكرها جيدًا لأنها تبدو صورة للطريقة التى عشت بها حياتى، لقد أغلقت باب مكتبى فى وجه العالم وحبست نفسى مع شخصيات من مخيلتى، لمدة ست سنوات تقريبًا كنت أتجسس بلا عقاب على حياة أشخاص خياليين، اختلست النظر بلا خجل إلى قلوبهم وخزانات حماماتهم، ونظرت من فوق أكتاف لأتتبع حركة أقلام الريشة وهى تكتب رسائل الحب والوصايا والاعترافات، لقد تفرجت فى حين يحب المحبون، ويقتل القتلة، ويلعب الأطفال لعبة التظاهر، فتحت السجون والمواخير أبوابها لى، وأوصلتنى السفن الشراعية وقوافل الإبل عبر البحر والرمال،

ومـرت قـرون وسـقطت قـارات كاملـة طاعـة لأوامـرى، لقـد تجسست علـى آثـام الأقويـاء، وشـهدت نبـل الودعـاء، لقـد انحنيـت بشـدة علـى النائمـين فى أسرتهـم، لدرجـة أنهـم ربمـا أحسـوا بأنفـاسى عـلى وجوههـم، لقـد رأيـت أحلامهـم.

يزدحـم مكتبـى بشـخصيات تنتظـر أن تُكتـب، أشـخاص خياليـين، يتوقـون إلى حيـاة، يجذبـون كمـى ويبكـون: (أنـا التـالى! هيـا إنـه دورى!) وأكـون مضطـرة إلى الاختيـار، وبمجـرد أن أختـار، يقبـع الآخـرون فى هـدوء لعـشرة أشـهر أو عـام، حتـى أصـل إلى نهايـة القصـة، ويبـدأ الضجيـج مجـددًا.

وفى الكثـير مـن الأحيـان، خـلال كل هـذه السـنوات مـن الكتابـة، كنـت أرفـع رأسى عـن الورقـة -فى نهايـة فصـل، أو خـلال اسـتراحة هادئـة للتفكير بعـد مشـهد مـوت، أو أحيانًـا أكـون أبحـث عـن الكلمة المناسـبة ليـس إلا- فـأرى وجهًـا فى مؤخـر الحشـود، وجهًـا مألوفًـا، لـه بـشرة شـاحبة، وشـعر أحمـر، يحملـق بثبـات وبعينـين خضراويـن، أعـرف تمامًـا مـن هـى، ومـع ذلـك أتفاجـأ دائمًـا لرؤيتهـا، فى كل مـرة تنجـح فى الظهـورِ لى عـلى حـين غـرة، عـادة تفتـح فمهـا لتتحـدث إلى، لكـن طـوال عقـود كانـت أبعـد مـن أن أسـمعها، عـلاوة عـلى أننـى بمجـرد أن أعـى وجودهـا أتجنـب الحملقـة إليهـا وأدعـى أننـى لم أرهـا، وأظـن أن ذلـك لم ينطـلِ عليهـا.

"يتسـاءل النـاس عـما يجعلنـى غزيـرة الإنتـاج، إنهـا هـى، إن شرعـت بكتابـة كتـاب جديـد بعـد خمـس دقائـق مـن إنهـاء الأخـير، فهـذا لأن تـرك مـا بـين يـدى عـلى مكتبـى يعنـى التقـاء عينـى وعينيهـا".

"مـرت الأعـوام، وزادت أعـداد كتبـى عـلى رفـوف المكتبـات، وبالتـالى قلـت أعـداد الشـخصيات السـابحة فى أجـواء مكتبـى، ومـع كل كتـاب أكتبـه، تهـدأ ثرثـرة الأصـوات، ويقـل إحسـاسى بالصخـب فى رأسى، تضاءلـت أعـداد الوجـوه التـى تسـتجدى اهتمامـى، ودائمًـا، كانـت هـى موجـودة

فى مؤخـر الحشـد، وتكـون أقـرب مـع انتهـاء كل كتـاب، ذات العينـين الخضراويـن، تنتظـر".

"جـاء يـوم إكـمالى للمسـودة الأخـيرة لكتـابى الأخـير، كتبـت العبـارة الأخـيرة، وأضفـت النقطـة الأخـيرة، عرفـت مـا أنـا بصـدد مواجهتـه، انزلـق القلـم مـن يـدى وأغلقـت عينـىّ، سـمعتها تتكلـم، أو ربمـا كان ذلـك أنـا: (إذًا، لم يتبـقَ غيرنـا الآن)".

"جادلتهـا لبعـض الوقـت، قلـت لهـا: (ذلـك لـن ينجـح أبـدًا، إنـه قديـم جـدًّا، وأنـا لم أكـن إلا طفلـة، لقـد نسـيت"، مـع أننـى كنـت أتذكـر.

"(لكن أنا لم أنسَ، أتذكرين حين...)"

"حتى أنا أعرف ما هو حتمى حين أراه، أنا أتذكر".

سـكنت الذبذبـات الخافتـة فى الهـواء، قاطعـت تأمـلى للنجـوم والتفـت إلى السـيدة "وينـتر"، عيناهـا الخـضراوان تحملقـان إلى ركـن فى الغرفـة كأنهـما فى تلـك اللحظـة تريـان الطفلـة خـضراء العينـين ذات الشـعر النحـاسى.

"هذه الطفلة هى أنت".

"أنـا؟" تحولـت عينـا السـيدة "وينـتر" ببـطء مـن الطفلـة الشـبح إلى، "لا، هـذه ليسـت أنـا، إنهـا..."، وتـرددت، "إنهـا شـخص اعتـدت أن أكونه، لم تعـد تلـك الطفلـة موجـودة منـذ وقـت طويـل جـدًّا، لقـد انتهـت حياتهـا فى ليلـة الحريـق بالتأكيـد، كأنهـا هلكـت فى النـيران، المـرأة التـى ترينهـا أمامـك الآن لا تسـاوى شـيئًا".

"لكن مسيرتك المهنية، وقصصك..."

"حين لا يساوى المرء شيئًا، يُضطر إلى الابتكار، يملأ الفراغ".

ثـم جلسـنا فى صمـت نتابـع نـار الموقـد، وبـين الحـين والآخـر تحـك السـيدة "وينـتر" كـف يدهـا بعقـل شـارد.

تابعت بعد بعض الصمت: "مقالك عن الأخوين (لانديير)".

التفتُّ إليها على مضض.

"لماذا اخترتهما موضوعًا للمقال؟ لا بد أن شيئًا ما لفت انتباهك على نحو خاص، أو أن لديك بعض الإعجاب الشخصى بالقصة".

هززت رأسى: "لا، ليس هناك شىء مميز بشأن الاختيار".

ثم لم يتبقَ سوى سكون النجوم وطقطقة النار.

لا بد أن ساعة أو ما يقاربها قد مرت حتى تكلمت مرة ثالثة، حين كانت النيران أهدأ.

"(مارجريت)"، أعتقد أن هذه هى المرة الأولى التى تدعونى فيها باسمى الأول، "حين تغادرين غدًا..."

"ماذا؟"

"ستعودين، أليس كذلك؟"

من الصعب استبيان تعبير وجهها فى ضوء اللهب الراقص المحتضر، ومن الصعب تحديد مدى علاقة الإرهاق والمرض بالرعشة فى صوتها، لكن بدا لى فى اللحظة التى سبقت إجابتى -"نعم، بالتأكيد سأعود"- أن السيدة "وينتر" خائفة.

فى الصباح التالى أقلنى "موريس" إلى المحطة واستقللت القطار إلى الجنوب.

التقاويم

من أين قد أبدأ بحثى إلا من بيتى، متجرى؟

أنـا مفتونـة بالتقاويـم القديمـة، منـذ طفولتـى، أيَّـة لحظـة يـضرب فيهـا الملـل أو القلـق أو الخـوف كانـت ترسـلنى إلى تلـك الرفـوف لأتجـول سريعًـا فى صفحـات الأسـماء والتواريـخ والملاحظـات، بـين أغلفـة تلـك الكتـب، لُخصـت حيـوات سـابقة فى سـطور حياديـة عـلى نحـو قـاسٍ، إنـه عـالم يحمـل فيـه الرجـال البارونيـة والأسـقفية ويتولـون وزارات البرلمـان، والنسـاء لسـن إلا زوجاتهـم وبناتهـم، لم يوضـح أى شىء تفضيـلات هـؤلاء فى وجبـة الإفطـار، ولا مـن أحبـوا أو الأشـكال التـى اتخذتهـا مخاوفهـم فى الظـلام بعدمـا يطفئـون الشـموع، لم تكـن هنـاك ولـو معلومـة شـخصية واحـدة، فـما الـذى أثـر فىّ بهـذه الملاحظـات الشـحيحة عـن حيـوات الأمـوات؟ ليسـت إلا حقيقـة أنهـم كانـوا بـشرًا، وأنهـم عاشـوا، وأنهـم الآن أمـوات.

حين أقرؤها، كانت توقظ شيئًا بداخلى، شيئًا بداخلى وليس أنا، يصحو ذلك الجزء الذى فارق الحياة ويلاطفنى حين أقرأ تلك القوائم.

لم أفسر لأحد قط حبى الشديد للتقاويم، لم أقل حتى إننى أحبها قط، لكن والدى لاحظ تفضيلى لها، فكان يحرص على شراء هذا النوع من المجلدات كلما رآه فى مزاد، فيقضى كل أعلام الأموات فى البلاد من أجيال عدة سابقة حياتهم التالية الهادئة على رفوف طابقنا الثانى، وأنا بصحبتهم.

تصفحت قوائم الأسماء فى الطابق الثانى وأنا منحنية على كرسى النافذة، وجدت جد السيدة "وينتر"، "جورج آنجلفيلد"، لم يكن بارونًا، ولا وزيرًا، ولا أسقفًا، لكن مع ذلك اسمه موجود، فللعائلة أصول أرستقراطية، وتمتعت بالألقاب فى مرحلة ما، لكن قبل بضعة أجيال حدث انقسام فى العائلة، فسلكت الألقاب مسارًا، وسلكت الأموال والأملاك مسارًا آخر، وكان جدها على مسار الأملاك، ومع أن التقاويم نزعت إلى تتبع الألقاب فقط، فإن الصلة كانت قريبة كفاية لتمنحه مكانًا، لذا كان موجودًا: "آنجلفيلد، جورج"، إلى جانب تاريخ مولده، يقيم فى منزل "آنجلفيلد" فى أوكسفورد شاير، زوجته "ماتيلدا مونييه" من مدينة ريمس الفرنسية، وله ابن وحيد، "تشارلز"، وحين تتبعته عبر تقاويم الأعوام التالية، وجدت تغيرًا بعد عقد من الزمن: له ابن وحيد، "تشارلز"، وابنة وحيدة، "إيزابيلا"، وبعد صفحات قليلة، وجدت توثيقًا لموت "جورج آنجلفيلد"، وتحت اسم "مارش، رولاند"، وجدت زواج "إيزابيل".

للحظة شعرت بأنها فكرة مسلية أننى اضطررت إلى قطع كل تلك المسافة إلى يوركشاير لأسمع قصة السيدة "وينتر"، فى حين أنها كانت هنا طوال الوقت فى التقاويم، على بعد بضعة أمتار من سريرى، لكن بعدها بدأت أفكر على نحو سليم، ماذا تثبت هذه السجلات

الورقية؟ فقط أن أشخاصًا مثل "جورج" و"ماتيلدا" وطفليهما "تشارلز" و"إيزابيل" قد عاشوا، ولا شيء ينفي أن السيدة "وينتر" وصلت إليهم مثلما فعلت أنا، عبر تصفح كتاب، تلك التقاويم يمكن العثور عليها في المكتبات بأيّ مكان، وهي متاحة لمن يريد تصفحها، ألا يمكن أنها توصلت إلى مجموعة من الأسماء والتواريخ، ونسجت حولها قصة لتسلي نفسها؟

لدي مشكلة أخرى إلى جانب هذه الشكوك، مات "رولاند مارش"، وبموته توقف السجل الورقي الخاص بـ"إيزابيل"، إن عالم التقاويم غريب، ففي العالم الحقيقي، تتفرع العائلات مثل الأشجار، وتنتقل الدماء الممتزجة بالزواج من جيل إلى التالي، ناسجة شبكة علاقات أوسع من ذي قبل، وعلى الجانب الآخر، تمر الألقاب من رجل إلى آخر، وهذا التقدم الخطي المحدود هو ما تفضل التقاويم تتبعه، وعلى جانبي خط الألقاب، يوجد بضعة إخوة وأبناء عمومة أصغر سنًّا وقريبين كفاية لتشملهم التقاويم، هؤلاء ربما يصبحون لوردات أو بارونات، ومع أن ذلك غير مذكور صراحة، فإن أمامهم فرصة لنيل الألقاب، فقط لو حدثت السلسلة الصحيحة من المأساويات، ولكن بعد عدد محدد من التفرعات في شجرة العائلة، سقطت الأسماء من تلك الهوامش عبر الأثير، وأي مزيج من السفن المحطمة وكوارث الطاعون والزلازل لن يكون قويًّا كفاية ليعيد أقارب الدرجة الثالثة هؤلاء إلى الصدارة، فالتقاويم لها حدودها، لذا توقف الأمر عند "إيزابيل"، فهي امرأة، ولم تلد رجالاً، وزوجها (الذي ليس لوردًا) مات، ووالدها (الذي ليس لوردًا أيضًا) مات، نبذها التقويم وابنتيها، غرقت ثلاثتهن في محيط شاسع من الأشخاص العاديين، الذين تعد ولادتهم وموتهم وزواجاتهم، كحال ما يحبون وما يخافون وتفضيلاتهم في وجبة الإفطار، أتفه كثيرًا من أن تستحق الأجيال القادمة معرفته.

لكـن "تشـارلى" رجـل، وقـد تمـدد التقويـم حتـى يذكـره هـو فقـط، مـع أن تضاؤل الأهميـة كان بالفعـل يلقـى بظلالـه عليـه، المعلومـات عنـه شـحيحة، اسـمه "تشـارلز آنجلفيلـد"، وُلـد، وعـاش فى "آنجلفيلـد"، لم يتـزوج، ولم يمـت، فبقـدر مـا اهتـم التقويـم، كانـت تلـك المعلومـات كافيـة.

اسـتعنت بمجلـد بعـد الآخـر، ولم أجـد إلا ذلـك الوصـف السـطحى لحياتـه، ومـع كل مجلـد جديـد كنـت أقـول لنفـسى إن هـذه سـتكون السـنة التـى سيسـتبعدونه فيهـا، لكـن فى كل سـنة أجـده، "تشـارلز آنجلفيلـد"، لا يـزال مـن "آنجلفيلـد، ولا يـزال عزبًـا، فكـرت مجـددًا بشـأن مـا قالتـه لى السيدة "وينـتر" عـن "تشـارلى" وأختـه، وعضضـت شـفتى مـن التفكـير بشـأن مـا يشـير إليـه طـول عزوبتـه.

ثـم وجـدت مفاجـأة حـين كان فى أواخـر الأربعينـات، اسـمه، وتاريـخ مولـده، ومحـل إقامتـه، واختصـار غريـب -"إل دى دى"- لم ألحظـه مـن قبـل.

لجأت إلى جدول الاختصارات ووجدته:

"إل دى دى": إعلان وفاة بالقانون.

وبالعـودة إلى موضـع ذكـر "تشـارلى"، حملقـت إليـه طويـلاً عابسـة، كأننـى إذا حملقـت كفايـة، سـيُحل اللغـز فى الورقـة نفسـها.

فى ذلـك العـام، أُعلنـت قانونـًا وفـاة "تشـارلى"، وبقـدر مـا فهمـت فإن إعـلان الوفـاة بالقانـون هـو مـا تـؤول إليـه الأمـور حـين يختفـى شـخص وبعـد فـترة محـددة يُسـمح لعائلتـه، لأغـراض توزيـع المـيراث، بافـتراض أنـه متـوفى، عـلى الرغـم مـن عـدم توافـر دليـل أو جثـة، راودنى شـعور بـأن الشـخص يجـب أن يختفـى بـلا أثـر لمـدة سـبعة أعـوام قبـل أن يمكـن اعتبـاره متـوفى، ربمـا مـات فى أى وقـت خـلال تلـك الفـترة، وربمـا لم يمـت بعـد، بـل هـو مختـفٍ، أو تائـه أو هائـم عـلى وجهـه، بعيـدًا عن أى شـخص يعرفـه، متـوفى بالقانـون، لكـن ذلـك لم يعـنِ بالـضرورة أنـه متـوفى حقًّـا،

تساءلت، أيَّة حياة هذه التى تنتهى بهذه الطريقة الغامضة غير المريحة؟ إنه إعلان وفاة بالقانون.

أغلقت التقويم، وأعدته إلى مكانه على الرف، وهبطت إلى المتجر لأعد الكاكاو.

"ماذا تعرف عن الإجراءات القانونية اللازمة لإعلان وفاة شخص؟" رفعت صوتى بالسؤال إلى والدى وأنا واقفة أمام قدر الحليب على الموقد.

وجاء رده: "أظن أننى لا أعرف عنها أكثر منك".

ثم ظهر عند المدخل وأعطانى بطاقة مطوية الأطراف تخص أحد زبائننا، "هذا الرجل لديه الإجابة، إنه أستاذ قانون متقاعد، يعيش الآن فى ويلز، لكنه يأتى كل صيف لتصفح الكتب والتنزه على ضفة النهر، إنه رجل لطيف، لم لا ترسلين إليه رسالة؟ ربما تسألينه أيضًا إن كان يريد أن أُبقى له نسخة من كتاب (مبادئ العدالة الطبيعية) باللاتينية أم لا".

بعدما أعددت الكاكاو، عدت إلى التقويم لأجد كل ما يمكن إيجاده عن "رولاند مارش" وعائلته، اتخذ عمه الفن هواية، وحين انتقلت إلى قسم تاريخ الفن لأتتبع عمه، عرفت أن البورتريهات خاصته اعتُبرت لفترة قصيرة ذروة الموضة الفنية، فى حين تُعتبر الآن عادية، ضم مجلد عن فن التصوير الإنجليزى نسخة من لوحة مبكرة لـ"لويس آنثونى مارش" عنوانها "(رولاند)، ابن أخ الفنان"، الأمر غريب أن تتطلع إلى وجه ولد لم يصبح رجلاً بعد بحثٍ عن ملامح امرأة مسنة، ابنته، تفرست لدقائق بملامحه الجسدية وشعره الأشقر اللامع، ووضعية رأسه الكسول.

أغلقت الكتاب، وفكرت فى أننى أضيع وقتى، إن بحثت ليلاً نهارًا لن أجد أثرًا للفتاتين اللتين يفترض أنه والدهما.

في أرشيف بانبري هيرالد

في اليـوم التـالي اسـتقللت القطـار إلى بانـبري، إلى مكتـب صحيفـة بانـبري هيرالـد.

دلنـي شـاب إلى الأرشـيف، قـد تبـدو كلمـة الأرشـيف مثـيرة للإعجـاب بنظـر شـخص لم يتعامـل معهـا كثـيراً، لكـن بنظـري، بعدمـا قضيـت عطـلاتي لسـنوات في غـرف مشـابهة، لم أتفاجـأ حـين دلفـت إلى مـا كان بالأسـاس خزانـة كبـيرة بالطابـق السـفلي بـلا نوافـذ.

أوضحـت للشـاب بإيجـاز: "أبحـث عـن حريـق منـزل في آنجلفيلـد، حـدث منـذ نحـو 60 عامًـا".

قادني الشاب إلى الرف الخاص بتلك الفترة.

"سأرفع الصناديق من أجلك إذا سمحت".

"وصفحـات تقييـم الكتـب أيضًـا منـذ نحـو أربعـين عامًـا، لكننـي لسـت متأكـدة في أي سـنة".

"صفحات تقييم الكتب؟ لم أعلم أن الصحيفة كانت تصدر صفحات لتقييم الكتب"، حرك السُلم، وجلب مجموعة أخرى من الصناديق، ووضعها بجوار المجموعة الأولى على طاولة ممتدة تحت ضوء ساطع.

قال مبتهجًا: "لديك كل ما ستحتاجين إليه"، وتركنى لأبدأ.

عرفت أن حريق آنجلفيلد كان على الأرجح غير مفتعل، فقد انتشرعلى نطاق واسع خلال تلك الفترة أن يخزن الناس الوقود، وهو سبب امتداد الحريق وشراسته، لم يكن أحد بالمنزل باستثناء ابنتى أخت المالك، وكلتاهما هربت ودخلت المشفى، وقد كان يُعتقد أن المالك نفسه مسافر خارج البلاد، (تساءلت عن دلالة كلمة "يُعتقد"، ودونت ملاحظة سريعة بالتواريخ: انقضت ست سنوات أخرى قبل إعلان الوفاة بالقانون)، واختُتم العمود ببعض التعليقات على الأهمية المعمارية للمنزل، وذُكر أنه لم يعد صالحًا للسكن بوضعه الحالى.

نسخت الخبر وبحثت بالعناوين الرئيسة فى الأعداد اللاحقة فى حال وردت بها متابعات، لكننى لم أجد شيئًا، فأبعدت الأوراق واتجهت إلى الصناديق الأخرى.

قال: "أخبرينى الحقيقة"، الشاب ذو البذلة التقليدية الذى أجرى مقابلة مع "فيدا وينتر" لصحيفة بانبرى هيرالد منذ أربعين عامًا.

ولم تنسَ هى كلماته أبدًا.

لم أجد أثرًا للمقابلة، لم أجد حتى أثرًا لما يمكن أن يطلق عليه صفحة لتقييم الكتب، كل ما اتصل بالأدب هو تقييمات بين الحين والآخر لكتب تحت عنوان: "كتب قد تعجبك..." كتبتها محررة اسمها "مس جينكنسوب"، التقطت عيناى اسم السيدة "وينتر" مرتين فى تلك الفقرات، فمن الواضح أن "مس جينكنسوب" قد قرأت روايات السيدة "وينتر" واستمتعت بها، فكان ثناؤها متحمسًا ومستحقًا، ولو كانت

بأسلوب غير أكاديمي، لكن بدا واضحًا أنها لم تلتقِ الكاتبة قط، وأنها لم تكن الرجل ذا البذلة البنية.

أغلقت العدد الأخير وطويته بعناية فى صندوقه.

الرجل ذو البذلة البنية شخصية خيالية، حيلة للإيقاع بى، الطعم الذى يلقم به الصياد خيطه ليجذب السمكة إليه، وما من وصف لهذا سوى أنه متوقع، ربما رفع آمالى أننى تأكدت من وجود "جورج" و"ماتيلدا"، و"تشارلى" و"إيزابيل"، على الأقل كان هؤلاء أشخاصًا حقيقيين، أما الرجل ذو البذلة البنية فكان خيالاً.

اعتمرت قبعتى وارتديت قفازى، غادرت مكاتب بانبرى هيرالد وخرجت إلى الشارع.

بينما أنا أتمشى بطول الشوارع الشتوية باحثة عن مقهى، تذكرت رسالة السيدة "وينتر" لى، وتذكرت كلمات الرجل ذى البذلة البنية، وكيف أن صداها تردد تحت العواض الخشبية بحجرتى، ومع ذلك، فإنه نسج من خيالها، كان يجب أن أتوقع ذلك، فهى غازلة للخيوط، حاكية للقصص، ناسجة للخرافات، كاذبة، والرجاء الأقوى تأثيراً فىّ - أخبرينى الحقيقة- قاله رجل لم يكن حتى حقيقيًا.

لم تُعِنِّى الكلمات على أن أصف لنفسى مرارة خيبة أملى.

الحطام

استقللت الحافلة من بانبرى.

قال السائق: "آنجلفيلد؟ لا، ليست لدينا أى خطوط إلى آنجلفيلد، أو ليس بعد، قد يتغير الأمر بعد بناء الفندق".

"أيبنون فندقًا هناك؟"

"يهدمون بعض الحطام القديم، وسيقيمون مكانه فندقًا فخمًا، قد يمدون خط حافلة إليه، من أجل العاملين، لكن أفضل طريق لك الآن أن تصلى إلى محطة هير آند هاوندز على طريق تشينيز وأن تتمشى من هناك، أعتقد أن المسافة كيلومتر ونصف تقريبًا.

لم تحتوِ آنجلفيلد على الكثير، بل تتكون من شارع وحيد كُتب على لافتته الخشبية ببساطة منطقية "ذا ستريت[1]"، مررت بأبنية حجرية صغيرة، مبنية على هيئة أزواج، وبين الحين والآخر يبرز ملمح

(1) أي "الشارع" بالإنجليزية.

مميز -شجرة صنوبر كبيرة، أرجوحة أطفال، دكة خشبية- لكن فى الغالب كان كل منزل، بسقفه القشى المزخرف بعناية، وجملوناته[1] البيضاء والبراعة الفنية المبسطة فى بناء أحجارها، يعكس تصميم المنزل المجاور كأنه مرآة.

تطل الأبنية الحجرية الصغيرة على الحقول، وتحددها الأسيجة وترصعها الأشجار، ومع تقدمى رأيت خرافًا وأبقارًا، ثم منطقة مشجرة بكثافة، والتى تقع بعدها، وفقًا لخريطتى، حديقة الغزلان، لم أجد رصيفًا بشكله المعتاد، لكن هذا لا يهم كثيراً بسبب نقص حركة السيارات، فى الواقع، لم أرَ أى علامات على الحياة البشرية قط حتى تجاوزت آخر بناء حجرى صغير ووصلت إلى مجمع مكتب البريد والمتجر العام.

خرج من المتجر طفلان يرتديان معطفين أصفرين واقيين من المطر وجريا نحو الطريق يسبقا والدتهما التى توقفت عند صندوق البريد، امرأة ضئيلة وجميلة، وتعانى لتلصق طوابع على مظاريف دون أن تُسقط الصحيفة المطوية تحت ذراعها، أما الطفل الأكبر، وهو فتى، فقد شب بقدميه ليرمى غلاف حلواه فى السلة الملحقة بعمود على جانب الطريق، أراد أن يأخذ غلاف حلوى أخته، لكنها قاومته: "أستطيع فعلها! أستطيع فعلها!" فشبت هى الأخرى ومدت ذراعها، متجاهلة اعتراضات أخيها، ثم رمت الورقة نحو فم السلة، لكن نسيمًا التقطها وعبر بها الطريق.

"لقد حذرتك!"

التف الطفلان وانطلقا فى سباق، واهتزا محاولين التوقف حين رأيانى، زوجان من الرموش الشقراء هبطا على زوجين من الأعين البنية متطابقة الشكل، وفكّان هبطا بالطريقة نفسها تعبيراً عن المفاجأة،

(1) الجملون: مصطلح فى الهندسة المعمارية يُقصد به أسقف المنازل المثلثة.

ليسا توأمين، لكنهما متشابهان للغاية، توقفت لألتقط الغلاف وقدمته إليهما، تقدمت الفتاة لأخذه، لكن أخاها الأكثر حذرًا مد ذراعه أمامها وهتف: "ماما!"

رأت المرأة الشقراء ما حدث من موقعها عند صندوق البريد، "لا بأس يا (توم)، دعها تأخذه"، فأخذت الفتاة الغلاف من يدى دون أن تنظر إلى، قالت الأم: "قلا شكرًا"، وفعل الطفلان ذلك بصوت محبوس، ثم أدارا ظهريهما إلىّ وجريا بعيدًا والامتنان بادٍ عليهما لعدم ضياع الغلاف، فى تلك المرة رفعت المرأة ابنتها لتبلغ السلة، ونظرت إلىّ مجددًا وهى تفعل ذلك، تتطلع إلى كاميرتى بفضول مستتر.

"آنجلفيلد" ليست مكانًا أستطيع الاختفاء فيه.

قدمت المرأة ابتسامة متحفظة: "استمتعى بنزهتك"، ثم استدارت لتلحق بطفليها، اللذين كانا بالفعل يجريان بطول الشارع نحو الأبنية الحجرية.

تابعتهم وهم يبتعدون.

جرى الطفلان، ينقضان ويغوص كل منهما فى الآخر، كأنهما مربوطان بحبل خفى، يبدلان اتجاهيهما بشكل عشوائى، ويغيران سرعاتهما بشكل غير متوقع، ولكن بتزامن تخاطرى، كأنهما راقصان، تقودهما الموسيقى الداخلية نفسها، غصنان يحركهما النسيم نفسه، بدا الأمر باهرًا ومألوفًا على نحو مثالى، وددت أن أبقى لمشاهدتهما، لكننى خفت أن يستديرا ويريانى أحدق إليهما، فانسحبت بعيدًا.

بعد بضع مئات الأمتار، أصبحت أرى بوابات الأبنية الحجرية الصغيرة، البوابات نفسها لم تكن مغلقة، بل ملحومة بالأرض وبعضها ببعض بواسطة لفافات ملتوية من أشجار اللبلاب، التى شقت طريقها عبر المعدن كثير التفاصيل، وأعلى البوابات، استقر قوس حجرى باهت يطل على الطريق، يمتد جانباه إلى بناءين صغيرين بكل منهما غرفة

واحـدة ولهـما نوافـذ، فى إحـدى النوافـذ عُلقـت ورقـة، وبمـا أننـى مصابـة بإدمـان القـراءة المزمـن، لم أسـتطع المقاومـة، فارتقيـت الحشـائش الطويلـة المبتلـة لأقرأهـا، لكنهـا كانـت إشـعارًا مهجـورًا، صمـد الشـعار الملـون الخـاص بشركـة إنشـاءات، لكـن تحتـه توجـد بقعتـان لونهـما رمـادى باهـت عـلى شـكل صورتـين فوتوجرافيتـين، وشـبح توقيـع لونـه أدكـن قليـلاً فقـط، كان لـه شـكل الكتابـة، لكـن قراءتـه أضحـت مسـتحيلة بعـد شـهور مـن التعـرض لضـوء الشـمس.

كنـت أسـتعد لمسـيرة طويلـة حـول تلـك الحـدود لأجـد طريقًـا إلى الداخـل، لكننـى لم أخـطُ إلا خطـوات قليلـة حـين وجـدت بوابـة خشـبية صغـيرة فى جـدار بـلا شىء يغلقهـا سـوى مـزلاج، فدخلـت فى لحظـة.

كان ذلـك الطريـق الخـاص مفروشًـا فى المـاضى بالحـصى، لكنـه الآن تتخللـه أرض عاريـة وعشـب غـير مشـذب، الطريـق عـلى شـكل منحنـى طويـل يـؤدى إلى حجـر صغـير وكنيسـة حجريـة لهـا بوابـة مسـقوفة، ثـم ينحنـى فى الاتجـاه الآخـر، وراء امتـداد مـن الأشـجار والشـجيرات التـى حجبـت المشـهد وراءهـا، والحـدود الشـجرية ناميـة بإفـراط عـلى كل جانـب، أغصـان شـجيرات مختلفـة مشـتبكة تحـاول إيجـاد مسـاحة لنفسـها، وعـلى الأرض تحتهـا تزحـف الحشـائش نحـو أيَّـة مسـاحة تجدهـا.

مشـيت نحـو الكنيسـة، لقـد أعيـد بناؤهـا فى العـصر الفيكتـورى، لكنهـا حافظـت عـلى تواضـع العصـور الوسـطى، صغـيرة وأنيقـة، ويشـير برجهـا إلى السـماء دون مبالغـة، الكنيسـة متمركـزة عنـد قمـة منحنـى الحـصى، وكلـما اقتربـت تنحـرف عينـى عـن البوابـة المسـقوفة ونحـو الأفـق الـذى ينكشـف عـلى الجانـب الآخـر، ومـع كل خطـوة يتسـع الأفـق أكـثر، حتـى ظهـرت أخـيرًا الكتلـة الحجريـة الباهتـة التـى هـى منـزل "آنجلفيلـد"، وعنـد ذلـك توقفـت فجـأة.

يتخـذ المنـزل زاويـة غريبـة، حـين تـأتى عـبر الطريـق الخـاص، تجـد زاويتـه أمامـك، ولا يبـدو واضحًـا أيَّـة جهـة مـن المنـزل هـى جهتـه الأماميـة، بـدا كأن المنـزل عـرف أنـه يجـب أن يلقـى زواره القادمـين بجهتـه الأماميـة، لكـن فى اللحظـة الأخـيرة لم يسـتطع كبـح ميلـه إلى الالتفـات والتحديـق إلى حديقـة الغـزلان والغابـة فى نهايـة الشرفـات، فلـم يُسـتقبل الزائـر بابتسـامة مرحبـة، بـل بـلا مبـالاة.

أمـا التفاصيـل الأخـرى لمظهـر المنـزل فلـم تـزده إلا غرابـة، هـو بنـاء غـير متناظـر الأبعـاد، لـه ثلاثـة جملونـات كبـيرة، يرتفـع كل منهـا إلى أربعة طوابـق، وهـى بـارزة عـن هيـكل المنـزل، اثنتـا عـشرة نافـذة طويلة واسـعة هـى مظهـر النظـام والتناغـم الوحيـد الـذى تقدمـه واجهـة المبنـى، فى حـين تتخـذ النوافـذ ترتيبًـا عشـوائيًا فى بقيـة واجهاتـه، فـلا توجـد نافذتـان متتاليتـان متشـابهتان، وفـوق الطابـق الثالـث، حـاول درابزيـن أن يحفـظ تماسـك هـذا المعـمار المتبايـن داخـل نطـاق واحـد، لكـن فى أنحـاء متفرقـة تجـد حجـرًا بـارزًا، أو جملونًـا جزئيًـا، أو نافـذة غريبـة، كلهـا لا تسـاعد فى تحقيـق ذلـك التماسـك، فتختفـى تلـك التفاصيـل مـن ناحيـة لتظهـر عـلى الجانـب الآخـر، وفـوق هـذا الدرابزيـن تشـكل سـطح المنـزل عسـلى اللـون مـن خـط غـير متسـاوٍ مـن الأبـراج وأبـراج الزاويـة ومداخـن المدفئـة.

أيبـدو حطامًـا؟ معظـم أحجـار المنـزل الذهبيـة بـدت نظيفـة كيـوم اسـتخراجها، بالتأكيـد بـدا البنـاء الحجـرى الدقيـق الخـاص بأبـراج الزاويـة باليًـا قليـلاً، والدرابزيـن متـداعٍ فى بعـض المواضـع، لكـن مـع ذلـك، بالـكاد يبـدو كالحطـام، لمـا رأيتـه حينئـذ، ووراءه السـماء الزرقـاء، والطيـور تحـوم حـول أبراجـه، والعشـب الأخـضر حولـه، لم يكـن صعبًـا قـط أن أتخيلـه مسـكونًا.

ثم ارتديت نظارتى، وحينها أدركت الواقع.

النوافذ خالية وإطاراتها إما متفسخة وإما محترقة، وما اعتبرته سابقًا ظلالاً على النوافذ على الجانب الأيمن كان آثار الحريق، والطيور المنقضة فى السماء أعلى المنزل لا تهبط وراء المنزل، بل بداخله، فالسقف غير موجود، هذا ليس منزلاً، إنه مجرد هيكل.

خلعت نظارتى مجددًا وتحول إلى منزل سليم من العصر الـ"إليزابيثى"، هل يراود المرء شعور بتهديد كئيب لو طُليت السماء بلون أزرق داكن، وغطى القمر السماء فجأة؟ ربما، لكن أمام سماء اليوم الزرقاء الصافية، كان المشهد عبارة عن براءة صافية.

امتد حاجز بطول الطريق الخاص، وعُلقت عليه لافتة: "خطر، ممنوع الاقتراب"، لاحظت مفصلاً فى السياج حيث تلتقى أجزاؤه معًا، فرفعت أحد ألواحه وتسللت إلى الداخل، وأنزلته ورائى.

وصلت إلى الواجهة متجنبة لامبالاة المنزل، وبين الجملونين الأول والثانى وجدت ست درجات واسعة ومنخفضة تؤدى إلى باب مزدوج مغطى بالألواح، عند مقدمة الدرجات استقر عمودان منخفضان يحملان قطين عملاقين منحوتين من مادة ما داكنة وملمعة، التموجات التى تكسو جسميهما منحوتة بواقعية شديدة، لدرجة أننى حين مررت أصابعى على إحداهما، توقعت بدرجة ما أن أجد فراءً، لكننى اندهشت حين وجدت صلابة الحجر الباردة.

نافذة الطابق الأرضى عند الجملون الثالث هى المميزة بأدكن آثار الحريق، وقفت على قطعة ساقطة من البناء، فأصبحت طويلة كفاية لأتطلع عبر النافذة، وما رأيته أيقظ شعورًا بالانزعاج داخل صدرى، يوجد مفهوم شائع ومألوف لدى كل الناس عن كلمة الغرفة، ومع أن غرفتى أعلى المتجر، وغرفة طفولتى فى منزل والدى، وغرفتى فى منزل السيدة "وينتر" مختلفة عن بعضها تمامًا، فإنها تتشارك عناصر محددة، عناصر موجودة فى كل مكان ولكل الناس، فحتى عند التخييم

المؤقـت، يرفـع السـكان شـيئًا للحمايـة مـن الطقـس، وتوجـد مسـاحة ليدخلهـا السـاكن ويتحـرك بهـا ويغادرهـا، وشىء يسـمح لـك بالتمييـز بـين الداخـل والخـارج، لكـن هنـاك لم أجـد أيًّـا مـن هـذا.

كانـت العارضـات الخشـبية منهـارة، بعضهـا منهـار عنـد أحـد جانبـى المنـزل فقـط، مـا يجعلهـا تقطـع مسـاحته بشـكل مائـل لتسـتقر عـلى ركام أحجـار البنـاء المتهدمـة والأخشـاب وغـيره مـما لم أميـزه مـن مـواد البنـاء التـى مـلأت الغرفـة حتـى مسـتوى النافـذة، وحُـشرت أعشـاش الطيـور فى أركان وزوايـا مختلفـة، لا بـد أن الطيـور جلبـت معهـا بـذور النباتـات، وغمـرت الثلـوج والأمطـار المـكان مـع ضـوء الشـمس، مـا جعـل النباتـات تنمـو بشـكل مـا وسـط الحطـام: فقـد رأيـت الأفـرع الشـتوية البنيـة لشـجيرات القسـور، ونباتـات البيلسـان ناميـة بشـكل طويـل وهزيـل تبحـث عـن الضـوء، وتسـلقت أشـجار اللبـلاب الجـدران كأنهـا ورق حائـط، مـددت عنقـى متطلعـة إلى الأعـلى، وكأننـى أرى نفقًـا مظلـمًا، أربعـة جـدران لا تـزال سـليمة، لكـن بـدلاً مـن أن أرى سـقفًا، كان هنـاك أربعـة عارضـات سـميكة، بينهـا مسـافات غـير متسـاوية، وبعدهـا المزيـد مـن المسـاحة الفارغـة حتـى عارضـات الطابـق التـالى، ثـم المشـهد نفسـه مجـددًا، وفى نهايـة النفـق ضـوء، إنهـا السـماء.

حتى الأشباح لن تصمد هنا.

مـن شـبه المسـتحيل تصـور أن فى وقـت مـا كانـت هنـا سـتائر وأثـاث ولوحـات، وأن الثريـات أضـاءت مـا تضيئـه الآن الشـمس، مـاذا كانـت هـذه الغرفـة؟ المرسـم أم غرفـة الموسـيقى أم غرفـة الطعـام؟

حدقـت بعينـين نصـف مغلقتـين إلى كتلـة الأشـياء المكدسـة فى الغرفـة، ولفـت شىء نظـرى وسـط فـوضى الأشـياء المبهمـة التـى كانـت فى وقـت مـا بيتًـا، فى البدايـة ظننتـه عارضـة سـقطت بنصفهـا فقـط، لكنـه لم يكـن سـميكًا كفايـة، وبـدا أنـه كان معلقًـا بالجـدار، ثـم رأيـت قطعـة أخـرى

مشابهة، ثم غيرها، بدا أن تلك الألواح الخشبية بها مفاصل خشبية بينها مسافات متساوية، كأن قطعًا أخرى من الأخشاب كانت معلقة بها بزوايا قائمة، بل ووجدت فى ركن أحد تلك الأجزاء سليمة.

وخز ما أدركته لحظتها عمودى الفقرى.

فتلك العارضات كانت رفوفًا، وهذا الركام من الطبيعة والمعمار المنهار كان مكتبة.

وفى لحظة كنت قد تسلقت عبر النافذة التى بلا زجاج.

تقدمت بحذر، أختبر موطئ خطوتى التالية قبل أن أخطوها، حدقت إلى الزوايا والشقوق المظلمة، لكننى لم أجد أىّ كتب، ليس الأمر أننى توقعت أن أجدها، فهى لن تصمد أمام مثل هذه الأوضاع أبدًا، لكننى لم أستطع منع نفسى من البحث عنها.

ركزت بضع دقائق على التقاط الصور، صور لإطار النافذة التى بلا زجاج، وألواح الأخشاب التى اعتادت حمل الكتب، وباب البلوط الثقيل فى إطاره الضخم.

فى محاولة لالتقاط أفضل صورة للموقد الحجرى الكبير، أملت خصرى إلى الجانب قليلاً، وحينها توقفت لوهلة، ازدردت ريقى، ولاحظت نبضى المرتفع قليلاً، أكان هذا بسبب شىء سمعته؟ أم شعرت به؟ هل تحرك شىء فى أحشاء الحطام تحت قدمى؟ لكن لا، لم يكن هذا شيئًا، ومع ذلك، شققت طريقى بحذر نحو طرف الغرفة، حيث توجد حفرة فى البناء كبيرة كفاية لأعبر من خلالها.

كنت فى المدخل الرئيس، هنا توجد الأبواب المزدوجة المرتفعة التى رأيتها من الخارج، نجت السلالم من الحريق، فهى مصنوعة من الحجر، أجريت مسحًا شاملاً للمكان من أسفل إلى الأعلى، أصبح الدرابزين الآن مغطى باللبلاب، لكن مع ذلك يبدو معماره الصلب

واضحًـا: منحنـى رشـيق يتسـع إلى دوران يشـبه القوقعـة عنـد قاعدتـه، السـلم كلـه شـبيه بعلامـة اقتبـاس أحاديـة فخمـة.

يـؤدى السـلم إلى معـرض، لا بـد أنـه امتـد فى الماضى بطـول الردهـة كاملـة، عـلى أحـد الجانبـين لا توجـد إلا حافـة مدببـة مـن ألـواح الأرضيـة، وهبـوط نحـو الأرضيـة الحجريـة تحتهـا، فى حـين أن الجانـب الآخـر شـبه مكتمـل، امتـدت آثـار درابزيـن بطـول المعـرض، ثـم يوجـد ممـر، الممـر لـه سـقف شـوهه الحريـق لكنـه سـليم، كـذا الأرضيـة، بـل وحتـى الأبـواب، هـذا أول جـزء أراه مـن المنـزل ويبـدو عليـه أنـه نجـا مـن الدمـار العـام، بـدا أن مكانًـا مـا فى المنـزل قابـل للسـكن.

التقطـت قليـلاً مـن الصـور ثـم انتقلـت بحـذر إلى الممـر، أختـبر كل لـوح جديـد بقدمـى قبـل أن أنتقـل بـوزنى عليـه.

فتـح مقبـض البـاب الأول عـلى هبـوط شـديد، وأغصـان وسـماء زرقـاء، بـلا جـدران ولا سـقف ولا أرضيـة، فقـط هـواء خارجـى منعـش.

جذبـت البـاب لأغلقـه مجـددًا، وتقدمـت تدريجيًّـا عـبر الممـر، عازمـة عـلى ألا أفقـد أعصـابى بسـبب أخطـار هـذا المـكان، تقدمـت مراقبـة خطـواتى طـوال الوقـت، حتـى وصلـت إلى البـاب الثـانى، أدرت المقبـض وتركـت البـاب لينفتـح.

كانت هناك حركة!

أختى!

كدت أتقدم خطوة نحوها!

كدت.

ثـم أدركـت أنهـا مـرآة، كانـت داكنـة بسـبب الغبـار ومشـوهة بفعـل نقـاط سـوداء بـدت مثـل الحـبر.

نظـرت إلى الأرض التـى كنـت عـلى وشـك أن أخطـو عليهـا، لم تكـن هنـاك ألـواح، بـل هبـوط عمقـه نحـو سـبعة أمتـار نحـو ألـواح حجريـة صلبـة.

أدركـت الآن حقيقـة مـا رأيتـه، لكـن نبضـات قلبـى تابعـت جنونهـا، رفعـت عينـى مجـددًا، ورأيتهـا، فتـاة لقيطـة بيضـاء الوجـه لهـا عينـان داكنتـان، وجسـد مـتردد يرتجـف داخـل الإطـار القديـم.

لقـد رأتنـى، وقفـت تمـد يديهـا إلى باشـتياق، وكأن كل مـا عـلى فعلـه هـو أن أتقـدم نحـو يديهـا، ألـن يكـون أبسـط الحلـول عمومًـا أن أفعـل ذلـك وأن أضمهـا أخـيرًا؟

لكم من الوقت وقفت هناك، أتفرج عليها وهى تنتظرنى؟

همسـت: "لا"، لكـن ذراعيهـا ظلتـا مفتوحتـين لى، "أنـا آسـفة"، فهبطـت ذراعاهــا ببطء.

ثم رفعت هى كاميرا والتقطت صورة لى.

شـعرت تجاههـا بالأسـف، فالتصويـر عـبر الزجـاج لا يلتقـط شـيئًا أبـدًا، أنـا أعـرف ذلـك، فقـد جربتـه.

وقفـت ويـدى عـلى مقبـض البـاب الثالـث، لقـد تحدثـت السـيدة "وينـتر" عـن قاعـدة الثلاثـة، لكننـى لم أعـد فى مـزاج ملائـم لقصتهـا، فبيتهـا الخطـر بأمطـاره الداخليـة ومرآتـه المخادعـة لم يعـودا مثيريـن للاهتـمام بنظـرى.

سـأغادر، هـل أذهـب لالتقـاط صـور للكنيسـة؟ ولا حتـى هـذا، سـأذهب إلى متجـر القريـة، وسـأهاتف تاكـسى ليقلنـى إلى المحطـة ومنهـا إلى بيتـى.

سـأفعل كل هـذا بعـد دقيقـة، وحتـى ذلـك، أردت أن أبقـى عـلى هـذا الوضـع، رأسى مائـل قبالـة البـاب، وأصابعـى عـلى المقبـض، غـير مباليـة بمـا وراءه، وأنتظـر جفـاف دموعـى وهـدوء قلبـى.

انتظرت.

عندها بدأ المقبض فى الدوران من تلقاء نفسه بين أصابعى.

العملاق الودود

ركضت.

قفزت فوق الفجوات التى بألواح الأرضية، وهبطت درجات السلم الثلاثة بقفزة واحدة، لم أجد موضعًا لقدمى واندفعت مستندة بالدرابزين، قبضت على بعض أفرع اللبلاب، وتعثرت، وأنقذت نفسى، وتابعت تقدمى مترنحة، إلى المكتبة؟ لا، إلى الاتجاه الآخر، عبر ممر مقنطر، أمسكت أفرع أشجار القسور والبيلسان بملابسى، وكدت أتعثر مرات عدة وأنا أخوض عبر ركام المنزل المتهدم.

وأخيرًا، هويت إلى الأرض، وهو ما كان حتميًا، وهربت صرخة قوية من بين شفتى.

"عزيزتى، عزيزتى، هل أفزعتك؟ يا إلهى".

حملقت عبر الممر المقنطر.

كنت ملقاة على أرض المعرض حين رأيت ما لم يكن هيكلاً عظميًا أو وحشًا من مخيلتى، بل رجلاً عملاقًا، وقد هبط السلالم بسلاسة، وخطا عبر الركام على الأرض على نحو دقيق وبلا قلق، ووقف إلى جوارى يكسو وجهه أشد تعابير القلق.

"يا إلهى".

لا بد أن طوله متران إلا سنتيمترات قليلة، وهو عريض، عريض لدرجة أن البيت يبدو متقلصًا حوله.

"لم أقصد قط.. كنت أفكر فقط.. لأنك كنت هنا منذ بعض الوقت و.. لكن هذا غير مهم الآن، فالمهم يا عزيزتى هو، هل أنت بخير؟"

شعرت أمامه بأننى تقلصت إلى حجم طفلة، لكن على الرغم من ضخامته، هناك شيء طفولى يتعلق بهذا الرجل، وجهه أضخم من أن يصاب بالتجاعيد، إذ له وجه ملائكى مستدير، وهالة من الشعر المجعد لونه بين الفضى والأشقر استقرت بأناقة حول رأسه الآخذ فى الصلع، عيناه مستديرتان مثل إطار نظارته، طيبتان ولهما شفافية زرقاء.

لا بد أننى بدوت دائخة، وربما شاحبة أيضًا، ركع على ركبته إلى جانبى والتقط رسغى.

"يا إلهى، كانت تلك عثرة قوية، لو كنتُ فقط.. كان يجب ألا.. النبض مرتفع قليلاً، مممم".

شعرت بوخز فى قصبتى، ومددت يدى لأتحقق من مزق فى ركبة بنطالى، وعادت أصابعى دامية.

"يا إلهى، أصبت قدمك يا عزيزتى أليس كذلك؟ هل هى مكسورة؟ أتستطيعين تحريكها؟" حركت قدمى، وكسا الارتياح وجه الرجل.

"حمدًا للرب، ما كنت لأسامح نفسى أبدًا، والآن، ابقى هنا وأنا.. سأحضر فقط.. سأعود بعد دقيقة"، وانطلق، تراقصت قدماه برقة حول حواف الأخشاب المدببة، ثم صعد السلم سريعًا متخطيًا عدة درجات فى المرة الواحدة، فى حين يحلق الجزء العلوى من جسده بهدوء فى الأعلى، كأنه غير متصل بحركة القدمين الدقيقة فى الأسفل.

أخذت نفسًا عميقًا وانتظرت.

قال عائدًا: "لقد شغلت غلاية المياه"، وأحضر معه حقيبة إسعافات أولية مناسبة، لونها أبيض وعليها صليب أحمر، وأخرج منها غسولاً مطهرًا وبعض الشاش.

"قلت لنفسى دائمًا إن يومًا ما أحد سيتأذى فى هذا المكان العتيق، واحتفظت بهذه الحقيبة لسنوات، الحذر خير من الأسف، صحيح؟ يا إلهى، يا عزيزتى!" جفل متألمًا فى حين ضغط الضمادة الواخزة على جرح قصبتى، "استجمعى شجاعتك، حسنًا؟"

سألته: "ألديك كهرباء هنا؟" إذ حيرنى الأمر.

"كهرباء؟ لكن المكان عبارة عن حطام"، وحملق إلىّ مندهشًا من سؤالى، وكأن تعثرى ربما أدى بى إلى ارتجاج دماغى أفقدنى المنطق.

"الأمر فقط أننى ظننتك قلت إنك شغلت غلاية المياه".

"أوه، فهمت! لا! لدى موقد للتخييم، كانت لدى قارورة لحفظ الحرارة، لكن..." ورفع أنفه معبرًا عن تأففه: "الشاى من قارورة حفظ الحرارة ليس جيدًا جدًا، أليس كذلك؟ والآن، هل الوخز قوى جدًّا؟"

"قليلاً فقط".

"أحسنت، كانت تلك عثرة قوية، والآن إلى الشاى، أتريدينه مع الليمون والسكر؟ أخشى أنه لا يوجد حليب، فليست لدى ثلاجة".

"سيكون الليمون رائعًا".

"حسنًا، كونى مرتاحة، لقد توقف المطر، أنشرب الشاى فى الخارج؟" ذهب إلى الباب المزدوج القديم الضخم فى مقدم المنزل ورفع مزلاجه، انفتح الباب بصرير أقل مما قد توقعت، وبدأت أحاول الوقوف.

"لا تتحركى!"

تبختر العملاق باتجاهى، وانحنى والتقطنى، شعرت بنفسى أُرفع فى الهواء وأُحمل بسلاسة إلى الخارج، وضعنى على أحد الجانبين على ظهر إحدى القطتين السوداوين اللتين أعجبت بهما قبل ساعة.

"انتظرى هنا، وحين أعود سنحظى بشاى رائع!" وعاد إلى المنزل، انسل ظهره الضخم صاعدًا السلم واختفى فى مدخل الممر والغرفة الثالثة.

"أمرتاحة؟"

أومأت.

"رائع"، ابتسمت كأن الأمر رائع بالفعل، "والآن، لنتعرف، اسمى (لاف)، (أوريليوس ألفونس لاف)، تمكنك مناداتى (أوريليوس)"، ونظر إلى بترقب.

"(مارجريت ليا)".

"(مارجريت)"، وابتسم، "رائع، رائع جدًّا، والآن كلى".

بين أذنى القطة الكبيرة، فتح منديل مائدة ببطء، وبداخلها كانت شريحة داكنة ولزجة من كعكة، مقطعة بشكل سخى، قضمت قطعة منها، كانت كعكة مثالية ليوم بارد: مُطيبة بالزنجبيل ومسكرة لكنها ساخنة، صفى الرجل الغريب الشاى فى كوبى شاى صينيين رقيقين، وقدم لى وعاء مكعبات السكر، ثم أخرج كيسًا مخمليًّا أزرق من جيب قميصه، وفتحه، استقرت على المخمل ملعقة فضية عليها

حرف "إيه" ممدد بشكل منمق يزين المقبض، أخذته، وقلبت الشاى خاصتى، ورددتها إليه.

وأنا آكل وأشرب، جلس مضيفى على القطة الثانية، التى اتخذت مظهرًا قططيًّا غير متوقع تحت حزامه الضخم، أكل فى صمت، وبشكل مرتب وبتركيز، وشاهدنى آكل أيضًا، متلهفًا إلى تعبيرى عن تقديرى للطعام.

قلت: "هذا رائع، أهو منزلى الصنع؟"

المسافة بين القطتين نحو 3 أمتار، ولنتكلم اضطررنا إلى رفع أصواتنا قليلاً، ما أعطى المحادثة طابعًا مسرحيًّا، كأننا نؤدى عرضًا ما، وبالفعل كان لدينا جمهور، ففى ضوء النهار الذى غسله المطر، وقرب حد الغابات، وقفت غزالة تتطلع إلينا بفضول، لا ترمش، منتبهة، أنفها يرتعش، وحين أدركت أننى رأيتها، لم تقدم على أيَّة محاولة للهرب، بل قررت عكس ذلك، ألا تكون خائفة.

مسح رفيقى أصابعه بمنديله، ثم نفضه وطواه أربع مرات، "هل أعجبتك إذًا؟ أعطتنى السيدة (لاف) الوصفة، إننى أخبز هذه الكعكة منذ كنت طفلاً، السيدة (لاف) كانت طاهية رائعة، امرأة رائعة فى كل شيء، بالطبع هى متوفاة الآن، لم تمت مبكرًا، مع أننى كنت أتمنى لو.. لكن ذلك لم يحدث".

"نعم فهمت"، مع أننى لست متأكدة إن كنت قد فهمت، أكانت السيدة "لاف" زوجته؟ مع أنه قال إنه يخبز كعكته منذ كان طفلاً، بالتأكد لا يقصد والدته؟ فلم قد يدعو والدته السيدة "لاف"؟ لكن يوجد أمران واضحًا: أنه أحبها، وأنها ميتة، قلت: "آسفة لذلك".

تقبل تعازى بوجه حزين، ثم أشرق وجهه، "لكنها ذكرى لطيفة، أليس كذلك؟ أقصد الكعكة".

"بالتأكيد، أكان ذلك منذ زمن بعيد؟ رحيلها؟"

فكر قليلاً: "منذ عشرين سنة تقريبًا، مع أننى أشعر أنه أكثر، أو أقل، يتوقف الأمر على كيفية نظر المرء للأمر".

أومأت، ويبدو أننى لم أكن الأذكى.

جلسنا صامتين للحظات، تطلعت إلى حديقة الغزلان، عند حافة الغابة، حيث يظهر المزيد منها، واللاتى تحركت مع ضوء الشمس بعرض الحديقة العشبية، وتضاءل الوخز فى قدمى، وشعرت بتحسن.

قال الغريب: "أخبرينى.."، وشعرت أنه احتاج إلى استجماع الشجاعة اللازمة ليسأل سؤاله: "هل لك والدة؟"

شعرت ببعض المفاجأة، فالناس عادة لا يلحظون وجودى لمدة كافية حتى يسألونى أسئلة شخصية.

"أتمانعين؟ سامحينى لسؤالى، لكن.. كيف أشرح لك؟ العائلة أمر.. لكن إن كنت لا تفضلين.. أنا آسف".

"لا بأس"، قلتها ببطء، "لا أمانع"، وقد كنت غير ممانعة بالفعل، ربما بسبب سلسلة الصدمات التى مررت بها، أو تأثير هذا المحيط الغريب، لكن بدا أن أى شىء قد أقوله عن نفسى هنا، ولهذا الرجل، سيظل للأبد فى هذا المكان، معه، وبلا أيَّة قيمة فى أى مكان آخر، ما سأقوله لن تكون له أى عواقب، لذا أجبت سؤاله: "نعم، لى والدة".

"والدة! كيف.. أوه، كيف..."، ظهر تعبير مكثف بشكل لافت فى عينيه، حزن أو اشتياق، أعلنها بقوة: "ماذا قد يكون ألطف من أن يكون لك والدة!"، وكان واضحًا أنها دعوة لقول المزيد.

سألته: "أليست لك والدة؟"

التوى وجه "أوريليوس" بشكل لحظى، "للأسف.. أردت ذلك دائمًا.. أو والدًا، فى الواقع، خلال طفولتى، اعتدت أن أدعى، اختلقت عائلة

كاملـة، بـل وأجيـالاً منهـا! كان الأمـر ليضحـكك!" لم يكـن بوجهـه أى شىء يدعـو للضحـك وهـو يحـكى، "لكـن فى مـا يتعلـق بالوالـدة الحقيقيـة.. والـدة فعليـة معروفـة.. بالتأكيـد، فـكل إنسـان لـه والـدة، أليـس كذلـك؟ أنـا أعـرف ذلـك، سـؤالى عـن إذا مـا كنـت تعرفينهـا، وكنـت آمـل دائمًـا أن فى يـوم مـا.. لأن الأمـر ليـس مسـتبعدًا، أليـس كذلـك؟ لـذا لم أفقـد الأمـل قـط".

"نعم".

"الأمـر مؤسـف للغايـة"، وهـز كتفيـه محـاولاً أن يبـدو متصالحًـا مـع الأمـر، لكنـه لم يكـن، "كنـت سـأحب أن تكـون لى والـدة".

"سيد (لاف)..."

"(أوريليوس)، إذا سمحت".

"يـا (أوريليـوس)، حـين يتعلـق الأمـر بالوالـدات، لا تسـير الأمـور دائمًـا بقـدر الـسرور الـذى تفترضـه".

"حقًـا؟" بـدا أن لتلـك الجملـة وقـع اكتشـاف عظيـم عليـه، حملـق إلى مـن كثـب: "تقصديـن الخلافـات عـلى التوافـه؟"

"ليس هذا تحديدًا".

عبس وجهه: "سوء الفهم؟"

هززت رأسى.

بـدا مذهـولاً: "أسـوأ؟" بحـث عـن المشـكلة فى السـماء، وفى الغابـة، وأخـيراً، فى عينـى.

قلت له: "الأسرار".

"الأسرار!" واتسـعت عينـاه لتشـكلا دائرتـين صحيحتـين، هـز رأسـه مرتبـكًا، ومحـاولاً محاولـة مسـتحيلة لسـبر غـور مـا أقصـده، وقـال فى

النهاية: "اعذريني، لا أعرف كيف أساعدك، فأنا أعرف أقل القليل عن العائلات، وجهلي أوسع من البحر، أنا آسف بشأن الأسرار، وواثق بأنك محقة في شعورك هذا".

أدفأ التعاطف عينيه وناولني منديلاً أبيض مطويًا بعناية.

قلت: "أنا آسفة، لا بد أنها صدمة متأخرة".

"أظن هذا".

في حين جففت عيني، نظر هو بعيدًا عني نحو حديقة الغزلان، السماء تُظلم ببطء، وتتبعت نظرته فرأيت تلألأً باللون الأبيض: إنه جلد الغزلان الأبيض وهي تقفز بخفة لتختبئ بالأشجار.

قلت له: "ظننتك شبحًا أو هيكلاً عظميًا حين شعرت بدوران مقبض الباب".

"هيكل عظمي! أنا! هيكل عظمي!" بدرت منه ضحكة مكتومة وهو مسرور، واهتز لها جسده بالكامل مرحًا.

"لكن تبين أنك عملاق".

"نعم، تمامًا! عملاق"، مسح دموع الضحكة عن عينيه وقال: "هناك شبح كما تعرفين، أو هكذا يقولون".

أعرف ذلك، كدت أصرح بأنني رأيته، لكن بالتأكيد لم يكن يتحدث عن شبحي: "هل رأيت الشبح؟"

"لا" وزفر، "ولا حتى ظله".

جلسنا صامتين لوهلة، يفكر كل منا في الأشباح الخاصة به.

هتفت: "يزداد الطقس برودة".

"هل ساقك بخير؟"



"أعتقـد ذلـك"، وهبطـت منزلقـة عـن ظهـر القطـة وحاولـت الوقـوف عليهـا، "نعـم، إنهـا أفضـل كثـيراً الآن".

"رائع، رائع".

كانت أصواتنا همسات فى الضوء الآخذ فى الخفوت.

"من كانت السيدة (لاف) تحديدًا؟"

"إنهـا السـيدة التـى تبنتنـى ومنحتنـى اسـمها، وأعطتنـى كتـاب وصفاتهـا، لقـد أعطتنـى كل شىء، حقًّـا".

أومأت.

ثـم التقطـت كامـيرتى: "فى الواقـع، أعتقـد أننـى يجـب أن أنطلـق، يجـب أن أحـاول التقـاط بعـض الصـور للكنيسـة قبـل يذهـب الضـوء تمامًـا، شـكرًا جزيـلاً عـلى الشـاى".

"يجـب أن أنطلـق أنـا الآخـر خـلال دقائـق، سـعدت كثـيراً بلقائـك يـا (مارجريـت)، هـل سـتأتين مجـددًا؟"

سألت متشككة: "أنت لا تعيش هنا، أليس كذلك؟"

ضحك، وكانت ضحكته حلوة وغنية وغامضة، مثل الكعكة.

"معـذرة، لا، لـدى منـزل هنـاك"، وأشـار نحـو الغابـة، "آتى إلى هنـا فى فـترات العـصر فقـط حتـى.. سـأكتفى بقـول حتـى أفكـر، حسـنًا؟"

"سيهدمونه قريبًا، أفترض أنك تعرف ذلك".

"أعـرف"، وملـس القطـة بعقـل شـارد وبحنـان: "الأمـر مخـزٍ، أليـس كذلـك؟ سـأفتقد المـكان القديـم، فى الواقـع، ظننـت أنـك أحدهـم حـين سـمعت خطواتـك، مسَّـاحة أراضٍ أو شىء كهـذا، لكنـك لسـت كذلـك".

"لا، لست مسَّاحة أراض، أكتب كتابًا عن شخصية عاشت هنا".

"فتيات (آنجلفيلد)؟"

"نعم".

أومأ "أوريليوس" بشكل مجتر: "كانتا توأمين، تخيلى ذلك"، وللحظة سرحت عيناه بعيدًا.

سألنى وأنا ألتقط حقيبتى: "هل ستأتين مجددًا يا (مارجريت)؟"

"أنا ملزمة بذلك".

مد يده إلى جيبه وأخرج بطاقة، "(أوريليوس لاف)، مقدم أطعمة إنجليزية تقليدية لحفلات الزفاف والتعميد والمناسبات، وأشار إلى العنوان ورقم الهاتف، "اتصلى بى حين تأتين مجددًا، يجب أن تأتى إلى البيت الحجرى وسأعد لك شايًا لذيذًا".

قبل أن نفترق، أخذ "أوريليوس" يدى وربت عليها على نحو مريح وتقليدى، ثم انسل جسده الضخم برشاقة صاعدًا الامتداد العريض من السلالم وأغلق الباب الثقيل وراءه.

سرت ببطء بامتداد الطريق الخاص نحو الكنيسة، عقلى مزدحم بهذا الغريب الذى قابلته للتو، وصادقته، ذلك تصرف لا يشبهنى تمامًا، وبينما أنا أعبر البوابة المسقوفة، فكرت فى أنه ربما كنت أنا الغريبة، أكانت تلك خيالاتى، أم أننى لست على طبيعتى تمامًا منذ قابلت السيدة "وينتر"؟

المقابر

تأخـرت كثـيرًا عـلى الضـوء، وفـات أوان التصويـر، لـذا أخرجـت دفـترى وتمشـيت فى سـاحة الكنيسـة، كانـت آنجلفيلـد مجتمعًـا قديمًـا لكنـه صغـير، ولم يكـن بهـا عـدد كبـير جـدًّا مـن المقابـر، وجـدت قـبر "جـون ذا ديـج"، الـذى يـروى شـاهد قـبره أنـه "اجتمـع بحديقـة الـرب"، وامـرأة اسـمها "مارثـا دان"، "خادمـة مخلصـة للـرب إلهنـا"، التـى يتزامـن تاريخـا ولادتهـا ووفاتهـا مـع مـا توقعتـه لسـيدة الخـدم، نسـخت الاسـمين والتواريـخ وشـواهد القبـور فى مفكـرتى، وجـدت عـلى أحـد القبـور زهـورًا جديـدة، باقـة مبهجـة مـن الأقحـوان البرتقـالى، فاقتربـت لأسـتطلع اسـم المتـوفى الـذى يتذكـره أحدهـم بهـذا الـدفء، فوجدتـه "جـوان مـارى لاف"، وشـاهد قبرهـا "لـن تُنـسى أبـدًا".

مـع أننـى بحثـت، لم أجـد اسـم "آنجلفيلـد" فى أى مـكان، لكـن لم يحـيرنى الأمـر لأكـثر مـن دقيقـة، فعائلـة المنـزل لـن تُدفـن فى قبـور عاديـة بسـاحة الكنيسـة، بـل تحظـى قبورهـم بمكانـة أعظـم، تميزهـا التماثيـل

وتُنقش قصص طويلة على ألواحها الرخامية، وستكون فى الداخل، فى المصلى الكنسى.

بدت الكنيسة كئيبة، النوافذ القديمة، وقطع الزجاج المخضرة الصغيرة المحمولة فى إطار من الأقواس الحجرية السميكة، تسمح بدخول ضوء كئيب يضىء بضعف الأقواس والأعمدة الحجرية الباهتة، والقناطر المبيضة بين عارضات السقف السوداء وصفوف المقاعد التى صُنعت من أخشاب ناعمة مصقولة، حين تأقلمت عيناى مع الضوء الضعيف، تطلعت إلى الآثار والأحجار التذكارية التى فى المصلى الضئيل، توجد شواهد قبور كل آل "آنجلفيلد" الذين ماتوا منذ قرون هنا، سطر مسهب تلو الآخر من المديح، محفور بطريقة ثمينة على الرخام المكلِّف، سأعود فى يوم آخر لفك شفرة نقوش الأجيال السابقة، لكن اليوم سأبحث عن بضعة أسماء فقط.

بموت "جورج آنجلفيلد" بلغ الإسهاب فى وصف أفراد العائلة نهايته، إذ بدا أن "تشارلى" و"إيزابيل" -لو افترضنا أنهما كانا أصحاب القرار- لم يبذلا مجهودًا كبيرًا فى تلخيص حياة وموت والدهما للأجيال القادمة، "ارتاح من الأحزان الدنيوية، هو الآن مع مخلصه"، هكذا كانت رسالة شاهد قبره المقتضبة، ولُخص دور "إيزابيل" فى هذا العالم ورحيلها عنه بالتعبيرات الأكثر عادية: "أم وأخت محبوبة للغاية، لقد ذهبت إلى مكان أفضل"، لكننى نسختها فى مفكرتى على أيَّة حال، وأجريت حسابات سريعة، إنها أصغر منى! ليست صغيرة السن لدرجة مأساوية مثل زوجها، لكن مع ذلك، هذا ليس سنًا للموت.

كدت ألا أجد قبر "تشارلى"، فبعدما رأيت كل شاهد قبر آخر فى المصلى، كدت أستسلم، حين لمحت عيناى أخيرًا شاهدًا صغيرًا مظلمًا، إنه صغير للغاية ومظلم، لدرجة أنه بدا مصممًا هكذا بغرض الإخفاء، أو على الأقل للدلالة على عدم الأهمية، لم توضع أوراق ذهبية لتحمى

الحـروف مـن الاختفـاء، لـذا وأمـام عجـزى عـن قـراءة الشـاهد بالعـين، رفعـت يـدى وتحسسـت النقـش عـلى طريقـة "برايـل" بأطـراف أصابعـى، كل كلمةعـلى حـدة.

تشارلى آنجلفيلد.

لقد انتقل إلى الليل المظلم.

نأمل ألا نراه مجددًا.

لم تُنقش أى تواريخ.

شـعرت بـبرودة مفاجئـة، وتسـاءلت عمـن اختـار هـذه الكلـمات، أهـى "فيـدا وينـتر"؟ ومـا الدافـع وراءهـا؟ بـدا لى أن هنـاك مسـاحة لقـدر محدد مـن غمـوض التعبـير فى هـذا الشـاهد، أهـذا بسـبب حـزن الفاجعـة؟ أم أنـه وداع المنتـصر لمـن نجـوا مـن الكثـير مـن الأحـداث السـيئة؟

أغـادر الكنيسـة وأتمـشى ببطء عـلى امتـداد الطريـق الخـاص المفـروش بالحـصى إلى بوابـات المنـزل الصغـير، حينئـذ شـعرت بتحديـق خفيـف إلى ظهـرى بـلا أى ثقـل تقريبًـا، كان "أوريليـوس" قـد غـادر، فمـن هـذا إذًا؟ ربمـا هـو شـبح "آنجلفيلـد"؟ أو العينـان المحترقتـان للمنـزل نفسـه؟ عـلى الأرجـح ليـس إلا غـزالاً، يتابعنـى متخفيًـا بظـلال الغابـة.

***

"الأمـر مخـزٍ"، قالهـا والـدى فى المتجـر ذلـك المسـاء، "أنـك لا تسـتطيعين المجـىء إلى البيـت لبضـع سـاعات".

اعترضـت مدعيـة الجهـل: "أنـا فى البيـت"، لكننـى عرفـت أنـه يتحـدث عـن والـدتى، والحقيقـة أننـى لم أسـتطع تحمـل تهللهـا التافـه، ولا اللـون الباهـت المميـز لمنزلهـا، لقـد عشـت فى الظـل، وصادقـت كآبتـى، لكـن فى منـزل والـدتى عرفـت أن حـزنى غـير مرحـب بـه، ربمـا كانـت لتحـب ابنـة متكلمـة مبهجـة، ربمـا يسـاعد تهللهـا فى طـرد مخـاوف والـدتى، لكـن الواقـع

أنها تخاف نوبات صمتى، كنت أفضل أن أبقى بعيدة، أوضحت: "ليس لدى الكثير من الوقت، السيدة (وينتر) قلقة حيال أننا يجب أن نتقدم سريعًا فى العمل، كما أن أسابيع قليلة فقط متبقية على عيد الميلاد، سأعود حينذاك مجددًا".

قال: "نعم، إن عيد الميلاد قريب".

بدا حزينًا وقلقًا، وعرفت أننى السبب، وأسفت لأننى لا أستطيع فعل شىء حيال ذلك.

"جمعت بضعة كتب لآخذها معى للسيدة (وينتر)، ووضعت ملاحظة على بطاقاتها فى دليل كتب المتجر".

"لا مشكلة بذلك".

***

فى تلك الليلة، شعرت بضغطة على طرف سريرى تجرنى إلى الاستيقاظ، إنها الزوايا الحادة للعظام الضاغطة على لحمى عبر الأغطية.

إنها هنا! تعالى إلىّ أخيرًا!

كل ما على فعله هو أن أفتح عينى وأنظر إليها، لكن الخوف يشلنى، كيف ستبدو؟ مثلى؟ طويلة ونحيفة ولها عينان داكنتان؟ أم أنها -وهو ما أخشاه- جاءت إلىّ من القبر مباشرة؟ ما الفظائع التى أنا على وشك إشراك نفسى بها، أو بالأحرى إعادة نفسى إليها؟

يتلاشى الخوف.

لقد استيقظت.

اختفى الضغط من على الأغطية، كانت تلك أضغاث أحلام، لست واثقة إن كان ذلك قد أراحنى أم أحبطنى.

قمت من سريرى وحقبت أشيائى، وفى عتمة فجر الشتاء مشيت إلى المحطة لأستقل أول قطار إلى الشمال.

المنتصف

وصول "هيستر"

حين غادرت يوركشاير كان نوفمبر في مطلعه، وبحلول عودتي كانت أواخره، قبيل بداية ديسمبر.

يصيبني ديسمبر بالصداع ويقلص شهيتي الضئيلة أصلاً، يجعلني أقرأ بلا هوادة، يبقيني مستيقظة ليلاً بظلامه البارد الرطب، تبدأ ساعة ما بداخلي بالدوران في أول أيام ديسمبر، تعد الأيام والساعات والدقائق، تعد تنازليًّا حتى يوم محدد، ذكرى يوم بدأت حياتي وانتهت: يوم ميلادي، أنا لا أحب ديسمبر.

في هذا العام، تفاقم شعور التشاؤم بسبب الطقس، وحامت سماء ثقيلة ضاغطة أعلى المنزل، محدثة شفقًا معتمًا دائمًا، حين وصلت وجدت "جوديث" تهرول من غرفة إلى أخرى، تجمع لمبات المكاتب واللمبات العادية ولمبات القراءة من غرف الضيوف التي لم تُستخدم قط، وتستخدمها في المكتبة والمرسم وجناحي، تفعل أي شيء لإبعاد

الظلال المظلمة التى تخفت فى كل ركن، وتحت كل كرسى، وفى جنبات الستائر وطيات الأثاث.

لم تطرح السيدة "وينتر" أى أسئلة عن غيابى، ولم تخبرنى أى شىء عن تقدم مرضها، لكن حتى بعد غياب قصير كهذا، بدا تدهور حالتها واضحًا لى، فقد سقطت الملابس الكشميرية فى ما يبدو أنه ثنايا فارغة حول جسدها المتضائل، وعند أصابعها بدا أن قطع الياقوت والزمرد قد تمددت، لقد أصبحت يداها نحيفتين جدًّا، واتسع الخط الأبيض الرقيق التى كان واضحًا فى فرق شعرها قبل أن أغادر، زحف نحو الجانبين، مخففًا الدرجات اللامعة إلى درجات أبهت من اللون البرتقالى، لكن على الرغم من هشاشتها الجسدية، بدت مشحونة بقوة ما، طاقة ما، تغلبت على المرض والسن وجعلتها قوية، بمجرد أن وصلت إلى الغرفة، قبل حتى أن أجلس وأخرج مفكرتى، بدأت الحديث، ملتقطة خيط القصة من حيث تركته، كأن القصة أوشكت على الفيضان ولن تستطيع احتواءها أكثر من ذلك.

***

برحيل "إيزابيل"، سرى شعور فى القرية بأن شيئًا ما يجب فعله من أجل الطفلتين، عمرهما الآن ثلاثة عشر عامًا، وهو عمر لا يجب أن تُتركا فيه بلا متابعة، تحتاجان إلى تأثير امرأة ما، ألا يجب أن تُرسلا إلى مدرسة ما؟ ولكن أيَّة مدرسة تلك التى ستقبل طفلتين مثل هاتين؟ وحين تبين أن خيار المدرسة غير ممكن، قُرر أنه يجب تعيين معلمة منزلية.

عُثر على معلمة منزلية، اسمها "هيستر"، "هيستر بارو"، ليس اسمًا جميلاً، لكن هى نفسها ليست فتاة جميلة.

رتب الطبيب "مودسلى" الأمر بالكامل، فى حين أنَّ "تشارلى" المحبوس فى كآبته بالكاد مدرك لما يحدث، و"جون ذا ديج" وسيدة الخدم مجرد خادمين فى المنزل ولم يُطلب رأيهما، تواصل الطبيب مع السيد "لوماكس"، محامى العائلة، وتمت الترتيبات اللازمة كلها بين كليهما بمساعدة من مدير البنك، وكان الأمر مقضيًّا.

بقلة حيلة وسكون، تشاركنا جميعًا الشعور بالترقب، كل لديه مزيج خاص من المشاعر تجاه الأمر، سيدة الخدم تنتابها مشاعر مختلطة؛ تشعر بشك غريزى تجاه تلك الغريبة التى ستقتحم مساحتها، ويتصل بهذا الشك الخوف من أن تشعر بالنقص، فقد كانت مسئولة عن الطفلتين لسنوات وتعرف حدود قدرتها، كذا شعرت بالأمل، الأمل أن تلك القادمة ستغرس حس الانضباط لدى الطفلتين، وتفرض الأخلاق وسلامة العقل على المنزل، فى الواقع، لديها رغبة شديدة فى حياة مستقرة تدار جيدًا لدرجة أن قبيل وصول المعلمة بدأت بإصدار الأوامر، وكأننا من نوع الأطفال الذى قد يذعن، ولا داعى لتأكيد أننا لم نذعن.

أما مشاعر "جون ذا ديج" فكانت أقل اختلاطًا، بل فى الواقع عدائية بالكامل، فلا ينجر إلى التساؤلات الطويلة التى تراود سيدة الخدم عما ستئول إليه الأمور، ورفض بصمت متحجر أن يشجع التفاؤل الذى بدأ يمد جذوره فى قلبها، فكانت تقول: "إن كانت هى الشخص المناسب..."، أو "لا أحد يعرف إلى أى مدى يمكن أن تتحسن الأمور..." لكنه كان يحملق عبر نافذة المطبخ ويعزف عن المشاركة حين اقترح الطبيب أن يأخذ عربة الأحصنة ليقل المعلمة من المحطة، كان رده وقحًا بكل صراحة: "ليس لدى وقت للتبختر بطول المقاطعة وراء معلمة لعينة"، فاضطر الطبيب إلى ترتيب اللازم ليوصلها بنفسه، منذ حادثة الحديقة لم يعد "جون" مثلما كان، والآن، بمجىء هذا التغيير، قضى ساعات وحده، يسهب التفكير فى مخاوفه وبواعث قلقه

بشأن المستقبل، تحمل تلك القادمة عينين وأذنين جددًا، فى منزل لم ينظر ولم يسمع فيه أحد شيئًا على نحو سليم لسنوات، اعتاد "جون ذا ديج" التكتم، وتنبأ بالمشكلات.

استشعر كل منا الرهبة بطريقته الخاصة، كلنا باستثناء "تشارلى"، فى يوم وصولها، كان "تشارلى" الوحيد الذى على طبيعته، مع أنه كان منعزلاً ومتجنبًا الأنظار، فإن وجوده كان مثبتًا بأصوات البعثرة والأصوات المدوية التى تهز البيت بين الحين والآخر، جلبة تعودنا عليها جميعًا لدرجة أننا بالكاد أصبحنا نلاحظها، ونتيجة تهجده لعودة "إيزابيل"، لم يعد لديه أيَّة فكرة عن اليوم أو الوقت، ووصول المعلمة لم يعنِ له أى شىء.

كنا نتسكع فى ذلك الصباح بإحدى الغرف الأمامية فى الطابق الأول، يمكن اعتبارها غرفة نوم، فقط لو كان السرير واضحًا تحت كومة الخردة التى تراكمت عليه كأنها تراكمت على مدار عقود، "إيميلاين" تعبث بأظفارها فى خيوط التطريز الفضية التى امتدت بطول الستائر، وحين نجحت فى تحرير أحد الخيوط، وضعته خلسة فى جيبها استعدادًا لتضيفه لاحقًا إلى مجموعتها الفنية التى تخفيها تحت سريرها، لكن شىء ما قطع تركيزها، أحد ما آت، وسواء أعرفت معنى ذلك أم لا، فإن ذلك الشعور بالانتظار الذى سيطر على المنزل قد طالها.

كانت "إيميلاين" أول من سمع عربة الأحصنة، شاهدنا من النافذة الوافدة الجديدة تترجل، وتمسد الكسرات المتراكمة على تنورتها بضربتين خفيفتين من كفيها، وتنظر حولها، تطلعت إلى الباب الأمامى، وإلى يسارها، وإلى يمينها، ثم إلى أعلى، حينها تراجعت أنا، على الأرجح ظنتنا خدعة ضوئية أو ستارة نافذة رفعها النسيم عبر زجاج النافذة المكسور، أيًّا كان ما رأته، لا يمكن أن يكون نحن.

لكننـا رأيناهـا، حدقنـا عـبر ثقـب "إيميلايـن" الجديـد فى السـتائر، لم نكـن واثقتـين مـن شـعورنا، طـول "هيسـتر" متوسـط، كذلـك بنيتها، شـعرها ليـس أصفـر ولا بنـى، وهـو لـون بشرتهـا، ترتـدى معطفًـا وفسـتانًا وتنتعـل حـذاءً، وتعتمـر قبعـة: كلهـا لهـا اللـون نفسـه غـير المميـز، ووجهها مجـرد مـن أيَّـة سـمات مميـزة، ومـع ذلـك، حدقنـا إليهـا، حدقنـا إليهـا حتـى آلمتنـا أعيننـا، كل مسـام وجههـا العـادى مضيئـة، شىء مـا فى ملابسـها وفى شـعرها مـشرق، شىء مـا فى أمتعتهـا مشـع، شىء مـا جعلهـا متوهجـة، مثـل مصبـاح، شىء مـا جعلهـا غريبـة.

لم تكـن لدينـا فكـرة عـن حقيقـة هـذا الـشىء، لم نتخيـل شـيئًا مثلـه مـن قبـل.

لكننا عرفناه لاحقًا.

"هيستر" نظيفة، إنها مغسولة ومصبنة ومشطوفة وملمعة بالكامل.

يمكن تخيل انطباعها عن آنجلفيلد.

بعـد دخولهـا المنـزل بربـع سـاعة جعلـت سـيدة الخـدم تدعونـا، تجاهلنـا النـداء، وانتظرنـا لـنرى مـا سـيحدث لاحقًـا، انتظرنـا، وانتظرنـا، لم يحـدث شىء، وكانـت تلـك أول مـرة تفسـد الأمـر علينـا، فقـط لـو كنـا توقعنـا ذلـك لاختلـف الأمـر، تصبـح كل خبرتنـا فى الاختبـاء بـلا قيمـة إن لم تـأت لتبحـث عنـا، وبالفعـل لم تـأت، ظللنـا فى الغرفـة، وزاد مللنـا، ثـم كدرنـا الفضـول الـذى زرع نفسـه فينـا عـلى الرغـم مـن مقاومتنـا، أصبحنـا منتبهتـين للأصـوات الصـادرة مـن الطابـق السـفلى: صـوت "جـون ذا ديـج"، وجـر الأثـاث، وبعـض القـرع والطـرق، ثـم سـاد الهـدوء، وفى وقـت الغـداء، نودينـا ولم نلـب، وفى السادسـة نادتنـا سـيدة الخـدم مجـددًا: "أيتهـا الطفلتـان، تعاليـا لتنـاول العشـاء مـع معلمتكـما الجديـدة"، لكننـا ظللنـا فى الغرفـة، لم يـأت أحـد، وكانـت تلـك بدايـة شـعورنا بـأن الوافـدة الجديـدة قـوة يُحسـب لهـا حسـاب.

لاحقًا بلغنا صوت استعداد المنزل للنوم، سمعنا خطوات على السلم، إنها سيدة الخدم تقول: "آمل أنك ستكونين مرتاحة يا آنسة"، ثم صوت المعلمة: "متأكدة أننى سأكون مرتاحة يا سيدة (دان)، شكرًا لتعبك".

"بشأن الفتاتين يا آنسة (بارو)..."

"لا تقلقى بشأنهما يا سيدة (دان)، ستكونان بخير، تصبحين على خير".

وبعد صوت هبوط سيدة الخدم المستمر على السلم، بات كل شيء هادئًا.

هبط الليل ونام البيت إلا نحن، فمحاولات السيدة تعليمنا أن الليل للنوم باءت بالفشل، كحال جميع دروسها الأخرى لنا، ونحن لم نخشَ الظلام، تنصتنا خارج باب غرفة المعلمة ولم نسمع شيئًا سوى خشخشة خافتة لفأر تحت ألواح الأرضية، فهبطنا السلم إلى خزانة المؤن.

الباب لا يُفتح، هذا القفل لم يُستخدم قط فى حياتنا، لكن فى تلك الليلة خان العهد، ووجدنا عليه آثار تزييت.

انتظرت "إميلاين" بصبر وانشِداه أن ينفتح الباب، مثلما انتظرت دائمًا من قبل، واثقة بأنها فى أيَّة لحظة ستجد خبزًا وزبدة ومربى لتأخذها.

لكن ما من داع للهلع، فجيب مئزر سيدة الخدم موجود، وهناك سيكون المفتاح، هناك توجد المفاتيح دائمًا، حلقة تجمع مفاتيح صدئة غير مستخدمة للأبواب والأقفال فى أنحاء المنزل، وأقل عبث بها سيعرفنا أى مفتاح يفتح أى قفل.

لكن الجيب كان خاليًا.

اضطربت "إيميلاين"، وأصابها هذا التأخير بالذهول.

تتطـور المعلمـة لتشـكل تحديًـا حقيقيًـا لكنهـا لـن تنـال منـا بهـذه الطريقـة، سـنخرج، يمكننـا دائمًـا أن ندخـل أحـد البيـوت مـن أجـل وجبـة خفيفـة.

دار مقبـض بـاب المطبـخ ثـم توقـف، لم يمكننـا أى قـدر مـن الجـذب والعبـث مـن فتحـه؛ إنـه مغلـق بقفـل.

وُضعـت ألـواح عـلى النافـذة المكسـورة فى المرسـم، وأُوصـد شـيش النافـذة فى غرفـة الطعـام، تبقـت أمامنـا فرصـة واحـدة أخـرى، ذهبنـا إلى الردهـة والبـاب المـزدوج الكبـير، وتخلفـت "إيميلايـن" المرتبكـة قليـلاً فى السـير، فهـى جائعـة، لمـاذا كل هـذا العنـاء مـع الأبـواب والنوافـذ؟ وكـم تبقـى مـن الوقـت قبـل أن تمـلأ بطنهـا بالطعـام؟ كان بصيـص مـن ضـوء القمـر، لونـه أزرق بفعـل الزجـاج الملـون الـذى يغطـى نوافـذ الردهـة، كافيًـا لـنرى البراغـى الضخمـة الثقيلـة الأبعـد مـن أن نطالهـا، والتـى زُيتـت وانزلقـت فى أماكنهـا أعـلى البـاب المـزدوج.

لقد حُبسنا.

قالـت "إيميلايـن": "يـام يـام"، إنهـا جائعـة، وحـين تجـوع "إيميلايـن" يجـب إطعامهـا، الأمـر بهـذه البسـاطة، لقـد كنـا فى ورطـة، أمامنـا الكثـير مـن الوقـت، لكـن فى النهايـة اسـتوعب عقـل "إيميلايـن" الصغـير المسـكين أن الطعـام الـذى تاقـت إليـه لـن تحصـل عليـه، بانـت بعينيهـا نظـرة ارتبـاك، وفتحـت فمهـا وصرخـت.

امتـد دوى صرختهـا ليصعـد السـلم الحجـرى، وتحـول إلى الممـر عـلى اليسـار، وصعـد مجموعـة أخـرى مـن الدرجـات وانزلـق عـبر بـاب غرفـة المعلمـة الجديـدة.

سريعًا انضمت لـه ضوضاء أخرى، ليس جـر القدمـين الأعمـى الخاص بسيدة الخدم، بـل الخطـوات البندولية الخاصـة بالآنسـة "هيسـتر بـارو"، هبطـت مجموعـة مـن الدرجات بخطـوات حـادة غير متعجلـة، وقطعـت طرقـة، ووصلـت إلى المعـرض.

اختبـأت أنـا بـين طيـات السـتائر الطويلـة قبـل لحظـة مـن ظهورهـا أعـلى السـلم الـذى حُـوِّل إلى معـرض، كان ذلـك منتصـف الليـل، وقفـت عـلى قمـة السـلم، لهـا بنيـة صغـيرة مكتنـزة، ليسـت سـمينة ولا نحيفـة، تقـف عـلى قدمـين ثابتتـين، يعلـو ذلـك الجسـد وجـه هـادئ وحـازم، بثـوب نومهـا الأزرق المُحـزم بقـوة وشـعرها الممشـط بأناقـة، بـدت بشـكل مؤكـد كأنهـا نامـت واقفـة ومسـتعدة للصبـاح، شـعرها خفيـف وملتصـق برأسـها، ووجههـا يعطـى انطباعًـا ببـطء الفهـم، وأنفهـا قصـير وممتلـئ، إنهـا عاديـة، إن لم تكـن أسـوأ مـن عاديـة، لكـن تأثـير الشـحوب عـلى وجـه "هيسـتر" لا يشـبه ولـو مـن بعيـد تأثـيره عـلى أيَّـة امـرأة أخـرى، إنهـا تجـذب العـين.

كانـت "إيميلايـن" الواقفـة أسـفل السـلم تنتحـب جوعًـا قبـل لحظـات، لكـن فى اللحظـة التـى ظهـرت فيهـا "هيسـتر" بـكل بهائهـا، توقفـت عـن البـكاء وحملقـت عـلى نحـو أهـدأ، كأن مـا ظهـر أمامهـا هـو حامـل تتكـدس عليـه الكعـكات.

قالـت "هيسـتر" وهـى تهبـط: "مـن الرائـع رؤيتـك، والآن مـن أنـت؟ (آديلايـن) أم (إيميلايـن)؟"

وقفت "إيميلاين" مشدوهة بفم مفتوح وصامتة.

تابعـت المعلمـة: "لا يهـم، أتريديـن بعـض الطعـام؟ وأيـن أختـك؟ أتريـد البعـض أيضًـا؟"

قالـت "إيميلايـن": "يـام"، ولم أعـرف مـا إذا قالـت ذلـك لأنهـا كلمـة الطعـام أم بسبب"هيسـتر" نفسـها.

تطلعت "هيستر" حولها، باحثة عن التوأمة الأخرى، بدت الستائر لها كأنها مجرد ستائر، لأن بعد نظرة متعجلة حولت كل انتباهها إلى "إميلاين"، قالت: "تعالى معى"، وابتسمت وأخرجت من جيبها الأزرق مفتاحًا، لونه أزرق فضي، ومصقول لدرجة اللمعان، وقد تلألأ بشكل مغرٍ تحت الضوء الأزرق.

وفى المفتاح بالغرض؛ إذ قالت "إميلاين": "لامع"، ودون معرفة ماهيته أو السحر الذى يستطيع فعله، تبعت المفتاح - و"هيستر" معه- عبر الممرات الباردة إلى المطبخ.

بين طيات الستارة، أفسحت آلام جوعى الطريق للغضب، "هيستر" ومفتاحها! "إميلاين"! كان الأمر أشبه بإعادة لواقعة عربة الأطفال، إنه "الحب".

تلك هى الليلة الأولى، وكانت انتصارًا لـ"هيستر".

لم تؤثر قذارة المنزل على معلمتنا النظيفة جدًّا مثلما قد يتوقع المرء، بل حدث العكس؛ إذ بدا أن أشعة الضوء القليلة، الجافة والمغبرة، التى نجحت فى اختراق النوافذ المتسخة والستائر الثقيلة، تسقط دائمًا على "هيستر"، جمعت الأشعة لنفسها وعكستها نحو الظلام، الذى أصبح منتعشًا ومفعمًا بالحيوية بفضل اتصاله بـ"هيستر" شيئًا فشيئًا، امتد البصيص من "هيستر" نفسها إلى المنزل، فى أول يوم عمل كامل لها، لم تتأثر سوى غرفتها؛ إذ أنزلت الستائر وأغرقتها فى حوض ملىء بالمياه والصابون، وعلقتها على حبل حيث أيقظت الشمس والرياح رسمة الزهور الوردية والصفراء التى لم يتوقع أحد وجودها وحين تركتها لتجف، نظفت النافذة بصحيفة وخل لتسمح للضوء بالمرور، وحين رأت نتيجة ما تفعله، مسحت الغرفة من الأرض إلى السقف، وبحلول الليل كانت قد أوجدت ملاذًا آمنا من النظافة بين تلك الجدران الأربعة، وهذه مجرد بداية.

فرضـت "هيسـتر" النظافـة العامـة عـلى ذلـك المنـزل بالصابـون والمبيـض، وبالطاقـة والعـزم هـذا المنـزل الـذى كان سـكانه لمـدة أجيـال يتثاقلـون بـلا نظـر وبـلا هـدف، ولا يسـعون وراء شيء سـوى الهـوس القـذر لـدى كل منهـم، أتـت "هيسـتر" كأنهـا معجـزة سـتنظف البيـت عـن آخـره، لمـدة ثلاثـين عامًـا، قيسـت الحيـاة داخـل المنـزل بالحركـة البطيئـة لـذرات الغبـار التـى تظهـر فى شـعاع شـمس مرهـق يدخـل بـين الحـين والآخـر، والآن تقيسـها قدمـا "هيسـتر" الصغيرتـان بالدقائـق والثـوانى، وبحفيـف قـوى لممسـحة، اختفـت تلـك الـذرات.

وبعـد النظافـة جـاء دور النظـام، وكان المنـزل نفسـه هـو أول مـن شـعر بالتغيـير، أجـرت معلمتنـا الجديـدة جولـة شـاملة للغايـة؛ انطلقـت مـن أسـفل إلى أعـلى، تتجهـم وتعبـس عنـد كل طابـق، لم تُفلـت منهـا أيَّـة خزانـة أو كـوة، فقـد حملـت ورقـة وقلـمًا وفحصـت كل غرفـة، تـدون مـكان كل بقعـة رطبـة ونافـذة لهـا صريـر، وتبحـث عـن الصريـر فى الأبـواب وألـواح الأرضيـة، وتجـرب المفاتيـح القديمـة فى الأقفـال القديمـة، وتـدون عـلى كل منهـا مـكان قفلـه، تركـت الأبـواب مقفلـة وراءهـا، ومـع أن هـذه لم تكـن إلا أول حملـة تنظيـف شـاملة، مجـرد حملـة تحضيريـة مـن أجـل حملـة الترميـم الرئيسـة، فإنهـا أحدثـت تغيـيراً فى كل غرفـة دخلتهـا، كومـة مـن الأغطيـة فى زاويـة مطويـة ومرتبـة عـلى كـرسى، كتـاب أخذتـه ووضعتـه تحـت ذراعهـا لتعيـده إلى المكتبـة لاحقًـا، شـدت السـتائر لتكون مسـتقيمة، حـدث كل هـذا باسـتعجال ملحـوظ، لكـن دون أدنى علامـة عـلى التسـرع، بـدا أنهـا لم تحتـج إلا إلى أن تلقـى نظـرة عـلى غرفـة حتـى يتراجـع فيهـا الظـلام، وحتـى تبـدأ الفـوضى فى الانتظـام بخجـل، وحتـى تنسـحب الأشـباح سريعًـا، وبهـذه الطريقـة، خضعـت كل الغـرف لـلـ"هيسـترة".

العليـا بالفعـل أوقفتهـا مـن المفاجـأة، فهبـط فكهـا وبـدت مذعـورة تجـاه حالـة تجويـف السـقف، لكـن حتـى وسـط هـذه الفـوضى، كانـت لا تُقهـر، فاسـتجمعت قواهـا، وزمـت شـفتيها، وشـطبت وكشـطت فى مـا

أمامها بحيوية أكبر، وفى اليوم التالى جاء بنّاء كنا نعرفه من القرية، رجل متأنٍّ فى مشيته، حين يتكلم يمد الحروف المتحركة ليريح فمه قبل الحرف الساكن التالى، يتولى ست أو سبع وظائف فى آن، ونادرًا ما يكمل أيًّا منها، يقضى أيام عمله فى تدخين السجائر والتحديق إلى المهمة التى أمامه وهو يهز رأسه كأنه يستسلم للقدر، صعد سلمنا بطريقته الكسولة التقليدية، لكن بعد أن قضى خمس دقائق مع "هيستر"، سمعنا مطرقته تنطلق بأقصى سرعة وبلا توقف، لقد حمسته.

فى غضون بضعة أيام أصبحت هناك أوقات للطعام، وأوقات للنوم والاستيقاظ، وبعد بضعة أيام أخرى، أصبحت هناك أحذية نظيفة للتنقل داخل المنزل، وأحذية نظيفة ذات رقبة للخروج، ليس هذا فقط، بل ونُظفت الفساتين الحريرية ورُتقت، وعُدلت لتناسب جسدى الفتاتين أكثر، وعُلقت بعيدًا من أجل شيء ما "أفضل"، وظهرت فساتين جديدة من القطن الأخضر والأزرق بياقات وأحزمة بيضاء من أجل الاستخدام اليومى.

أشرقت "إيميلاين" تحت ظل النظام الجديد، فأصبحت تتغذى جيدًا فى أوقات منتظمة، ويُسمح لها باللعب -تحت رقابة مشددة- بمفاتيح "هيستر" اللامعة، بل وطورت شغفًا تجاه الاستحمام، قاومت فى البداية، وصرخت ورفست فى حين تعريها "هيستر" وسيدة الخدم وتنزلاها فى حوض الاستحمام، لكن حين رأت نفسها فى المرآة بعدها، وجدت نفسها نظيفة وشعرها مضفر بأناقة ومربوط بربطة فراشة خضراء، انشدهت وراحت فى نشوتها، أعجبها أن تكون متلألئة، واعتادت "إيميلاين" كلما كانت فى حضرة "هيستر"، أن تدرس وجهها خلسة، باحثة عن ابتسامة، وحين تبتسم "هيستر" -وهذا نادر- تحدق "إيميلاين" إلى وجهها سعادة، ولم يمر الكثير من الوقت حتى تعلمت أن ترد الابتسامة.

أشرق أعضاء آخرون بالمنزل أيضًا؛ فقد فحص الطبيب عينى سيدة الخدم، وأُخذت إلى متخصص أعين بعد الكثير من التذمر، وحين عادت استطاعت أن ترى مجددًا، وسُرت سيدة الخدم جدًا لرؤية المنزل بحالة النظافة الجديدة، لدرجة نسيان كل السنوات التى عاشتها فى الكآبة، واستعادت شبابها كفاية لتنضم لـ"هيستر" فى هذا العالم الجديد الشجاع، وحتى "جون ذا ديج"، الذى أطاع أوامر "هيستر" بكآبة وأبقى عينيه الداكنتين دائمًا وبصرامة متفاديتين للنظر إلى عينيها المشرقتين اللتين تريان كل شىء، لم يستطع مقاومة التأثير الإيجابى لطاقتها فى المنزل، فمن دون مقدمات أخذ مجزاته ودخل الحديقة التوبيارية للمرة الأولى منذ الكارثة، وهناك كثف جهوده إلى جانب جهود الطبيعة المستمرة لإصلاح آثار هجمة الماضى.

كان "تشارلى" الأقل تأثرًا على نحو مباشر، فقد ابتعد عن طريقها، وهذا ناسب كليهما، لم تكن لديها رغبة فى فعل أى شىء سوى عملها، ونحن كنا عملها، عقلينا، وجسدينا، وروحينا، لكن الوصى علينا يقع خارج مجال اختصاصها، فتركته وشأنه، هى ليست "جين أير"، وهو ليس السيد "روتشستر"، وفى مواجهة طاقتها المهندِمة لكل ما حولها، تراجع هو إلى الحضانة القديمة فى الطابق الثانى وراء باب مقفل بصرامة، حيث تعفن هو وذكرياته معًا وسط القذارة، بنظره، كان تأثير "هيستر" محدودًا بتحسن فى نظامه الغذائى، وبقبضة أصرم على أمواله التى نهبها التجار ورجال الأعمال منعدمى الضمائر فى مواجهة السيطرة الأمينة والواهية لسيدة الخدم، ولم يلحظ هو أيًا من هذه التغييرات للأفضل، ولو كان لاحظها فإننى أشك فى أنه قد يهتم.

لكن "هيستر" بالفعل أبقت الطفلتين تحت السيطرة، وبعيدًا عن الأنظار، ولو فكر فى الأمر بأى شكل لامتنّ لما فعلته، ففى عهد "هيستر"، لم يعد هناك داعٍ للجيران العدائيين ليأتوا للشكوى بشأن التوأمين، ولا حاجة إلى زيارة المطبخ لطلب شطيرة من سيدة الخدم،

والأهـم مـن كل ذلـك، أن لا حاجـة إلى مغـادرة تلـك المسـاحة مـن الخيـال التـى سـكنها مـع "إيزابيـل"، مـع "إيزابيـل" فقـط، دائمًـا مـع "إيزابيـل"، فما تخلـى عنـه مـن مسـاحة سـيطرته اكتسـبه فى صـورة حريـة، لم يسـمع قـط عـن "هيسـتر"، لم يرهـا قـط، بـل إنهـا حتـى لم تخـطُ ولـو خطـوة واحـدة داخـل عقلـه، كانـت مرضيـة لـه تمامًـا.

انتـصرت "هيسـتر"، ربمـا كانـت تبـدو مثـل ثمـرة البطاطـس، لكـن مـا مـن شىء لا تسـتطيع تلـك الفتـاة فعلـه بمجـرد أن تضعـه نصـب عينيهـا.

***

سـكتت السـيدة "وينـتر" لوهلـة، اسـتقرت عيناهـا عـلى زاويـة الغرفـة، حيـث قـدم ماضيهـا نفسـه إليـه بواقعيـة أكـثر مـن الحـاضر ومنـى، ارتجفـت زوايـا فمهـا وعينيهـا بنصـف تعبـيرات مـن الحـزن والألم، لمعرفتـى بمـدى هشاشـة الخيـط الـذى يربطهـا بماضيهـا، كنـت قلقـة تجـاه قطعـه، وقلقـت بالدرجـة نفسـها بشـأن أن توقـف حـكى قصتهـا.

طال السكوت.

سألتها برقة: "وأنت؟ ماذا عنك؟"

رمشت بشكل مبهم: "أنا؟ نعم لقد أحببتها، وهذه كانت المشكلة".

"المشكلة؟"

رمشـت مجـددًا، اعتدلـت فى مقعدهـا ونظـرت إلى بعينـين جديدتـين وحادتـين، لقـد قطعـت الخيـط.

"أعتقد أن هذا كفاية اليوم، يمكنك الانصراف".

صندوق الحياة

بوصولنا إلى قصة "هيستر" رجعت سريعًا إلى روتينى، فى الصباح أستمع إلى السيدة "وينتر" تحكى لى قصتها، وبالكاد أنتبه إلى مفكرتى، ولاحقًا فى غرفتى، أمام رزم الورق وأقلامى الرصاص الحمراء الاثنى عشر ومبراتى الوفية، أفرغت ما حفظته عن ظهر قلب، مع تدفق الكلمات من طرف قلمى على الصفحة، استحضرت صوت السيدة "وينتر" فى أذنى، ولاحقًا، حين أقرأ بصوت مرتفع ما كتبته، أشعر بوجهى يعيد ترتيب نفسه ليمثل تعبيراتها، ارتفعت يدى اليسرى وهبطت محاكية حركاتها التأكيدية، وترقد يمناى فى حجرى كأنها مشوهة، تحولت الكلمات إلى صور فى دماغى، "هيستر"، نظيفة وأنيقة ومحاطة ببريق فضى، هالة تحيط بجسدها كله وتتسع طوال الوقت، تلف أولاً غرفتها، ثم المنزل، ثم سكانه، تحولت سيدة الخدم من كائن بطىء فى الظلام إلى شخصية لها عينان تندفعان برشاقة فى الأنحاء، مشرقة بنور الإبصار، وتسمح "إيميلاين" لنفسها تحت تأثير هالة "هيستر" اللامعة، بأن تتغير من متشردة قذرة تعانى سوء التغذية، إلى طفلة نظيفة

حنـون ممتلئـة الجسـد، حتـى الحديقـة التوبيارـية كان لهـا نصيـب مـن ضوء"هيسـتر"، إذ أشرقـت عـلى أفـرع أشـجار الصنوبـر المُتلفـة، وأحللـت بهـا الازدهـار الأخـضر المنعـش، بالتأكيـد هنـاك "تشـارلى"، الـذى يتحـرك كالأخـرق فى الظـلام، ويُسـمع ولا يُـرى، و"جـون ذا ديـج"، البسـتانى ذو الاسـم الغريـب، الـذى يطيـل التفكـير عنـد حدودهـا، ويمانـع أن يُجـذب إلى ضوئهـا، و"آديلايـن"، الغامضـة مظلمـة القلـب.

احتفظـت بصنـدوق حيـاة لـكل مشروعـات السـير الذاتيـة خاصتـى، صنـدوق يحـوى بطاقـات تصنيـف توضـح تفاصيـل -الاسـم، والوظيفـة، والتواريـخ، ومحـل السـكن، وأيَّـة معلومـات أخـرى تبـدو مهمـة- كل الشـخصيات الهامـة فى حيـاة صاحـب السـيرة الذاتيـة، لا أعـرف قـط مـا سـأفعله بصناديـق الحيـاة تلـك، حسـب حالتـى المزاجيـة، إمـا تبـدو لى ذكـرى تسـعد المـوتى (أتخيلهـم يقولـون وهـم يتطلعـون عـبر الزجـاج إلى: "انظـروا! إنهـا تدوننـا فى بطاقاتهـا! وقـد ظننـا أننـا متنـا منـذ مئتـى عـام!") وإمـا حـين يكـون الزجـاج مظلـمًا جـدًّا وأشـعر أننـى عالقـة ووحيـدة للغايـة فى هـذا الجانـب منـه، تبـدو كأنهـا شـواهد قبـور ورقيـة صغـيرة، جامـدة وبـاردة، والصنـدوق نفسـه لـه مـوات المدافـن نفسـه، طاقـم شـخصيات السـيدة "وينـتر" قليـل جـدًّا، وبينـما أخلـط الشـخصيات بـين يـدى، أفزعتنـى مـدى هشاشـتها، لقـد قُدمـت لى قصـة، لكـن عـلى حـد معلومـاتى، أعـرف أقـل بكثـير مـما سـأحتاجه.

أخرجت بطاقة بيضاء وبدأت أكتب.

"هيستر بارو".

معلمة.

منزل "آنجلفيلد".

ولدت: ؟

ماتت: ؟

توقفت، فكرت، أجريت بعض الحسابات على أصابعى، كانت سن الفتاتين ثلاثة عشر عامًا فقط، و"هيستر" لم تكن عجوزًا، فبكل تلك الحيوية، لا يمكن أن تكون عجوزًا، أكانت سنها ثلاثين عامًا؟ ماذا لو كان خمسة وعشرين فقط؟ اثنا عشر عامًا فقط تكبر بها عن الفتاتين.. أكان هذا ممكنًا؟ تساءلت، السيدة "وينتر"، فى سبعيناتها وتحتضر، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أن شخصًا أكبر منها سيكون ميتًا، إلى أى مدى هذا مرجح؟

لم أجد أمامى إلا شيئًا واحدًا.

أضفت ملاحظة أخرى إلى البطاقة، وشددت تحتها خطًا.

اعثرى عليها

هل قرارى أن أبحث عنها هو ما جعلنى أراها فى حلم فى تلك الليلة؟

بنية عادية بقميص نوم محزم بأناقة، على السلم الذى أصبح معرضًا، تهز رأسها وتزم شفتيها أمام الجدران التى شوهتها النيران، وألواح الأرضية المكسورة المدببة، وأشجار اللبلاب التى تلتف لتشق طريقها صعودًا على الدرابزين الحجرى وسط كل تلك الفوضى، كم بدا كل شىء واضحًا بالقرب منها، كم بدا مريحًا، اقتربت، مجذوبة إليها مثل الفراشة، لكن حين دخلت دائرتها السحرية، لم يحدث شىء، كنت لا أزال فى العتمة، دارت عينا "هيستر" السريعتان هنا وهناك، تستوعب كل شىء، واستقرت على جسد يقف ورائى، توأمى، أو هكذا فهمت فى الحلم، لكن حين تجاوزتنى عيناها، كانت كأنها لا ترانى.

استيقظت، انتابت جانبى رجفة ساخنة مألوفة، واستدعيتُ صورًا من حلمى لفهم مصدر خوفى، لا شىء بـ"هيستر" نفسها يخيفنى، لا شىء يوترنى فى المرور السلس لعينيها على وجهى وعبره، ما رأيته فى الحلم ليس هو السبب، بل ما أنا عليه هو ما يجعلنى أرتجف فى

سريرى، لو لم ترنى "هيستر"، فلا بد أن السبب أننى شبح، ولو كنت شبحًا، فأنا ميتة، وكيف لا؟

قمت وذهبت إلى المرحاض لأغتسل من مخاوفى، نظرت إلى يدى تحت المياه متجنبة المرآة، لكن المشهد أمامى ملأنى رعبًا، ففى حين أنَّ يدى موجودتان هنا أجدهما على الجانب الآخر أيضًا، حيث هما ميتتان، والعينان اللتان أراهما، عيناى، ميتتان فى مكانيهما أيضًا، وعقلى الذى فكر بهذه الأفكار، أليس ميتًا أيضًا؟ سيطر علىّ رعب عميق، ما هذا الكائن الغريب الذى هو أنا؟ أى فظاعة هذه التى تقسم شخصًا بين جسدين قبل ولادته، ثم تقتل أحدهما؟ وما الذى تبقى منى؟ نصف ميتة، منفية فى عالم الأحياء نهارًا، فى حين أن فى الليل تتعلق روحى بتوأمى فى غياهب النسيان المظلمة.

أشعلت نيرانًا مبكرة فى الموقد، وأعددت كوب كاكاو، ولففت نفسى بثوب نوم وأغطية لأكتب رسالة إلى والدى، كيف حال المتجر؟ وكيف حال أمى؟ وكيف حاله؟ وتساءلت، كيف يبحث أحد عن شخص؟ هل المحققون الخاصون موجودون فى الحقيقة أم فى الكتب فقط؟ أخبرته بالقليل الذى أعرفه عن "هيستر"، أيمكن تدشين بحث بهذا القدر القليل من المعلومات؟ أيمكن لمحقق خاص أن يتولى مهمة كالتى ببالى؟ إن كان لا، فمن قد يفعل ذلك؟

أعدت قراءة الرسالة، حكيمة ومفعمة بالحيوية، ولا تشى بأى من مخاوفى، حينها كان الفجر يبزغ، وقد توقف الارتجاف، وقريبًا ستأتى "جوديث" بالإفطار.

عين أشجار الصنوبر

ما من شيء لا تستطيع المعلمة فعله بمجرد أن تضعه نصب عينيها.

هكذا بدا الأمر في البداية على أيّة حال.

لكن بعد فترة بدأت الصعوبات في الظهور، أولها كان جدالها مع سيدة الخدم، فبعد أن ترتب "هيستر" الغرف وتنظفها وتتركها مقفلة وراءها، كانت تكتشف أنها غير مقفلة، فاستدعت سيدة الخدم وسألتها: "ما الحاجة إلى ترك الغرف مفتوحة وهي غير مستخدمة؟ نتيجة ذلك أن تدخل الفتاتان كيفما يحلو لهما وتحدثان الفوضى حيث كان النظام، إنه عبءٌ إضافي غير ضروري لك ولي".

بدت سيدة الخدم موافقة تمامًا، وتركتها "هيستر" راضية جدًّا، لكن بعد أسبوع وجدت الأبواب مفتوحة مجددًا حين يُفترض أن تكون مقفلة، فاستدعت سيدة الخدم مجددًا عابسة، في هذه المرة لن تقبل بوعود غامضة، وهي عازمة على التوصل إلى حقيقة الأمر.

أوضحت سيدة الخدم: "إنه الهواء، ومن دون حركة الهواء، يصبح المنزل رطبًا على نحو سخيف".

أعطت "هيستر" سيدة الخدم محاضرة مقتضبة بمصطلحات بسيطة عن دورات الهواء والرطوبة وصرفتها، واثقة بأنها حلت المشكلة هذه المرة.

بعد أسبوع لاحظت مجددًا أن الأبواب غير مقفلة، هذه المرة لم تستدعِ سيدة الخدم، بل فكرت، لهذه المشكلة أبعاد أكبر مما ترى، وقررت أنها ستراقب سيدة الخدم، وستكتشف بالملاحظة سر عدم إقفال الأبواب.

أما المشكلة الثانية فكانت مع "جون ذا ديج"، شكوكه حولها لم تخفَ عليها، لكن هذا لم يصدها؛ فهى شخص غريب فى المنزل، والأمر بيدها أن تظهر أن وجودها يصب بمصلحة الجميع ولا يتسبب بالمشكلات، وعرفت أنها مسألة وقت قبل أن تكسب وده، لكن مع أنه بدا يعتاد وجودها، كانت شكوكه بطيئة فى الاختفاء على نحو غير متوقع، وفى أحد الأيام اختمرت شكوكه لتكوِّن شعورًا آخر، تحدثت معه لأمر عادى للغاية، إذ رأت فى حديقتنا -أو هكذا أكدت- طفلاً من القرية كان من المفترض أن يكون فى المدرسة، فأرادت أن تعرف: "من هذا الطفل؟ من والداه؟"

رد "جون": "لا شأن لى بالأمر"، بفظاظة فاجأتها.

ردت بهدوء: "لا أقول إن لك علاقة بالأمر، لكن الطفل يجب أن يكون فى المدرسة، واثقة بأنك ستتفق معى على هذا، لو فقط أخبرتنى من هو سأتحدث مع والديه ومعلمته بشأن الأمر".

هز "جون ذا ديج" كتفيه بلا مبالاة وعزم الانصراف، لكنها ليست امرأة تُصد بهذه الطريقة، دارت حوله وتوقفت أمامه، وكررت طلبها،

ولم لا؟ إنه طلب منطقى للغاية، وقد طرحته بطريقة متحضرة، فلماذا يرفض؟

لكنه رفض ولم يقل سوى: "أطفال القرية لا يأتون إلى هنا".

تابعت: "لكن ذلك الطفل أتى".

"إنهم يبقون بعيدين خوفًا".

"هذا سخيف، مم قد يخافون هنا؟ كان الطفل يعتمر قبعة عريضة الحواف، ويرتدى بنطالاً رجاليًا قصه ليلائمه، كان مظهره مميزًا جدًا، بالتأكيد تعرفه".

جاء رده مستخفًا: "لم أر مثل هذا الطفل"، ومرة أخرى عزم الانصراف.

لا يميز "هيستر" شيء أكثر من المثابرة: "لكنك بالتأكيد رأيته..."

"بعض العقول فقط هى التى ترى ما ليس موجودًا يا آنسة، وأنا رجل عاقل لا أرى شيئًا حيث لا يوجد شيء، وإن كنت مكانك يا آنسة، سأفعل الأمر نفسه، يومك سعيد".

عند ذلك انصرف، وفى هذه المرة لم تحاول "هيستر" منعه، بل وقفت مكانها ببساطة، تهز رأسها حيرة وتساؤلاً حيال ما قد أصاب الرجل، يبدو أن منزل "آنجلفيلد" مليء بالألغاز، ومع ذلك، لم تحب "هيستر" شيئًا أكثر من تمرين ذهنها، إذ تصل سريعًا إلى حقيقة الأمور.

التبصر والذكاء من المواهب الاستثنائية لـ"هيستر"، لكن ما يضاهى مواهبها هو حقيقة أنها لم تكن تعرف من تواجه تحديدًا، مثال على ذلك عادتها أن تترك الفتاتين لتمارسا حيلهما لفترات قصيرة فى حين تباشر هى أعمالها فى مكان آخر، فكانت فى البداية تراقب الفتاتين من كثب، وتلاحظ أنماط نشاطهما وراحتهما، وحين أخبرتها نتائج تحليلها أنهما تسترخيان بهدوء فى المنزل لمدة ساعة، كانت تتركهما بلا

مراقبة، فى إحدى تلك المرات، كان لديها غرض خاص فى بالها، إذ جاء الطبيب وأرادت التحدث معه على انفراد.

مغفلة "هيستر"، فلا خصوصية حيث يوجد الأطفال.

قابلته عند الباب الأمامى: "إنه يوم لطيف، هلا نتمشى فى الحديقة؟"

انطلقا نحو الحديقة التوبيارية، غير مدركين أن أحدًا يتبعهما.

استهل الطبيب: "لقد صنعت معجزة يا آنسة (بارو) لقد تحوّلت (إيميلاين)".

ردت: "لا".

"نعم، أؤكد لك، لقد تجاوزت توقعاتى، أنا منبهر".

أحنت "هيستر" رأسها وحولت جسدها عنه بزاوية بسيطة، صمت الطبيب معتبراً رد فعلها من صور التواضع، ظانًا أنها مستغرقة الآن فى ما أغدق عليها من تقدير، أتاح له الصنوبر المجزوز حديثًا شيئًا ليعجب به فى حين تستعيد المعلمة رباط جأشها، من الجيد أنه كان مستغرقًا فى الأشكال الهندسية للصنوبر، فلولا ذلك لكان لمح وجهها الساخر وأدرك خطأه.

اعتراضها بكلمة "لا" كان بعيدًا عن الابتسامة الأنثوية المتكلفة التى تصورها الطبيب، لقد كانت إقرارًا صريحًا لحقيقة، بالتأكيد تحولت "إيميلاين"، ففى وجود "هيستر"، كيف قد يحدث غير ذلك؟ ما من شىء إعجازى فى ذلك، وهذا ما قصدته بقولها "لا".

لكنها لم تتفاجأ بالتعطف الذى شاب تعليق الطبيب، فهذا ليس عالم يُرجح فيه أن تُلاحظ علامات العبقرية على المعلمات المنزليات، لكن مع ذلك أظن أنها شعرت بخيبة الأمل، فقد ظنت أن الطبيب هو الشخص الوحيد فى آنجلفيلد الذى قد يفهمها، لكنه لم يفهمها.

التفتت نحو الطبيب ووجدت نفسها تواجه ظهره، كان واقفًا ويداه فى جيبيه، وكتفاه مستقيمتان، متطلعًا إلى نهاية أشجار الصنوبر وبداية السماء، كان الشيب يزحف على شعره الأنيق، ورأت دائرة تامة الاستدارة من فروة الرأس الوردية قطرها أربع سنتيمترات على قمة رأسه.

قالت "هيستر": "(جون) يصلح الخراب الذى أحدثته الفتاتان".

"ماذا جعلهما يصنعاه؟"

"فى حالة (إميلاين) الإجابة سهلة: (آديلاين) دفعتها إلى ذلك، أما عن سبب فعل (آديلاين) ذلك، فهذا سؤال أصعب جدًّا، أشك فى أن تكون هى نفسها تعرف، معظم الوقت تحركها اندفاعاتها، التى تبدو بلا أى وعى، وأيًّا كان السبب، فإن النتيجة كانت مدمرة لـ(جون)، لقد رعت عائلته هذه الحديقة لأجيال".

"هذا عمل بلا قلب والأفظع أن تأتيه طفلة".

تغير تعبير وجهها، لكن الطبيب لم يره، من الواضح أنه لم يعرف الكثير عن الأطفال: "بالتأكيد بلا قلب، مع أن الأطفال قادرون على القسوة الشديدة، لكننا فقط لا نحب أن نظن بهم ذلك".

ببطء شرعا يمشيان بين الأشكال التوبيارية، يعجبان بأشجار الصنوبر وهما يتحدثان عن عمل "هيستر"، تبعتهما جاسوسة صغيرة، تنتقل من حمى شجرة صنوبر إلى أخرى محافظة على مسافة آمنة تفصلها عنهما، لكن تجعلهما دائمًا ضمن حدود سمعها، تحركا يسرة ويمنة، وأحيانًا يلتفتا ليتجها من حيث أتيا، كانت أشبه رقصة مطولة بين الأركان.

"أتصور أنك راضية عن نتائج جهودك مع (إميلاين) يا آنسة (بارو)؟"

"نعم، بعد عام آخر أو حول ذلك من اهتمامى بها، لا أرى سببًا لكى لا تتخلى عن الفظاظة للأبد، وأن تصبح الفتاة اللطيفة التى تعرف هى كيف تكونها فى أفضل حالاتها، لن تكون ذكية، لكن مع ذلك، لا أرى سببًا لكيلا تعيش حياة مرضية وهى منفصلة عن أختها، ربما حتى قد تتزوج، فكل الرجال لا يبحثون عن الذكاء عند اختيار زوجة، و(إيميلاين) حنون جدًّا".

"جيد، جيد".

"لكن مع (إيميلاين) الأمر مختلف تمامًا".

بلغا طريقًا مسدودًا، قرب شجرة على هيئة مسلة، وفى جانبها قطع حاد، تطلعت المعلمة إلى الأفرع الداخلية ولمست أحد الأغصان الجديدة ذات الأفرع الَخضراء الزاهية التى تنمو من الساق القديمة نحو الضوء وتنهدت.

"(آديلاين) تحيرنى أيها الطبيب (مودسلى)، سأقدر رأيك الطبى بشأنها".

شكرها الطبيب بنصف انحناءة مهذبة: "سأساعدك بكل الوسائل الممكنة، ما الذى يزعجك بشأنها؟"

"لم أعرف قط طفلة مربكة مثلها"، وسكتت برهة، "اعذر بطئى فلا توجد طريقة موجزة لتوضيح الغرابة التى لاحظتها فيها".

"خذى وقتكِ، لست متعجلاً".

أشار الطبيب إلى دكة منخفضة، فى ظهرها سياج من الأشجار جُز ليشكل قوسًا مموجًا على نحو متقن، من النوع الذى يظهر عادة على اللوح الأمامى من سرير مزخرف ببراعة، جلسا ووجدا نفسيهما يواجهان الجانب الجميل من إحدى أكبر القطع الهندسية بالحديقة، علق الطبيب: "انظرى، إنها على شكل مجسم له اثنا عشر وجهًا".

تجاهلت "هيستر" تعليقه وبدأت شرحها.

"(آديلايـن) طفلـة عدائيـة وعدوانيـة، إنهـا تمقـت وجـودى فى المنـزل وتقـاوم كل جهـودى لفـرض النظـام، وجباتهـا غـير منتظمـة، وترفـض الطعـام إلى أن ينـال منهـا الجـوع وحينهـا فقـط تـأكل، لكنهـا تكتفـى بأقـل لقمـة، يجـب أن تُحمـم بالقـوة، ورغـم نحولهـا، فـإن إبقاءهـا تحـت المياه يتطلـب شـخصين، وأى عاطفـة أبديهـا لهـا تقابلـه بـلا مبـالاة شـديدة، تبدو عاجـزة عـن إدراك كامـل النطـاق الطبيعـى للمشـاعر البشريـة، وبصراحـة أيهـا الطبيـب (مودسـلى)، سـألت نفـسى إذا مـا كانـت بالأسـاس قـادرة عـلى العـودة إلى طيـات الطبيعـة الإنسـانية المشـتركة".

"هل هى ذكية؟"

"إنهـا ماكـرة، وخبيثـة، لكـن لا تمكـن اسـتثارتها لتهتـم بـأى شيء يتجـاوز نطـاق أمنياتهـا ورغباتها وشـهواتها".

"وفى غرفة الدراسة؟"

"بالتأكيـد تـدرك أن بوجـود فتـاة مثلهـا فى غرفـة الدراسـة لا يكـون الأمر كحـال الأطفـال الطبيعيـين، فـلا أدرِّس الحسـاب، ولا اللاتينيـة، ولا الجغرافيا، ومـع ذلـك، ولصالـح النظـام والروتـين، فـإنى أجعلهـما تحـضران سـاعتين يوميًّـا، مرتـين يوميًـا، وأدرِّس لهـما عـبر حـكى الحكايـات".

"وهل تفهم هذه الدروس؟"

"كـم أتمنـى لـو كنـت أعـرف لهـذا السـؤال إجابـة! إنهـا جامحـة للغايـة أيهـا الطبيـب (مودسـلى)، يجـب أن تُحبـس فى الغرفـة عـبر خدعـة مـا، وأحيانًـا أضطـر إلى جعـل (جـون) يجلبهـا بالقـوة، تفعـل أىّ شيء لتجنـب الدراسـة، تلـوح بذراعيهـا أو تصلّـب جسـدها لتجعـل حملهـا عـبر البـاب صعبًـا، جلوسـها وراء مكتـب يعـد -عمليًـا- مسـتحيلاً، فى غالـب الأحيـان يُضطـر (جـون) إلى تركهـا ببسـاطة عـلى الأرض، فهـى لـن تنظـر ولـن

تستمع إلىَّ فى غرفة الدراسة، بل تنسحب إلى عالم ما داخلى خاص بها".

أنصت الطبيب وأومأ: "إنها حالة صعبة، يسبب سلوكها لك قلقًا أكبر وتخشين أن نتائج جهودك قد تكون أقل نجاحًا معها بالمقارنة بأختها، ومع ذلك"، وكانت ابتسامته ساحرة، "اعذرينى يا آنسة (بارو) إن كنت لا أرى سببًا لتأكيدك أنها تخدعك، على العكس، تفصيلك لسلوكها وحالتها العقلية أكثر تماسكًا مما قد يقوله طالب طب إن أُعطِى المعطيات نفسها".

تطلعت إليه ببرود: "لم أصل إلى الجزء المحير بعد".

"نعم".

"هناك وسائل نجحت مع أطفال مثل (آديلاين) فى الماضى، وهناك إستراتيجيات خاصة لدى أملٌ بها، ولن أتردد فى تنفيذها حيث..."

ترددت "هيستر" وفى هذه المرة كان الطبيب ذكيًّا كفاية لينتظرها أن تتابع كلامها، حين تابعت، كان كلامها بطيئًا، وفكرت فى كلماتها بعناية.

"كأن هناك غشاوة داخل (آديلاين)، غشاوة لا تعميها عن الإنسانية فقط، بل وعن نفسها أيضًا، وأحيانًا تخف الغشاوة، وأحيانًا تختفى، وأحيانًا أخرى تظهر (آديلاين)، ثم تعود الغشاوة وتعود هى كما كانت".

نظرت "هيستر" إلى الطبيب، تراقب تعبيرات وجهه، وقد عبس وجهه، لكن أعلى وجهه العابس، حيث يتراجع شعره، بشرته وردية غير متجعدة، "كيف تكون خلال تلك الفترات؟"

"العلامـات الخارجيـة ضئيلـة جـدًا، فلمـدة أسـابيع لم أدرك تلـك الظاهـرة، وحتـى بعدمـا أدركتهـا انتظـرت قليـلاً قبـل أن أكـون واثقـة كفايـة لأخـبرك".

"فهمتك".

"أولاً هنـاك تنفسـها، إنـه يتغـير أحيانًـا، وأعـرف أن عـلى الرغـم مـن أنهـا تدعـى أنهـا فى عـالم خـاص بهـا، هـى تسـتمع إلى، ويداهـا..."

"يداها؟"

"عـادة مـا تكونـان متباعدتـين وجامدتـين هكـذا"، وأرتـه بيديهـا، "لكـن أحيانًـا ألاحـظ أنهـما مسـترخيتان، هكـذا"، وأرخـت يديهـا، "يبـدو أن اندماجهـا فى القصـة قـد جـذب انتباههـا، وهـو مـا أضعـف دفاعاتهـا، فتسـترخى وتنـسى مـا تظهـره مـن رفـض وتحـدٍ، لقـد عملـت مـع الكثـير جـدًا مـن الأطفـال صعبـى المـراس أيهـا الطبيـب (مودسـلى)، ولـدى خـبرة معتـبرة، ومـا رأيتـه منهـا يصـل إلى هـذا الحـد: عـلى عكـس كل التوقعـات، قـد يكـون بهـا اضطـراب".

لم يعلـق الطبيـب عـلى الفـور بـل فكـر، وبـدت "هيسـتر" ممتنـة لبذلـه هـذا الجهد.

"أهناك أى نمط لظهور هذه العلامات؟"

"ما من شىء أكيد لى حتى الآن.. لكن..."

يميل برأسه مشجعًا إياها على الكلام.

"على الأرجح أنها هراء، لكن هناك قصصًا ما..."

"قصص؟"

"قصة (جين أير) مثلاً، حكيت لهما نسخة قصيرة من الجزء الأول على مدار عدة أيام، وبالطبع لاحظتُ الأمر حينها، و(ديكنز) أيضًا، لم يكن للحكايات التاريخية والمواعظ قط التأثير نفسه".

عبس الطبيب: "وهل هذا مستمر؟ هل قراءة (جين أير) دائمًا تؤدى إلى التغيرات نفسها التى وصفتها؟"

"لا، وهنا المشكلة".

"ممم، فماذا تنوين؟"

"هناك أساليب للتعامل مع الأطفال الأنانيين والعنيدين مثل (آديلاين)، يمكن أن يكون النظام الصارم الآن كافيًا لكيلا تدخل مصحة لاحقًا فى حياتها، ولكن هذا النظام، الذى سيشمل فرض روتين صارم وإبعاد الكثير مما يثيرها، سيكون ضرره الأكبر على..."

"على الطفلة التى نراها عبر الغشاوة؟"

"بالتحديد، فى الواقع فإن بنظر هذه الطفلة، ليس هناك أسوأ من ذلك".

"وتلك الطفلة داخل الغشاوة، أى مستقبل ترين لها؟"

"إنه سؤال مبكر، لكن يكفى أن أقول إننى حاليًا لا أؤيد أن نضيعها منا، فمن يعرف ماذا قد تصبح؟"

جلسا فى صمت، يتطلعان إلى الأشكال الهندسية المصنوعة من أوراق الأشجار المقابلة لهما ويفكران فى المشكلة التى أوضحتها "هيستر"، إنما وفى غفلة منهما، تحملق إليهما المشكلة نفسها عبر الفراغات بين الأفرع وهى متخفية جيدًا بين الأشجار.

أخيرًا تكلم الطبيب: "لا أعرف بشأن أيَّة حالة طبية تسبب آثارًا نفسية كالتى تصفينها، ولكن، قد يكون هذا جهلاً منى"، انتظرها أن تعترض، لكنها لم تفعل، "هممم، برأيى سيكون منطقيًا أن أفحص

الطفلة فحصًا شاملاً حتى أتثبت من حالتها الصحية عمومًا، العقلية والجسدية، وهذه خطوة أولى".

ردت "هيستر": "هذا ما فكرت فيه، والآن..." فتشت فى جيبها، "هذه ملاحظاتى، ستجد وصفًا لكل حالة شهدتها، مع بعض التحليل الأوَّلى، ربما تبقى بعد الفحص الطبى لنصف ساعة لتخبرنى بانطباعاتك الأولية، يمكننا حينها أن نقرر الخطوة التالية".

تطلع إليها ببعض الذهول، لقد خرجت عن دورها كمعلمة منزلية، وكانت تتصرف كأنها خبيرة زميلة!

وضعت "هيستر" نفسها فى موقف صعب.

ترددت، أيمكنها التراجع؟ هل فات الأوان؟ لكنها حسمت قرارها، ستخاطر بكل ما يلزم، فقالت له بخبث: "هذا ليس المجسم ذا الاثنى عشر وجهًا، بل هو رباعى الأوجه المثلثة".

انتصب الطبيب من على الدكة وتقدم نحو الشكل التوبيارى، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. تحركت شفتاه وهو يعد.

توقف قلبى، هل سيسير حول الشجرة ليُتم عده للأوجه والزوايا؟ هل سيتعثر بى؟

لكنه وصل إلى ستة وتوقف، أدرك أنها على حق.

كانت هناك لحظة فضولية سريعة حين لم يفعل كل منهما شيئًا إلا التطلع إلى الآخر، كان وجهه متحيرًا، ما هذه المرأة؟ وبأى حق تحدثت إليه بهذه الطريقة؟ إنها مجرد معلمة منزلية بدينة قصيرة ولها وجه يشبه البطاطس، أليس كذلك؟

حملقت إليه فى صمت، تشلُّها الحيرة البادية على وجهه.

بدا فى تلك اللحظة أن العالم يميل قليلاً عن محوره، وأبعد كل منهما نظره عن الآخر محرجًا.

كسرت "هيستر" الصمت: "الكشف الطبى".

اقترح: "ربما بعد ظهر الأربعاء؟"

"بعد ظهر الأربعاء مناسب".

وحينها عاد دوران العالم إلى محوره.

سـارا عائديـن إلى المنـزل، وعنـد الانعطافـة التـى فى الطريـق، ودعهـا الطبيـب.

وخلــف أشــجار الصنوبــر، عضــت الجاسوســة الصغــيرة أظفارهــا وتســاءلت.

خمس نوتات

إجهاد مزعج يغطى عينىّ، رأسى خفيف كالورقة، لقد عملت طوال اليوم ونصف الليل، والآن أخشى أن أخلد إلى النوم.

أيتلاعب عقلى بى؟ يبدو أننى أسمع نغمة، نعم، بالكاد تعتبر نغمة، خمس نوتات تائهة، فتحت النافذة لأتأكد، نعم، أصبحت واثقة بأنَّ ثمة صوتًا آتيًا من الحديقة.

أستطيع فهم الكلمات، أعطنى جزءًا ممزقًا أو تالفًا من نص وسأتنبأ بما يجب أن يسبقه وما يجب أن يليه، وإن لم أستطع، فسأستطيع على الأقل أن أقلل الاحتمالات إلى الخيارات الأكثر ترجيحًا لكن الموسيقى ليست لغتى، أهذه النوتات الخمس افتتاحية تهويدة للأطفال؟ أم نهاية حزينة لمرثية؟ من المستحيل أن أحدد، فبلا بداية ولا نهاية تؤطر النوتات، وبلا لحن يضعها فى مكانها المناسب، بدا أى ما يربط تلك النوتات ببعضها أنه متزعزع وعلى شفا الانهيار، ففى كل مرة تُضرب النوتة الأولى، تمر لحظة من القلق ريثما يتأكد لها ما إذا

كانت رفيقتها ما زالت موجودة أم انحرفت، وفُقدت للأبد فى مهب الريح، وكذا مع الثالثة والرابعة، أما الخامسة، فلا تبث أى ارتياح، بل تبث شعورًا بأن عاجلاً أو آجلاً ستنهار الروابط الهشة التى تربط هذه النوتات العشوائية، مثلما فعلت روابطها ببقية اللحن، وحتى هذا الفراغ الأخير سيذهب للأبد، تذروه الرياح مثل آخر أوراق شجرة شتوية.

تختفى النوتات بعند كلما حاول عقلى الواعى استدعاءها، وتأتى إلىّ من حيث لا أدرى حين لا أفكر بها، سأدرك وأنا غارقة فى عملى مساءً أنها كانت تكرر نفسها فى بالى لبعض الوقت، أو فى السرير حين أتقلب بين النوم واليقظة، سأسمع النوتات عن بعد، تغنى أغنيتها المبهمة لى.

لكننى سمعتها للتو، نوتة وحيدة أولاً، غرقت رفيقاتها فى الأمطار التى تضرب النافذة، قلت لنفسى إنها ليست شيئًا هامًّا واستعددت للعودة إلى النوم، لكن فى تلك اللحظة، لحظة ركود العاصفة الممطرة، طفت ثلاث نوتات على المياه.

الليل حالك جدًّا، والسماء مظلمة للغاية لدرجة أن صوت المطر وحده هو ما مكننى من تخيل الحديقة، صوت الدق هو صوت المطر على النوافذ، وصوت الزوابع الرقيقة العشوائية هو صوت هبوط الأمطار على الحشائش، أما صوت التقاطر فهو صوت هبوط المياه عبر المزاريب إلى المصارف، أسمع قطرة وراء الأخرى، المياه تهبط من على أوراق الأشجار إلى الأرض، ووراء كل هذا، وتحته، وبينه، لو لم أكن مجنونة أو أحلم، تسللت النوتات الخمس، لا لا لا لا لا.

انتعلت حذائى ذا الرقبة وارتديت معطفى وخرجت إلى الظلمة.

عجزت أن أرى يدى أمام وجهى، لا شىء يُسمع إلا خوض حذائى فى الحشائش، لكن عندها التقطت أثر النوتات، صوت خشن غير موسيقى، ليس آلة موسيقية، بل صوت بشرى ناشز وواهن.

تتبعت النوتات ببطء وبتوقفات متكررة، سرت بطول الحدود الطويلة للحديقة، وحدت إلى داخلها حين بلغت البِركة، أو على الأقل هكذا أعتقد أننى ذهبت، ثم ضللت طريقى، تقدمت متعثرة بتربة لينة حيث ظننت أن هناك طريقًا، ولم ينته بى الأمر بجانب أشجار الصنوبر مثلما ظننت، بل وسط بقعة من الشجيرات التى تصل إلى ركبتى ولها أشواك تشبثت بملابسى، منذئذ فقدت الأمل فى تحديد موقعى، وتهاديت بأذنى فقط، متبعة النوتات كأنها خيط أريادنى[1] عبر متاهة لم أعد أميز معالمها، صدر الصوت بمعدلات غير منتظمة، وفى كل مرة كنت أتقدم نحوه، حتى أوقفنى الصمت، منتظرة أيَّة إشارة، تُرى لكم من الوقت تخبطت فى الظلام بعد ذلك؟ ربع ساعة؟ نصف ساعة؟ كل ما أعرفه أننى فى نهاية هذا الوقت وجدت نفسى عدت مجددًا أمام الباب نفسه الذى خرجت عبره من المنزل، لقد تحركت -أو حركنى أحد- فى دائرة كاملة.

كان الصمت نهائيًا للغاية، ماتت النوتات، وحلت محلها الأمطار التى هطلت مجددًا.

بدلاً من الدخول، جلست على الدكة، وأرخيت رأسى على ذراعى المشبوكين، أشعر بتقاطر الأمطار على ظهرى، ورقبتى وشعرى.

بدأ الأمر يبدو غبيًا أننى تجولت فى الحديقة أطارد شيئًا بلا قيمة إلى هذه الدرجة، ونجحت فى إقناع نفسى، تقريبًا، بأننى لم أسمع إلا صنع خيالى، ثم تحولت أفكارى نحو اتجاهات أخرى، تساءلت عن

---

(1) أسطورة أريادنى مبنية على قصة أمير شاب تغلب على متاهة كهف عبر ترك طرف خيط عند مدخله وإرخائه كلما تقدم.

موعـد إرسـال والـدى لنصيحتـه بشـأن البحـث عـن "هيسـتر"، فكـرت بشـأن آنجلفيلـد، وعبسـت: مـاذا سـيفعل "أوريليـوس" حـين يُهـدم المنـزل؟ التفكـير بشـأن آنجلفيلـد جعلنـى أفكـر فى الشـبح، وجعلنـى أفكـر فى شـبحى، والصـورة التـى التقطهـا لـه، التـى أتلفهـا اللـون الأبيـض، قـررت أننـى سـأهاتف والـدتى فى اليـوم التـالى، لكنـه قـرار آمـن، فـلا أحـد سيحاسـبك عـلى قـرار اتخذتـه فى منتصـف الليـل.

ثم أرسل إلى عمودى الفقرى إنذارًا.



شىء ما موجود هنا والآن بجانبى.

انتصبت سريعًا وتطلعت حولى.

الظـلام دامـس، مـا مـن شىء ولا أحـد لأراه، ابتلـع الظـلام كل شىء، حتـى شـجرة البلـوط الضخمـة، وانكمـش العـالم مـن حـولى إلى عينـين تراقباننـى وجنـون جامـح فى قلبـى.

ليسـت السـيدة "وينـتر"، لـن تكـون هنـا، ليـس فى هـذا الوقـت مـن الليـل.

فمن إذًا؟

شـعرت بهـا قبـل أن أشـعر بهـا، تلـك اللمسـة عـلى جانبـى، جـاءت وذهبـت...

إنه القط، "شادو".

نكـزنى مجـددًا، وحـك خـده بضلوعـى مجـددًا، ومـاء ببـطء إلى حـد مـا ليعلـن عـن وجـوده، مـددت يـدى وداعبتـه وقلبـى يحـاول العـودة إلى إيقاعـه، خرخـر القـط.

قلـت لـه: "إنـك مبتـل تمامًـا، تعـالَ أيهـا السـخيف، هـذه ليسـت ليلـة مناسـبة للخـروج مـن المنـزل".

تبعنى إلى غرفتى، ولعق نفسه حتى جف وأنا لففت شعرى فى منشفة، وغططنا فى النوم معًا على السرير، وللمرة الأولى، لم تزرنى أحلامى، ربما بسبب حماية القط.

كان اليوم التالى مملاً وكئيبًا، بعد مقابلتى المعتادة، اصطحبت نفسى فى نزهة بالحديقة، حاولت فى ضوء أول فترة العصر أن أعيد تتبع مسارى فى جنح الليل، كانت البداية سهلة كفاية، سرت حتى نهاية حدود الحديقة الطويلة وعندها حدت إلى داخل الحديقة مع البِركة، لكن بعدها ضللت طريقى، تحيرت حين تذكرت أننى خطوت على التربة المبتلة اللينة لأحد أحواض الأزهار، لأن كل الأحواض منبوشة ومنتظمة كأنها جديدة، ومع ذلك، أجريت بعض التخمينات غير المنظمة، واتخذت قرارًا أو اثنين عشوائيًّا، واصطحبت نفسى فى مسار دائرى تقريبًا، ربما يتتبع مسار نزهتى الليلة، أو ربما لا، أو جزء منها على الأقل.

لم أرَ شيئًا غير عادى، إلا لو حسبت حقيقة أننى مررت بـ"موريس"، وللمرة الأولى تحدث معى، كان راكعًا على جزء من تربة منبوشة، يسويها وينعمها ويصلحها، شعر بى أقترب على الحشائش خلفه، وتطلع إلى متذمرًا: "الثعالب اللعينة"، والتفت مجددًا إلى عمله.

عدت إلى المنزل وبدأت تفريغ ملاحظاتى عن مقابلة الصباح.

التجربة

جـاء يـوم الفحـص الطبـى وحـضر الطبيـب "مودسـلى" أمـام المنـزل، وكالعـادة لم يكـن "تشـارلى" هنـاك للترحيـب بالزائـر، أخبرتـه "هيسـتر" بشـأن زيـارة الطبيـب بالطريقـة المعتـادة (رسـالة متروكـة عـلى صينيـة خـارج جناحـه)، ولأنهـا لم تجـد للأمـر أى صـدى، افترضـت وهـى محقـة أنـه لم يهتـم بتاتًـا لذلـك.

كانـت المريضـة فى واحـدة مـن حالاتهـا المزاجيـة المتجهمـة لكـن بـلا مقاومـة منهـا، سـمحت بـأن تُقـاد إلى الغرفـة حيـث جـرى الفحـص، واستسـلمت للكـز والفحـص، وحـين طُلـب منهـا أن تفتـح فمهـا وتخـرج لسـانها رفضـت، لكـن عـلى الأقـل حـين أدخـل الطبيـب أصابعـه فى فمهـا وفصـل بيـده فكهـا العلـوى عـن فكهـا السـفلى ليفحـص الداخـل، لم تعضه، انسـابت عيناهـا بعيـدًا عنـه وعـن أدواتـه، بـدت واعيـة بـه وبفحصـه وهـو أمـر نـادر الحـدوث، ولكـن لم تمكـن استمالتها لتتكلـم ولـو كلمـة واحـدة.

وجد الطبيب "مودسلى" أن مريضته مصابة بنقص الوزن وبشعرها قمل، فى ما عدا ذلك كانت سليمة جسديًا من كل النواحى، لكن حالتها النفسية أصعب فى التشخيص، أكانت الطفلة -مثلما لمح "جون ذا ديج"- مختلة عقليًا؟ أم أن سلوك الفتاة ناتج عن إهمال الوالدين وغياب النظام؟ هذا رأى سيدة الخدم التى تميل دائمًا -فى العلن على الأقل- إلى العفو عن الفتاتين.

لم يكن هذان الخياران الوحيدين فى ذهن الطبيب حين فحص التوأم الجامحة، ففى الليلة الماضية ببيته، والغليون فى فمه، ويده على الموقد، كان مستغرقًا فى التفكر بصوت عالٍ بشأن الحالة (وقد استمتع باستماع زوجته له، فهذا يلهمه بلاغة أعظم)، يعدد مواقف سوء السلوك التى سمع بها، كالسرقة من بيوت القرويين، وتخريب الحديقة، والعنف الذى تُنزله بـ"إيميلاين"، وانبهارها بأعواد الكبريت، كان يفكر مليًا فى التفسيرات المحتملة، حين اقتحم عقله صوت زوجته الناعم: "ألا تعتقد أنها ببساطة شريرة؟"

لوهلة أعجزته مفاجأة أنها قاطعته عن أن يجيب.

قالت: "إنه مجرد اقتراح"، ملوحة بيدها تحثه على تجاهل عبارتها، تكلمت برقة، لكن هذا بالكاد مثل فارقًا، فحقيقة أنها تكلمت من الأساس كانت كافية لتعطى لكلماتها وزنًا.

ثم كانت "هيستر".

قالت له: "ما يجب أن تضعه باعتبارك هو أن فى غياب أىّ تعلق قوى بالأهل، وبلا أىّ إرشاد قوى من أىّ جهة أخرى، تَشَكل كامل نمو الطفلة حتى اليوم من خلال تجربة التوأم، أختها هى الشىء الوحيد الثابت والدائم فى وعيها، وبالتالى فإن عالمها بالكامل يتشكل من خلال منظور علاقتهما".

وبالطبع هى محققة جدًّا، لم تكن لديه فكرة عن من أى كتاب أتت "هيستر" بهذه الفكرة، لكنها بالتأكيد قرأتها بتمعن، لأنها شرحت الفكرة على نحو منطقى للغاية، استمع إليها وهو مندهش جدًّا من صوتها الرقيق الغريب، فعلى الرغم من طبقته الأنثوية بالفطرة، له قوة ذكورية ليست بالقليلة، كانت واضحة، ولديها عادة مسلية أن تعبر عن آرائها بالنبرة الآمرة الموزونة نفسها التى تشرح بها نظرية ما ذات مكانة قرأت عنها، وحين تسكت لحظة لتتنفس فى نهاية جملة، تلقى عليه نظرة سريعة -أحس الأمر مربكًا فى أول مرة، لكنه الآن يعتبره طريفًا جدًّا- لتعرِّفه إذا ما كان مسموحًا له بالكلام أم أنها تنوى متابعة حديثها.

"يجب أن أجرى بعض الأبحاث"، هكذا أخبر هيستر حين تقابلا لمناقشة أمر المريضة بعد الفحص، "وبالتأكيد سأدرس بتمعن أهمية كونهما توأمين".

أومأت هيستر وقالت: "هكذا أرى الأمر، يمكن أن ترى التوأمين بطرق عدة كأنَّ مجموعة من الصفات انقسمت بينهما، فالشخص العادى السليم يشعر بنطاق كامل من المشاعر المختلفة، ويظهر تنوعًا كبيرًا فى السلوكيات، أما التوأمان، فيمكن القول إن لديهما نطاق من المشاعر والسلوكيات مقسوم على اثنين، لكل منهما مجموعة، إحداهما جامحة وميالة إلى نوبات الثورة الجسدية، والأخرى كسول ومستسلمة، واحدة تفضل النظافة، والأخرى تشتهى القذارة، واحدة لديها شهية بلا نهاية للطعام، والأخرى تستطيع أن تجوِّع نفسها لأيام، والآن، إن كانت هذه القطبية -يمكن أن نتجادل لاحقًا بشأن مدى وعيهما بوجودها- مصيرية لشعور (آديلاين) بشخصيتها، ألا يبدو الأمر غير مفاجئ أن تقمع داخل نفسها كل شىء يقع برأيها ضمن حدود (إيميلاين)؟" كان السؤال بلاغيًّا، فهى لم تلمح للطبيب بأنه يمكنه التكلم بعد، لكنها أخذت نفسًا موزونًا وتابعت: "والآن فكر

فى صفـات الفتـاة التـى فى الغشـاوة، إنهـا تسـتمع إلى القصـص، وقـادرة علـى الفهـم والتأثـر بلغـة غـير لغـة التوأمتـين، وهـذا يشـير إلى اسـتعداد للانخـراط مـع أشـخاص آخريـن، لكـن مـن منهـما خُصصـت لهـا مهمـة الانخـراط مـع الآخريـن؟ إنهـا (إميلايـن)! لـذا تضطـر (آديلايـن) إلى قمـع هـذا الجـزء مـن طبيعتهـا البشريـة".

حولـت "هيسـتر" وجههـا إلى الطبيـب وأشـارت بنظـرة إلى أنـه دوره ليتحـدث.

أجـاب بحـذر: "إنهـا فكـرة مثـيرة للفضـول، لا بـد أننـى فكـرت فى العكـس، أن كونهـما توأمـين يجعلـك تتوقعـين أنهـما متشـابهتان أكـثر مـما هـما متناقضتـان".

قاطعته سريعًا: "لكننا نعرف من الملاحظة أن الأمر ليس هكذا".

"هممم".

لم تتكلـم، لكـن تركتـه يفكـر، حـدق هـو إلى الجـدار المصمـت، يفكـر بعمـق وهـى تلقـى نظـرات خاطفـة قلقـة تجاهـه، محاولـة التنبـؤ بوقـع نظريتهـا عليـه مـن وجهـه، ثـم كان مسـتعدًا للتصريـح بما ببالـه:

"فكرتـك هـذه مثـيرة للاهتـمام"، ورسـم ابتسـامة وديـة لتخفيـف وقـع رفضـه، "لكننـى لا أذكـر قـط قـراءتى عـن مثـل هـذا الانقسـام فى الشـخصية بـين توأمـين فى أيَّـة وثائـق".

تجاهلـت ابتسـامته ونظـرت إلى عينيـه بـبرود: "لا هـذا ليـس فى الوثائق، كان يمكـن أن يوجـد فى كتـب معينـة، لكنـه غـير موجـود".

"وهل قرأت مثل تلك الكتب؟"

"بالتأكيـد، لا أتخيـل أن أصرح برأيـى بـأى موضـوع دون التأكـد مـن مرجعـى أولاً".

"أوه".

"تذكرنى هذه الحالة بحالة (توأمى بيرو) المذكورة فى أحد الكتب، مع أن الكاتب لا يذكر الاستنتاج الكامل الذى قد يخلص القارئ إليه".

"أذكر المثال الذى تقصدينه..." وحينها بدأ يلين قليلاً، "نعم! أرى الآن العلاقة بينهما! أتساءل إذا ما كانت دراسة حالة (براسينبى) لها أى أهمية هنا؟"

"لم أتمكن من الحصول على نسخة كاملة من الدراسة، أتمكنك إعارتها لى؟"

وحينها بدآ.

أمام انبهار الطبيب بفطنة ملاحظات "هيستر"، أعارها دراسة حالة (براسينبى)، وحين ردتها، وجد ورقة ملحقة بها تضم ملاحظات وأسئلة مصوغة ببلاغة، وفى غضون ذلك، كان هو قد حصل على عدد من الكتب الأخرى والمقالات لتكملة مكتبته عن التوائم، إضافة إلى مقالات منشورة حديثًا ونسخ من أعمال قيد التنفيذ من متخصصين عدة، وأعمال أجنبية، واكتشف بعد أسبوع أو اثنين أن كان بإمكانه توفير وقته عبر تمرير كل ذلك إلى "هيستر" أولاً، وأن يقرأ الخلاصة المختصرة والذكية التى كتبتها فقط، وفى ما بينهما، قرآ كل شىء تمكن قراءته، وعادا إلى ملاحظاتهما، كلاهما جمع ملاحظاته، ملاحظاته الطبية، وملاحظاتها النفسية، هناك توضيحات غزيرة بخط يده فى هوامش مخطوطاتها، وهى بدورها دونت ملاحظات أكثر على مخطوطاته، وأحيانًا كانت ترفق مقالاتها المفحمة فى أوراق منفصلة.

قرآ، وفكرا، وكتبا، والتقيا، وتناقشا، واستمرا فى ذلك حتى عرفا كل ما تمكن معرفته عن التوائم، لكن تبقى شىء لم يعرفاه، وهو الشىء الوحيد الهام.

قال الطبيب: "كل هذا العمل، وكل هذه الأوراق، ولم نقترب بعد"، ومرر يده عبر شعره بطريقة عصبية، لقد أخبر زوجته أنه سيعود

فى السابعة والنصف، وأنه سيتأخر، "هل بسبب (إيميلاين) تقمع (آديلاين) الفتاة فى الغشاوة؟ أعتقد أن إجابة هذا السؤال تقع خارج نطاق المعرفة الحالية"، وتنهد، وطرح قلمه على المكتب، بنصف انزعاج، ونصف استسلام.

"أنت محق، إنها خارجه"، يمكن أن تسامحها لأنها تبدو سريعة الغضب: فقد استغرق الأمر أربعة أسابيع ليتوصل إلى الاستنتاج الذى قالته له فى البداية، فقط لو كان مستعدًا للاستماع إليها.

التفت إليها.

قالت بهدوء: "هناك طريقة واحدة فقط لنعرف".

رفع حاجبه.

"خبرتى وملاحظاتى تقودنى إلى الاعتقاد بأن هناك مجالاً لمشروع بحثى أصلى هنا، بالتأكيد بما أننى مجرد معلمة منزلية ستواجهنى صعوبة فى إقناع جهة نشر مناسبة بنشر أى شىء سأتوصل إليه، سيلقون نظرة على مؤهلاتى ويظنون أننى لست إلا امرأة سخيفة لديها أفكار تتجاوز تخصصها"، هزت كتفيها وأطرقت عينيها إلى الأرض: " ربما هم محقون، وهذه حقيقتى، ولكن"، وتطلعت بعينيها بمكر، "رجل له خلفية ومعرفة مناسبة، بالتأكيد سيجد هنا مشروعًا مغريًا".

بدا الطبيب فى البداية متفاجئًا، ثم استغرق فى التفكير، بحث أصلى! الفكرة تبدو معقولة، وفاجأته أيضًا حقيقة أن فى هذه اللحظة وبعد تراكم قراءاته خلال الأشهر الأخيرة، هو بالتأكيد الطبيب الأكثر اطلاعًا بشأن التوائم فى البلاد! من غيره يعرف ما يعرفه؟ علاوة على ذلك، من غيره لديه دراسة الحالة المثالية بين يديه؟ بحث أصلى؟ لم لا؟

تركتـه يسـتمتع بالفكـرة لبضـع دقائـق، وحـين رأت أن اقتراحهـا قـد انغـرس فى قلبـه، غمغمـت: "بالتأكيـد إن احتجـت إلى مسـاعدة، سـيسرنى أن أسـاعد بـأى طريقـة ممكنـة".

"هـذا لطـف بالـغ منـك"، وأومـأ، "بالطبـع، لقـد عملـت مـع الطفلتـين.. الخـبرة العمليـة.. لا تُقـدر بثمـن.. لا تُقـدر بـأى ثمـن".

تـرك المنـزل وعـاد إلى بيتـه بعقـل خفيـف، فلـم يلحـظ أن العشـاء قـد بـرد، وأن زوجتـه بمـزاج سـيئ.

جمعـت "هيسـتر" الأوراق مـن عـلى المكتـب وتركـت الغرفـة، خطواتهـا المنتظمـة وإغلاقهـا البـاب بحـزم أعطيـا انطباعًـا بالرضـا.

بدت المكتبة خاوية، لكن هذا غير صحيح.

فهنـاك فتـاة تعـض أظفارهـا وتفكـر وهـى مسـتلقية بطولهـا أعـلى رفـوف الكتـب.

بحث أصلى.

هل بسبب (إيميلاين) تقمع (آديلاين) الفتاة فى الغشاوة؟

لم يتطلب الأمر عبقريًا ليستنتج ما سيحدث.

فعلا ذلك ليلاً.

"إيميلايـن" لم تـثر حـين أخذاهـا مـن سريرهـا، لا بـد أنهـا شـعرت بالأمـان بـين ذراعـى "هيسـتر"، ربمـا ميـزت رائحـة الصابـون خـلال نومهـا وهـى محمولـة إلى خـارج الغرفـة وبطـول الممـر، أيًـا كان السـبب، فإنهـا لم تـدرك فى تلـك الليلـة مـا يحـدث، لكـن اسـتيقاظها عـلى الحقيقـة كان عـلى بُعـد سـاعات.

لكـن الأمـر كان مختلفًـا مـع "آديلايـن"، فقـد اسـتيقظت فجـأة ولم تجـد أختهـا، اندفعـت نحـو البـاب لكنهـا وجدتـه قـد أُقفـل بالفعـل

بيدى "هيستر" السريعتين، وأدركت كل ما يحدث سريعًا، وشعرت به، أحست بشعور البتر، لم تصرخ، ولم تسدد لكماتها إلى الباب، ولم تخدش القفل بأظفارها، لقد غادرتها كل طاقة الغضب، سقطت إلى الأرض، انهارت إلى كومة صغيرة أمام الباب، وبقيت مكانها طوال الليل، ألواح الأرضية العارية وخزت عظامها البارزة، لكنها لم تشعر بالألم، لا توجد نار تدفئة بالغرفة، ورداء نومها رقيق، لكنها لم تشعر بالبرد، لم تشعر بشيء، كانت محطمة.

حين أتيا إليها فى الصباح التالى، لم يثرها صوت المفتاح فى القفل، ولم تتحرك حين أزاحها الباب المفتوح من طريقه، عيناها ميتتان، وبشرتها شاحبة كالموت، إنها باردة للغاية، ربما هى جثة، لولا فقط رعشة شفتيها التى لا تتوقف، تكرر تعويذة صامتة، ربما تقول: "إيميلاين"، "إيميلاين"، "إيميلاين".

رفعت "هيستر" "آديلاين" بين ذراعيها، بلا صعوبة، كانت سن الطفلة حينئذ أربعة عشر عامًا، لكنها لم تكن إلا جلدًا على عظم، كل قوتها فى إرادتها، وحين ذهبت إراداتها، كان ما تبقى لا يُذكر، هبطا بها السلم بسهولة كأنها وسادة من الريش على وشك أن تطير.

قاد "جون" السيارة صامتًا، فموافقته أو عدمها لم تشكل فارقًا، إذ تولت "هيستر" اتخاذ القرارات.

أخبرا "آديلاين" أنها ذاهبة لرؤية "إيميلاين"، وهى كذبة لم تكن ضرورية، كان بإمكانهما أخذ "آديلاين" إلى أى مكان وهى لن تقاومهم، إنها تشعر بالضياع، غائبة عن نفسها، هى لا شىء ولا أحد من دون أختها، ما أخذوه إلى منزل الطبيب كان مجرد هيكل بشرى، وتركوها هناك.

وفى المنزل، نقلوا "إيميلاين" من السرير بغرفة "هيستر" إلى سريرها من دون إيقاظها، ونامت لساعة أخرى، وحين فتحت عيناها كانت

متفاجئـة قليـلاً باختفـاء أختهـا، ومـع مـرور الصبـاح زادت مفاجأتهـا، متحولـة إلى قلـق فى فـترة العـصر، فتشـت المنـزل، فتشـت الحدائـق، ذهبـت إلى أبعـد مـا تجـرؤ عليـه فى الغابـة، والقريـة.

فى وقـت شـاى الظهـيرة، وجدتهـا "هيسـتر" عنـد حافـة الطريـق، محدقـة إلى الاتجـاه الـذى قـد يأخذهـا، لـو سـارت فيـه، إلى عتبـة بيـت الطبيـب، لكنهـا لم تجـرؤ عـلى السـير فيـه، وضعـت "هيسـتر" يدهـا عـلى كتـف "إيميلايـن" وجذبتهـا، وأخذتهـا إلى المنـزل، وبـين الحـين والآخـر، توقفـت "إيميلايـن"، مـترددة، تريـد العـودة، لكـن "هيسـتر" أخـذت بيدهـا وأرشـدتها بحـزم إلى طريـق البيـت، تبعتهـا "إيميلايـن" بخطـوات مستسـلمة، ومرتبكـة، بعـد الشـاى وقفـت إلى جـوار النافـذة وتطلعـت إلى الخـارج، ازداد خوفهـا مـع تـلاشى الضـوء، لكـن لم يكـن إلا حـين أقفلـت "هيسـتر" الأبـواب وبـدأت روتـين نـوم "إيميلايـن" أن أصابهـا الهلـع.

بكـت طـوال الليـل، شـهقات متقطعـة بـدا كأنهـا ستسـتمر للأبـد، فـما انكـسر فى لحظـة لـدى "آديلايـن"، اسـتغرق أربعًـا وعشريـن سـاعة مؤلمـة لينكـسر لـدى "إيميلايـن"، لكـن حـين جـاء الفجـر، كانـت هادئـة، لقـد انتحبـت وارتجفـت حتـى النسـيان.

إبعـاد كلتـا الفتاتـين عـن الأخـرى ليـس إبعـادًا عاديًـا، تخيـل أن تنجـو مـن زلـزال، وبعدمـا تنجـو، تجـد العـالم قـد فقـد معالمـه المميـزة، الأفـق مكانـه مختلـف، والشـمس لونهـا مختلـف، لا شىء تبقـى مـن الأرض التـى عرفتهـا "إيميلايـن"، أنـت عـلى قيـد الحيـاة بنظـرك، لكـن الحيـاة لم تعـد كـما كانـت، لا عجـب أن الناجـين مـن مثـل هـذه الكـوارث كثـيراً مـا يتمنـون لـو هلكـوا مـع الهالكـين.

***

جلسـت السـيدة وينـتر تحـدق إلى الفـراغ، شـعرها النحـاسى الشـهير يخفـت إلى لـون مشـمشى فاتـح، لقـد هجـرت بخـاخ شـعرها وحالـت لفافاتـه المتماسـكة إلى كتلـة متشـابكة ناعمـة بـلا ملامـح، لكـن وجهها كان جامـدًا وجسـدها متيبسًـا، كأنهـا تقـوى نفسـها فى مواجهـة ريـاح عاتيـة لم يشـعر بهـا أحـد غيرهـا، وببـطء أدارت عينيهـا إلى عينـى.

سألتنى: "أأنت بخير؟ (جوديث) تقول إنك لا تأكلين كثيراً".

"هكذا أنا دائمًا".

"لكنك تبدين شاحبة".

"ربما متعبة قليلاً".

أنهينا قصة اليوم مبكرًا، أظن أن كلينا لم يرد الاستمرار.

هل تصدقين وجود الأشباح؟

فى المرة التالية التى رأيتها فيها، بدت السيدة "وينتر" مختلفة، أغلقت عينيها بضجر واستغرقت أكثر مما تستغرق عادة لتستحضر الماضى وتبدأ فى الكلام، شاهدتها وهى تجمع خيوط القصة، ولاحظت أنها نزعت رموشها الصناعية، رأيت تظليل العينين الأرجوانى المعتاد، وخط العين الأسود الكبير، لكن فى غياب الرموش الطويلة بدت على نحو غير متوقع كطفلة كانت تلعب بصندوق مستحضرات تجميل والدتها.

***

لم تسرِ الأمور مثلما توقعت "هيستر" والطبيب، لقد استعدا لـ"آديلاين" التى سوف تصرخ وتغضب وتضرب وتثور، أما "إيميلاين"، فقد اعتمدا على عاطفتها تجاه "هيستر" لتصالحها على غياب أختها المفاجئ، باختصار، توقعا سلوك الفتاتين الذى عرفاه ولكن كل منهما

علـى حـدة، وبالتـالى تفاجـآ فى البدايـة بانهيـار الطفلتـين إلى دميتـين بـلا حيـاة.

ليسـتا بـلا حيـاة تمامًـا، فالـدم اسـتمر بالسريـان ببـطء فى عروقهـما، وابتلعتـا الحسـاء الـذى يوضـع بفميهـما فى أحـد المنزلـين بواسـطة سـيدة الخـدم، وفى الآخـر بواسـطة زوجـة الطبيـب، لكـن البلـع لا إرادى، وهـما بـلا شـهية، وأعينهـما المفتوحـة خـلال اليـوم لا تـرى، ولا تحظـى براحـة النـوم فى الليـل، مـع أنهـا مغلقـة، إنهـما مفصولتـان، تشـعران بالوحـدة، إنهـما فى غياهـب الضيـاع، كالبُـتر، لكـن المبتـور ليـس عضـوًا، بـل روحيهـما.

هـل شـكك العالمـان فى نفسـيهما؟ هـل توقفـا وتسـاءلا إذا مـا كان مـا يفعلانـه صحيحًـا؟ هـل سـلط جسـدا الفتاتـين المرتخيـين غـير الواعيـين ضـوءً مـن الشـك عـلى مشروعهـما الجميـل؟ بالتأكيـد لم يكونـا قاسـيين برغبتهـما، لكنهـما كانـا أحمقـين، ضللهـما مـا عرفـاه، وطموحهـما، والعمـى المخـادع للـذات.

أجـرى الطبيـب اختبـارات، ووقفـت "هيسـتر" لتلاحـظ، وتقابـلا يوميًـا لمقارنـة ملاحظاتهـما، ومناقشـة مـا اعتـبراه فى البدايـة عـلى نحـو متفائـل تقدمًـا، جلسـا معًـا وراء مكتـب الطبيـب، أو فى مكتبة "آنجلفيلد"، رأسـيهما منكبـين عـلى الأوراق التـى سـجلت كل تفصيلـة فى حياة الطفلتين، السـلوك، النظـام، النـوم، حيرهـما غيـاب الشـهية، والميـل إلى النـوم طـوال الوقـت، ذلـك النـوم الـذى لم يكـن نومًـا، اقترحـا نظريـات لتفسـير التغـيرات التـى طـرأت عـلى الطفلتـين، لم تـسر التجربـة عـلى مـا يـرام مثلـما توقعـا، بـل فى الواقـع بـدأت عـلى نحـو كارثى، لكـن العالمـان تغافـلا عـن احتماليـة أنهـما ربمـا يتسـببان بـأذى، بـل فضـلا التمسـك بالاعتقـاد بأنهـما معًـا يمكـن أن يصنعـا معجـزة.

اسـتمد الطبيـب الكثـير مـن الرضـا مـن حداثـة فكـرة العمـل للمـرة الأولى منـذ عقـود مـع عقـل علمـى مـن الدرجـة الأولى، وتعجـب مـن

قدرة تلميذته على فهم مبدأ علمى ثم تطبيقه بأصالة وفكر احترافى فى غضون دقيقة، لم يمر الكثير من الوقت قبل أن يعترف لنفسه بأنها تعد زميلة أكثر من كونها تلميذة، وسرت "هيستر" بفكرة أن أخيرًا عقلها يتغذى ويواجه التحديات على نحو كافٍ، خرجت من اجتماعاتهما اليومية متقدة بالحماس والسرور، لذا فإن عماهما لم يكن إلا أمرًا طبيعيًّا، وكيف يُنتظر منهما أن يفهما أن ما ينفعهما إلى هذا الحد يمكن أن يتسبب بأذىً كبير للطفلتين اللتين تحت رعايتهما؟ إلا لو ربما، وفى المساء فى حين يجلس كل منهما وحيدًا لتدوين ملاحظات اليوم، رفعا عينيهما تجاه الطفلة الساكنة ذات العينين الميتتين الجالسة على الكرسى فى الزاوية ومر الشك بعقليهما، ربما، لكن إن حدث ذلك، فإنهما لن يسجلاه فى ملاحظاتهما، ولن يتحدثا بشأنه.

استغرقا كثيرًا فى جهودهما المشتركة لدرجة أنهما لم يلحظا أن مشروعهما الضخم لا يحرز أىّ تقدم، فـ"إيميلاين" و"آديلاين" كانتا كالمشلولتين، والفتاة فى الغشاوة لم تظهر مطلقًا، لم يردعهما غياب أى اكتشافات، واستمر العالمان فى عملهما: رسما الجداول والرسوم البيانية، واقترحا نظريات وطورا تجارب موسعة لاختبار النظريات، ومع كل فشل، قالا لنفسيهما إنهما قد استبعدا شيئًا من مجال التجارب، وانتقلا إلى الفكرة اللامعة التالية.

شاركت سيدة الخدم وزوجة الطبيب أيضًا، ولكن بطريقة مباشرة، فالعناية الجسدية بالفتاتين مسئوليتهما، ترفعان الملاعق إلى فمى الفتاتين بالحساء بلا مقاومة منهما ثلاث مرات يوميًّا، تلبسان الفتاتين، وتحممانهما، وتغسلان ملابسهما، وتمشطان شعرهما، كل منهما لديها أسبابها لرفض المشروع، كل منهما لديها أسبابها للسكوت بشأن أفكارها، أما "جون ذا ديج" فكان بعيدًا عن كل هذا، لم يطلب أحد رأيه، لكن ذلك لم يمنعه من الإدلاء به يوميًّا لسيدة الخدم فى المطبخ: "لن يعود هذا بأى خير، حقًّا، لا خير مطلقًا".

حينئـذ جـاءت لحظـة ربمـا كان يجـب أن يستسـلما عندهـا، كل خططهـما لم تتوصـل إلى شيء، وفقـدا أى أثـر لأيَّـة حيلـة جديـدة يريـدان تجربتهـا، مـع أنهـما عذبـا عقليهـما فى سـبيل ذلـك، عنـد تلـك اللحظـة تحديـدًا، اكتشـفت "هيسـتر" علامـات تحسـن بسـيطة لـدى "إيميلايـن"، إذ أدارت الطفلـة رأسـها نحـو نافـذة، ووجدتهـا "هيسـتر" تتشـبث بدميـة مـا لامعـة، ولا تنفصـل عنهـا أبـدًا، وبالتنصـت عـبر الأبـواب (وهـو بالمناسـبة ليـس سـلوكًا سـيئًا إن مـورس باسـم العلـم)، اكتشـفت "هيسـتر" أنهـا حـين تـترك الطفلـة وحيـدة، كانـت تهمـس لنفسـها بلغـة التوأمـين القديمـة.

قالت للطبيب: "إنها تهدئ نفسها عبر تخيل وجود أختها".

بـدأ الطبيـب نظـام تـرك "آديلايـن" وحدهـا لفـترات تمتـد لسـاعات ويتنصـت عـبر البـاب حامـلاً مفكـرة وقلـمًا فى يديـه، ولم يسـمع شـيئًا.

ذكّـرت "هيسـتر" والطبيـب نفسـيهما بالحاجـة إلى الصـبر فى حالـة "آديلايـن" الأكـثر خطـورة، وهنّـآ نفسـيهما عـلى التحسـن فى حالـة "إيميلايـن"، ولاحظـا بتفـاؤل زيـادة شـهية "إيميلايـن"، واسـتعدادها للوقـوف، والخطـوات الأولى لهـا مـن تلقـاء نفسـها، لاحقًـا كانـت تتجـول فى المنـزل والحديقـة مجـددًا بـشيء مـن عشـوائيتها القديمـة، وبالطبـع، اتفقـت "هيسـتر" والطبيـب عـلى أن التجربـة أصبحـت الآن فى مسـارها لتحقيـق نتيجـة! مـن الصعـب معرفـة مـا إذا كانـا قـد توقفـا للحظـة للتفكـير فى أن مـا اعتـبراه "تحسـنًا" هـو فى الواقـع عـودة "إيميلايـن" إلى عاداتهـا التـى أظهرتهـا قبـل بـدء التجربـة.

لم تتوقـف حركـة "إيميلايـن" عـلى التجـول العشـوائى، ففـى يـوم مخيـف، تبعـت أنفهـا إلى خزانـة ممتلئـة بملابـس قديمـة اعتـادت أختهـا ارتدائهـا، وحملتهـا إلى وجههـا، واشـتمت تلـك الرائحـة العفنـة الحيوانيـة، ثـم غطـت نفسـها بهـا بـسرور، كان الأمـر غريبًـا، لكـن الأسـوأ لم يـأت بعـد؛ فبعدمـا ارتـدت ملابسـها، لمحـت نفسـها فى المـرآة وظنـت أن الانعـكاس هـو أختهـا،

فجـرت نحـوه بتهـور، كان صـوت اصطدامهـا عاليًـا كفايـة لتـأتى سـيدة الخـدم مسرعـة، حيـث وجـدت "إيميلايـن" تنتحـب بجـوار المـرآة، لا تبـكى لتألمهـا، بـل مـن أجـل أختهـا المسـكينة التـى تكـسرت إلى قطـع صغـيرة وتنـزف.

أخـذت "هيسـتر" منهـا الملابـس وأمـرت "جـون" بحرقهـا، وللمزيـد مـن الحـذر، طلبـت مـن سـيدة الخـدم أن تديـر كل المرايـا لتواجـه الجـدران، أصـاب ذلـك "إيميلايـن" بالحـيرة، لكـن لم يحـدث مثـل هـذه الحـوادث مجـددًا.

إنهـا ترفـض التكلـم، فعـلى الرغـم مـن كل الهمـس المنعـزل الـذى تهمسـه وراء الأبـواب المغلقـة، الـذى يكـون دائمًـا بلغـة التوأمـين القديمـة، تعـذر إقنـاع "إيميلايـن" بقـول كلمـة واحـدة بالإنجليزيـة إلى سـيدة الخـدم أو لـ"هيسـتر"، كان ذلـك شـيئًا يسـتدعى الاجتـماع والتشـاور، فعقـدت "هيسـتر" والطبيـب اجتماعًـا مطـولاً فى المكتبـة، خلصـا فى نهايتـه إلى أن لا داعـى للقلـق، "إيميلايـن" يمكـن أن تتكلـم، وسـتتكلم، إنهـا مسـألة وقـت فقـط، ورفضهـا للـكلام، وحادثـة المـرآة، هـى خيبـات أمـل بالطبـع، لكـن العلـم قـد يخيـب الأمـل أحيانًـا، المهـم هـو التقـدم المحـرز حتـى الآن! أليسـت "إيميلايـن" قويـة كفايـة ليُسـمح لهـا بالخـروج مـن المنـزل؟ وقـد قضـت وقتًـا أقـل هـذه الأيـام فى التلكـؤ عنـد جانـب الطريـق، عنـد الحاجـز الخفـى الـذى لم تجـرؤ عـلى تجـاوزه، تحـدق فى اتجـاه منـزل الطبيـب، الأمـور تسـير بأفضـل نحـو يمكـن توقعـه.

تقـدم؟ لم يكـن ذلـك مـا أمـلاه فى البدايـة، لم يكـن ذلـك شـيئًا يُذكـر بالمقارنـة بمـا حققتـه "هيسـتر" مـع "إيميلايـن" حـين وصلـت، لكنـه كان كل مـا توصـلا إليـه، وقـد اسـتغلاه لأقـصى درجـة ممكنـة، ربمـا يشـعران سرًا بالارتيـاح، فـماذا يمكـن أن تكـون نتيجـة النجـاح الحاسـم؟ النجـاح الحاسـم

سيلغى كل أسباب تعاونهما المستمر، ومع أنهما كانا غافلين عن تلك الحقيقة، فإنهما لم يكونا ليريداها.

لن ينهيا التجربة من تلقاء نفسهما أبدًا، أبدًا، سيتطلب الأمر شيئًا آخر، شيئًا خارجيًا، لوضع نهاية لها، شيء جاء بلا مقدمات.

***

"ماذا حدث؟"

مع أنها نهاية وقتنا معًا، ومع أنها بدت كئيبة منسحبة مثلما تبدو حين يقترب موعد دوائها، ومع أننى كنت ممنوعة من الأسئلة، لم أستطع منع نفسى.

على الرغم من ألمها، كان هناك بريق أخضر من الشقاوة فى عينيها مع ميلها إلى الأمام بثقة.

"أتصدقين وجود الأشباح يا (مارجريت)؟"

هل أصدق وجود الأشباح؟ ماذا عساى أن أقول؟ أومأت.

تراجعت السيدة "وينتر" فى مقعدها راضية، وأصبح لدى الانطباع المألوف إلى حد ما بأننى بحت بأكثر مما ظننت.

"(هيستر) لم تصدق، فالأمر ليس علميًا، لذا، ولعدم تصديقها بوجودهم، فإنها تضطرب للغاية إن رأت شبحًا".

***

هكذا آلت الأمور:

فى نهار مشرق، بعد أن أنهت "هيستر" أعمالها وتبقى لها الكثير من وقت الفراغ، تركت المنزل مبكرًا وقررت أن تسلك الطريق الطويل إلى بيت الطبيب، كانت السماء زاهية بشكل رائع، والهواء

منعشًا ونقيًا، وشعرت بأنها مليئة بطاقة شديدة لم تعرف لها اسمًا، لكن ذلك جعلها تتوق إلى ممارسة نشاط مرهق.

الطريق حول الحقول قادها إلى مرتفع بسيط، ليس بارتفاع هضبة لكنه كشف لها مشهدًا رائعًا من الحقول والأراضى حولها، كانت فى منتصف الطريق إلى منزل الطبيب تقريبًا، تشد الخطى بنشاط، وقد ارتفع نبضها لكن بلا أدنى شعور بالإرهاق، لديها شعور قوى بأن بإمكانها التحليق فقط لو أرادت، حين رأت شيئًا جمدها مكانها.

رأت فى الأفق "إيميلاين" و"آديلاين" تلعبان معًا فى أحد الحقول، لا تخطئهما العين، لديهما عرفان من الشعر الأحمر، وزوجان من الأحذية السوداء، إحدى الطفلتين ترتدى الفستان القطنى الأزرق الذى ألبسته السيدة لـ"إيميلاين" فى هذا الصباح، والأخرى ترتدى الأخضر.

هذا مستحيل.

لكن لا، "هيستر" مؤمنة بالعلم، إنها تراهما، وبالتالى هما موجودتان، لا بد أن هناك تفسيرًا لذلك، هربت "آديلاين" من بيت الطبيب، وقد تخلى عنها سباتها فجأة مثلما جاء، واستغلت فرصة وجود نافذة مفتوحة أو مجموعة مفاتيح متروكة بلا رقيب، وهربت قبل أن يلاحظ أحد تعافيها، وهذا كل ما فى الأمر.

ما العمل؟ الجرى نحوهما سيكون بلا جدوى، فهى ستضطر إلى الاقتراب منهما عبر مساحة ممتدة من الحقول المفتوحة وستريانها وتهربان قبل حتى أن تقطع نصف المسافة، لذا ذهبت مسرعة إلى بيت الطبيب.

وصلت فى لمح البصر، تطرق الباب بصبر نافد، فتحت لها السيدة "مودسلى"، زامة شفتيها أمام الجلبة التى أحدثتها، لكن "هيستر" ببالها أشياء أهم من الاعتذار، فتجاوزتها مندفعة إلى باب العيادة، ودخلت دون استئذان.

تطلـع الطبيـب، واندهـش لرؤيـة وجـه زميلتـه فائـرًا مـن الجـرى، وشـعرها، الـذى يكـون عـادة منمقًـا جـدًّا، خارجًـا عـن السـيطرة، كانـت تلهـث، أرادت أن تتكلـم، لكـن لوهلـة لم تسـتطع.

سـألها وهـو ينهـض عـن كرسـيه ويلتـف حـول المكتـب ليضـع يديـه عـلى كتفيهـا: "مـاذا حـدث؟"

قالت لاهثة: "(آديلاين)! لقد تركتها تخرج!"

عبـس الطبيـب مرتبـكًا، لـف "هيسـتر" بكتفهـا حتـى أصبحـت تواجـه الجانـب الآخـر مـن الغرفـة.

حيث وجدت "آديلاين".

التفتـت "هيسـتر" مجـددًا إلى الطبيـب: "لكننـى رأيتهـا للتـو! مـع (إيميلايـن)! عنـد حافـة الغابـات بعـد حقـل (أوتـس)..."، حـين بـدأت الـكلام كان صوتهـا قويًّـا كفايـة، لكـن القـوة تخلـت عنـه حـين بـدأت تتسـاءل.

قال الطبيب: "هدئى من روعك، اجلسى، خذى رشفة ماء".

حاولـت هيسـتر أن تفـسر الأمـر: "لا بـد أنهـا ركضـت، كيـف يمكـن أنهـا خرجـت وعـادت بهـذه السرعة؟"

"لقـد كانـت فى هـذه الغرفـة خـلال السـاعتين الماضيـتين، منـذ الإفطـار، لم تُـترك دون مراقبـة طـوال ذلـك الوقـت"، ونظـر إلى عينـى "هيسـتر" المنفعلتـين وأضـاف: "لا بـد أنهـا طفلـة أخـرى، مـن القريـة"، محافظًـا عـلى لياقتـه الطبيـة.

"لكـن..." وهـزت "هيسـتر" رأسـها: "كانـت ترتـدى ملابـس (آديلايـن)، ولهـا شـعر (آديلايـن)".

تحولـت "هيسـتر" لتنظـر إلى "آديلايـن" مجـددًا، عيناهـا المفتوحتـان كانتـا غـير مباليتـين بالعـالم، لم تكـن مرتديـة الفسـتان الأخـضر الـذى رأتـه

"هيستر" منذ بضع دقائق، بل الفستان الأزرق الأنيق، وشعرها لم يكن مفكوكًا، بل مضفرًا.

ملأت الحيرة عينى "هيستر" اللتين عادتا إلى الطبيب، وتنفسها لم يكن مستقرًا، ولا يوجد تفسير عقلانى لما رأته، كان شيئًا غير علمى، وقد عرفت "هيستر" أن العالم يتحرك على نحو علمى تمامًا، يمكن أن يكون هناك تفسير واحد: "لا بد أننى جننت"، أو هكذا همست، اتسع بؤبؤا عينيها وارتجف أنفها: "لقد رأيت شبحًا!"

امتلأت عيناها بالدموع.

أثار ذلك لدى الطبيب شعورًا غريبًا أن يرى زميلته خاضعة لمثل هذه الحالة من الانفعال العشوائى، ومع أن العالم بداخله هو من أعجب فى البداية بـ"هيستر" لبرود أعصابها ورجاحة رأيها، فإن الرجل بداخله، بغريزته وحيوانيته، هو الذى استجاب لانهيارها عبر مد ذراعيه حولها ووضع شفتيه بقوة على شفتيها بتطويق شهوانى.

لم تستجب "هيستر".

التنصت عبر الباب ليس تصرفًا سيئًا لو تم باسم العلم، وقد كانت زوجة الطبيب عالمة متحمسة حين يتعلق الأمر بدراسة زوجها، القبلة التى أدهشت الطبيب و"هيستر" لم تفاجئ السيدة "مودسلى" مطلقًا، التى كانت تتوقع شيئًا كهذا منذ فترة.

دفعت الباب واندفعت إلى داخل العيادة فى نوبة من الطهارة الغاضبة.

قالت لـ"هيستر": "سأشكرك إن خرجت من هذا المنزل فى الحال، يمكنك إرسال (جون) بعربة الأحصنة ليأخذ الطفلة".

ثم التفتت إلى زوجها: "سأتحدث معك لاحقًا".

انتهت التجربة، وانتهت أشياء أخرى عديدة.

أحضر "جون" "آديلاين"، ولم يرَ الطبيب ولا زوجته فى المنزل، لكنه عرف من الخادمة بشأن أحداث الصباح.

وفى البيت، أعاد "آديلاين" إلى سريرها القديم فى الغرفة القديمة وترك الباب مواربًا.

رفعت "إميلاين" فى أثناء تجولها فى الغابة رأسها، وتنشقت الهواء، وتحولت مباشرة إلى البيت، دخلت عبر باب المطبخ، وصعدت السلم دون التفات، تتجاوز درجتين فى كل خطوة وانطلقت بلا تردد نحو الغرفة القديمة، وأغلقت الباب وراءها.

و"هيستر"؟ لم يرها أحد تعود إلى المنزل، ولم يسمعها أحد ترحل، لكن حين طرقت سيدة الخدم على بابها فى الصباح التالى، وجدت غرفتها الصغيرة الأنيقة فارغة، وهى قد رحلت.

***

استفقت من سحر القصة فى مكتبة السيدة "وينتر" ذات الزجاج والمرايا.

سألت: "إلى أين ذهبت؟"

نظرت إلىَّ السيدة "وينتر" ببعض العبوس: "ليست لدى فكرة، وما أهمية ذلك؟"

"لا بد أنها ذهبت إلى مكان ما".

نظرت إلى القاصة بطرف عينها: "آنسة (ليا)، لا يفيد أن تتعلقى بهذه الشخصيات الثانوية، إنها ليست قصصهم، إنهم يأتون، ويذهبون، وحين يذهبون فإنهم يختفون، وهذا كل ما فى الأمر".

أزلقت قلمى داخل حلزون مفكرتى ومشيت إلى الباب، لكن حين وصلت إليه، التفت.

"إذًا، فمن أين أتت؟"

"يا إلهى! لم تكن إلا معلمة منزلية! إنها غير هامة، أؤكد لك".

"لا بـد أن كان لهـا توصيـات، مثـل عملهـا السـابق، أو حتـى رسـالة تقـدم للعمـل عليهـا عنـوان منزلهـا، ربمـا جـاءت عـبر وكالـة؟"

أغلقـت السـيدة "وينـتر" عينيهـا، وظهـر عـلى وجههـا تعبـير عـن المعانـاة الطويلـة: "السـيد (لوماكـس)، محامـى عائلـة (آنجلفيلـد)، سـتكون لديـه كل التفاصيـل، أنـا متأكـدة، ليـس معنـى ذلـك أنهـا سـتفيدك، فهـذه قصتـى، وأنـا يجـب أن أعـرف، مكتبـه بشـارع ماركـت فى بانـبرى، سـأوصيه بالإجابـة عـن كل أسـئلتك".

كتبت رسالة إلى السيد "لوماكس" فى تلك الليلة.

ما بعد "هيستر"

فى الصباح التالى، حين جاءت "جودث" بصينية الفطور، أعطيتها رسالتى إلى السيد "لوماكس"، وأعطتنى رسالة لى من جيب مئزرها، ميزت فيها خط يد والدى.

دائمًا ما تطمئننى رسائل والدى، وهذه الرسالة لم تكن استثناءً، تمنى أن أكون بخير، هل أحرز تقدمًا فى عملى؟ لقد قرأ رواية دنماركية غريبة وممتعة جدًّا من القرن التاسع عشر سيخبرنى بشأنها حين أعود، وفى مزاد صادف مجموعة من رسائل القرن الثامن عشر لم يبد أحد مهتمًّا بشرائها، هل أريدها؟ لقد اشتراها تحسبًا، المحققون الخاصون؟ حسنًا، ربما، لكن ألن ينفذ باحث فى الأنساب المهمة المطلوبة؟ بل وربما حتى أفضل؟ هناك رجل يعرفه لديه كل المهارات المطلوبة، وبالتفكير فى الأمر فإنه مدين لوالدى بمعروف: أحيانًا يأتى إلى المتجر ليستخدم التقاويم، إن أردت مباشرة الأمر، فها هنا عنوانه، وأخيرًا -وكالعادة- الكلمات الثلاث الجافة مع أنها حسنة النية: والدتك ترسل محبتها.

هل قالت ذلك حقًا؟ لا أعرف، والدى قال "سأكتب رسالة إلى (مارجريت)عصر اليوم"، وردت هى - باعتيادية؟ أم بحب؟-"أرسل لها محبتى".

لا، لم أستطع تصور ذلك، هذه إضافة من والدى، مكتوبة دون علمها، لماذا كلف نفسه عناء إضافتها؟ ليسعدنى؟ ليحدث ذلك حقيقة؟ هل يفعل هذه الجهود غير المشكورة ليعزز صلتنا من أجلى أم من أجلها؟ إنها مهمة مستحيلة، أنا ووالدتى مثل قارتين تتباعدان ببطء ولكن بلا تراجع، ووالدى، بنّاء الجسور، يوسع باستمرار الصرح الهش الذى بناه ليبقى على تواصلنا.

العزيزة الآنسة "ليا"،

لم أكن أعرف أن "إيفان ليا" له ابنة، لكننى أصبحت أعرف، تسرنى معرفتك، وتسرنى أكثر مساعدتك، إعلان الوفاة القانونى هو ما تظنينه تحديدًا: افتراض قانونى بوفاة شخص لا علم بمكان وجوده لفترة طويلة من الوقت، وفى ظروف تجعل الوفاة الافتراض الوحيد المعقول، الهدف الأساسى منه هو تمكين تمرير ممتلكات الشخص المفقود إلى ورثته.

لقد أجريت بعض الأبحاث اللازمة وتعقبت الوثائق المتعلقة بالقضية التى تهمك تحديدًا، يبدو أن السيد "آنجلفيلد" كانت له عادات انعزالية، ويبدو أن تاريخ وظروف اختفائه غير معلومة، لكن العمل المثابر والمتعاطف الذى أجراه شخص اسمه السيد "لوماكس" نيابة عن الورثة (ابنتا أخته) سمحت بإتمام الإجراءات الشكلية على أتم وجه، الممتلكات قيمة، على الرغم من انكماشها بدرجة ما بفعل حريق جعل المنزل غير صالح للسكن، لكنك سترين كل هذا بنفسك فى النسخ التى أرسلتها لك من الوثائق ذات الصلة.

ستـرين أن المحامـى نفسـه وقـع نيابـة عـن أحـد المسـتفيدين، وهـذا شـائع حـين يكـون المسـتفيد غـير قـادر لسـبب مـا (مثـل المـرض أو أىّ مانـع آخـر) عـلى العنايـة بشـئونه.

تطلـب الأمـر أشـد درجـات الانتبـاه لألاحـظ توقيـع المسـتفيدة الأخرى، إنـه غـير مقـروء تقريبًـا، لكننـى نجحـت فى ذلـك فى النهايـة، هـل صادفـت أحـد أكـثر أسرار العـصر خفـاءً؟ لكـن ربمـا أنـت تعرفـين كل هـذا؟ هـل هـذا مـا أثـار اهتمامـك بهـذه القضيـة؟

لا تخـافى! أنـا رجـل شـديد الحـذر! أخـبرى والـدك أن يعطينـى خصـمًا عـلى كتـب القانـون، ولـن أبـوح بكلمـة!

المخلص،

"وليام هنرى كادوالادر".

نظـرت مبـاشرة إلى أسـفل النسـخة الأنيقـة التـى أرسـلها البروفيسـور "كادوالادر"، هــذه مسـاحة توقيـع ابنتـى أخـت "تشـارلى"، ومثلـما قـال، وقـع السـيد "لوماكـس" نيابـة عـن "إيميلايـن"، أخـبرنى هـذا أنهـا عـلى الأقـل قـد نجـت مـن الحريـق، وفى السـطر الثـانى، الاسـم الـذى كنـت أنتظـره: "فيـدا وينـتر"، وبعـده بـين قوسـين عبـارة: "المعروفـة سـابقًا باسـم (آديلايـن مـارش)".

إنه دليل.

"فيدا وينتر" هى "آديلاين مارش".

كانت تخبرنى الحقيقة.

وبوضع هذا فى الاعتبار، ذهبت إلى موعدى فى المكتبة، واستمعت ودونت فى مفكرتى الصغيرة فى حين تذكر السيدة "وينتر" ما حدث فى أعقاب مغادرة "هيستر".

***

قضت "آديلاين" و"إيميلاين" الليلة الأولى واليوم الأول فى غرفتهما، فى السرير، كل منهما بين ذراعى الأخرى وأعينهما تتبادلان الحديث، هناك اتفاق ضمنى بين السيدة و"جون ذا ديج" على معاملتهما كأنهما فى فترة نقاهة، وعلى نحو ما، كانتا بالفعل فى فترة نقاهة، لقد جُرحتا، فاستلقيتا على السرير، أنفاهما متلامسان، وتحدق كل منهما إلى الأخرى بعينين حولاوين، من دون كلمة، من دون ابتسامة، ترمشان بتناغم، كان ذلك التحديق المتبادل لمدة أربع وعشرين ساعة أشبه بنقل الدماء لمصابى الحوادث، فشُفيت الصلة التى انقطعت، ومثل أى جرح يُشفى، ترك ندبة.

وفى أثناء ذلك، كانت السيدة فى حيرة بشأن ما حدث لـ"هيستر"، و"جون"، الذى يمانع تخييب أملها بشأن المعلمة المنزلية، لم يقل شيئًا، لكن صمته لم يكن إلا مشجعًا لها على التساؤل بصوت مرتفع، واختتمت أسئلتها ببؤس: "أفترض أنها ستخبر الطبيب إلى أين ستذهب، يجب أن أعرف منه متى ستعود".

ثم تحدث "جون"، بفظاظة: "لا تذهبى لتسأليه إلى أين ذهبت! لا تسأليه عن شىء إطلاقًا، ونحن لن نراه هنا مجددًا".

أبعدت السيدة نظرها عنه عابسة، ماذا حدث للجميع؟ لماذا "هيستر" غير موجودة؟ لماذا "جون" مستاء؟ والطبيب -الذى كان زائرًا مستمرًّا للمنزل- لماذا لن يأتى مجددًا؟ تحدث أشياء تتجاوز نطاق فهمها، يكثر جدًّا هذه الأيام، ولفترات أطول، أن يراودها شعور بأن

خطبًا ما أصاب العالم، فى أكثر من مرة بدا أنها تستيقظ فى بالها لتجد أن ساعات كاملة قد مرت دون أن تترك أثرًا فى ذاكرتها، أشياء بدت منطقية تمامًا للآخرين، لم تبد كذلك لها دائمًا، وحين تطرح أسئلة لتحاول أن تفهم، ترى فى أعين الناس نظرات غريبة يدارونها سريعًا، نعم، شيء غريب يحدث، وغياب "هيستر" غير المبرر ليس إلا جزءًا منه.

"جون"، على الرغم من أسفه لحزن السيدة، كان مرتاحًا لرحيل "هيستر"، إذ بدا أن رحيل المعلمة المنزلية قد أزاح همًّا كبيرًا عنه، فدخل المنزل بحرية أكبر، وفى المساء قضى ساعات أطول مع السيدة فى المطبخ، حسب طريقة تفكيره، فقدان "هيستر" لم يمثل أيَّة خسارة، فهى لم تضف إلا تحسنًا واحدًا إلى حياته -شجعته على العمل مجددًا فى الحديقة- وقد فعلت هذا على نحو رقيق جدًّا، وخفى جدًّا، لدرجة أن الأمر أصبح بسيطًا جدًّا أن يعيد ترتيب أفكاره حتى أقنعه عقله بأن ذلك كان قراره وحده، حين أصبح واضحًا أنها رحلت إلى الأبد، جلب حذاءه ذا الرقبة من الكوخ وجلس يلمعه بجانب الموقد، يرفع ساقيه على الطاولة، فمن سيمنعه الآن؟

وفى الحضانة، بدا أن غضب "تشارلى" وحنقه قد غادراه، تاركين مكانهما إرهاقًا محزنًا، يمكن أحيانًا أن تسمع جره البطىء لقدميه على الأرض، وأحيانًا، لو ألصقت أذنك بالباب، تسمعه يبكى بشهقات متعبة كطفل تعيس سنه عامان، أيمكن، بطريقة ما غامضة فى أعماقها مع كونها علمية، أن تكون "هيستر" قد أثرت فيه عبر الأبواب المقفلة وكبحت أسوأ أوجه يأسه؟ لم يبد الأمر مستحيلاً.

فلم يكن البشر فقط هم من تفاعلوا مع غياب "هيستر"، بل وتفاعل المنزل لحظيًّا، أول شيء كان الهدوء الجديد، لم تعد تُسمع نقرات قدمى "هيستر" صاعدة وهابطة السلم وبطول الممرات، ثم

توقف أيضًا طرق العمال على سطح المنزل، فبنّاء السقف، بعدما اكتشف عدم وجود "هيستر"، اختمر لديه الشك سليم الأساس أن مقابل عمله لن يُدفع له من دون أحد لتقديم الفواتير لـ"تشارلى" مباشرة، فحقب معداته ورحل، وعاد مرة ليأخذ سلالمه، ولم يره أحد مجددًا.

عاد المنزل مجددًا فى اليوم الأول من الصمت إلى مساره الطويل البطىء نحو التدهور، وكأن شيئًا لم يقاطعه قط. التفاصيل الصغيرة أولاً: بدأ التراب يزحف من كل شق فى كل شىء فى كل الغرف، وسربت الأسطح الغبار، وغطت النوافذ نفسها بأول طبقة من الأوساخ، كل تغييرات "هيستر" أصبحت ظاهرية فقط. فقد تطلب الحفاظ عليها عناية يومية، وتذبذبت مواعيد نظافة السيدة فى البداية، ثم انهارت تمامًا، بدأت الطبيعة الحقيقية الدائمة للمنزل فى فرض نفسها مجددًا، وجاء الوقت الذى تشعر فيه بالتماسك القديم للأوساخ على أصابعك إن التقطت أى شىء بالمنزل.

عادت الأشياء أيضًا سريعًا إلى حياتها القديمة، فكانت المفاتيح أول ما تجول من الأشياء، كانت تتسلل خلال الليل إلى خارج الأقفال وتغادر سلاسلها، ثم تجمعت فى صحبة مغبرة فى الفراغ تحت لوح أرضية مرتخ، والشمعدانات الفضية، التى لا تزال تحتفظ بآثار تلميع "هيستر"، شقت طريقها من رف الموقد بالمرسم إلى مخزن كنوز "إيميلاين" تحت السرير، وتركت الكتب رفوف المكتبة وصعدت السلالم حيث استقرت فى الزوايا وتحت الأرائك، ونزعت الستائر إلى إغلاق نفسها، وحتى الأثاث استفاد لأقصى درجة من غياب الرقابة وتجول، تقدمت أريكة قليلاً من مكانها المقابل للحائط، وتحرك مقعد نصف متر تقريبًا، كل الأدلة على وجود شبح فى المنزل أعادت تأكيد وجوده.

سطح المنزل الذى يُجرى إصلاحه تصبح حالته أسوأ قبل أن يرى أى تحسن، وبعض الثقوب التى تركها البناء كان أكبر من التى جُلب لإصلاحها، فلن تواجه مشكلة فى أن تستلق على أرضية العليا وتشعر بأشعة الشمس تداعب وجهك، لكن الأمطار كانت شأنًا آخر، فبدأت ألواح الأرضية فى الضعف، وقطرت المياه عبرها إلى الغرف تحتها، كانت هناك بقع تعرف أنك لا يجب أن تخطو عليها، حيث الأرضية مرتخية جدًّا تحت قدميك، ولاحقًا، ستنهار وسترى عبرها الغرفة السفلية، وكم سيمر من الوقت قبل أن تستلم أرضية تلك الغرفة وترى المكتبة؟ وهل تستلم أرضية المكتبة؟ أيمكن فى يوم ما أن تقف فى القبو وتتطلع عبر أربعة طوابق من الغرف لترى السماء؟

المياه، مثل الآلهة، تتحرك بطرق غامضة، بمجرد دخولها إلى منزل، فإنها تطيع قوانين الجاذبية بطرق غير مباشرة، داخل الجدران وتحت الأرضيات تجد لنفسها مجارى ومسارات، إنها تتسرب وتقطر فى اتجاهات غير متوقعة، وتظهر حيث لا تتوقعها، توجد خرق فى كل مكان بالمنزل لتمتص المياه، لكن لا أحد قط يعصرها، ووضعت القدور والأوعية لتجمع نقاط المياه، لكنها فاضت قبل أن يتذكر أحد تغييرها، الرطوبة المستمرة أسقطت الدهان عن الحوائط وبدأت تأكل الأسمنت، وفى العليا، توجد جدران مرتخية لدرجة أن بيد واحدة يمكنك هزها كأنه ضرس رخو.

والفتاتان وسط كل هذا؟

لقد أحدثت "هيستر" والطبيب جرحًا بالغًا، بالتأكيد لن تعود الأمور لسابق عهدها قط، ستتشارك الفتاتان دائمًا ندبة، وآثار الفصل بينهما لن تُمحى نهائيًّا أبدًا، لكنهما شعرتا بالندبة على نحو مختلف، ففى النهاية، "آديلاين" راحت سريعًا فى حالة من فقدان الذاكرة بمجرد أن أدركت ما فعلته "هيستر" والطبيب، فقدت نفسها فى اللحظة نفسها

التى فقدت فيها أختها، وليست لديها أىّ ذكرى عن الوقت الذى مر بعيدًا عن أختها، وبقدر ما تعرف، فإن الظلمة التى تخللت فقدانها لأختها والعثور عليها مجددًا دامت لسنة أو ربما لثانية، ليس أن الأمر يهم الآن، لأنه انتهى، وهى عادت للحياة مجددًا.

الأمر كان مختلفًا لـ"إيميلاين"، فلم تحظَ بارتياح فقدان الذاكرة، لقد عانت أكثر ولفترة أطول، كل لحظة من الأسابيع الأولى كانت عذابًا، كانت كالبتراء فى الأيام التى تسبق التخدير، نصف مجنونة بفعل الألم، مندهشة أن الجسد البشرى يمكنه الشعور بكل هذا الألم دون أن يموت، لكن ببطء، بدأت تتحسن، خلية وراء الأخرى، بقدر ما فى ذلك من ألم، وجاء وقت لم يعد جسدها بالكامل يحترق ألمًا، بل قلبها فقط، ثم جاءت فترة يستطيع فيها قلبها، لبعض الوقت على الأقل، أن يشعر بأحاسيس أخرى غير الحزن، باختصار، تأقلمت "إيميلاين" مع غياب أختها، تعلمت أن تعيش بعيدة عنها.

ومع ذلك فإنهما اتصلتا مجددًا وأصبحتا توأمين مجددًا، لكن "إيميلاين" لم تعد الأخت نفسها مثلما كانت، وهذا شىء لم تلحظه "آديلاين" فى الحال.

فى البداية، لم تشعرا إلا ببهجة اللقاء مجددًا، كان افتراقهما مستحيلاً، فحيث تذهب إحداهما، تتبعها الأخرى، وفى الحدائق تتحلقان حول الأشجار القديمة، تلعبان أدوارًا بلا نهاية من الغميضة، كأنها تكرار لم تملّه "آديلاين" قط لتجربتهما الأخيرة فى الفقد واللقاء، أما بنظر "إيميلاين" فإن التجديد بدأ سريعًا بالخفوت، وتسلل بعض الخصومات القديمة، إذ أرادت "إيميلاين" أن تسلك طريقًا، وأرادت "آديلاين" الآخر، فتعاركتا، وكالسابق كانت عادة "إيميلاين" هى من تستسلم، ولكن فى نفسها الجديدة السرية، أصبحت تمانع ذلك.

مـع أن "إيميلايـن" كانـت فى وقـت مـا معجبـة بـ"هيسـتر"، فإنهـا لم تفتقدهـا، إذ تضـاءل حبهـا لهـا خـلال التجربـة، فقـد عرفـت فى النهايـة أن "هيسـتر" هـى مـن فصلتهـا عـن أختهـا، وليـس هـذا فقـط، بـل إن "هيسـتر" كانـت مسـتغرقة جـدًّا فى تقاريرهـا واستشـاراتها العلميـة لدرجـة أنهـا أهملـت "إيميلايـن"، ربمـا دون إدراك الأمـر، خـلال تلـك الفـترة، حـين تجـد نفسـها فى وحـدة غـير معتـادة، كانـت "إيميلايـن" تجـد طرق لتشـتيت نفسـها عـن حزنهـا، اكتشـفت طرقًـا للتسـلية أصبحـت تسـتمتع بهـا فى حـد ذاتهـا، ألعـاب لم تتوقـع أن تتخـلى عنهـا فقـط لأن أختهـا رجعـت.

لـذا فى اليـوم الثالـث بعـد اللقـاء، تركـت "إيميلايـن" الغميضـة فى الحديقـة، وهامـت إلى غرفـة البليـاردو حيـث أبقـت مجموعـة مـن أوراق اللعـب، وبـدأت لعبتهـا وهـى مسـتلقية عـلى بطنهـا فى منتصـف الطاولـة الخـضراء، كانـت نوعًـا مـن أنـواع لعبـة "سـوليتير"، النـوع الأبسـط والأكـثر طفوليـة، وهـى تفـوز فى كل مـرة، فقـد كانـت اللعبـة مصممـة بحيـث لا تخـسر، وفى كل مـرة كان الفـوز يسـعدها.

فى منتصـف اللعبـة، أدارت وجههـا، لم تسـمع شـيئًا بالمعنـى الحـرفى، لكـن أذنهـا الداخليـة، التـى كانـت مضبوطـة باسـتمرار عـلى موجـات أختهـا، أخبرتهـا أن "آديلايـن" تناديهـا، تجاهلـت "إيميلايـن" الأمـر، فقـد كانـت مشـغولة، وسـترى "آديلايـن" لاحقًـا حـين تنتهـى مـن اللعـب.

بعـد سـاعة، اندفعـت "آديلايـن" إلى داخـل الغرفـة وعيناهـا تشـعان غضبًـا، ولم يكـن لـدى "إيميلايـن" شىء تفعلـه لتدافـع عـن نفسـها، صعـدت "آديلايـن" إلى الطاولـة وانطلقـت كالصـاروخ نحـو "إيميلايـن" تحركهـا هسـتيريا الغضـب.

لم ترفـع "إيميلايـن" إصبعًـا لتدافـع عـن نفسـها، ولم تبـك، لم تصـدر صوتًـا، لا خـلال الهجـوم، ولا بعـده.

حين أفرغت "آديلاين" شحنة غضبها، توقفت لعدة دقائق تتفرج على أختها، كان الدم يسيل على الغطاء الأخضر، وأوراق اللعب مبعثرة في كل مكان، كتفا "إيميلاين" يرتفعان ويهبطان بسرعة مع أنفاسها وهي تحتضن نفسها كالكرة.

استدارت "آديلاين" وابتعدت.

ظلت "إيميلاين" مكانها على الطاولة، حتى جاء "جون" ليجدها بعد ساعات، أخذها إلى السيدة، التي غسلت الدماء عن شعرها، ووضعت كمادة على عينها، وداوت كدماتها بخلاصة بندق الساحرة.

علقت: "ما كان هذا ليحدث لو كانت (هيستر) هنا، أتمنى حقًّا أن أعرف متى ستعود".

رد "جون": "لن تعود"، محاولاً احتواء انزعاجها، ولم يعجبه أيضًا أن يرى الطفلة هكذا.

"لا أفهم لمَ ترحل بهذه الطريقة، بلا أي كلام، ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ أفترض أنه حدث طارئ ما، لدى عائلتها..."

هز "جون" رأسه، فقد سمع هذا عشرات المرات، تلك الفكرة التي تتعلق بها السيدة، أن "هيستر" ستعود، لكن القرية كلها تعرف أنها لن تعود، لقد سمعت خادمة "مودسلي" كل شيء، وزعمت أنها رأت كل شيء أيضًا، والمزيد غيره، وبحلول هذا الوقت يستحيل أن تجد شخصًا بالغًا في القرية غير واثق بأن المعلمة ذات الوجه العادي كانت في علاقة زنا مع الطبيب.

كان حتميًّا أن في يوم ما ستصل شائعات "سلوك" (كناية القرية عن سوء السلوك) "هيستر" إلى مسامع السيدة، في البداية شعرت بالصدمة، ورفضت فكرة أن "هيستر" -"هيستر" التي عرفتها- يمكن أن تأتي مثل هذا الفعل، لكن حين أبلغت "جون" بما يُقال غاضبة، لم يفعل شيئًا

إلا تأكيـده، وذكرهـا بأنـه ذهـب إلى منـزل الطبيـب فى ذلـك اليـوم، ليجلـب الطفلـة، وسـمع القصـة مـن فـم الخادمـة مبـاشرة فى يـوم حدوثهـا، عـلاوة عـلى ذلـك، لمـاذا قـد تغـادر "هيسـتر" فجـأة، بـلا تحذيـر، لـو لم يحـدث شىء غـير معتـاد؟

وتمتمت: "عائلتها، حدث طارئ..."

"أيـن الرسـالة إذًا؟ كانـت لترسـل رسـالة، لـو كانـت سـتعود، أليـس كذلـك؟ كانـت لتوضـح الأمـر، هـل وصلتـك أىّ رسـالة؟"

هزت السيدة رأسها.

"حسـنًا إذًا"، اختتـم "جـون" حديثـه، عاجـز عـن إخفـاء الرضـا فى صوتـه، "فعلـت شـيئًا لم يكـن يفـترض بهـا فعلـه، ولـن تعـود، لقـد ذهبـت إلى الأبـد، صدقينـى".

دار الكثـير فى ذهـن السـيدة، ولم تعـرف مـاذا تصـدق، أصبـح العـالم مكانًـا مربـكًا جـدًا.

رحل!

طالـت آثـار رحيـل "هيسـتر" الجميـع، إلا "تشـارلى"، بالتأكيـد هنـاك تغـيرات، وجبـات الطعـام المغذيـة التـى كانـت توضـع خـارج غرفتـه حـين الإفطـار والغـداء والعشـاء فى وجـود "هيسـتر"، أصبحـت شـطائر، أو قطعـة لحـم بـارد وثمـرة طماطـم، أو وعـاء مـن البيـض المخفـوق المتخثر، وتظهـر تلـك الوجبـات فى أوقـات متباعـدة وبمعـدلات زمنيـة غـير متوقعـة، حينـما تتذكـر السـيدة، لم يمثـل الأمـر فرقًـا لـ"تشـارلى"، فـإن جـاع وكان الطعـام عنـده، قـد يـأكل لقيـمات مـن قطعـة لحـم الأمـس، أو طـرف جـاف مـن رغيـف خبـز، ولكـن إن لم يكـن الطعـام هنـاك فإنـه لـن يـأكل، وجوعـه لم يضايقـه، فقـد كان لديـه جـوع أقـوى ليقلـق بشـأنه، إنـه جوهـر حياتـه، وهـو شىء لم تغـيره "هيسـتر" بمجيئهـا ورحيلهـا.

ومـع ذلـك فقـد طـال التغيـير "تشـارلى"، ولكـن لم تكـن لـه علاقـة بـ"هيستر".

فمـن حـين لآخـر، تصـل رسـالة إلى المنـزل، ومـن حـين لآخـر يفتحهـا أحـد، بعـد بضعـة أيـام مـن تعليـق "جـون ذا ديـج" عـن عـدم تلقـى أى رسـائل مـن "هيسـتر"، وجـدت السـيدة نفسـها فى الردهـة ولاحظـت كومـة صغـيرة مـن الرسـائل تجمـع الغبـار عليهـا عـلى الحصـيرة تحـت صنـدوق البريـد، ففتحتهـا.

رسـالة مـن موظـف البنـك الـذى يديـر شـئون "تشـارلى": هـل يبحـث عـن فرصـة للاسـتثمار؟

الثانية فاتورة من البنائين لعملهم على سطح المنزل.

هل الثالثة من "هيستر"؟

لا، الثالثة من المصحة، لقد ماتت "إيزابيل".

حملقـت السـيدة إلى الرسـالة، ماتـت! "إيزابيـل"! هـل هـذا حقيقـى؟ تقـول الرسـالة إنهـا قضـت بسـبب الإنفلونـزا.

يجـب إخبـار "تشـارلى"، لكـن السـيدة خافـت مـن مجـرد احتماليـة ذلـك، فقـررت أن مـن الأفضـل أن تتكلـم مـع "ديـج" أولاً، فوضعـت الرسـائل جانبًـا، لكـن لاحقًـا، حـين كان "جـون" جالسًـا عـلى مقعـده عنـد طاولـة المطبـخ، صبـت شـايًا طازجًـا فى كوبـه، ولم يكـن للرسـالة أثـر فى ذاكرتهـا، لقـد لحقـت بغيرهـا مـن اللحظـات الضائعـة المتكـررة باطـراد، التـى عاشـتها وشـعرت بهـا لكنهـا غـير مسـجلة فى ذاكرتهـا، ومـن ثـم ضاعـت، ومـع ذلـك، بعـد بضعـة أيـام، كانـت تمـر عـبر الردهـة بصينيـة الخبـز واللحـم المقـدد المحترقـين، ووضعـت الرسـائل فى الصينيـة مـع الطعـام عـلى نحـو آلىّ، مـع أنهـا لم تتذكـر مطلقًـا محتوياتهـا.

ثـم مـرت الأيـام ولم يبـدُ أن شـيئًا قـد حـدث مطلقًـا، باسـتثناء أن طبقـات الغبـار زادت، وتراكمـت الأوسـاخ عـلى زجـاج النوافـذ، وزحفـت

أوراق اللعب أكثر خارج صندوقها فى المرسم، وأصبح نسيان أن فى يوم من الأيام كانت "هيستر" هنا أسهل كثيراً.

"جون ذا ديج" هو من لاحظ فى صمت الأيام أن شيئًا قد حدث.

إنه رجل يحب الأماكن المفتوحة، وليس معتادًا على العيش داخل المنزل، ومع ذلك فقد عرف أن فى وقت ما لن تصلح الأكواب لشرب الشاى من دون غسلها أولاً، كذا عرف أن الطبق الذى حمل لحمًا نيئًا يجب ألا يحمل بعده مباشرة لحمًا مطبوخًا، ولاحظ كيف تسير أمور السيدة: فهو ليس غبيًا، كلما تصاعدت كومة الأطباق والأكواب المتسخة، كان يغسلها بنشاط، إنه مشهد غريب وهو واقف أمام الحوض بحذائه ذى الرقبة وقبعته، يبدو أخرق للغاية وهو ممسك بالخرقة والأوانى الصينية بعدما كان يبدو بارعًا بأوانيه الفخارية ونباتاته الغضة، وقد انتبه إلى أن عدد الأكواب والأطباق يتقلص، وقريبًا لن يتبقى منها كفاية، أين ذهبت الأوانى المفقودة؟ فكر فى لحظتها فى السيدة وهى تشق طريقها العشوائى صعودًا بطبق للسيد "تشارلى"، هل رآها قط تعود بطبق فارغ إلى المطبخ؟ لا.

صعد السلم، ورأى خارج الباب المقفل أطباقًا وأكوابًا مرتبة فى طابور طويل، وفر الطعام الذى لم يمسسه "تشارلى" وليمة لذيذة للذباب الذى طن فوقه، وأصدر رائحة قوية لا تسر، لكم من الأيام كانت السيدة تترك الطعام هنا دون ملاحظة أن طعام اليوم السابق لم يُمس؟ أحصى عدد الأطباق والأكواب، وعبس، وحينها عرف.

لم يطرق الباب، فما الفائدة؟ واضطر إلى أن يذهب إلى كوخه ليجلب عارضة خشبية قوية كفاية ليستخدمها كناطحة للباب، كانت ضوضاء نطح الباب المصنوع من البلوط، وأصوات الصرير والتحطيم فى حين تتكسر المفصلات المعدنية وتنفصل عن الخشب، كافية لتجمعنا كلنا عند الباب، وحتى السيدة نفسها.

حين سقط الباب المنطوح، وهو نصف مكسور عند مفصلاته، سمعنا طنين الذباب، وتصاعدت رائحة نتنة دفعت "إيميلاين" والسيدة بعيدًا بضع خطوات، حتى "جون" غطى فمه بيده وشحب قليلاً، "لا تتقدمن"، أمرنا بذلك وهو يدلف إلى الغرفة، وتبعته بفارق بضع خطوات.

تقدمنا بحذر عبر مخلفات الطعام المتعفن على أرضية الحضانة القديمة، ما أثار سحبًا من الذباب فى الهواء مع مرورنا، كان "تشارلى" يعيش كالحيوان، وجدنا أطباقًا قذرة يغطيها العفن على الأرض، وعلى رف الموقد، وعلى الكراسى وعلى الطاولة، باب غرفة النوم نصف مفتوح، فدفع "جون" الباب بحذر بطرف الخشبة الناطحة الذى لا يزال فى يده، فمر فأر متفاجئ مسرعًا على أقدامنا، كان مشهدًا مروعًا، المزيد من الذباب والطعام المتحلل، والأسوأ: كان الرجل مريضًا، فغطت بقعة من القىء الجاف المنقط بالذباب السجادة على الأرض، وعلى الطاولة المجاورة للسرير، تكومت مناديل دامية وإبرة الحياكة القديمة الخاصة بالسيدة.

كان السرير خاليًا إلا من ملاءات قذرة مطوية تلطخها الدماء وغيرها من القبائح البشرية.

لم نتكلم، حاولنا ألا نتنفس، وحين اضطررنا، استنشقنا عبر أفواهنا، ولكن الهواء الكريه المشبع بالمرض لم يفارق حلوقنا وجعلنا نتهوع، لكننا لم نرَ الأسوأ بعد، فهناك غرفة أخرى، اضطر "جون" إلى استجماع قوته ليفتح باب المرحاض، ولكن قبل حتى أن ينفتح الباب بالكامل، استشعرنا بشاعة ما ينتظرنا، فقبل أن تخترق الرائحة فتحتى أنفى، بدا أن جلدى يشمها، ونشع العرق البارد على كامل جسدى، كرسى المرحاض يبدو سيئًا بما يكفى، ومع أن غطاءه مغلق فإنه لم يتمكن تمامًا من احتواء القذارة الفائضة التى كان من المفترض أن يغطيها،

لكـن ذلـك لم يكـن شـيئًا يُذكـر، لأن في حـوض الاسـتحمام -تراجـع "جـون" خطـوة سريعـة إلى الـوراء، وكان ليخطـو علـيّ لـو أننـي لم أتراجـع خطوتـين في اللحظـة نفسـها- كانـت هنـاك مخلفـات داكنـة مـن النفايـات الجسـدية السـائلة، رائحتهـا جعلتنـا أنـا و"جـون" نتسـابق نحـو البـاب، نخطـو عـلى فضـلات الفـئران والذبـاب، وخرجنـا إلى الممـر، وهبطنـا السـلم، ثـم خرجنـا مـن المنـزل.

تقيـأت، بـدت بقعـة قيئـي الأصفـر عـلى العشـب الأخـضر طازجـة ونظيفـة ومسـكرة.

قال جون: "لا بأس"، وهدهد ظهري بيد لا تزال ترتجف.

أمـا السـيدة، التـي تبعتنـا بخطواتهـا المهرولـة، فقـد اقتربـت منـا عـلى العشـب، تسـيطر الأسـئلة عـلى وجههـا، مـاذا يمكـن أن نقـول لهـا؟

وجدنـا دم "تشـارلي"، وجدنـا خـراء "تشـارلي"، وبـول "تشـارلي"، وقـيء "تشـارلي"، لكننـا لم نجـد "تشـارلي" نفسـه؟

قلنا لها: "إنه ليس هناك، لقد رحل".

***

عـدت إلى غرفتـي أفكـر في القصـة، إنهـا مثـيرة للفضـول مـن جوانـب عـدة، بالتأكيـد هنـاك اختفـاء "تشـارلي"، الـذي يمثـل تحـولاً مثـيراً للأحـداث، وقـادني ذلـك إلى التفكـير في التقاويـم، وذلـك الاختصـار المثير للفضـول: "إل دي دي"، لكـن ليـس هـذا كل مـا في الأمـر، هـل أدركـت هـي أننـي لاحظـت؟ لم أبـد أيَّـة إشـارات خارجيـة، لكننـي لاحظـت، لقـد قالـت السـيدة "وينـتر" اليـوم "أنـا".

***

وجـدت مغلفًـا بنيًّـا كبـيرًا فى غرفتـى، عـلى صينيـة بجـوار شـطيرة اللحـم.

عـاد سـاعى البريـد ومعـه رد السـيد "لوماكـس" المحامـى عـلى رسـالتى، ألحـق برسـالته القصـيرة، والمهذبـة، نسـخًا مـن عقـد عمـل "هيسـتر"، الـذى رمقتـه بنظـرة سريعـة ووضعتـه جانبًـا، ورسـالة توصيـة مـن سـيدة مـن نابـولى اسـمها "ليـدى بلايـك"، تشـيد بمواهـب "هيسـتر"، والأهـم مـن كل هـذا، رسـالة قبـول عـرض التوظيـف، مكتوبـة بيـد الموظفـة العجيبـة نفسـها.

العزيز الطبيب "مودسلى"،

شكرًا على عرض التوظيف الذى قدمته لى بكرم منك.

يـسرنى أن أتـولى هـذه الوظيفـة فى آنجلفيلـد يـوم التاسـع عـشر مـن أبريـل مثلـما اقترحـت.

لقـد اسـتفسرت وعرفـت أن القطـارات تسـافر إلى بانـبرى فقـط، ربمـا يمكنـك أن ترشـدنى إلى أفضـل طريـق يوصلنـى إلى آنجلفيلـد مـن هنـاك، سـأصل إلى محطـة بانـبرى فى السـاعة العـاشرة والنصـف.

المخلصة،

هيستر بارو

هنـاك حـزم فى كتابـة "هيسـتر" للحـروف الكبـيرة القويـة، واتسـاق فى درجـة ميـل الحـروف، وانطبـاع بسلاسـة جريـان القلـم فى دوائـر حـرفى الـ"جـى" والـ"واى"، حجـم الحـروف متوسـط: صغـير كفايـة لتوفـير الحـبر والأوراق، وكبـير كفايـة ليكـون واضحًـا، لم تحـوِ الرسـالة أى زخـارف، ولا تموجـات ولا تعـثرات ولا زخـارف دقيقـة، نبـع جـمال هـذه الكتابـة مـن

الشـعور بالنظـام والتـوازن والتناسـب الـذى حكـم كل حـرف، تلـك يـد ماهـرة ونظيفـة، إنهـا كلـمات لم ترسـمها إلا "هيسـتر".

فى أعلى اليمين يوجد عنوان فى لندن.

قلت إن هذا جيد، يمكننى الآن أن أصل إليك.

تناولـت ورقـة وقبـل أن أبـدأ التفريـغ، كتبـت رسـالة إلى متخصـص الأنسـاب الـذى رشـحه والـدى، إنهـا رسـالة طويلـة: إذ يجـب أن أقـدم نفـسى، فهـو بـلا شـك لا يعـرف أن السـيد "ليـا" لـه ابنـة، اضطـررت إلى التلميـح بلطـف إلى مسـألة التقاويـم لتبريـر اسـتغلالى لوقتـه، وكان علىّ سرد كل مـا أعرفـه عـن "هيسـتر": نابـولى، لنـدن، آنجلفيلـد، لكـن خلاصـة رسـالتى كانـت بسـيطة: اعـثر عليهـا.

ما بعد "تشارلى"

لم تعلق السيدة "وينتر" على رسائلى مع المحامى، مع أننى واثقة بأنها على علم بمحتواها، مثلما أنا واثقة بأن الوثائق التى طلبتها ما كانت لتصل إلى لولا موافقتها، تساءلت إن كانت لتعتبر الأمر غشًّا، وإن مثّل ذلك "استراقًا للنظر إلى الصفحات الأخيرة" الذى رفضته بشدة، لكن يوم تلقيت مجموعة من الرسائل من السيد "لوماكس" وأرسلت طلب المساعدة إلى باحث الأنساب، لم تعلق ولو بكلمة، بل التقطت طرف قصتها من حيث تركته، كأن كل تلك المراسلات البريدية غزيرة المعلومات لم تكن تحدث.

***

كان "تشارلى" الخسارة الثانية، أو الثالثة لو احتُسبت "إيزابيل"، مع أننا فقدناها بكل الأشكال العملية قبل عامين، وخسارتها بالكاد تُحتسب.

تأثـر "جـون" باختفـاء "تشـارلى" أكـثر مـن "هيسـتر"، ربمـا كان "تشـارلى" منعـزلاً، أو غريـب الأطـوار، أو مترهبنًـا، لكنـه كان سـيد المنـزل، كان يخربـش توقيعـه عـلى ورقـة أربـع مـرات سـنويًا، بعـد أن يُطلـب منـه ذلـك للمـرة السادسـة أو السـابعة، فيفـرج البنـك عـن الأمـوال التـى تبقـى عـلى الحـد الأدنى مـن الحيـاة فى هـذا المنـزل، والآن رحـل "تشـارلى"، فـما مصـير المنـزل؟ مـاذا سـيفعلون ليحصلـوا عـلى الأمـوال؟

مـر "جـون" ببضعـة أيـام مروعـة، وأصر عـلى تنظيـف جنـاح الحضانـة -"وإلا سـتصيبنا كلنـا بالأمـراض"- وحـين لم يعـد يسـتطيع تحمـل الرائحـة، جلـس عـلى السـلم بالخـارج، يستنشـق الهـواء النظيـف مثـل رجـل نجـا مـن الغـرق، وفى المسـاء يسـتحم طويـلاً، يسـتخدم صابونـة كاملـة يحـك بهـا جلـده حتـى يتوهـج لونـه الـوردى، حتـى إنـه أوصـل الصابـون إلى داخـل أنفـه.

كـذا شـارك فى الطهـو، فقـد لاحظنـا كيـف أن السـيدة تفقـد مسـارها فى منتصـف إعدادهـا للطعـام، الخـضراوات تغـلى حتـى تصبـح كالعجـين، ثـم تحـترق فى أسـفل القـدر، لم يخـل المنـزل قـط مـن رائحـة الطعـام المتفحـم، ثـم فى يـوم مـن الأيـام وجدنـا "جـون" فى المطبـخ، اليـدان اللتـان اعتدنـا على كونهـما قذرتـين تحصـدان البطاطـس مـن الأرض، أصبحتـا الآن تشـطفان الثمـرة الصفـراء بالميـاه، وتقشرهـا، وتحـرك أغطيـة القـدور عـلى الموقـد مصـدرة صليـلاً، أكلنـا لحـمًا جيـدًا أو أسـماكًا مـع الكثـير مـن الخـضراوات، وشربنـا شـايًا سـاخنًا ثقيـلاً، جلسـت السـيدة فى مقعدهـا بزاويـة المطبـخ، دون أى شـعور واضـح بـأن هـذه كانـت مهامهـا، وبعـد الاسـتحمام حـين يهبـط الليـل، يجلـس كلاهـما إلى مائـدة المطبـخ للحديـث، مخاوفـه لا تتغـير أبـدًا، مـاذا سـيفعلان؟ كيـف سـيصمدان فى الوضـع الحـالى؟ مـاذا سـيكون مصيرنـا كلنـا؟

قالت السيدة: "لا تقلق، سيعود".

سيعود؟ تنهد "جون" وهز رأسه، لقد سمع هذا من قبل: "إنه ليس موجودًا أيتها السيدة، لقد رحل، هل نسيت بالفعل؟"

"رحل!"، وهزت رأسها وضحكت كأنه أخبرها نكتة.

لحظة عرفت حقيقة رحيل "تشارلى"، مر الخبر بوعيها للحظات، لكنه لم يجد مكانًا ليجلس، فالممرات والردهات والسلالم التى فى عقلها، التى تربط أجزاءه بعضها ببعض، وكذا تفرقها بعضها عن بعض، كانت متهدمة، فعندما تلتقط طرف خيط فكرة، تتبعها عبر الثقوب فى الجدران، وتنزلق فى أنفاق انفتحت قد قدميها، وتصل إلى نهايات غامضة تجعلها متحيرة: ألم يكن هناك...؟ ألم تكن هى...؟ فحين فكرت فى أن "تشارلى" محبوس فى الحضانة، وقد خبله الحزن على حبه لأخته الميتة، سقطت عبر باب مسحور فى الزمان دون حتى أن تدرك ذلك، وأوصلها الباب إلى ذكرى والده، حين كان ثاكلاً حديثًا ومنعزلاً فى المكتبة حزنًا على زوجته الميتة.

قالت بغمزة: "أعرف كيف أخرجه من هناك، سآخذ الطفلة إليه، سيفى هذا بالغرض، بل سأذهب لأتفقد الطفلة الآن".

لم يوضح لها "جون" مجددًا أن "إيزابيل" ماتت، لأن ذلك لن يؤدى إلا إلى مفاجئة مفجعة، ومطالبة بأن تعرف كيف ولماذا ماتت، "مصحة؟" هكذا ستتعجب وتندهش، "لكن لماذا لم يخبرنى أحد أن الآنسة (إيزابيل) فى مصحة؟ يا لوالدها المسكين! كم كان شغوفًا بها! سيأتى هذا الخبر بأجله"، وستتوه لساعات فى ممرات الماضى المحطمة، ثكلى على مأساويات عفا عليها الزمن كأنها لم تحدث إلا البارحة، غافلة عن أحزان اليوم، لقد مر "جون" بهذا مرات عدة، ولن يتحمل مرة جديدة.

رفعت السيدة نفسها ببطء من المقعد، تجر القدم وراء الأخرى متألمة، ذاهبة لترى الرضيعة التى فى السنوات الضائعة من ذاكرتها،

كـبرت وتزوجـت وأنجبـت توأمـين وماتـت، ولم يوقفهـا "جـون". فهـي ستنسى وجهتها قبـل حتـى أن تصـل إلى السـلم، لكنـه يضـع رأسـه بـين كفيـه ويتنهـد وراءهـا.

مـا العمـل؟ بشـأن "تشـارلي"، وبشـأن السـيدة، وبشـأن كل شيء؟ هـذا شـغله الشـاغل، بحلـول نهايـة الأسـبوع، كانـت الحضانـة نظيفـة وقـد ظهـرت خطـة مـا في أمسـيات التشـاور، لم تـرد أي أخبـار عـن "تشـارلي" مـن قريـب ولا مـن بعيـد، لم يـره أحـد يذهـب، ولم يعـرف أحـد خـارج المنـزل أنـه قـد رحـل، فبالنظـر إلى أسـلوب حياتـه الشـبيه بالمترهبنـين، يرجـح ألا يلاحـظ أحـد غيابـه، تسـاءل "جـون" إن كان ملزمًـا عـلى أي نحـو بـأن يخـبر أحـدًا -الطبيـب؟ المحامـي؟- بشـأن اختفـاء "تشـارلي"، قلَّـب السـؤال في بالـه مـرارًا وتكـرارًا، وفي كل مـرة توصـل إلى الرفـض إجابـة، فالرجـل لـه الحـق الكامـل في مغـادرة منزلـه إن اختـار ذلـك، وأن يرحـل دون أن يبلـغ موظفيـه بوجهتـه، لم يـر "جـون" أيَّـة فائـدة مـن إخبـار الطبيـب، الـذي لم يجلـب تدخلـه السـابق في شـئون المنـزل سـوى العلـل، أمـا المحامـي...

هنـا تباطـأ وتعقـد تفكـير "جـون" عـالي الصـوت، فمـن دون "تشـارلي"، مـن سـيوافق عـلى عمليـات السـحب مـن البنـك؟ لقـد عـرف دون أن يسـأل أن تدخـل المحامـي سـيكون ضروريًـا إن طـال اختفـاء "تشـارلي"، لكـن مـع ذلـك كانـت ممانعتـه طبيعيـة، فسـكان "آنجلفيلـد" عاشـوا مولين ظهورهـم للعـالم لسـنوات، و"هيسـتر" هـي الوحيـدة الدخيلـة التـي دخلت عالمهـم، وانظـر إلى مـا آل إليـه أمرهـا! إلى جانـب ذلـك فـإن "جـون" يكـن ارتيابًـا غريزيًّـا تجاه المحامـين، لا يوجـه "جـون" تهمـة محـددة إلى السـيد "لوماكـس"، الـذي يوحـي مظهـره بأنـه رجـل محـترم وعاقـل، ومـع ذلـك فإنـه لم يجـد في نفسـه ثقـة كافيـة بفكـرة أن ينتظـر حـل المشـكلة المنزليـة مـن شـخص يتكسـب ممارسـو مهنتـه مـن حـشر أنوفهـم في شـئون الآخرين الخاصـة، وإلى جانـب ذلـك، إن شـاعت معلومـة غيـاب "تشـارلي"، مثلمـا

شاعت معلومة غرابة سلوكه، هل سيسر المحامى أن يوقع على أوراقه البنكية، فقط حتى يستمر "جون" والسيدة فى دفع فواتير البقالة؟ لا، فقد عرف ما يكفى عن المحامين ليدرك أن الأمر لن يكون بهذه البساطة، عبس "جون" إثر تخيله للسيد "لوماكس" فى المنزل، وهو يفتح الأبواب، ويفتش الخزائن، ويلقى نظرة على كل ركن مظلم وكل ظل اختار مكانه بحذر فى عالم "آنجلفيلد"، سيكون ذلك بلا نهاية.

كذا فإن المحامى سيحتاج إلى زيارة واحدة ليعرف أن السيدة ليست على ما يرام، وسيصر على استدعاء الطبيب، وستئول السيدة نفس مآل "إيزابيل"، ستؤخذ بعيدًا، كيف سيأتى هذا بأى نفع؟

لا، لقد تخلصوا للتو من دخيلة، وهذا ليس وقتًا مناسبًا لدعوة دخلاء آخرين، ومن الآمن أكثر التعامل مع الشئون الخاصة على نحو خاص، ما يعنى، أن يتعامل معها بنفسه، بعدما عادت الأمور إلى حالها القديم.

لم يكن من داعٍ للتعجل، فعملية السحب الأخيرة كانت منذ أسابيع قليلة فقط، أى أنهم ليسوا مفلسين تمامًا، وقد رحلت "هيستر" دون أن تأخذ مستحقاتها، لذا فهذه الأموال أيضًا متاحة إذا لم تزدد الأحوال بؤسًا وترسل "هيستر" للمطالبة بها، وما من حاجة لشراء الكثير من الطعام: فهناك خضراوات وفواكه تكفى جيشًا فى الحديقة، والغابة مليئة بأنواع الطيور، وإذا تطلب الأمر، أو إن طرأ شىء ما، أو وقعت مصيبة (لم يدرك "جون" قصده بذلك، أليس ما يقاسونه بالفعل مصيبة؟ أيمكن أن ينتظرهم الأسوأ؟ لقد ظن ذلك بطريقة ما) فإنه يعرف شخصًا يمكن أن يأخذ بضع زجاجات نبيذ من القبو سرًّا مقابل شلن أو اثنين.

قال للسيدة وهو يدخن سيجارة فى إحدى الليالى فى المطبخ: "سنكون على ما يرام لفترة، على الأرجح لأربعة أشهر إن كنا حذرين، لا أعرف ماذا سنفعل حينها، ولكن سنرى".

كانت تلك حجة لمحاولة طمأنة الذات خلال المحادثة، لقد فقد الأمل فى تلقى أيَّة إجابات مباشرة من السيدة، لكنه مارس عادة الحديث معها طويلاً ومن الصعب التخلى عنها بسهولة، لذا اعتاد الجلوس فى الجهة المقابلة من المائدة فى المطبخ، ومشاركة أفكاره وأحلامه ومخاوفه معها، وحين ترد -بتدفق عشوائى غير مترابط من الكلمات- تحيره ردودها، فيحاول إيجاد الرابط بين إجاباتها وسؤاله، لكن المتاهة التى فى عقلها أكثر تعقيدًا من أن يتمكن من التجول فيها، والخيط الذى ساقها من كلمة إلى أخرى انساب من بين أصابعها فى الظلام.

ظل يورد الطعام من حديقة المطبخ ويطهو ويقطع اللحم على طبق السيدة ويضع ملء شوكة فى فمها، ويفرغ أكوابها من الشاى البارد ويعد مكانها أخرى ساخنة، هو ليس نجارًا، لكنه ركب ألواحًا جديدة على الألواح المتعفنة هنا وهناك، وأبقى على قدور مياه المطر فارغة فى الغرف الرئيسة، ووقف فى العليا يتطلع إلى ثقوب السقف ويحك رأسه ويقول بنظرة عازمة: "يجب أن نصلح هذا"، لكن تلك الفترة لم تكن غزيرة الأمطار، ولم تتساقط فيها الثلوج، فأمكن تأجيل هذه المهمة، هناك مهام كثيرة غيرها يجب إتمامها، فقد غسل ملاءات الأسرة والملابس، والتى تصبح جامدة ولزجة حين تجف بسبب بقايا قشور الصابون، وسلخ الأرانب ونتف الطيور وشواها، ومسح الحوض ونظفه، لقد عرف ما يجب فعله بعدما رأى السيدة تفعله مئات المرات.

بـين الحـين والآخـر كان يقـضى نصـف سـاعة فى الحديقـة، لكنـه لم يسـتمتع بهـا، فالـسرور الـذى يدخلـه عليـه وجـوده فى الحديقـة طغـى عليـه القلـق بشـأن مـا قـد يحـدث داخـل المنـزل فى غيابـه، وإلى جانـب ذلـك فـإن العنايـة السـليمة بالحديقـة تتطلـب وقتًـا أكـثر مـما خصصـه لهـا، وفى النهايـة فـإن الجـزء الوحيـد الـذى اعتنـى بـه حقًّـا هـو حديقـة المطبـخ، وتخـلى عـن البقيـة.

***

بمجـرد أن اعتدنـا الأمـر، شـعرنا بدرجـة مـا مـن الارتيـاح فى وضعنـا الجديـد، وفـر نبيـذ القبـو مصـدرًا سريًـا وأساسـيًّا لتمويـل المنـزل، وبمـرور الوقـت، بـدأ أسـلوب حياتنـا يبـدو قابـلاً للاسـتدامة، الأفضـل حقًّـا أن يظـل "تشـارلى" غائبًـا، فهـو إن ظـل مفقـودًا دون عـودة، وغـير ميـت ولا حـى، لـن يسـبب أذى لأى شـخص.

لذا احتفظت بالمعلومة لنفسى.

فى الغابـة كـوخ حقـير، غـير مسـتخدم منـذ عقـود، تكسـوه الأشـواك وتحـاصره أعشـاب القـراص، حيـث اعتـاد "تشـارلى" و"إيزابيـل" أن يلتقيـا، بعدمـا نُقلـت "إيزابيـل" إلى المصحـة، ظـل تشـارلى يـتردد إلى هنـاك، عرفـت ذلـك، لأننـى رأيتـه هنـاك، يتبـاكى، وينقـش رسـائل الحـب عـلى عظامـه بتلـك الإبـرة القديمـة.

إنـه مـكان واضـح، لـذا ذهبت إلى هنـاك مجددًا حـين اختفى "تشـارلى"، أشـق طريقـى بـين نباتـات العليـق وغيرهـا مـن النباتـات المتدليـة التـى غطـت المدخـل إلى الكـوخ ذى الهـواء المشـبع بالتعفـن، وهنـاك، وجدتـه فى الظـلام، ملقـى فى إحـدى الزوايـا وبجانبـه مسـدس، ونصـف وجهـه منفجـر، ميـزت النصـف الآخـر رغـم الديـدان، إنـه "تشـارلى" حقًّـا.

تراجعت من المدخل، غير عابئة لا بالأشواك ولا بنبات القراص، لم أطق انتظار أن أبتعد عن مجال رؤيته، لكن صورته ظلت معى، فركضت، وقد بدا مستحيلاً أن أهرب من تحديقه الأجوف ذى العين الواحدة.

أين أجد راحتى؟

هناك منزل أعرفه، منزل صغير بسيط فى الغابة، سرقت الطعام من هناك مرة أو مرتين، فذهبت إلى هناك، اختبأت بجوار النافذة التقط أنفاسى، وأنا مدركة أننى كنت قريبة من الحياة العادية، وحين توقفت عن اللهاث لألتقط أنفاسى، انتصبت أتطلع إلى الداخل، ورأيت امرأة تحيك على مقعدها، وهدأنى وجودها مع أنها لم تدر بوجودى، مثل جدة ما فى حكاية خيالية، تطلعت إليها لأطهر عينى، حتى تلاشت صورة جثة "تشارلى" واستقر نبضى.

سرت عائدة إلى آنجلفيلد ولم أخبر أحدًا، كان حالنا أفضل هكذا، وعلى أىّ حال، لن يُحدث ذلك فرقًا لـ"تشارلى"، أليس كذلك؟

وكان هو أول أشباحى.

***

بدا لى أن سيارة الطبيب دائمًا فى مدخل منزل السيدة "وينتر"، حين وصلت إلى يوركشاير للمرة الأولى كان يتصل كل ثلاثة أيام، ثم أصبحت مكالماته يومية، والآن يأتى إلى المنزل مرتين يوميًا، درست السيدة "وينتر" بحذر، وعرفت حقائق عنها، السيدة "وينتر" مريضة، السيدة "وينتر" تحتضر ومع ذلك، حين كانت تخبرنى قصتها، كان يبدو أنها تعتمد على بئر من القوة لا ينضب بالشيخوخة ولا المرض، فسرت تلك المعضلة بأن قلت لنفسى إن انتظام زيارات الطبيب تحديدًا هو ما يجعلها تستمر على هذه الحال.

لكـن لا بـد أنهـا تتدهـور عـلى نحـو خطـير بطـرق لا ألاحظهـا، فـماذا قـد يفـسر إعـلان "جوديـث" المفاجـئ فى صبـاح أحـد الأيـام؟ إذ أخبرتنـى فجـأة تمامًـا أن وعكـة صحيـة تمنـع السـيدة "وينـتر" مـن لقـائى، وأنهـا لـن تتمكـن مـن اسـتكمال مقابلاتنـا لمـدة يـوم أو اثنـين، وبمـا أننـى لـن يكـون لـدى مـا أفعلـه، يمكننـى أخـذ إجـازة صغـيرة.

"إجـازة؟ بعـد الجلبـة التـى أحدثتهـا بشـأن سـفرى فى المـرة الأخـيرة، كنـت أسـتبعد تمامًـا فكـرة أن ترسـلنى فى إجـازة الآن، خصوصًـا أن عيـد الميـلاد بعـد أسـابيع قليلـة!"

لكـن "جوديـث" احمـرت خجـلاً، فهـى لم تـأت بمعلومـات أكـثر، شىء مـا ليـس عـلى مـا يـرام، وأنـا أُزاح مـن الطريـق.

عرضـت "جوديـث" مسـاعدتى: "يمكننـى إعـداد حقيبـة لـك إن كان ذلـك يسـاعدك"، وابتسـمت ابتسـامة معتـذرة، مدركـة أننـى عرفـت أنهـا تخبـئ شـيئًا مـا.

انزعاجى جعلنى فظة: "أستطيع أن أحقب أشيائى".

"اليـوم إجـازة (موريـس)، لكـن الطبيـب (كليفتـون) يمكنـه أن يوصلـك إلى المحطـة".

مسكينة "جوديث"، إنها تكره الخداع ولا تجيد الحيل.

"والسيدة (وينتر)؟ أريد مقابلة سريعة معها، قبل أن أرحل".

"السيدة (وينتر)؟ أخشى أنها..."

"لن تقابلنى؟"

"لـن تسـتطيع مقابلتـك"، وتدفـق الارتيـاح إلى وجههـا وتـردد الصـدق فى صوتهـا مـع تمكنهـا أخـيرًا مـن قـول شىء حقيقـى، "صدقينـى يـا آنسـة (ليـا)، إنهـا فقـط لا تسـتطيع".

أيًّا كان ما تعرفه "جوديث"، فإن الطبيب "كليفتون" أيضًا يعرفه.

"أين في كامبريدج يوجد متجر والدك؟" أراد أن يعرف ذلك و"هل يتاجربكتب تاريخ الطب مطلقًا؟" أجبته باختصار، فأنا مهتمة بأسئلتي أكثر من أسئلته، وبعد بعض الوقت بلغت محاولاته للدردشة السريعة آخرها، وحين بلغنا هاروجيت، كان الجو في السيارة مثقلاً بصمت السيدة "وينتر" الجائر.

"آنجلفيلد" مجددًا

فى اليوم السابق وأنا فى القطار، تخيلت نشاطًا وضوضاء فى آنجلفيلد: أصوات تصيح بالتعليمات وأذرع ترسل رسائل سيمافورية[1] متعجلة، رافعات، مدوية وبطيئة، وحجارة تحطم حجارة، لكن بدلاً من ذلك كان كل شىء صامتًا وثابتًا حين وصلت إلى بوابات المنازل الحجرية الصغيرة وتطلعت نحو موقع الهدم.

لم يكن هناك ما يُرى، فالضباب المعلق فى الهواء أخفى كل شىء بعيد قليلاً، وحتى الطريق الخاص لم يكن واضحًا، كنت أرى قدمى فى لحظة، وتختفى فى اللحظة التالية، تقدمت رافعة رأسى دون أن أرى، متتبعة المسار مثلما أتذكره من زيارتى الأخيرة، ومثلما أتذكره من وصف السيدة "وينتر".

خريطته فى عقلى كانت دقيقة: فوصلت إلى الحديقة فى اللحظة التى توقعتها تحديدًا، تنتصب الأشكال المظلمة لأشجار الصنوبر كأنها

(1) إشارات تُرسل باستخدام أعلام صغيرة ملونة.

فى مشـهد مسرحـى يكسـوه الغمـوض، مُسـطح إلى بُعديـن فقـط بسـبب الخلفيـة الفارغـة، وقـد طفـا زوج مـن قبـب أشـجار الصنوبـر أعـلى سـحب الضبـاب مثـل قبعـات الرمـاة، وتـلاشى الجذعـان اللـذان يحمـلان القبتـين فى الضبـاب الأبيـض تحتهـما، سـتون عامًـا جعلـت الشـجرتين متضخمتـين وأفقدتهـما هيئتهـما، لكـن مـن السـهل اليـوم افـتراض أن الضبـاب هـو مـا يخفـف الحـدة الهندسـية للأشـجار، وأنـه حـين يتـلاشى، سيكشـف عـن الحديقـة مثلـما كانـت قديمًـا، بـكل كمالهـا الهنـدسى، فى أرض لا تسـتعد للهـدم، وليسـت خرابًـا، بـل حـول منـزل سـليم.

نصـف قـرن، عديـم القيمـة كالميـاه المعلقـة فى هـذا الهـواء، مسـتعد للتبخـر مـع أول شـعاع لشـمس الشـتاء.

قربـت رسـغى مـن وجهـى لأعـرف السـاعة، لقـد رتبـت لأقابـل "أوريليـوس"، لكـن كيـف أجـده وسـط هـذا الضبـاب؟ يمكـن أن أتجـول للأبـد دون أن أراه، حتـى ولـو مـر عـلى مسـافة ذراع.

ناديت: "أمن أحد هنا؟" وجاء الرد بصوت رجل.

"نعم!"

يستحيل أن أعرف إن كان بعيدًا أم قريبًا: "أين أنت؟"

تخيلت "أوريليوس" يحدق إلى الضباب بحثًا عن أىّ علامة.

جاءت كلماته مكتومة: "أنا بجوار شجرة".

"وأنـا كذلـك، لا أعتقـد أننـا بجـوار الشـجرة نفسـه، صوتـك بعيـد للغايـة".

"لكن صوتك قريب جدًا".

"حقًا؟ لم لا تبق مكانك وتظل تتكلم، وأنا سأجدك!"

"أنـت محقـة! إنهـا خطـة ممتـازة! لكـن سـأضطر إلى التفكـير فى شىء لأقولـه، أليـس كذلـك؟ كـم هـو صعـب الـكلام حـين يُطلـب منـك، فى حـين أنَّـه يبـدو سـهلاً جـدًّا بقيـة الوقـت.. كـم هـذا الطقـس كئيـب، لم أرَ ضبابًـا مثـل هـذا مـن قبـل".

ظـل "أوريليـوس" يفكـر بصـوت عـالٍ، فى حـين خطـوت أنـا داخـل سـحابة وتبعـت خيـط صوتـه فى الهـواء.

كان هــذا حــين رأيــت شــيئًا مــا، ظِــل انســاب بجــوارى، شــاحب فى الضـوء الرطـب، أظـن أننـى أدركـت أنـه ليـس "أوريليـوس"، أحسسـت فجـأة بنبـض قلبـى، ومـددت ذراعـى، يتقاسـم الخـوف والأمـل مشـاعرى، تملـص الظـل منـى وانسـاب مبتعـدًا.

"(أوريليوس)؟" بدا صوتى مهتزًا فى أذنى.

"ماذا؟"

"أما زلت هناك؟"

"بالتأكيد".

بـدا صوتـه فى الاتجـاه الخطـأ تمامًـا، فـماذا رأيـت للتـو؟ لم يكـن ذلـك "أوريليـوس"، لا بـد أنـه تأثـير الضبـاب، وقفـت مـكانى أحـدق إلى الهـواء الرطـب، مسـتعدة لظهـور الظـل مجـددًا، وخائفـة مـما قـد أرى لـو انتظـرت.

انطلـق صـوت قـوى مـن ورائى: "آهـا! هـا أنـت ذا!" إنـه "أوريليـوس"، قبـض عـلى كتفـى بيديـه مرتديًـا قفازيـه غـير المكتملـين واسـتدرت أنـا نحـوه: "يـا إلهـى يـا (مارجريـت)، أنـت بيضـاء مثـل ورقـة، تبديـن كأنـك رأيـت شـبحًا!"

***

تمشينا معًا فى الحديقة، بدا "أوريليوس" بمعطفه أطول وأعرض من حقيقته، وبجانبه شعرت أنا بالضآلة داخل معطفى ضبابى اللون.

"ما أخبار كتابك؟"

"إنه مجرد ملاحظات حاليًا، ومقابلات مع السيدة (وينتر)، والكثير من الأبحاث".

"اليوم تجرين الأبحاث، أليس كذلك؟"

"نعم".

"أردت فقط التقاط بعض الصور، لكن يبدو أن الطقس ليس فى صالحى".

"سترين بوضوح خلال ساعة، لن يستمر الضباب طويلاً".

وصلنا إلى ما يشبه الممشى، تصطف على جانبيه أشجار مخروطية عريضة للغاية لدرجة أنها تكاد تشكل سياجًا.

"لماذا تأتى إلى هنا يا (أوريليوس)؟"

تمشينا حتى نهاية الممر، ثم فى مساحة لم يبد أن بها شىء سوى الضباب، حين وصلنا إلى جدار من الصنوبر يبلغ ارتفاعه ضعف طول "أوريليوس" نفسه مشينا بمحاذاته، لاحظت لمعانًا على العشب وعلى أوراق الأشجار: لقد ظهرت الشمس، بدأت رطوبة الهواء فى التبخر واتسعت دوائر الرؤية بمرور كل دقيقة، قادنا حائط الصنوبر فى دائرة كاملة من المساحة الفارغة، إذ وصلنا إلى الممر نفسه الذى دخلنا منه.

بدا أن وقتًا طويلاً قد مر منذ طرحت سؤالى، لدرجة أننى لم أعد واثقة من أننى سألته، أجاب "أوريليوس": "لقد ولدت هنا".

توقفت فجأة، وتابع "أوريليوس" المشى، غير مدرك لتأثير كلماته على، مددت لبضع خطوات لألحق به.

"أوريليـوس!" أمسـكت بكـم معطفـه: "أهـذا حقيقـى؟ هـل ولـدت هنـا حقًـا؟"

"نعم".

"متى؟"

ابتسم ابتسامة غريبة وحزينة: "فى يوم مولدى".

أصررت بلا تفكير: "نعم، لكن متى؟"

"فى يـوم مـا فى ينايـر عـلى الأرجـح، ربمـا فبرايـر، ربمـا نهايـة ديسـمبر، قبـل سـتين عامًـا تقريبًـا، أخـشى أننـى لا أعـرف أكـثر مـن ذلـك".

عبسـت، وتذكـرت مـا أخـبرنى إيـاه مـن قبـل عـن السـيدة "لاف" وأن لا أم لـه، لكـن مـا الظـروف التـى تجعـل طفـلاً متبنّـى يعـرف القليـل جـدًا عـن ظـروف ولادتـه، لدرجـة أنـه لا يعـرف يـوم مولـده؟

"أتقصد أن تقول إنك كنت طفلاً لقيطًا يا (أوريليوس)؟"

"نعم، هذا وصفى، لقيط".

لم تسعفنى الكلمات.

"أظـن أن المـرء يعتـاد الأمـر"، وأسـفت لأنـه اضطـر إلى تعزيتـى فى مصابـه هـو.

"هل اعتدت الأمر حقًا؟"

تطلع إلى بوجه فضولى، يفكر إلى أىّ حد سيخبرنى: "فى الواقع، لا".

بخطـوات بطيئـة وثقيلـة كالمصابـين، تابعنـا نزهتنـا، تـلاشى الضبـاب تقريبًـا، وفقـدت أشـكال الأشـجار التوبياريـة السـاحرة سـحرها، وبـدت عـلى حقيقتهـا، شـجيرات وأسـيجة غـير مهذبـة.

بادرت بالحديث: "إذًا فالسيدة (لاف) هى مَن..."

"وجدتنى، نعم".

"ووالداك..."

"لا فكرة لدى".

"لكنك تعرف أنهما كانا هنا؟ فى هذا المنزل؟"

دس "أوريليوس" يديه فى جيبيه، وشد كتفيه: "لا أنتظر من الآخرين التفهم، ليس لدى أىّ دليل، لكننى أعرف ذلك"، وألقى علىّ نظرة سريعة، وحثثته أنا، بعينى، على أن يستمر.

"أحيانًا قد تعرفين بعض الأشياء، أشياء عن نفسك، أشياء تتجاوز مدى ذاكرتك، لا أستطيع أن أشرح الأمر".

أومأت، وتابع "أوريليوس".

"ليلة العثور علىّكان هنا حريق كبير، أخبرتنى السيدة (لاف) بهذا حين كانت سنى تسعة أعوام، اعتقدت هى أنها يجب أن تخبرنى، بسبب رائحة الحريق بملابسى حين وجدتى، لاحقًا جئت لألقى نظرة، وانتظم مجيئى منذئذ، وبعدها بحثت فى أرشيف الصحيفة المحلية، على أىّ حال..."

ميز صوته خفة لا تخفى، تلك الخفة المميزة حين يقول شخص شيئًا شديد الأهمية، إنها قصة عزيزة للغاية لدرجة أنها يجب أن تُغطى باللامبالاة لإخفاء أهميتها، فى حال تبين أن المستمع غير متعاطف.

"على أىّ حال، عرفت فى اللحظة التى جئت فيها إلى هنا، قلت لنفسى هذا بيتى، لقد جئت من هنا، لا شك فى هذا، أعرف ذلك".

ومع كلماته الأخيرة، كان "أوريليوس" قد سمح للخفة بالانسياب، وسمح للحماس بالتسلل، تنحنح: "بالتأكيد لا أتوقع أن يصدق أحد

هـذا، ليـس لـدى دليـل عـلى ذلـك، بـل مجـرد صدفـة تواريـخ، وذاكـرة السـيدة (لاف) الضبابيـة عـن رائحـة دخـان، وقناعتـى الشـخصية".

قلت: "أنا أصدقك".

عض "أوريليوس" شفته وألقى إلى نظرة جانبية حذرة.

قادتنـا أسراره، وهـذا الضبـاب، عـلى نحـو غـير متوقـع إلى شـبه جزيـرة مـن الحميميـة، ووجـدت نفـسى عـلى وشـك أن أخـبره بمـا لم أخـبر بـه أحدًا مـن قبـل، فقفـزت الكلـمات مسـتعدة إلى بـالى، نظمـت نفسـها لحظيًـا فى شـكل جمـل، سـطور طويلـة مـن الجمـل، لا تطيـق صـبرًا لتنطلـق مـن فمـى، كأن التخطيـط لهـا قـد تـم قبـل سـنوات مـن تلـك اللحظـة.

كررتهـا: "أنـا أصدقـك"، ولسـانى مثقـل بـكل الكلـمات المنتظـرة: "راودنى أنـا أيضًـا ذلـك الشـعور، أن أعـرف أشـياء لا يمكـن أن أعرفهـا، مـن فـترة تتجـاوز مـدى ذاكـرتى".

وحينئــذ ظهـر مجــددًا! حركــة مفاجئــة عنــد طــرف عينــى، ظهــر واختفــى فى اللحظــة نفســها.

"هل رأيت هذا يا (أوريليوس)؟"

تتبـع تحديقـى نحـو الأشـجار الهرميـة ووراءهـا: "أرى مـاذا؟ لا، لم أرَ شـيئًا".

لقد اختفى، أو لم يكن هناك قط.

التفــت إلى "أوريليــوس"، لكننــى فقــدت مــا اســتجمعته مــن جــرأة، راحــت لحظــة الأسرار.

سأل "أوريليوس": "هل لك عيد ميلاد؟"

"نعم، لى عيد ميلاد".

تراجعـت كل كلـماتى التـى لم أقلهـا إلى حيثـما كانـت طـوال تلـك السـنوات.

"سـأدونه إذًا"، قالهـا باسـمًا، "بذلـك سـأتمكن مـن أن أرسـل لـك بطاقـة معايدة".

تكلفت ابتسامة: "فى الواقع، لقد اقترب".

فتح "أوريليوس" مفكرة زرقاء صغيرة مقسمة إلى أشهر.

أخبرتـه: "التاسـع عـشر"، ودون اليـوم بقلـم رصـاص صغـير جـدًّا، بـدا كعـود أسـنان فى يـده الضخمـة.

السيدة "لوف" وتقسيمة الكعب.

حين بدأت الأمطار تهطل رفعنا قلنسوتينا وهرولنا لنحتمي بالكنيسة، هززنا أنفسنا قليلاً في مدخلها لنسقط عن معطفينا قطرات المطر، ثم دخلنا.

جلسنا على أحد المقاعد الطويلة قرب المذبح وحملقت إلى السقف الباهت المقبب حتى شعرت بالغثيان.

قلت: "أخبرني عن فترة العثور عليك، ماذا تعرف عنها؟"

"أعرف ما أخبرتني به السيدة (لوف)، يمكنني أن أحكيه لك، وبالطبع هناك ميراثي".

"لك ميراث؟"

"نعم، ليس بالشيء الكثير، ليس ما يقصده الناس عادة حين يتحدثون عن الميراث، لكن مع ذلك... في الواقع يمكنني أن أريه لك لاحقًا".

"سيكون هذا لطيفًا".

"نعـم.. لأننـى كنـت أفكـر فى أن السـاعة التاسـعة مناسـبة لتنـاول الإفطـار أكـثر مـن تنـاول كعكـة، أليـس كذلـك؟" قالهـا بتكشـيرة ممانعـة، تحولـت إلى ابتسـامة مشرقـة مـع كلماتـه التاليـة: "لـذا فكـرت فى دعوتـك إلى تصبـيرة صباحيـة، فـما رأيـك بتنـاول كعكـة وشرب القهـوة؟ سـيكون تنـاول شىء مفيـدًا لـك، وسـأريك مـيراثى فى غضـون ذلـك، مهـما كانـت ضآلـة مـا سـترينه".

قبلت الدعوة.

أخـرج "أوريليـوس" نظارتـه مـن جيبـه وشرع بتلميعهـا مسـتخدمًا منديـلاً بعقـل شـارد.

"والآن"، أخـذ نفسًـا عميقًـا، وزفـر ببـطء، "السـيدة (لاف) وقصتهـا، مثلـما حُكيـت لى".

اسـتقر وجهـه موحيًـا بحيـاد غـير متأثـر، علامـة عـلى أنـه عـلى طريقـة كل رواة القصـص، كان يختفـى ليفسـح مجـالاً لصـوت القصـة نفسـها، ثـم بـدأ يـسرد، ومـن أول كلمـة قالهـا، وفى جوهـر صوتـه، كان صـوت السـيدة "لاف" هـو مـا سـمعته، لقـد اسـتحضرها مـن القـبر بواسـطة ذكـرى قصتهـا.

إنها قصتها وقصة "أوريليوس"، وعلى الأرجح، قصة "إيميلاين" أيضًا.

==============

كانـت السـماء فى تلـك الليلـة حالكـة السـواد، والعاصفـة تختمـر فيهـا، والريـاح تصفـر فى أعـالى الأشـجار والأمطـار غزيـرة تـكاد تكـسر النوافـذ، وأنـا أحـوك جوربًـا رماديًـا فى ذلـك المقعـد قـرب النـار، وهـو الجـورب الثـانى، وكنـت قـد وصلـت إلى تقسـيمة الكعـب، انتابتنـى قشـعريرة، ولكـن ليـس لأننـى شـعرت بالـبرد، فلـدى كومـة جيـدة مـن الحطـب جلبتهـا مـن الكـوخ منـذ عـصر اليـوم، وقـد أضفـت جذعًـا جديـدًا للتـو، لـذا لم أكـن

أشعر بالبرد، مطلقًا، لكننى قلت لنفسى يا لها من ليلة، أنا ممتنة لأننى لست روحًا مسكينة عالقة فى الخارج بعيدًا عن بيتها فى ليلة كهذه، والتفكير فى تلك الروح المسكينة هو ما جعلنى أقشعر.

كل شىء فى الداخل هادئ، إلا من طقطقة النار بين الحين والآخر، وصليل إبرتى الحياكة حين تصطكان، وتنهداتى، تستغرب تنهداتى؟ حسنًا هذا لأننى لم أكن سعيدة، فقد سقطت فى فخ التذكر، وهى عادة سيئة لامرأة فى الخمسين من عمرها، لدى موقد دافئ وسقف فوق رأسى وعشاء مطهو بداخلى، لكن هل أنا سعيدة؟ ليس أنا، لذا جلست هناك أتنهد أمام جوربى الرمادى، فى حين استمر هطول المطر، وبعد بعض الوقت، قمت لأجلب شريحة من كعكة الخوخ من الخزانة، حلوة وناضجة ومخبوزة بالبراندى، أبهجتنى بلا نهاية، لكن حين رجعت وأمسكت بأدوات حياكتى، تحول نبض قلبى، أتعرف لماذا؟ لقد حكت تقسيمة الكعب مرتين!

ضايقنى ذلك، ضايقنى حقًا، لأننى حائكة حذرة، لست متسرعة مثلما اعتادت أختى "كيتى" أن تكون، ولست شبه عمياء مثل والدتى المسكينة حين قاربت الرحيل، لقد ارتكبت هذا الخطأ مرتين فقط فى حياتى.

المرة الأولى التى حكت فيها تقسيمة الكعب أكثر من اللازم كانت وأنا صغيرة، كنت جالسة بجوار نافذة مفتوحة فى عصر يوم مشمس، استمتع برائحة كل شىء مزهر فى الحديقة، كان ذلك جوربًا أزرق، أحوكه من أجل.. رجل شاب، رجلى الشاب، لن أخبرك باسمه، فلا حاجة إلى ذلك، فى الواقع كنت مستغرقة فى حلم يقظة، الأمر سخيف، فساتين بيضاء وكعكات بيضاء والكثير من هذا الهراء، وفجأة نظرت إلى الأسفل ووجدت أننى حكت تقسيمة الكعب مرتين، كان ذلك واضحًا كالشمس، تقسيمة الساق، ثم كعب، ثم المزيد من التقسيم

مـن أجـل القـدم ثـم، كعـب آخـر، ضحكـت بصـوت عـالٍ، لم يهمنـى ذلـك، ففـك الخياطـة وإصلاحهـا سـهل كفايـة.

كنـت قـد سـحبت الإبـر بالفعـل حـين جـاءت "كيتـى" تركـض فى ممـر الحديقـة: "مـاذا بهـا؟" قلـت ذلـك لنفـسى بسـبب تعجلهـا، رأيـت وجههـا شـاحبًا ولونهـا متغـيرًا، ثـم توقفـت فجـأة لحظـة رأتنـى عـبر النافـذة، حينهـا عرفـت أنهـا ليسـت مشـكلة لهـا، بـل لى، فتحـت فمهـا لكنهـا لم تسـتطع حتـى أن تنطـق اسـمى، كانـت تبـكى، ثـم تحدثـت أخـيرًا.

وقـع حـادث، كان رجـلى الشـاب بالخـارج مـع أخيـه، يصطـادان بعـض الطيـور حيـث لا يجـب أن يصطـادا، رآهـما أحـد وخافـا فجـأة وركضـا، وصـل "دانيـال"، أخـوه، إلى السـور الخشـبى أولاً وقفـز، لكـن رجـلى الشـاب كان متعجـلاً للغايـة، علـق مسدسـه فى السـور، كان يجـب أن يبطـئ، ويعطـى نفسـه الوقـت الـلازم، سـمع وقـع أقـدام تطاردهـما وأصابـه الهلـع، حـاول بقـوة جـذب مسدسـه، لا يجـب أن أحـكى البقيـة، صحيـح؟ يمكنـك تخمـين مـا حـدث.

فككـت حياكتـى، كل تلـك العقـد الصغـيرة التـى تحيـك الواحـدة منهـا بعـد الأخـرى، صفًـا تلـو الآخـر، لتصنـع جوربًـا، فككتهـا كلهـا، الأمـر سـهل، أخـرج الإبـر، وبشـدة صغـيرة سـتنهار العقـد، واحـدة تلـو الأخـرى، وصفًـا تلـو الآخـر، فككـت الكعـب الزائـد وظللـت أفـكك فقـط، القـدم، الكعـب الأول، وتقسـيمة السـاق، كل تلـك الحلقـات تفـكك نفسـها وهـى تسـحب الخيـط الصـوفى، ثـم لم يتبـقَّ مـا يمكـن فكـه، فقـط كومـة مـن الصـوف الأزرق المتعـرج كالخريطـة فى حجـرى.

لا يسـتغرق الأمـر طويـلاً لتحـوك جوربًـا، ويسـتغرق فكـه وقتًـا أقـل جـدًا.

أتوقـع أننـى لففـت الصـوف الأزرق عـلى هيئـة كـرة لأصنـع منـه شـيئًا آخـر، لكننـى لا أتذكـر ذلـك.

فى المرة الثانيـة التـى حكـت فيهـا تقسـيمة الكعـب مرتـين كنـت بدأت أكـبر بالسـن قليـلاً، كنـت أجلـس و"كيتـى" قـرب الموقـد معًـا، مـر عـام منـذ مـات زوجهـا، وحـوالى عـام منـذ انتقالهـا للعيـش معـى، ظننـت أنهـا تتحسـن كثـيرًا، أصبحـت تبتسـم أكـثر، وتنمـى اهتمامهـا ببعـض الأشـياء، أصبحـت تسـمع اسـمه دون أن تبـكى، جلسـنا هنـاك وكنـت أحـوك زوجًـا جميـلاً مـن جـوارب النـوم مـن أجـل "كيتـى" مـن أنعـم أصـواف الخـراف، ولونـه ردى ليتـلاءم مـع ثـوب نومهـا، وكان لديهـا كتـاب فى حجرهـا، لكنهـا لم تكـن تنظـر إليـه، لأنهـا قالـت: "(جـوان)، لقـد حكـت تقسـيمة الكعـب مرتـين".

أوقفت عملى، وكانت محقة، قلت: "أنا متفاجئة للغاية".

قالـت إنهـا مـا كانـت لتتفاجـأ لـو كانـت تلـك حياكتهـا، فهـى دائمًـا مـا تحيـك تقسـيمة الكعـب مرتـين، أو تنـسى أن تحيكهـا مـن الأسـاس، ففـى أكـثر مـن مـرة كانـت تحيـك جـوارب رجاليـة بـلا كعـوب، فقـط سـاق وقـدم، ضحكنـا، لكنهـا قالـت إنهـا تفاجـأت مـما فعلتـه، إذ لم يكـن معتـادًا أن أكـون شـاردة الذهـن جـدًّا هكـذا.

قلـت لهـا إننـى ارتكبـت هـذا الخطـأ مـن قبـل، مـرة واحـدة فقـط، وذكرتهـا بمـا حكيتـه لـك للتـو، كل مـا تعلـق برجـلى الشـاب، وبينـما أنـا مسـتغرقة فى الذكريـات بصـوت عـالٍ، فككـت بحـذر الكعـب الثـانى وبـدأت فى إصلاحـه، يتطلـب الأمـر بعـض التركيـز، والضـوء كان يخفـت، فأنهيـت قصتـى، ولم تقـل هـى أىّ شىء، وظننـت أنهـا تفكـر فى زوجهـا، فقـد تحدثـت عـن خسـارتى التـى مـرت عليهـا كل تلـك السـنين، وبالمقارنـة فـإن خسـارتها حديثـة جـدًا.

كان الضـوء أخفـت مـن أن أُكمـل القـدم بشـكل صحيـح، فوضعـت الجـورب جانبًـا وتطلعـت، قلـت: "(كيتـى)؟ (كيتـى)؟" ولم أجـد ردًّا، فكـرت للحظـة فى أنهـا ربمـا نامـت، لكنهـا لم تنـم.

بـدت ملامحهـا مسـالمة جـدًّا بابتسـامة عـلى وجههـا، كأنهـا كانـت سـعيدة لاجتماعهـا معـه مجـددًا، اجتماعهـا مـع زوجهـا، لقـد انتقلـت إليـه إليـه وأنـا أنظـر إلى الجـورب فى الظـلام، وأثرثـر بشـأن قصتـى القديمـة.

أزعجنـى الأمـر فى تلـك الليلـة ذات السـماء الحالكـة أن أكتشـف أننـى حكـت كعبًـا ثانيًـا، ففـى أول مـرة فعلـت ذلـك فقـدت رجلى الشـاب، وفى الثانيـة فقـدت أختـى، والآن الثالثـة، لم يعـد لـدى أحـد لأخسره، لم يتبـق سـواى الآن.

نظرت إلى الجورب، صوف رمادى، شىء بلا ملامح صنعته من أجلى.

قلـت لنفـسى إنـه ربمـا لا يهـم، فمـن يمكـن أن يفتقـدنى؟ لـن يعـانى أحـد إثـر رحيـلى، وهـذه نعمـة، ففـى النهايـة، عـلى الأقـل عشـت حيـاة، عـلى عكـس رجـلى الشـاب، وتذكـرت أيضًـا النظـرة عـلى وجـه "كيتـى"، تلـك النظـرة المسـالمة السـعيدة، فكـرت فى أن الأمـر ليـس سـيئًا تمامًـا.

جلسـت أفـكك الكعـب الإضـافى، قـد تسـألنى عـن فائـدة ذلـك، حسـنًا، لم أرد أن يجـدنى أحـد بـه، تخيلتهـم يقولـون: "المـرأة المسـنة السـخيفة، لقد وجدوهـا وأدوات الحياكـة فى حجرهـا، وخمنـوا مـا فعلتـه! لقـد حاكـت تقسـيمة الكعـب مرتـين"، لم أرد أن يقولـوا ذلـك، لـذا فككتـه، وبينـما أنـا أبـاشر الفـك، كنـت أجهـز نفـسى فى عقـلى للرحيـل.

لا أعـرف لكـم مـن الوقـت ظللـت عـلى هـذا الوضـع، لكـن فى النهايـة، وجـدت ضوضـاء طريقهـا إلى أذنى مـن خـارج البـاب، صرخـة تشـبه صرخـة حيـوان تائـه، كنـت شـاردة بأفـكارى، لا أتوقـع حـدوث أى شىء بـين الآن ورحيـلى، لـذا لم أنتبـه فى البدايـة، لكننـى سـمعتها مجـددًا، وبـدت كأنهـا تناديـنـى، لأن مـن غـيرى عالـق هنـا فى الفـراغ كان سيسـمعها؟ فكـرت فى أنهـا ربمـا قطـة، ضاعـت مـن أمهـا أو شىء كهـذا، ومـع أننـى كنـت أسـتعد لمقابلـة خالقـى، ظلـت صـورة تلـك القطـة الصغـيرة، بفرائهـا المبتـل، تشـتتنى، وفكـرت فى أن اسـتعدادى للمـوت ليـس سـببًا كافيًـا لأمنـع عـن

أحـد مخلوقـات الـرب بعـض الـدفء والطعـام، وقـد أخـبرك أيضًـا أننـى لم أمانـع فكـرة أن يجـاورنى فى تلـك اللحظـة أى كائـن حـى، لـذا ذهبـت إلى البـاب.

وماذا وجدت؟

رضيـع! ملفـوف ومـتروك فى المدخـل يحميـه مـن المطـر، مدثـر بالأقمشـة، يمـوء مثـل قطـة صغـيرة، ذلـك المخلـوق الصغـير المسـكين، كنـت تشـعر بالـبرد والجـوع، بالـكاد صدقـت عينـى، انحنيـت وحملتـك، ولحظـة رأيتنـى توقفـت عـن البـكاء.

لم أطـل البقـاء خـارج المنـزل، أردت طعامًـا وبعـض الكسـاء الجـاف، لـذا لا، لم أقـف طويـلاً فى المدخـل، ألقيـت نظـرة سريعـة فقـط، ولم أجـد شـيئًا هنـاك، ولا أحـد مطلقًـا، ليـس إلا ريـاح تجعـل الأشـجار تصـدر حفيفًـا عنـد طـرف الغابـة، ودخـان يتصاعـد إلى السـماء ناحيـة "آنجلفيلـد"، وهـذا غريـب.

قبضتك إلىّ، ودخلت وأغلقت الباب.

فى المرتـين اللتـين حكـت فيهـما تقسـيمة الكعـب مرتـين، حـام المـوت حـولى، وفى المـرة الثالثـة، طرقـت الحيـاة بـابى، علمنـى ذلـك ألا أسـتغرق كثـيرًا فى تفسـير الصـدف، وعـلى أيَّـة حـال، لم يعـد لـدى بعـد ذلـك الكثـير مـن الوقـت للتفكـير فى المـوت.

انشغلت بالتفكير فيك.

وعشنا فى تبات ونبات.



***

ازدرد "أوريليوس" ريقه، أصبح صوته أجش ومكسورًا، خرجت الكلمات منه مثل تعويذة، كلمات سمعها آلاف المرات خلال طفولته، وتكررت داخله لعقود وهو بالغ.

حين انتهت القصة جلسنا صامتين، نتأمل المذبح، وفى الخارج استمر هطول المطر، غير متعجل، و"أوريليوس" ثابت كتمثال إلى جانبى، لكننى اعتقدت أن أفكاره ليست هادئة بأى شكل.

هناك الكثير مما يمكننى قوله، لكننى لم أقل شيئًا، انتظرته فقط ليعود إلى الحاضر وقتما يناسبه، وتكلم معى حين عاد.

"الأمر أن هذه ليست قصتى، أليس كذلك؟ أقصد، أنا فيها، وهذا واضح، لكنها ليست قصتى، إنها خاصة بالسيدة (لاف) والرجل الذى أرادت الزواج منه، وأختها (كيتى)، وحياكتها، ومخبوزاتها، كل هذا قصتها هى، ثم حين ظنت أن كل شىء على وشك النهاية، وصلت أنا وجلبت معى بداية جديدة للقصة.

لكن هذا لا يجعلها قصتى، صحيح؟ لأنها قبل أن تفتح الباب.. قبل أن تسمع الصوت فى تلك الليل.. قبل..."

سكت، وأنفاسه منقطعة، وقام بإشارة ليقطع جملته ويبدأ مجددًا: "لأنه حتى يجد أحد رضيعًا هكذا، وأن يجده فجأة، وحده تمامًا تحت المطر، فهذا يعنى أنه، قبل ذلك -وحتى يحدث ذلك- بالضرورة..."

وقام بإشارة عصبية أخرى ماحية لكلامه، يحرك عينيه باتساع فى أنحاء سقف الكنيسة كأنه سيجد فى مكان ما الفعل الذى احتاج إليه، والذى سيمكنه أخيرًا من أن يجد ما أراد قوله: "لأن إن وجدتى السيدة (لاف)، فهذا لا يعنى إلا أنَّ قبل أن يحدث ذلك، لا بد أن أحدًا آخر، شخصًا آخر، أمًّا أخرى..."

ها هو، ذلك الفعل.

تجمد وجهه من اليأس، وأوقفت يداه فى منتصف إشارة عصبية بطريقة تشير إلى رجاء أو دعاء.

هناك أوقات يكون فيه الوجه والجسد البشرى قادران على التعبير عما يتوق إليه القلب بدقة شديدة، لدرجة أنك تستطيع، مثلما يُقال، أن تقرأهما مثل كتاب، وأنا قرأت "أوريليوس".

لا تتخلى عنى.

لمست يده بيدى، وعاد التمثال إلى الحياة.

همست: "ما من فائدة من انتظار توقف المطر، ستمطر طوال اليوم، ويمكن لصورى أن تنتظر، يمكننا أيضًا أن ننطلق".

قال: "نعم"، بنبرة خشنة فى حلقه، "يمكننا أيضًا أن ننطلق".

الميراث

قال مشيرًا إلى داخل الغابة: "إنها مسيرة كيلومترين ونصف في مسار مباشر، وتطول المسافة إن سلكنا الطريق الرئيس".

عبرنا حديقة الغزلان وكدنا نصل إلى طرف الغابة حين سمعنا أصواتًا، كان صوت امرأة يسبح عبر الأمطار، من طريق الحصى إلى أطفالها، وعبر الحديقة وصولاً إلينا، "قلت لك يا (توم)، المكان مبتل للغاية، لا يمكنهم العمل حين تمطر هكذا"، توقف الطفلان محبطين لرؤية الرافعات والآلات الساكنة، لم أستطع التفريق بينهما وهما يعتمران قبعتين واقيتين من المطر على رأسيهما الأشقرين، لحقت المرأة بهما، وتجمعت العائلة للحظة في اجتماع سريع للمعاطف الطويلة الواقية من المطر.

استغرق "أوريليوس" في نشوة مشاهدة تلك اللوحة الفنية العائلية.

قلت: "لقد رأيتهم من قبل، هل تعرفهم؟"

"إنهـم عائلـة تعيـش فى شـارع (ذا سـتريت)، بالمنـزل ذى الأرجوحـة، وتعتنـى (كاريـن) بالغـزلان هنـا".

"ألا يزال الصيد يحدث هنا؟"

"لا، إنها تعتنى بالغزلان فقط، إنهم عائلة لطيفة".

تطلـع إليهـم حاسـدًا، ثـم قطـع انتباهـه بهـزة لرأسـه: "السـيدة (لاف) أحسـنت معاملتـى، وأحببتهـا، كل تلـك الأشـياء الأخـرى..." وقـام بحركـة رافضـة، والتفـت إلى الغابـة: "هيـا بنـا، لنذهـب إلى المنـزل".

اسـتدارت العائلـة ذات المعاطـف الواقيـة مـن المطـر نحـو بوابـات المنـازل الحجريـة الصغـيرة، يبـدو أنهـم توصلـوا إلى القـرار نفسـه.

سرت و"أوريليوس" عبر الغابة بود صامت.

لم تكـن هنـاك أوراق أشـجار لتحجـب الضـوء، والأفـرع التـى سـودتها الأمطـار بـدت مظلمـة بعـرض السـماء الرطبـة، وحـين مـد "أوريليـوس" ذراعـه لإبعـاد الأفـرع الهابطـة أضـاف المزيـد مـن قطـرات المطـر إلى تلـك التـى تهبـط مـن السـماء، بلغنـا جـذع شـجرة سـاقط وانحنينـا إليـه، محدقـين إلى البركـة المظلمـة فى فراغـه، التـى خففـت اللحـاء المتعفـن لتجعلـه أشـبه بالفـراء.

أعلن "أوريليوس": "إنه البيت".

كان منـزلاً حجريًـا صغـيراً، مصمـم للتحمـل وليـس للزينـة، لكـن مـع ذلـك مظهـره جـذاب، بخطوطـه البسـيطة والراسـخة، قـادنى "أوريليـوس" فى جولـة حـول المنـزل، هـل سـنه مئـة أم مئتـا عـام؟ صعـب أن أجـزم، ليـس مـن نـوع المنـازل التـى قـد تُحـدث مئـة عـام تغيـيرات كبـيرة بـه، باسـتثناء أن لـه امتـدادًا جديـدًا كبـيراً فى الخلـف، بكـبر المنـزل نفسـه تقريبًـا، ويشـغل مطبـخ كامـل مسـاحته تقريبًـا.

علق وهو يقودنى إلى الداخل: "هنا ملاذى الآمن".

فـرن عمـلاق مـن الإسـتانلس، وجـدران بيضـاء، وثلاجتـان ضخمتـان، إنـه مطبـخ حقيقـى لطـاهٍ حقيقـى.

سـحب "أوريليـوس" كرسـيًا لى وجلسـت مقابـل طاولـة صغـيرة قـرب خزانـة للكتـب، الرفـوف ممتلئـة بكتـب الطبـخ، بالفرنسـية والإنجليزيـة والإيطاليـة، لكـن كتابًـا واحـدًا كان عـلى الطاولـة، عـلى خـلاف البقيـة، كان عبـارة عـن مفكـرة سـميكة، أثلـم الزمـن زواياهـا، ومغطـاة بـورق بنـى أصبـح شـفافًا بعـد عقـود مـن إمسـاكه بأصابـع مزبـدة، كتـب أحـد بحـروف كبـيرة "وصفـات" عـلى الغـلاف الأمامـى، بطريقـة مدرسـية قديمـة، بعـد بضـع سـنوات، رسـم الكاتـب علامـة "إكـس" عـلى حـرف الألـف، مسـتخدمًا قلـمًا مختلفًـا.

سألته: "أتسمح لى؟"

"بالتأكيد".

فتحـت الكتـاب وبـدأت أتصفحـه، كعكـة "فكتوريـا" الإسـفنجية، وخبـز التمـر والجـوز، وكعـكات غيرهـا، وكعكـة الزنجبيـل، وتـارت "مايـدز أوف أونـر"، وتـارت "بيكويـل"، والكعكـة الغنيـة بالفواكـه.. لاحظـت تحسـن خـط الكتابـة مـع طيِّـى للصفحـات.

شـغل "أوريليـوس" الفـرن، ثـم جمـع المقاديـر بخفـة، بعـد ذلـك كان كل شيء فى متنـاول يـده، ومـد ذراعـه ليجلـب غربـالاً أو سـكينًا دون أن ينظـر، تحـرك فى مطبخـه مثلـما يغـير السـائقون غيـارات السـيارة: يـد تمتـد بسلاسـة، دون الكثـير مـن الاهتـمام، تعـرف مـا سـتفعله تحديـدًا، فى حـين أنَّ عينيـه لا تغـادران قـط بقعـةً محـددة أمامـه: الوعـاء الـذى جمـع فيـه المقاديـر، غربـل الدقيـق، وقطـع الزبـدة إلى مكعبـات، وقـشر برتقالـة مـن أجـل النكهـة ، بـدت حركاتـه كلهـا تلقائيـة كالتنفـس.

قال: "أترين الخزانة؟ إلى يسارك؟ هلا فتحتها".

ظننته يريد أداة ما، ففتحت الخزانة.

"ستجدين داخلها حقيبة معلقة بوتد".

كانت أشبه بحقيبة أحادية الذراع، قديمة ولها تصميم غريب، جانباها ليسا مخيطين، بل مشبكان فقط، وقد رُبطت بمشبك وحزام جلدى عريض وطويل، مربوط بمشبك صدئ عند كل طرف، يُفترض أنه يسمح لحاملها بتعليقها مائلة على جسده، كان الجلد جافًا ومتشققًا، والقماش الذى ربما كان لونه ترابيًا فى يوم ما، أصبح الآن باهتًا بلون السنين.

سألته: "ما هذا؟"

تركت عيناه الوعاء وتطلعت إلىّ لثوانٍ.

"إنها الحقيبة التى وُجدت فيها".

وعاد إلى مزج مكونات الطعام.

الحقيبة التى وُجد فيها؟ تنقلت عيناى ببطء من الحقيبة إلى "أوريليوس"، حتى وهو عاكف على عجينه، يتجاوز طوله مترًا وثمانين سنتيمترًا، تذكرت أننى ظننته أحد عمالقة قصص الأطفال حين رأيته أول مرة، اليوم لن يكفى الحزام للالتفاف حول وسطه، ولكن منذ ستين عامًا كان صغيرًا كفاية ليكون بداخلها، جلست مجددًا، مشوشة الذهن بأفكار حول ما يستطيع الزمن فعله، مَن تلك التى وضعت رضيعًا فى هذه الحقيبة منذ زمن بعيد؟ لفت قماشها حوله، وربطت المشبك فى مواجهة الطقس وشدت الحزام حول جسدها لحمله، فى ثنايا الليل، إلى منزل السيدة "لاف"؟ مررت أصابعى على المواضع التى لمستها هى، القماش، المشبك، الحزام، باحثة عن أى أثر لها، أو عن دليل بلغة "برايل" أو بحبر خفى أو شيفرة، والذى ستكشفه لمستى فقط لو كانت تعرف طريقة لذلك، لكنها لم تعرف.

علق: "إنها مستفزة، أليس كذلك؟"

سمعته يدفع شيئًا إلى داخل الفرن، ثم شعرت به ورائى، ينظر من أعلى كتفى.

"افتحيها، يداى عليهما دقيق".

فككت المشبك وفتحت طيات القماش، كشفت عن دائرة مسطحة فى منتصفها تشابك من الأوراق والخِرق.

قال: "إنه ميراثى".

بدت تلك الأغراض ككومة من المخلفات غير المرغوب فيها التى تنتظر أن تُلقى فى سلة القمامة، لكنه حملق إليها بتركيز طفلٍ يحملق إلى كنز دفين: "هذه الأغراض هى قصتى، تلك الأشياء تخبرنى من أنا، الأمر يتوقف فقط على.. أن أفهمها"، حيرته كانت قوية، على الرغم من استسلامها، "لقد حاولت طوال حياتى أن أحل هذا اللغز، أظل أفكر، فقط لو أمكننى إيجاد طرف الخيط.. سيصبح الأمر منطقيًا، انظرى إلى هذه كمثال..."

إنها قطعة ملابس من الكتان، كانت سابقًا بيضاء والآن صفراء، فصلتها عن بقية الأغراض ومددتها، مطرزة برسومات نجوم وأزهار باللون الأبيض أيضًا، وبها أربعة أزرار لؤلؤية، إنه ثوب نوم أو فستان رضيعة، غطى الدقيق أصابع "أوريليوس" العريضة، التى حام بها حول قطعة القماش الضئيلة، يريد لمسها، ولا يريد ترك علامة بالدقيق، الأكمام الضيقة تكفى الآن أحد أصابعه فقط.

علق "أوريليوس: "هذا ما كنت أرتديه".

"إنه قديم جدًا".

"أفترض أنه فى مثل سنى".

" أو أكثر".

"أتظنين ذلك؟"

"انظـر إلى الرتـق هنـا.. وهنـا، لقـد رُتـق أكـثر مـن مـرة، وهـذا الـزر مختلـف عـن البقيـة، لقـد ارتـدى رضـع آخـرون هـذا قبلـك".

حلقت عيناه من الخرقة إليَّ وإلى الخرقة مجددًا، متعطشة للمعرفة.

"وهـذه أيضًـا"، وأشـار إلى ورقـة مطبوعـة، لقـد مُزقـت مـن كتـاب، وهـى مليئـة بالثنايـا، بـدأت أقـرأ مـا بهـا بعدمـا أخذتهـا.

"... لم أدرك مـا ينتويـه فى البدايـة، لكـن حـين رأيتـه يرفـع الكتـاب ويزنـه ويقـف مسـتعدًا لرشـقه، وثبـت جانبًـا عـلى نحـو غريـزى وأطلـق صرخـة ذعـر..."

التقـط "أوريليـوس" طـرف الجملـة وتابـع، لا يقـرأ مـن الصفحـة بـل مـن ذاكرتـه: "... لكننـى لم أكـن سريعـة كفايـة، فقـد رشـق المجلـد، وأصابنـى، فسـقطت عـلى الأرض، وارتطـم رأسى بالبـاب، وجُـرح".

بالتأكيـد ميـزت هـذا النـص، وكيـف لا؟ وقـد قرأتـه عـدد مـرات لا يعرفـه إلا الـرب، قلـت متعجبـة: "روايـة (جـين إيـر)".

"هـل عرفتيـه؟ نعـم هـذا صحيـح، سـألت رجـلاً فى المكتبـة، لقـد ألفتهـا كاتبـة تدعـى (تشـارلوت) شيء مـا، يبـدو أنهـا كانـت لهـا أخـوات كثيرات".

"هل قرأتها؟"

"بـدأت، إنهـا عـن فتـاة صغـيرة فقـدت عائلتهـا، لـذا أخذتهـا عائلـة عمتهـا، ظننـت أنهـا سـتقودنى إلى شيء مـا، تلـك المـرأة -العمـة- كريهـة، ليسـت مثـل السـيدة (لاف) مطلقًـا، فى هـذه الصفحـة، يقذفهـا أحـد أبنـاء عمتهـا بكتـاب، لكـن لاحقًـا تلتحـق بمدرسـة، مدرسـة مريعـة، بهـا طعـام مريـع، لكنهـا تكتسـب صديقـة هنـاك"، ابتسـم، متذكـرًا مـا قـرأه: "لكـن حينهـا فقـط تمـوت صديقتهـا"، كسـا الإحبـاط وجهـه، "وبعـد ذلـك.. يبـدو أننـى فقـدت الاهتـمام، لم أقـرأ النهايـة، لم أسـتطع توقعـما سـتئول الأمـور

إليـه بعـد ذلـك"، وهـز كتفيـه متخليًـا عـن حيرتـه: "هـل قرأتهـا؟ مـاذا حـدث فى النهايـة؟ هـل هـى مهمـة؟"

"تقـع فى حـب مديرهـا، وزوجتـه -المجنونـة، التـى تعيـش فى المنـزل، لكنهـا فى الـسر- تحـاول أن تحـرق المنـزل حتـى ينهـار، فترحـل (جـين)، وحـين تعـود، تكـون الزوجـة ميتـة، والسـيد (رويشسـتر) كفيـف، وتتـزوج بـه (جـين)".

"آه"، تجعـدت جبهتـه وهـو يحـاول تفكيـك اللغـز، لكنـه استسـلم: "ألا يبـدو الأمـر غـير منطقـى تمامًـا؟ أو ربمـا البدايـة، الفتـاة التـى بـلا أم، لكـن بعـد ذلـك.. أتمنـى لـو يخـبرنى أحـد بمعنـى ذلـك، أتمنـى لـو يوجـد أحـد يسـتطيع فقـط أن يخـبرنى الحقيقـة".

التفـت إلى الصفحـة الممزقـة مـن الكتـاب: "ربمـا ليـس الكتـاب هـو المهـم، بـل هـذه الصفحـة فقـط، ربمـا لهـا معنـى سرى مـا، انظـرى".

داخـل الغـلاف الخلفـى لكتـاب وصفـات طفولتـه وجـدت صفوفًـا وأعمـدة مـن الأرقـام والأعـداد مكتوبـة بيـد طفوليـة كبـيرة: "اعتـدت الظـن أنهـا شـيفرة، وحاولـت فكهـا، جربـت الحـرف الأول مـن كل كلمـة، والحـرف الأول مـن كل سـطر، أو الثانى، ثـم جربـت اسـتبدال حـرف مـكان الآخـر"، وأشـار إلى محاولاتـه الكثـيرة، بعينـين متحمسـتين، كأن لا تـزال الفرصـة قائمـة لأن يـرى شـيئًا فوتـه مـن قبـل.

أدركت أن لا أمل فى ذلك.

"مـاذا عـن هـذا؟" التقطـت الـشيء التـالى، ولم أسـتطع منـع نفـسى مـن القشـعريرة، يبـدو أنـه كان مـن قبـل ريشـة، لكنـه الآن شيء كريـه قبيـح المنظـر، إذ جفـت زيوتهـا، وانفصلـت شـعيراتها عـن بعضهـا لتشـكل مسـامير بنيـة جامـدة بطـول العمـود المكسـور.

هـز "أوريليـوس" كتفيـه وهـز رأسـيه بجهـل عاجـز، ورميـت الريشـة بارتيـاح.

ثـم كان هنـاك شيء واحـد آخـر، فقـال "أوريليـوس": "والآن هـذا..."، لكنـه لم يكمـل، كانـت قصاصـة ورق، ممزقـة بخشـونة، عليهـا لطخـة حـبر متلاشـية ربمـا كانـت فى يـوم كلمـة، حملقـت إليهـا مـن قـرب.

تمتـم: "أظـن.. ظنـت السـيدة (لاف).. اتفـق كلانـا، فى الواقـع..." نظـر إلى بعينـين آملتـين: "عـلى أن هـذا بـلا شـك اسـمى".

وأشـار: "لقـد بللهـا المطـر، لكـن هنـا فقـط..." وقـادنى إلى النافـذة، وأشـار إلى أن أرفـع القصاصـة قبالـة الضـوء: "رسـم يشـبه حـرف (إيـه) فى البدايـة، ثـم حـرف (إس)، هنـا، عنـد النهايـة، بالتأكيـد هـى متلاشـية قليـلاً بتأثـير السـنين، يجـب أن تمعنـى النظـر، لكـن بإمكانـك رؤيتهـا، صحيـح؟"

حملقت إلى اللطخة.

"صحيح؟"

قمت بحركة غامضة بدماغى، ليست إيماءة موافقة ولا هزة رفض.

"أترين! يكون الأمر واضحًا حين تعرفين عما تبحثين، أليس كذلك؟"

تابعـت النظـر، لكـن أشـباح الحـروف التـى رآهـا كانـت خفيـة عـن عينـى.

أضـاف: "وهكـذا، اسـتقرت السـيدة (لاف) عـلى تسـميتى (أوريليـوس)، مـع أننـى يمكـن بالبسـاطة نفسـها أن أكـون (ألفونـس)".

ضحـك عـلى نفسـه، بحـزن، عـلى نحـو غـير مريـح، والتفـت مبتعـدًا: "الـشيء الوحيـد المتبقـى هـو الملعقـة، لكنـك رأيتهـا بالفعـل"، مـد يـده إلى جيبـه العلـوى وأخـرج الملعقـة الفضيـة التـى رأيتهـا فى اجتماعنـا الأول، حـين أكلنـا كعكـة الزنجبيـل ونحـن نجلـس عـلى القطتـين العملاقتـين اللتـين تحـاصران منـزل "آنجلفيلـد".

تساءلت: "والحقيبة نفسها، ماذا عنها؟"

قال على نحو مبهم: "إنها مجرد حقيبة"، رفعها إلى وجهه وشمها برقة: "كانت تحمل رائحة الدخان، لكن ليس حتى الآن"، ومررها إلى، وقربت أنفى إليها: "أترين؟ لقد تلاشت الرائحة".

فتح "أوريليوس" باب الفرن وأخرج صينية من البسكويت الذهبى الباهت وتركها لتبرد، ثم ملأ غلاية المياه وأعد صينية، كوبين، وصحنيهما، ووعاء السكر، وإبريق لبن وطبقين صغيرين.

مرر الصينية إلىّ: "خذى هذه"، وفتح بابًا أظهر لمحة من غرفة صالون، كراسى قديمة مريحة، وأرائك مرسوم عليها ورود: "تصرفى كأنه بيتك، سأجلب بقية الأغراض خلال دقيقة"، وظل موليًا لى ظهره، ورأسه منحنٍ وهو يغسل يديه: "سأنضم إليك حين أعيد هذه الأغراض إلى أماكنها".

دلفت إلى غرفة السيدة "لاف" الأمامية وجلست على كرسى قرب الموقد، تاركة إياه يعيد تخزين ميراثه -ميراثه الذى لا يمكن فك تشفيره والذى لا يقدر بثمن- بأمان.

***

غادرت المنزل بشىء يزعج رأسى، هل كان شيئًا مما قاله "أوريليوس"؟ صدى أو صلة ما استدعت انتباهى على نحو غامض لكن بقية القصة جرفتها بعيدًا، لا يهم، فأيًا ما كان ذلك، سيعود إلىّ.

فى الغابة توجد أرض مقطوعة الأشجار، تهبط الأرض عندها بزاوية حادة وتغطى المنحدر أشجار منخفضة غير منظمة، ثم ترتفع وتظهر الأشجار مجددًا، وبسبب ذلك، توفر بقعة مراقبة غير متوقعة تمكن منها رؤية المنزل، توقفت فى تلك الأرض فى طريق عودتى من منزل "أوريليوس".

كان المشـهد حالـكًا، بـدا المنـزل، أو مـا تبقـى منـه، مسـكونًا، بقعـة رماديـة أمـام سـماء رماديـة، الطوابـق العلويـة عـلى الجانـب الأيـسر قـد تهدمـت، وبقـى الطابـق الأرضى، العتبـة الحجريـة الداكنـة ودرجات السـلم المؤدى إليـه ترسـم حـدود إطـار الباب، لكـن الباب نفسـه كان قـد اختفى، لم يكـن ذلـك يومًـا مناسـبًا للبقـاء فى العـراء، وقـد انتابتنـى القشـعريرة لرؤيـة المنـزل نصـف المفـكك، حتـى القطتـان الحجريتـان هجرتـاه، لقـد أبعدتـا نفسـيهما عـن الرطوبـة كحـال الغزالـة، أمـا الجانـب الأيمـن فـكان فى غالبـه لا يـزال قائمًـا، لكـن يبـدو أنـه سـيهدم تاليًـا نظرًا لهيئـة الرافعـة، هـل كل تلـك الآلات ضروريـة؟ وجـدت نفـسى أفكـر فى ذلـك، قـد يبـدو أن الجـدران سـتذوب ببسـاطة تحـت المطـر، وتلـك الحجـارة التـى لا تـزال قائمـة، باهتـة وبـلا قيمـة مثـل ورق الأرز، تبـدو كأنهـا مسـتعدة للذوبـان أمـام ناظـرى لـو ظللـت واقفـة طويـلاً كفايـة.

كانـت كامـيرتى متدليـة حـول عنقـى، فككتهـا مـن تحـت معطفـى ورفعتهـا إلى عينـى، أيمكـن أن ألتقـط المظهـر المضمحـل للمنـزل عـبر كل هـذه الميـاه؟ شـككت فى ذلـك، لكننـى مسـتعدة للمحاولـة.

كنـت أضبـط عدسـة المسـافات البعيـدة حـين لمحـت حركـة طفيفـة عنـد طـرف الصـورة، إنـه ليـس شـبحى، لقـد عـاد الطفـلان، رأيـا شـيئًا فى العشـب، وانحنيـا فوقـه بحـماس، مـاذا كان؟ قنفـذًا؟ ثعبانًـا؟ دفعنـى الفضـول إلى تعديـل تركيـز العدسـة لأرى بوضـوح أكـثر.

مـد أحـد الطفلـين يـده داخـل العشـب الطويـل ورفـع اكتشـافهما خارجـه، كانـت قبعـة بنـاء صفـراء، وبابتسـامة سرور رمـى قبعتـه الواقيـة مـن المطـر -أمكننـى الآن أن أرى أنـه الفتـى، وليـس أختـه- واعتمـر القبعة الجديـدة، وقـف جامـدًا كجنـدى، مـبرزًا صـدره، رافعًـا رأسـه، وذراعيـه إلى جانبيـه، وجهـه عـازم عـلى أن يحمـى القبعـة الكبـيرة جـدًا مـن الانـزلاق، وحـين ثبـت عـلى تلـك الهيئـة، حدثـت معجـزة صغـيرة، شـعاع مـن ضـوء

الشـمس وجـد طريقـه عـبر فتحـة فى السـحاب، وهبـط عـلى الفتـى، مضيئًا إيـاه فى لحظـة مجـده، ضغطـت زر التصويـر والتقطـت الصـورة، الفتـى بالقبعـة، وأعـلى كتفـه اليـسرى لافتـة "ممنـوع الدخـول"، والمنـزل عـلى يمينـه فى الخلفيـة، بقعـة رماديـة كئيبـة.

اختفـت الشـمس، ورفعـت عينـى عـن الطفلـين لأديـر الفيلـم وأغطـى الكامـيرا لأحميهـا مـن الميـاه، وحـين اسـتدرت بعينـى، كان الطفـلان قـد بلغـا منتصـف الطريـق الخـاص، يـده اليـسرى ممسـكة بيدهـا اليمنـى، كانـا يـدوران مـرارًا وتكـرارًا مـع اقترابهـما مـن بوابـات المنـازل الحجريـة بخطـوات واسـعة متسـاوية، وبـوزن متسـاوٍ، كأن كلاً منهـما قـوة مكافئـة للآخـر، وذيـلا معطفيهـما يطـيران خلفهـما، وأقدامهـما بالـكاد تلمـس الأرض، بديـا كأنهـما عـلى وشـك أن يرتفعـا إلى الهـواء ويطـيرا.

"جين إير" والمحرقة

حين عدت إلى يوركشاير، لم أتلقَّ أى تفسير لإبعادى، حيتنى "جوديث" بابتسامة متكلفة، كآبة النهار تسللت تحت جلدها، وتجمعت فى صورة ظلال تحت عينيها، جذبت الستائر سنتيمترات قليلة فى الصالون، كاشفة عن جزء أكبر قليلاً من النافذة، لكن لم يشكل ذلك فارقًا فى الكآبة، قالت متعجبة: "طقس بغيض"، وفكرت فى أنها تبدو على وشك الانهيار.

شعرت كأن دهرًا قد مر مع أن لم يمر سوى أيام، فعادة خلال الليل وليس خلال النهار، يلقينا التأثير المُكثب للسماء الثقيلة خارج الزمن، وصلت السيدة "وينتر" متأخرة إلى أحد اجتماعاتنا الصباحية، وكان وجهها شاحبًا للغاية، ولم أعرف إن كانت ذكرى فاجعة حدثت مؤخرًا هى ما أطفأ عينيها أم شىء آخر.

بعدما استقرت فى دائرة الضوء خاصتها، قالت: "أقترح جدولاً زمنيًّا أكثر مرونة لاجتماعاتنا".

"بالتأكيد"، فقد عرفت بشأن لياليها السيئة من مقابلتى مع الطبيب، وأدركت متى يخفت تأثير الأدوية التى تأخذها لكبح ألمها، أو متى يكون تأثيرها غير سارٍ بالكامل بعد، ولذا اتفقنا على ألا آتى فى التاسعة من كل صباح، بل أنتظر طرقة على بابى.

فى البداية كانت الطرقة دائمًا تأتى بين التاسعة والعاشرة، ثم أصبحت تتأخر، بعدما غير الطبيب جرعتها من الدواء، اعتادت أن تطلبنى فى الصباح الباكر، لكن لقاءاتنا كانت أقصر، ثم استسلمنا لعادة أن نلتقى مرتين أو ثلاث مرات يوميًا، فى أوقات عشوائية، أحيانًا كانت تطلبنى حين تشعر بتحسن، وتتحدث باستفاضة، وبالتفصيل، وفى أحيان أخرى، تستدعينى حين تكون متألمة، وحينها لم تكن صحبتى هى ما تريده حقًا بقدر ما كانت تريد الجانب التخديرى لحكى القصص.

أصبحت لقاءات الساعة التاسعة علامة زمنية أخرى فقدتها، استمعت إلى قصتها، وكتبتها، وحين نمت حلمت بها، وحين أكون مستيقظة تشكل القصة خلفية أفكارى، الأمر أشبه بأن أعيش بالكامل داخل كتاب، لم أحتج حتى إلى الخروج من غرفتى لآكل، لأن من الممكن أن أجلس عند مكتبى وأقرأ ما كتبته وأنا آكل الوجبات التى تجلبها "جوديث" إلى غرفتى، العصيدة تشير إلى أنه الصباح، والحساء والسلطة يشيران إلى وقت الغداء، وشريحة اللحم والفطيرة تعنيان أنه المساء، أذكر تفكيرى مليًا لوقت طويل أمام طبق بيض مخفوق، ماذا يعنى هذا؟ قد يعنى أى شىء، فقد أكلت بضع لقيمات وأبعدت الطبق.

حدثت بضع وقائع مميزة خلال المرور الطويل غير المتمايز للوقت، دونتها كلها فى ساعتها، منفصلة عن القصة، وهى تستحق أن تُذكر هنا.

وهذه واحدة.

كنت فى المكتبة، أبحث عن رواية "جين أير"، ووجدت ما يقارب رفًا كاملاً من نسخها، إنها مجموعة خاصة بمحبة مجنونة: هناك نسخ حديثة رخيصة، بلا قيمة إن بيعت مستعملة، ونسخ نادرًا ما ظهرت فى السوق لدرجة أن من الصعب تحديد سعر لها، النسخة التى أبحث عنها عادية -مع أنها نسخة بعينها- من مطلع القرن، وبينما أتصفح، أدخلت "جوديث" السيدة "وينتر" إلى المكتبة وأجلستها فى مقعدها قرب الموقد.

حين غادرت "جوديث"، سألتنى السيدة "وينتر": "عم تبحثين؟"

"(جين أير)".

"أتحبين (جين أير)؟"

"نعم للغاية، وأنت؟"

"نعم".

ارتجفت.

"هل أذكى لهب الموقد من أجلك؟"

أخفضت جفنيها كأن موجة من الألم تعصف بها: "نعم، أعتقد ذلك".

بمجرد أن استعادت النار لهيبها قالت: "ألديك دقيقة؟ اجلسى يا (مارجريت)".

وبعد دقيقة من الصمت قالت:

"تخيلى حزام سير، حزام سير ضخمًا وفى نهايته فرن عملاق، وتوجد عليه كتب، كل نسخ كل كتاب أحببته مطلقًا فى حياتك، كلها مصفوفة، (جين أير)، (فيليت)، (ذات الرداء الأبيض)".

تابعت أنا: "و(مدل مارش)".

"شــكرًا للإضافــة، (مــدل مــارش)، وتخيــلى مقبضًــا عليــه كلمتــين، (تشــغيل) و(إيقــاف)، فى هــذه اللحظــة المقبــض يشــير إلى (إيقــاف)، وبجـواره يقـف شـخص، يـده عـلى المقبـض، عـلى وشـك أن يشـغل السـير، ويمكنـك إيقافـه، لديـك مسـدس فى يـدك، وكل مـا عليـك فعلـه هـو الضغط عـلى الزنـاد، مـاذا تفعلـين؟"

"لا، هذا سخف".

"يدير المقبض، ويشتغل السير".

"لكن هذا موقف متطرف جدًا، إنه افتراضى".

"فى البداية تسقط رواية (شيرلى) من الحافة".

"لا أحب مثل هذه الألعاب".

"والآن تأكل ألسنة اللهب (جورج ساند)".

تنهدت وأغلقت عينىّ.

"الرواية التالية (مرتفعات ويذيرنج)، هل ستتركينها تحترق؟"

لم أسـتطع منـع نفـسى، رأيــت الكتــب، ورأيــت العمليــة المســتمرة لتغذيــة الفــرن، وجفلــت.

"كيفــما تشــائين، لقــد ســقطت فى اللهــب، ســتفعلين هــذا مــع (جــين أيــر) أيضًــا؟"

"جين أير"، فجأة جف فمى.

"كل مـا عليـك فعلـه هـو أن تطلقـى الرصاصـة، لـن أخـبر أحـدًا، لا يجـب أن يعـرف أحـد بشـأن هذا أبـدًا"، وانتظـرت، "إنهـا تبدأ فى السـقوط، بضـع النسـخ الأولى فقـط، لكـن هنـاك الكثـير مـن النسـخ، لديـك لحظـة لتقـررى".

فركت إبهامى بعصبية بحافة ظفر خشنة فى إصبعى الوسطى.

"إنها تسقط بسرعة أكبر الآن".

لم تبعد ناظريها عنى.

"سـقط نصفهـا، فكّـرى يـا (مارجريـت)، سريعًـا سـتختفى كل نسـخ (جـين أيـر) للأبـد، فكـرى".

رمشت السيدة "وينتر".

"سـقط ثلثاهـا فى النـار، إنـه شـخص واحـد يـا (مارجريـت)، شـخص واحـد ضئيـل لا قيمـة لـه".

رمشتُ.

"لا يـزال هنـاك وقـت، مـا يكفـى فقـط، تذكـرى، هـذا الشـخص يحـرق الكتـب، أيسـتحق حقًـا أن يعيـش؟"

رمشة تلو الأخرى.

"فرصتك الأخيرة".

رمشة تليها رمشتان.

لم تعد "جين أير" موجودة.

"مارجريـت!" انقلـب وجـه السـيدة "وينـتر" مـن الغيـظ وهـى تتكلـم، ضربـت بيدهـا اليـسرى عـلى ذراع الكـرسى، وحتـى يدهـا اليمنـى، عـلى الرغـم مـن إصابتهـا، انتفضـت فى حجرهـا.

لاحقًـا، حـين كتبـت هـذا، فكـرت فى أن هـذا هـو التعبـير الأكـثر عفويـة الـذى رأيتـه مـن السـيدة "وينـتر"، كان ذلـك مقـدارًا مفاجئًـا مـن المشـاعر المسـتثمرة فى مجـرد لعبـة.

ومشـاعرى؟ إنهـا مثـيرة للخجـل، لأننـى كذبـت، بالتأكيـد أحـب الكتـب أكـثر مـن البـشر، وبالتأكيـد أقـدر "جـين أيـر" أكـثر مـن الغريـب المجهـول ويـده التـى عـلى المقبـض، وبالتأكيـد كل أعـمال "شكسـبير" تسـاوى أكـثر

مـن حيـاة بشريـة، بالتأكيـد، ولكـن عـلى خـلاف السـيدة "وينـتر"، كنـت أخجـل مـن قـول هـذا.

فى طريـق خروجـى، رجعـت إلى رف "جـين أيـر"، وأخذت المجلـد الوحيد الـذى طابـق مواصفـاتى، السـن الصحيحـة، ونـوع الـورق الصحيـح، والخـط الصحيـح، وفى غرفتـى، تصفحتـه حتـى وجـدت مـا أبحـث عنـه.

"... لم أدرك مـا ينتويـه فى البدايـة، لكـن حـين رأيتـه يرفـع الكتـاب ويوزانـه ويقـف مستعدًا لرشـقه، وثبـت جانبًـا عـلى نحـو غريـزى وأطلقت صرخـة ذعـر، لكننـى لم أكـن سريعـة كفايـة، فقـد رشـق المجلـد، وأصابنـى، فسـقطت عـلى الأرض، وارتطـم رأسى بالبـاب، وجُـرح".

كان الكتـاب سـليمًا، لا تنقصـه ولـو صفحـة واحـدة، لم يكـن هـذا المجلـد الـذى مُزقـت منـه صفحـة "أوريليـوس". لكـن عـلى أيَّـة حـال، لم يجـب أن يكـون هـو؟ فلـو جـاءت صفحتـه مـن "آنجلفيلـد" -لـو كان ذلـك صحيحًـا- فـإن تلـك النسـخة قـد احترقـت مـع بقيـة المنـزل.

الـشىء الآخـر الـذى أتذكـره مـن تلـك الفـترة كان حادثـة الصـورة الفوتوجرافيـة، ظهـر طـرد صغـير فى صينيـة إفطـارى فى صباح مـا، موجه إلى بخـط يـد والـدى الصغـير، يحتـوى عـلى صـورى لـ"آنجلفيلـد". فقـد أرسـلت إليـه علبـة الفيلـم، وحمضهـا هـو مـن أجـلى، وجـدت بضـع صـور واضحـة مـن يومـى الأول: نبـات العليـق ينمـو وسـط حطـام المكتبـة، واللبـلاب يشـق طريقـه عـلى السـلم الحجـرى مثـل الثعبـان، توقفـت عنـد صـورة غرفـة النـوم حيـث قابلـت شـبحى وجهًـا لوجـه، عـلى الموقـد القديـم لم يوجـد إلا وهـج انعـكاس وميـض الكامـيرا، ومـع ذلـك، أخـذت تلـك الصورة مـن وسـط المجموعـة ووضعتهـا داخـل غـلاف كتـابى، لأحتفـظ بهـا.

كانـت بقيـة الصـور مـن زيـارتى الثانيـة، حـين عارضنـى الطقـس، معظمهـا لم يظهـر شـيئًا سـوى تراكيـب محـيرة مـن الضبابيـة، مـا تذكرتـه كان درجـات مـن اللـون الرمـادى يغطيهـا اللـون الفـضى، يتحـرك الضبـاب

مثل حجاب من الشاش، وأنفاسى عند نقطة التحول بين الهواء والمياه، لكن كاميرتى لم تلتقط أيًّا من هذا، كذا لم يكن ممكنًا وسط البقع المظلمة التى شابت اللون الرمادى أن تميز حجرًا، أو جدارًا، أو شجرة، أو غابة، وبعد بضع من مثل تلك الصور، ضجرت من النظر، هبطت السلم إلى المكتبة مكدسة رزمة الصور فى جيب سترتى.

كنا فى منتصف المقابلة تقريبًا حين أحسست بصمت، كنت أحلم، تائهة كالعادة فى عالم توأمة الطفولة الخاص بها، أعدت تشغيل تسجيل صوتها فى بالى، وتذكرت تغيراً فى نبرة صوتها، وتذكرت حقيقة أنها قالت لى شيئًا، لكنى لم أستطع تذكر الكلمات.

قلت: "ماذا؟"

كررت: "جيبك، يوجد شىء فى جيبك".

"أوه.. إنها بعض الصور..." قلتها وأنا فى حالة النسيان تلك فى منتصف الطريق بين قصة ما وحياتك، حين تتيه بأفكارك، تابعت مغمغمة: "آنجلفيلد".

حين عدت من تيهى كانت الصور فى يديها.

فى البداية نظرت من كثب إلى كل منها، تضيق عينيها وراء نظارتها الطبية لتحاول تمييز الأشكال المبهمة، وفى حين تبعت صورة بلا ملامح الأخرى، تنهدت تنهيدة صغيرة بطريقة "فيدا وينتر"، تنهيدة أفادت أن توقعاتها المنخفضة قد تحققت بوفرة، وزمت فمها ليصبح خطًّا مستقيمًا، وبيدها السليمة بدأت تتصفح كومة الصور بفضول أكبر، لتظهر أنها لم تعد تتوقع أن ترى أى شىء ذى أهمية، كانت تقلب كل صورة على الطاولة بجوارها بعد أسرع نظرة ممكنة.

أذهلتنى الصور التى رفضتها وهى تهبط بمعدل منتظم على الطاولة، شكلت تلك الصور امتدادًا فوضويًّا على الطاولة، تتخبط

فوق بعضها وتنزلق على سطح بعضها البعض الزلق بصوت له وزن كالكلمات: "بلا فائدة، بلا فائدة، بلا فائدة".

ثم توقفت تلك النغمة، كانت السيدة "وينتر" تجلس بجمود عازم، ترفع إحدى الصور وتدرسها بعبوس، لقد رأت شبحًا، أو هكذا ظننت، ثم بعد لحظة طويلة، مدعية أنها لم تشعر بنظرتى إليها، وضعت الصورة خلف المجموعة المتبقية، ونظرت إلى البقية، وقلبتها على الطاولة مثل سابقاتها، حين ظهرت مجددًا الصورة التى أسرت انتباهها بالكاد نظرت إليها، لكنها أضافتها إلى الأخريات، وقالت ببرود شديد: "ما كنت لأجزم بأن هذه (آنجلفيلد)، لكن إن كنت تقولين ذلك..." ثم بحركة تبدو ساذجة، التقطت كومة الصور كلها ومدتها إلىّ، فأوقعتها.

غمغمت: "إنها يدى، اعذرينى"، فى حين أنِّى انحنيت لأجمع الصور، لكننى لم أنخدع.

والتقطت خيط حكايتها من حيث تركته.

لاحقًا تصفحت الصور مجددًا، ورغم أن وقوع الصور غير ترتيبها، لم يكن صعبًا تحديد أيَّة صورة صدمتها بهذه القوة، فوسط حزمة الصور المبهمة الرمادية، كانت هناك واحدة تتميز عن غيرها حقًّا، جلست على طرف السرير، أنظر إلى الصور، أتذكر تلك اللحظات جيدًا، انقشاع الضباب وتدفئة الشمس اجتمعا فى اللحظة المناسبة للغاية لتسمحا بشعاع ضوء بأن يسقط على ولد انتصب بجمود أمام الكاميرا، ذقنه مرفوع، وظهره مستقيم، وعيناه تكشفان معرفته القلقة بأن قبعته الصفراء الصلبة سوف تنزلق جانبًا على رأسه فى أيَّة لحظة.

لَمَ كانت مأخوذة جدًّا بهذه الصورة؟ فحصت الخلفية، لكن المنزل، الذى هُدم نصفه بالفعل، كان مجرد لطخة من اللون الرمادى أعلى

كتـف الطفـل اليمنـى، وقربـه، كل مـا كان واضحًـا هـو شـبكة حاجـز الأمـان وزاويـة لافتـة "ممنـوع الدخـول".

هل كان الفتى نفسه هو ما أثار انتباهها؟

حيرتنـى الصـورة لنصـف سـاعة، لكـن حـين وضعتهـا جانبًـا، لم أكـن قـد اقتربـت حتـى مـن أىّ تفسـير، ولأنهـا حيرتنـى، دسسـتها داخـل غـلاف كتـابى مـع صـورة فـراغ فى إطـار مـرآة.

بـصرف النظـر عـن صـورة الفتـى ولعبـة "جـين أيـر" والمحرقـة، لم يخترق الكثـير غـير ذلـك المعطـف الـذى غطتنـى بـه قصتهـا، مـا لم تضـع القـط فى الاعتبـار، فقـد لاحـظ سـاعات نشـاطى غـير المعتـادة، وجـاء يحـك مخلبـه ببـابى مـن أجـل بعـض الاهتـمام فى سـاعات عشـوائية مـن النهـار والليـل، ينهـى فتاتًـا مـن البيـض أو السـمك مـن طبقـى، يحـب أن يجلـس عـلى أكـوام أوراقـى، يشـاهدنى أكتـب، يمكـن أن أجلـس لسـاعات أخربـش فى أوراقـى، أتجـول فى المتاهـة المظلمـة لقصـة السـيدة "وينـتر"، لكـن لا يهـم إلى أىّ مـدى أنـسى نفـسى، إذ لم أفقـد قـط الشـعور بـأن أحـدًا يراقبنـى، وحـين شـعرت بالتيـه عـلى نحـو خـاص، بـدت نظـرة القـط كأنهـا تخطـو فى تشـوشى وتـضىء طريقـى إلى غرفتـى، وملاحظـاتى، ومـبراة أقلامـى، بـل ونـام معـى عـلى سريـرى فى بعـض الليـالى، وقـد اعتـدت عـلى تـرك سـتائرى مفتوحـة، حتـى يتمكـن إذا اسـتيقظ مـن الجلـوس عـلى حافـة النافـذة ليتابـع أشـياء تتحـرك فى الظـلام لا تراهـا العـين البشريـة.

وهـذا كل مـا فى الأمـر، لم يكـن هنـاك شىء آخـر بعيـدًا عـن تلـك التفاصيـل، فقـط الشـفق الأبـدى والقصـة.

الانهيار

رحلت "إيزابيل"، ورحلت "هيستر"، ورحل "تشارلى"، وأخبرتني السيدة "وينتر" للتو عن المزيد من الخسارة.

***

فى العليّة، أسندت ظهرى إلى الجدار المتصدع، ضغطت عليه لجعله يستسلم، ثم تركته، مرارًا وتكرارًا، كنت أغرى القدر، تساءلت عما قد يحدث لو انهار هذا الجدار؟ هل سينهار السقف؟ هل سيتسبب ثقل سقوطه فى انهيار ألواح الأرضية؟ هل ستهبط قراميد وعارضات وحجارة السقف ساحقة السقف وصولاً إلى الأسرَّة والصناديق كأنه زلزال؟ ثم ماذا؟ هل سيتوقف الأمر عند ذلك؟ إلى أى مدى سيستمر؟ هززته مرة تلو الأخرى، مستهزئة بالجدار، متحدية إياه أن يسقط، لكنه لم يسقط، فحتى تحت الضغط، قد تذهلك قدرة جدار ميت على الصمود.

استيقظت فى منتصف الليل، تلتقط أذنى خشخشة، كانت الضوضاء قد انتهت بالفعل، لكننى لا أزال أحس بصداها يتردد فى طبلتى أذنى وفى صدرى، قفزت من سريرى وركضت إلى السلم، و"إيميلاين" فى أعقابى.

وصلنا إلى السلم ذى معرض الصور فى الوقت نفسه الذى وصل فيه "جون"، الذى ينام فى المطبخ، عند قاع السلم، وحملقنا جميعًا، فى منتصف المدخل كانت السيدة تقف بثوب نومها، تنظر إلى الأعلى، عند قدمها كتلة حجرية ضخمة، وفوق رأسها، فتحة ذات إطار مدبب فى السقف، الهواء معبأ بغبار رمادى، يصعد ويهبط فى الهواء، بلا وجهة محددة للاستقرار، وفتات الطلاء، والأسمنت، والخشب لا تزال تهبط من الطابق العلوى، مع صوت يشبه انتشار الفئران، ومن حين لآخر شعرت بـ"إيميلاين" تقفز مع سقوط قراميد وألواح خشبية من الطوابق العلوية.

كانت درجات السلم الحجرية باردة، وحينئذ لكزت شظايا الخشب وقطع الطلاء والأسمنت قدمىّ، وقد وقفت السيدة مثل شبح فى منتصف حطام منزلنا المتهدم، مع استقرار دوامات الغبار حولها ببطء، وقفت بشعر ووجه بلون الغبار، ويدين بلون الغبار، وكذا ثنايا ثوب نومها الطويل كانت بلون الغبار، وقفت ثابتة بلا أيَّة حركة وتطلعت إلى الأعلى، اقتربت منها، وشاركتها التطلع، حملقنا عبر فتحة فى السقف، وأعلاها فتحة أخرى فى سقف آخر، ثم فتحة أخرى فى سقف آخر، رأينا ورق الحائط ذا الزهور فى غرفة النوم أعلانا، ورسمة مسارات اللبلاب الخاصة بالغرفة الأعلى، والجدران الرمادية الباهتة الخاصة بالعليا الصغيرة، وفوق كل هذا، فوق رأسينا، رأينا الفتحة فى السقف نفسه والسماء، لم تكن بها أى نجوم.

أخذت يدها: "هيا، لا نفع من التحديق إلى هناك".

قدتها بعيدًا، وتبعتني هي مثل طفلة صغيرة، قلت لـ"جون": "سأوصلها إلى سريرها".

أومأ بوجه شاحب كالأشباح وقال بصوت حشرجه الغبار: "حسنًا"، بالكاد استطاع أن ينظر إليها، وأشار إشارة بطيئة إلى السقف المحطم: "وأنا سأصلح هذا"، كانت إشارته كالحركة البطيئة لرجل يغرق ويجذبه التيار إلى الأسفل.

لكن بعد ساعة، حين أصبحت السيدة نظيفة، بثوب نوم جديد، موضوعة فى سريرها ونائمة، كان لا يزال هناك، تمامًا مثلما تركته، محملقًا إلى حيث كانت.

فى الصباح التالى، حين لم تظهر السيدة فى المطبخ، كنت أنا من ذهبت لإيقاظها، ولم تستيقظ، غادرت روحها عبر فتحة السقف، ورحلت.

قلت لـ"جون" فى المطبخ: "لقد فقدناها، إنها ميتة".

لم يتغير وجهه، تابع التحديق عبر مائدة المطبخ كأنه لم يسمعنى، قال أخيراً: "نعم"، بصوت لم يتوقع أن يُسمع، "نعم".

بدا كأن كل شىء قد بلغ نهايته، وكانت لدى أمنية واحدة: أن أجلس مثل "جون"، جامدة، أحدق نحو الفراغ ولا أفعل شيئًا، ولكن الوقت لم يتوقف، لا أزال أشعر بنبض قلبى يطارد الثوانى، لا أزال أشعر بالجوع ينمو فى معدتى، والعطش فى حلقى، كنت حزينة جدًّا لدرجة تمنى الموت، لكن بدلاً من ذلك كنت على قيد الحياة بشكل مخزٍ وسخيف، على قيد الحياة للغاية لدرجة أنى أقسم إننى استطعت الشعور بنمو شعرى وأظفارى.

على الرغم من الثقل الذى لا يُحتمل على قلبى، لم أستطع أن أستسلم للبؤس مثل "جون"، رحلت "هيستر"، ورحل "تشارلى"،

ورحلت السيدة، ورحل "جون" أيضًا على طريقته الخاصة، مع أنني أملت أن يجد طريق عودته، في أثناء ذلك، كانت الفتاة التي وراء الغشاوة مضطرة إلى الخروج من الظل، كان ذلك الوقت المناسب للنضج والتوقف عن اللعب.

قلت: "سأشغل غلاية المياه، سأعد كوب شاي".

هذا ليس صوتي، إنه صوت فتاة أخرى، فتاة ما عادية قادرة عاقلة وجدت طريقها إلى داخل جلدي وسيطرت علي، بدا أنها تعرف ما يجب فعله، تفاجأت جزئيًا فقط، ألم أقضِ نصف حياتي أتفرج على أشخاص يعيشون حياتهم؟ أتفرج على "هيستر"، أتفرج على السيدة، أتفرج على القرويين؟

تقوقعت بهدوء داخل نفسي في حين تغلي الفتاة القادرة المياه، وتأخذ أوراق الشاي، وتقلب الشاي وتصبه، وضعت ملعقتي سكر في شاي "جون"، وثلاثة في شايي، وحين أصبح جاهزًا شربته، وحين وصل الشاي الساخن الحلو إلى معدتي أخيرًا، توقف اضطرابي.

الحديقة الفضية

قبـل أن أسـتيقظ تمـام الاسـتيقاظ راودنى شـعور بـأن هنـاك شـيئًا مختلفًـا، وبعـد لحظـة، قبـل حتـى أن أفتـح عينـى، عرفـت مـا هـو، كان هنـاك ضـوء.

رحلـت الظـلال التـى تخفـت فى غرفتـى منـذ بدايـة الشـهر، ورحلـت أيضًـا الأركان الكئيبـة وأجـواء الحـداد، النافـذة مسـتطيل باهـت، دلـف منـه اصفـرار متلألـئ أضـاء كل جوانـب غرفتـى، مـر الكثـير مـن الوقـت منـذ رأيتـه لدرجـة أننـى شـعرت بتدفـق قـوى للفـرح، كأنهـا لم تكـن مجرد ليلـة التـى انتهـت، بـل شـتاء، بـدا كأن الربيـع قـد حـل.

القـط عـلى حافـة النافـذة، يتطلـع بإمعـان إلى الحديقـة، سـمعنى أتحـرك، فقفـز عـلى الفـور وخربـش البـاب ليخـرج، جذبـت ملابـسى ومعطفـى، وتسـحبنا هابطـين السـلم معًـا، إلى المطبـخ، والحديقـة.

أدركـت خطـاى فى اللحظـة التـى خطـوت فيهـا خـارج المنـزل، هـذا ليـس النهـار، وهـذه ليسـت الشـمس، بـل ضـوء القمـر الـذى سـطع عـلى

الحديقـة، يشـحذ أطـراف أوراق الشـجر بلـون فـضى، ويلمـس أطـراف التماثيـل المنحوتـة، وقفـت ثابتـة وحملقـت إلى القمـر، كان تـام الاسـتدارة، معلـق بشـحوب وسـط سـماء صافيـة، ولأننـى افتتنـت بالمشـهد، كان بإمـكانى أن أقـف هنـاك حتـى الفجـر، لكـن القـط، بـلا صـبر، ضغـط عـلى كعبـى طلبًـا لاهتمامـى، وانحنيـت لأمسـده، بمجـرد أن لمسـته ابتعـد، فقـط ليتوقـف عـلى بعـد أمتـار قليلـة، وينظـر إلى أعـلى كتفـه.

رفعت ياقة معطفى، وغرزت يدى الباردتين فى جيبى، وتبعته.

قـادنى فى البدايـة عـبر المسـار العشـبى بـين الحـدود الممتـدة، ولمـع سـياج الصنوبـر زاهيًـا عـلى يسـارنا، وعـلى يميننـا كان السـياج مظلـمًا فى الظـل، انعطفنـا إلى حديقـة الأزهـار حيـث بـدت الشـجيرات المهذبـة مثـل أكـوام مـن الأفـرع الميتـة، لكـن الحـدود العريضـة مـن الأشـجار التـى أحاطـت بهـا بشـكل إليزابيثـى متعـرج انحرفـت داخلـة إلى ضـوء القمـر وخارجـة منـه، يظهـر هنـا لـونٌ فـضى، وهنـاك لـونٌ أسـود، تباطـأت مـرات عـدة: فقـد قابلـت فـرع لبـلاب منفـرد منحـرف بزاويـة ليلتقـط ضـوء القمـر عـلى نحـو مثـالى، وظهـرت فجـأة شـجرة البلـوط العظيمـة التـى بـدت محفـورة بدرجـة وضـوح غـير بشريـة أمـام السـماء الباهتـة، لكننـى لم أسـتطع أن أتوقـف، فطـوال الوقـت كان القـط يتقدمنـى بخطـوات عازمـة متسـاوية، وذيلـه مرفـوع مثـل مظلـة مرشـد سـياحى تبـث إشـارة "اتبعينـى"، وفى الحديقـة ذات الجـدران، قفـز عـلى الجـدار المحيـط بالنافـورة ومـشى نصـف محيطـه متئـدًا، ومتجاهـلاً انعـكاس القمـر الـذى أضـاء فى الميـاه مثـل عملـة لامعـة فى قـاع البركـة، وحـين بلـغ المدخـل المقنطـر إلى الحديقـة الشـتوية، هبـط ومـشى نحـوه.

توقـف لوهلـة تحـت القنطـرة، وتطلـع يمنـة ويـسرة بنظـرة عازمـة، ثـم رأى شـيئًا، فتسـلل نحـوه بعيـدًا عـن الأنظـار.

تقدمت على أطراف أصابعى لأقف حيث يقف بدافع من فضولى، ونظرت حولى.

تكون الحديقة الشتوية زاهية الألوان حين تراها فى الوقت الصحيح من اليوم، وفى الوقت الصحيح من السنة، وتعتمد بدرجة كبيرة على أن يبث ضوء النهار الحياة فيها، وقد اضطرت زائرة منتصف الليل إلى أن تنظر بتمعن أكثر لترى معالمها الجذابة، كانت الحديقة مظلمة أكثر من أن تسمح برؤية الانتشار الواسع المنخفض لأوراق الخربق على التربة الداكنة، ولم يحن بعد موعد ازدهار أزهار الثلج، والطقس أبرد من أن يسمح لزهور الغار بأن تطلق رائحتها، لكن مع ذلك يوجد نبات بندق الساحرة، الذى قريبًا ستتزين أفرعه بالشُرابات الصفراء والبرتقالية المهتزة، لكن الآن، الأفرع نفسها هى أكثر ما يلفت الانتباه، الأشجار ناعمة وبلا أوراق، وتصميم الحديقة معقود بدقة وبه تعرج عشوائى، وتحيط به الأناقة.

عند آخرها، رأيت خيالاً لجسد بشرى منحنٍ على الأرض.

تجمدت.

يلهث الجسد ويتحرك بمشقة، ويطلق نفخات لاهثة وهمهمات متعبة.

وخلال ثانية طويلة بطيئة، تسابقت الأفكار فى عقلى لإيجاد تفسير لوجود إنسان آخر فى حديقة السيدة "وينتر" ليلاً، أدركت بعض الأشياء لحظيًا من دون الحاجة للتفكير بشأنها، بداية، هذا ليس "موريس" الذى يركع على ركبتيه هناك، مع أنه أكثر من يُحتمل أن أجده فى الحديقة، لم يخطر ببالى قط أن أتساءل إن كان هو أم لا، ليس هذا هيكله النحيل، وهذه ليست حركاته الوئيدة، كذا فإنها ليست "جوديث"، "جوديث" الأنيقة الهادئة بأظفارها النظيفة، وشعرها

المثالى وحذائها الملمع تنبش الحديقة فى منتصف الليل؟ مستحيل، لم أحتج للتفكير بشأنيهما، ولذا لم أفعل.

بدلاً من ذلك، فى تلك الثانية، ترنح عقلى ذهابًا وإيابًا مئات المرات بين فكرتين.

إنها السيدة "وينتر".

لا يمكن أن تكون السيدة "وينتر".

إنها السيدة وينتر لأنها.. لأنها هى، أستطيع أن أجزم بذلك، أحسست بذلك، إنها هى وقد أدركت ذلك.

لا يمكن أن تكون هى، فالسيدة "وينتر" ضعيفة ومريضة، السيدة "وينتر" دائمًا جالسة على مقعدها المتحرك، السيدة "وينتر" مريضة أكثر من أن تستطيع أن تنحنى لقطف نبتة، فما بالك بالانحناء على الأرض الباردة لتنبشها بهذه الطريقة المجنونة.

إنها ليست السيدة "وينتر".

لكن على نحو ما، على نحو مستحيل، وعلى الرغم من كل شىء، إنها هى.

كانت الثانية الأولى طويلة ومربكة، وكانت الثانية، حين جاءت أخيراً، مفاجئة.

تجمد الجسد.. استدار.. وانتصب.. وعرفت.

إنهما عينا السيدة "وينتر"، بشكلهما الأخضر الخارق العبقرى.

لكنه ليس وجه السيدة "وينتر".

ترقيع من الجلد المنقط الذى به ندوب، تتقاطع فيه شقوق أعمق مما قد يفعله الزمن، خدان مكتنزان غير متساويين، شفتان غير متوازنتين، نصفهما على شكل قوس مضبوط الزاوية يدل على

جمال سابق، والنصف الآخر عبارة عن ترقيع وتعرجات من اللحم الأبيض.

"إيميلاين"! أخت السيدة "وينتر"! إنها على قيد الحياة، وتعيش فى هذا المنزل!

اضطرب عقلى، واندفع الدم فى أذنى، وشلتنى الصدمة، حملقت إلىّ دون أن ترمش، وأدركت أنا أنها أقل منى اندهاشًا، لكن مع ذلك، بدا أنها خاضعة للتعويذة نفسها مثلى، كلتانا ملقاة فى بحر من الجمود.

خرجت هى منه أولاً، رفعت يدها المظلمة المغطاة بالطين نحوى بحركة سريعة، وبصوت أجش نطقت مجموعة من الأصوات بلا معنى.

أبطأت الحيرة استجابتى، لم أستطع حتى أن أنطق اسمها بتلعثم قبل أن تستدير وتهرول مبتعدة، مائلة إلى الأمام، منحنية الكتفين، ثم ظهر القط من الظلال، وتمدد بهدوء وتبعها متجاهلاً إياى، اختفيا تحت القنطرة وبقيت وحيدة، أنا ورقعة من التربة المبعثرة.

بالفعل إنها الثعالب.

بمجرد أن ذهبا، ربما تمكنت من إقناع نفسى بأننى تخيلت ذلك، أننى كنت أسير نائمة، وأننى حلمت خلال نومى بأن توأم "آديلاين" ظهرت لى وهمست رسالة سرية غير مفهومة، لكننى عرفت أنه حقيقة، ومع أننى لم أعد أراها، فإننى استطعت أن أسمع غناءها وهى تغادر، تلك المعزوفة المثيرة للغضب ذات النوتات الخمس بلا لحن، لا لا لا لا لا.

وقفت أستمع إليها، إلى أن اختفت تمامًا.

ثم عدت إلى المنزل، بعدما أدركت أن قدمى ويدى تتجمد.

الأبجدية الصوتية

مـرت سـنوات كثـيرة منـذ تعلمـت الأبجديـة الصوتيـة، بـدأ الأمـر بجـدول فى كتـاب لغويـات بمتجـر والـدى، مـا مـن سـبب لاهتمامـى فى البدايـة، سـوى أننـى لم أجـد مـا أفعلـه فى نهايـة أسـبوع مـا، وقـد فتنتنـى الإشـارات والرمـوز التـى احتواهـا الجـدول، وجـدت بـه حروفًـا مألوفـة وغيرهـا غريبـة، وجـدت بـه حـروف "إن" كبـيرة تختلـف عـن مثيلاتهـا الصغـيرة، وحـروف "واى" كبـيرة تختلـف عـن مثيلاتهـا الصغـيرة، وحـروف أخـرى، حـروف "إن" و"دى" و"إس" و"زيـد"، لهـا أذيـال ودوائـر صغـيرة غريبـة ملحقـة بهـا، ويمكـن أن تـرى حـروف "إتـش" و"آى" و"يـو" كأنهـا حـروف "تى"، أحببـت تلـك الأشـكال الهجينـة الجامحـة الفخمـة: فمـلأت صفحـات بحـروف "إم" تحولـت إلى "جـى"، وحـروف "فى" ارتفعـت عـلى نحـو غـير مسـتقر فـوق حـروف "أُو" مثـل الـكلاب الراقصـة عـلى الكـرات فى السـيرك، صـادف والـدى صفحـات الرمـوز خاصتـى وعلمنـى الصـوت المرتبـط بـكل منهـا، وبحسـب مـا اكتشـفت، يمكـن فى الأبجديـة الصوتيـة

الدوليـة أن تكتـب كلـمات تبـدو مثـل المعـادلات الرياضيـة، كلـمات تبـدو مثـل شـيفرة سريـة، كلـمات تبـدو مثـل اللغـات المندثـرة.

احتجـت إلى لغـة مندثـرة، لغـة يمكنننـى بواسـطتها التواصـل مـع مـن اندثـروا، اعتـدت أن أكتـب كلمـة مميـزة تلـو الأخرى، اسـم أختـى، تعويذة، ثـم أطـوى الكلمـة لتصبـح أوريجامـى مصغـر دقيـق، وأبقـى أوراقـى المطويـة قريبـة منـى، وفى الشـتاء عاشـت فى جيـب معطفـى، وفى الصيـف دغدغـت كعبـى داخـل جـوربى، وفى المسـاء، غفـوت متشـبثة بهـا فى يـدى، وعـلى الرغـم مـن كل هـذا الاهتـمام، لم أحفـظ دائمًـا مـكان قصاصـات الـورق تلـك، فقدتهـا، وصنعـت غيرهـا، ثـم وجـدت تلـك الضائعـة، وحـين حاولـت والـدتى اقتنـاص واحـدة مـن بـين أصابعـى، ابتلعتهـا لأمنعهـا، مـع أنهـا مـا كانـت لتسـتطيع قراءتهـا، لكـن حـين رأيـت والـدى يلتقـط ورقـة قديمـة مطويـة أصبـح لونهـا رماديًـا مـن بـين الكراكيـب فى قـاع درج، ويفتحهـا، لم أفعـل شـيئًا لإيقافـه، وحـين قـرأ الاسـم الـسرى، بـدا الانكسـار عـلى وجهـه، وكانـت عينـاه حـين تطلعتـا إلىّ مليئتـين بالحـزن.

كان ليتكلـم، فتـح فمـه ليتكلـم لكننـى أمرتـه بالصمـت برفـع إصبعـى إلى شـفتى، مـا كنـت لأسـمح لـه بـأن ينطـق اسـمها، ألم يحـاول هـو أن يحبسـها بعيـدًا، فى الظـلام؟ ألم يـرد أن ينسـاها؟ ألم يحـاول أن يبعدهـا عنـى؟ فـلا حـق لـه فيهـا الآن.

اقتنصـت الورقـة مـن بـين أصابعـه، وغـادرت الغرفـة مـن دون كلمـة، وعـلى كـرسى النافـذة فى الطابـق الثـانى، وضعـت قصاصـة الـورق فى فمـى، تذوقـت نكهتهـا الجافـة الخشـبية، وابتلعتهـا، لمـدة عـشرة أعـوام، دفـن والـداى اسـمها بالصمـت، يحـاولان النسـيان، والآن سـأحميها بصمتـى الخـاص، وسـأتذكرها.

كانـت الأبجديـة الصوتيـة واحـدة مـن الينابيـع العشـوائية السريـة للمعرفـة عديمـة الفائـدة التـى تبقـت معـى مـن طفولتـى العامـرة

بالكتب، إلى جانب نطقى الخطأ لكلمات مرحبًا والوداع وآسفة بسبع عشرة لغة، وقدرتى على تذكر الأبجدية اليونانية من البداية للنهاية والعكس (وأنا لم أتعلم قط كلمة يونانية فى حياتى)، تعلمتها فقط لأسلى نفسى -ولأغراض شخصية فقط- لذا بمرور السنين لم أبذل أى جهد خاص لأمارسها، ولهذا اضطررت إلى المحاولة مرات عدة حين رجعت من الحديقة ووضعت القلم على الورقة لأسجل أصوات الصفير والصوامت الاحتكاكية والصوامت الانفجارية والحروف التكرارية الواردة فى همسة "إيميلاين" السريعة.

بعد ثلاث أو أربع محاولات، جلست على السرير ونظرت إلى السطر الذى كتبته من الخطوط المائلة والرموز والإشارات، هل كان دقيقًا؟ بدأت الشكوك فى مهاجمتى، هل تذكرت الأصوات بدقة بعد رحلة الدقائق الخمس إلى المنزل؟ هل كان تذكرى للأبجدية الصوتية نفسه كافيًا؟ ماذا لو لوثت محاولاتى الأولية الفاشلة ذاكرتى؟

همست ما كتبته على الورقة، همسته مجددًا بسرعة، انتظرت تردد صدى ما فى ذاكرتى لديه الإجابات ليخبرنى أنها صحيحة، لكن لم يتردد أى صدى، إنَّ ذلك السطر تفريغ لتقليد ساخر لشىء لم يُسمع بوضوح، ومن ثم لم يُتذكر بوضوح، إنه بلا فائدة.

كتبت الاسم السرى بدلاً منه، والتعويذة، والسحر.

لم تنجح التعويذة من قبل، فأختى لم ترجع، وأنا لا أزال وحيدة.

برمتُ الورقة على شكل كرة وركلتها إلى إحدى الزوايا.

السُلم

"قصتى لا تضجرك يا آنسة (ليا)؟"

تحملت عددًا من مثل هذه التعليقات فى اليوم التالى وأنا أتململ وأحك عينى وأستمع إلى قصة السيدة "وينتر"، غير قادرة على كبح تثاؤبى.

"أنا آسفة، إنى متعبة فقط".

تعجبت: "متعبة! تبدين كالمحتضرة! ستجعلك وجبة لذيذة على ما يرام، ماذا حدث لك؟"

هززت كتفى بلا مبالاة: "أنا متعبة فقط، هذا كل ما فى الأمر".

زمت شفتيها ورمقتنى بنظرة صارمة، لكننى لم أعلق، واستغرقت هى فى قصتها.

***

تُركت الأمور على عواهنها لستة أشهر، عزلنا أنفسنا فى بضع من الغرف: المطبخ، حيث لا يزال "جون" ينام، والمرسم والمكتبة، ونحن الفتاتين استخدمنا سلمًا خلفيًا للوصول من المطبخ إلى إحدى غرف النوم التى بدت آمنة، المراتب التى نمنا عليها هى تلك التى جررناها من الغرفة القديمة، فالأسرَّة نفسها أثقل من أن نستطيع تحريكها، وعلى أيَّة حال فإن المنزل بدا كبيرًا للغاية منذ تقلص عدد ساكنيه، ونحن من نجونا، شعرنا بسهولة أكبر فى تأمين شئون مسكننا الأصغر وإدارته، ومع ذلك، لم ننجح فى نسيان بقية المنزل، الذى تتفاقم أحواله وراء الأبواب المغلقة، مثل طرف بشرى يحتضر.

قضت "إميلاين" الكثير من وقتها فى ابتكار ألعاب بالبطاقات، فكانت تلح على: "العبى معى، هيا العبى معى"، وفى النهاية استسلمت ولعبت معها، كانت ألعابًا مبهمة، بقوانين دائمة التغير، ألعاب فهمتها هى وحدها، وفازت بها دائمًا، ما بث فيها سرورًا دائمًا، اعتادت أن تتحمم، فهى لم تفقد قط حبها للصابون والمياه

الساخنة، وكانت تقضى ساعات تدلل نفسها فى المياه التى سخنتُها لغسل الملابس والاغتسال، لم أبخل عليها بذلك، فمن الأفضل أن تكون إحدانا على الأقل قادرة على أن تكون سعيدة.

قبل أن نغلق الغرف، مرت "إيميلاين" على الخزانات التى استخدمتها "إيزابيل" وأخذت الفساتين والعطور والأحذية وراكمتها فى المخيم الذى اتخذناه غرفة نوم، كان الأمر أشبه بأن تحاول النوم فى صندوق للزينة، ارتدت "إيميلاين" الفساتين، بعضها كان قد مر عليه عشرة أعوام، وغيرها -الخاصة بوالدة "إيزابيل"، بحسب ما أفترض- كان عمرها ثلاثين وأربعين عامًا، اعتادت "إيميلاين" أن تسلينا فى المساء بدخولها إلى المطبخ مرتدية الأزياء التى تبدو باهظة الثمن، جعلتها الفساتين تبدو أكبر سنًا من خمسة عشر، كانت تبرز أنوثتها، تذكرت محادثة "هيستر" مع الطبيب فى الحديقة -لا أرى سببًا لكيلا تتزوج (إيميلاين) فى يوم ما- وتذكرت ما قالته السيدة لى عن "إيزابيل" والنزهات - كانت من نوع الفتيات اللاتى لا ينظر إليه رجل دون أن تراوده الرغبة فى لمسه- وشعرت بقلق مفاجئ، لكن عند ذلك ارتمت على أحد كراسى المطبخ، وأخرجت من حقيبة يدها الحريرية مجموعة من بطاقات اللعب، وقالت بكل طفولية: "هيا، العبى معى بالبطاقات"، طمأننى ذلك قليلاً، لكن مع ذلك، حرصت على ألا تغادر المنزل بأناقتها.

كان "جون" باردًا، ومع ذلك فقد دفع نفسه إلى فعل ما لا يُصدق: جلب فتى ليساعده فى الحديقة، قال: "سيكون الأمر على ما يرام، إنه ليس إلا ابن العجوز (بروكتور)، اسمه (أمبروز)، إنه شاب هادئ، ولن يطول وجوده، فقط حتى أصلح المنزل".

أدركت أن هذا سيستمر إلى الأبد.

جـاء الفتـى، كان أطـول مـن "جـون" وأعـرض منـه عنـد الكتفـين، وقفـا وأيديهـما فى جيوبهـما، وتناقشـا بشـأن عمـل اليـوم، ثـم بـدأ الفتـى عملـه، كان لـه أسـلوب دقيـق وصبـور فى الحفـر، فكانـت دقـات المجرفـة المسـتمرة فى الأرض تثـير أعصـابى: "لم يجـب أن يكـون موجـودًا؟" أردت أن أعـرف: "إنـه غريـب مثـل الآخريـن تمامًـا".

لكـن لسـبب مـا، لم يكـن الفتـى غريبًـا بنظـر "جـون"، ربمـا لأنـه قـادم مـن عـالم "جـون"، عـالم الرجـال، العـالم الـذى لم أعرفـه.

قـال "جـون": "إنـه شـاب صالـح"، مـرارًا وتكـرارًا إجابـة عـلى أسـئلتى: "إنـه جـاد فى عملـه، ولا يسـأل كثـيرًا، ولا يتكلـم كثـيرًا".

"قد لا يكون له لسان، لكنّ فى رأسه عينين".

هز "جون" كتفيه بلا مبالاة واستدار مستاءً.

قـال فى النهايـة: "لـن أظـل موجـودًا للأبـد، ولا يمكـن أن تسـتمر الأمـور للأبـد هكـذا"، وأشـار إشـارة غامضـة بيـده شـملت المنـزل وسـاكنيه وحياتنا داخلـه: "لا مفـر مـن تغـير الأمـور فى يـوم مـا".

"تغير؟"

"أنـت تكبريـن، لـن تظـل الأمـور عـلى حالهـا، أليـس كذلـك؟ أن تكونـا طفلتـين شىء، وأن تصبحـا بالغتـين..."

لكننى كنت قد تركته بالفعل، لم أرد أن أعرف ما أراد قوله.

كانــت "إيميلايــن" فى غرفــة النــوم، تخلــع الترتــر مــن وشــاح ليـلىّ لتجمعـه فى صنـدوق كنوزهـا، جلسـت إلى جانبهـا، بـدت مسـتغرقة جـدًا فى مهمتهـا لدرجـة عـدم التفاتهـا إلى حـين جئـت، أصابعهـا متدرجـة الامتـلاء التقطـت قطـع الترتـر بـلا هـوادة حتـى خلعتهـا كلهـا، ثـم ألقتهـا داخـل الصنـدوق، كان عمـلاً بطيئًـا، لكـن "إيميلايـن" لديهـا كل الوقـت المطلـوب، وجههـا الهـادئ لم يتأثـر قـط مـع انعكافهـا عـلى الوشـاح، ضامـة شـفتيها،

ونظرتها عازمة وحالمة فى آن، بين الحين والآخر يهبط جفناها، مُخفِيَين حدقتين خضراوين، ثم بمجرد أن يلمسا الجفنين السفليين، يرتفعان مجددًا ليكشفا عن خضار لم يتبدل.

هل بدوت هكذا حقًّا؟ تساءلت، أدركت مدى تطابق عينى وعينيها فى المرآة، وأدركت أننا لدينا الخصلة الملتوية نفسها الشاطحة تحت ثقل الشعر الأحمر فى مؤخر عنقينا، وأدركت تأثيرنا على القرويين فى تلك المرات النادرة التى مشينا فيها متشابكتى الذراعين فى شارع "ذا ستريت" بفستانين متطابقين، لكن مع ذلك، لم أبد مثل "إيميلاين"، أليس كذلك؟ وجهى لم يستطع أن يُبدى ذلك التركيز الهادئ، فالإحباط سيشوهه، إذ سأعض شفتى، وسأرفع شعرى بعصبية وراء كتفى وخارج مجال بصرى، وسأنفخ ضجرًا، لن أكون هادئة مثل "إيميلاين"، سأعض قطع الترتر بأسنانى.

أردت أن أسألها، لن تتركينى، أليس كذلك؟ لأننى لن أتركك، سنبقى هنا إلى الأبد، معًا، أيًّا كان ما يقوله "جون ذا ديج".

"لم لا نلعب؟"

تابعت عملها الصامت كأنها لم تسمعنى.

"لنلعب لعبة الزواج، يمكنك أن تكونى العروس، هيا، يمكنك ارتداء.. هذا"، وجذبت قطعة صفراء من الملابس الشفافة من كومة الأزياء الأنيقة فى الزاوية: "إنه مثل حجاب الزفاف، انظرى"، لكنها لم تنظر، ولا حتى حين رميتها على رأسها، أبعدتها برقة عن عينيها واستمرت فى خلع قطع الترتر.

فحولت انتباهى إلى صندوق كنوزها، مفاتيح "هيستر" لا تزال هناك، محتفظة بلمعانها، مع إن "إيميلاين"، على ما يبدو، قد نسيت أمر صاحبتها القديمة، توجد أجزاء وقطع من حلى "إيزابيل"، والأغلفة الملونة للحلوى التى أعطتها لها "هيستر" يومًا ما، وقطعة

مثـيرة للانتبـاه مـن زجاجـة خـضراء مكسـورة، وجـزء مـن شريـط لـه طـرف ذهبـى كان لى، أعطتـه لى السـيدة منـذ سـنوات لا أتذكـر عددهـا، وتحـت قطـع الخـردة الأخـرى لا تـزال الخيـوط الفضيـة التـى انتزعتهـا مـن السـتائر يـوم وصلـت "هيسـتر" موجـودة، وهنـاك شىء بـدا غريبًـا، نصفـه مختـفٍ تحـت ركام الياقـوت والزجـاج والخـردة، شىء مـن الجلـد، أملـت رأسى جانبًـا لأراه أفضـل، آه! لهـذا أرادت الاحتفـاظ بـه! لأن عليـه نقـش ذهبـى، إنهـا حـروف "أى إيـه آر"، مـا المقصـود بــ"أى إيـه آر"؟ أو مـن المقصـود بــ"أى إيـه آر"؟ أملـت رأسى إلى الجهـة المقابلـة ولمحـت شـيئًا آخـر، قفـل صغـير، ومفتـاح صغـير، ليـس غريبًـا أنـه فى صنـدوق كنـوز "إيميلايـن، حـروف ذهبيـة ومفتـاح، لا بـد أنهـا غنيمتهـا الأعـلى قيمـة، وفجـأة صدمتنـى فكـرة، "أى إيـه آر"! إنـه دفـتر يوميـات!

مددت يدى.

نظـرات "إيميلايـن" يمكـن أن تكـون خادعـة، فقـد هبطـت يـد "إيميلاين" بسرعـة الـبرق وبـكل قـوة عـلى رسـغى، ومنعتنـى مـن لمسـه، ومـع ذلـك لم تنظـر إلى، بـل حركـت يـدى بعيـدًا بحركـة صارمـة، وأنزلـت غطـاء صندوقهـا.

وجدت علامات ضغط بيضاء على رسغى حيث أمسكت بى.

قلـت عـلى سـبيل التجربـة: "سـأذهب بعيـدًا"، لم يبـد صـوتى مقنعًـا للغايـة، "نعـم سـأفعل ذلـك، وسـأتركك هنـا، سـأكبر وأعيـش وحـدى".

ثـم وقفـت وغـادرت الغرفـة، تملـؤنى الشـفقة عـلى الـذات المغلفـة بالكبريـاء.

لم يكـن إلا فى نهايـة عـصر اليـوم أن جـاءت لتجـدنى عـلى مقعـد النافذة فى المكتبـة، أغلقـت السـتائر لتخفينـى، لكنهـا جـاءت إلى مـكانى مبـاشرة ونظـرت حولـه، سـمعت خطواتهـا المقتربـة، وشـعرت بحركـة السـتائر حـين رفعتهـا، كنـت أشـاهد قطـرات المطـر عـلى زجـاج النافـذة وجبهتـى

مضغوطـة عـلى الزجـاج، كانـت الريـاح تجعـل قطـرات المطـر ترتعـش، فتهـدد باسـتمرار بـأن تطلـق قطـرة بإحـدى المسـارات المتعرجـة وتبتلع كل قطـيرة فى طريقهـا وتـترك وراءهـا طريقًـا لامعًـا مختـصرًا، جـاءت "إيميلايـن" إلىّ وأرخـت رأسـها عـلى كتفـى، هـززت كتفـى لأبعدهـا بغضـب، ولم أسـتدر لأكلمهـا، فأخـذت يـدى، ووضعـت شـيئًا عـلى أصابعـى.

انتظرت أن تمشى قبل أن أنظر، إنه خاتم، لقد أعطتنى خاتمًا.

أدرت حَجَـر الخاتـم للداخـل، إلى ناحيـة الكـف، وقربتـه مـن النافـذة، أعـاد الضـوء الحيـاة إلى الحجـر، إنـه أخـضر، مثـل عينـى، أخـضر مثـل عينـى "إيميلايـن". لقـد أعطتنـى خاتمًـا، أغلقـت أصابعـى عـلى كفـى وجعلتهـا قبضـة محكمـة وفى قلبهـا الحجـر.

***

جمـع "جـون" دلاء ميـاه المطـر وأفرغهـا، وقـشر الخـضراوات ليضعهـا فى القـدر، وذهـب إلى المزرعـة وعـاد بالحليـب والزبـد، لكـن بعـد كل مهمـة، يبـدو أن طاقتـه التـى جمعهـا ببـطء تنفـد، وفى كل مـرة تسـاءلت هـل سـتكون لديـه القـوة اللازمـة ليقيـم عـوده النحيـل عـن الطاولـة لينفـذ المهمـة التاليـة؟

سـألته: "أنذهـب إلى الحديقـة التوبياريـة؟ يمكنـك أن ترينـى مـا يجـب فعلـه هنـاك".

لم يـرد، أظـن أنـه بالـكاد سـمعنى، فتركـت الأمـر لبضعـة أيـام، ثـم طلبـت منـه هـذا مجـددًا، ومـرارًا وتكـرارًا.

فى النهايـة ذهـب إلى الكـوخ، حيـث شـحذ المجـزات بإيقـاع حركتـه السـلس القديـم، ثـم أنزلنـا السـلم الطويـل وحملنـاه مـع المجـزّات إلى الخـارج، "هكـذا"، ومـد يـده ليرينـى مفتـاح الأمـان فى السـلم، ومـد السـلم مقابـل جـدار الحديقـة، جربـت مفتـاح الأمـان بضـع مـرات، ثـم صعـدت

بضع درجات وهبطت، قال: "لن تشعرى أنه بهذا الثبات حين تسندينه إلى أشجار الصنوبر، لكنه سيكون آمنًا كفاية إن تعاملت معه على نحو صحيح، يجب أن تشعرى به".

ثم ذهبنا إلى الحديقة التوبيارية، وقادنى إلى شجرة صنوبر متوسطة الحجم بحاجة إلى تقليم، فذهبت لأسند السلم إليها، لكنه صاح: "لا، لا، أنت متسرعة للغاية". سار ثلاث مرات حول الشجرة، ثم جلس وأشعل سيجارة، وجلست أنا وأشعل واحدة لى أيضًا، "لا تقصى الأشجار فى ضوء الشمس المباشر أبدًا، وانتبهى إلى ظلك"، وسحب بضع أنفاس من سيجارته، "احذرى من السحاب، لا تدعيه يميل خط اتزانك وهو يتحرك، حددى شيئًا ثابتًا فى مجال رؤيتك، مثل سطح أو سياج، هذا محور حركتك، ولا تتسرعى أبدًا، ستقضين فى النظر ثلاثة أضعاف الوقت الذى تقضينه فى التشذيب"، لم يرفع عينه عن الشجرة طوال حديثه، كذا لم أفعل أنا: "يجب أن تشعرى بمؤخر الشجرة حين تقلمين مقدمها، والعكس كذلك، ولا تقطعى بالمجزّات وحسب، بل استخدمى كامل ذراعك، استخدميه بالكامل حتى كتفيك".

أنهينا سيجارتينا وأطفأنا العقبين بمقدم حذاءينا.

"أبقى فى بالك شكل الشجرة الآن، مِن بُعد، حين تقتربين منها".

كنت مستعدة.

تركنى أسند السلم إلى الشجرة ثلاث مرات قبل أن يرضى عن درجة أمانه، ثم أخذت المجزات وصعدت.

عملت لثلاث ساعات، فى البداية كنت مدركة للارتفاع، وظللت أنظر إلى الأسفل، واضطررت إلى إجبار نفسى على الصعود درجة إضافية، وفى كل مرة حركت فيها السلم، استغرق الأمر محاولات عدة لأجعله آمنًا، لكن بالتدريج تمكنت من تلك المهمة، بالكاد انتبهت إلى مدى ارتفاعى، فعقلى كان مستغرقًا جدًّا فى الشكل الذى أحاول صنعه،

وقـف "جـون" بالقـرب منـى، صامتًـا غالـب الوقـت، يبـدى تعليقًـا بـين الحـين والآخـر: انتبهـى إلى ظلـك! أو فكـرى فى المؤخـر! لكـن فى الغالـب كان يتفـرج فقـط، ويدخـن، لم يكـن إلا حـين نزلـت عـن السـلم للمـرة الأخـيرة، وفتحـت مفتـاح الأمـان وضممتـه، أن أدركـت كـم تؤلمنـى يـداى بسـبب وزن المجـزّات، لكننـى لم أهتـم.

تراجعـت للخلـف كثـيرًا لأفحـص نتيجـة عمـلى، وسرت ثـلاث مـرات حـول الشـجرة، تهلـل قلبـى، فالنتيجـة كانـت جيـدة.

أومأ "جون": "ليس سيئًا، ستفلحين فى هذا".

***

ذهبـت لأحـضر السـلم مـن الكـوخ لتقليـم القبعـة المسـتديرة، لكننـى لم أجـده، الفتـى الـذى لا أحبـه موجـود فى حديقـة المطبـخ ومعـه المجرفـة، ذهبـت إليـه متجهمـة: "أيـن السـلم؟" وكانـت تلـك أول مـرة أتحـدث إليـه.

تجاهـل فظاظتـى وأجـاب بـأدب: "أخـذه السـيد (ديجنـس)، إنـه ناحية مقـدم المنـزل يصلح السـقف".

جلبـت لنفـسى واحـدة مـن السـجائر التـى تركهـا "جـون" فى الكـوخ، ودخنتهـا، مرسـلة نظـرات خبيثـة إلى الفتـى الـذى نظـر إلى السـيجارة بعينـين حاسـدتين، ثـم شـحذت المجـزّات، ثـم، بعدمـا أعجبنـى الشـحذ، شـحذت سـكين الحديقـة، مسـتغرقة الوقـت الـلازم وأفعـل ذلـك بشـكل جيـد، ويسـير وراء إيقـاع الحجـر والشـفرة طـوال الوقـت إيقـاع حفـر مجرفـة الفتـى فى الأرض، ثـم نظـرت إلى الشـمس وفكـرت فى أننـى أتأخـر عـلى بـدء فى القبعـة المسـتديرة الكبـيرة، ثـم ذهبـت لأبحـث عـن "جـون".

كان السـلم ممـددًا عـلى الأرض، يصنـع نصفـاه زاويـة غريبـة تشـبه عقـارب السـاعة، والقنـاة المعدنيـة التـى كان يفـترض أن تثبتهـا فى

خط مستقيم شُدت بقوة من الخشب، وتبرز شظيتان كبيرتان من الكسرالذى فى جانب السلم، وبجوار السلم تمدد "جون"، لم يتحرك حين لمست كتفه، لكنه كان دافئًا مثل الشمس التى لمست أطرافه المتباعدة وشعره الدامى، كان يحملق إلى السماء الزرقاء الصافية، لكن أزرق عينيه غائم على نحو غريب.

هجرتنى الفتاة العاقلة، وفجأة أصبحت نفسى فقط، مجرد طفلة غبية، بلا أىّ شىء تقريبًا.

همست: "ماذا أفعل؟"

أخافنى صوتى: "ماذا أفعل؟"

راقبت مرور الوقت وأنا ممددة على الأرض، ويد "جون" معشقة بيدى، وحبات الحصى تنخر صدغى، امتد ظل الجزء المرتد من المنزل الخاص بالمكتبةعلى الحصى وبلغ أبعد درجات السلم، وتسلل الظل على السلم بتجاهنا درجة تلو الأخرى، وبلغ مفتاح الأمان.

مفتاح الأمان، لماذا لم يتفقد "جون" مفتاح الأمان؟ أليس أكيدًا أنه سيتفقده؟ نعم بالتأكيد، ولكن إن كان قد تفقده، فكيف.. ولماذا...؟

لم أتحمل التفكير فى الأمر.

درجة، تلو الأخرى، تلو الأخرى، يتسلل ظل ارتداد المكتبة ويصبح أقرب فأقرب، وصل الظل إلى بنطال "جون" الصوفى، ثم قميصه الأخضر، ثم شعره، كم أصبح شعره خفيفًا! لمَ لمْ أهتم به أفضل؟

لم أتحمل التفكير فى الأمر، ولكن كيف لا أفكر؟ بينما ألاحظ شحوب شعر "جون"، لاحظت أيضًا الحزوز العميقة فى الأرض التى أحدثتها قاعدة السلم مع تمايله بعيدًا عن "جون"، ولا وجود لعلامات أخرى، الحصى ليس رملاً أو ثلوجًا أو حتى أرض منبوشة حديثًا، إنه لا يحفظ آثار الأقدام، لا أثر يُظهر كيف أتى أحد، أو كيف عبث أحد

بقاعـدة السـلم، وكيـف ابتعـد بهـدوء حـين أنهـى مـا جـاء مـن أجلـه، فمـما يوضحـه الحـصى، ربمـا كان شـبحًا.

كان كل شيء باردًا، الحصى، ويد "جون"، وقلبى.

وقفـت وتركـت "جـون" دون النظـر إلى الـوراء، سرت حـول المنـزل إلى حديقـة المطبـخ، كان الفتـى لا يـزال هنـاك، وجدتـه يضـع المجرفـة والمكنسـة بعيـدًا، توقـف حـين رآنى أقـترب، وحملـق إلى، ثـم حـين توقفـت -قلـت لنفـسى لا تفقـدى الوعـى! لا تفقـدى الوعـى!- ركـض إلىّ ليمسـك بى، رأيتـه كأننـى بعيـدة جـدًّا، جـدًّا، ولم أفقـد الوعـى، ليـس تمامًـا، بـل أحسسـت بصـوت يعلـو داخـلى حـين اقـترب، كلـمات لم أخـتر أن أقولهـا، لكنهـا شـقت طريقهـا إلى خـارج حلقـى المخنـوق: "لم لا يسـاعدنى أحـد؟"

أمسـك بى مـن تحـت ذراعـى، وانهـرت تجاهـه، سـاعدنى برفـق لأتمـدد عـلى العشـب: "سأسـاعدك، سـأفعل ذلـك".

***

بينـما حادثـة مـوت "جـون ذا ديـج" حـاضرة فى ذهنـى، ووجـه السـيدة "وينـتر"، الشـكلى، لا يـزال مهيمنًـا عـلى ذاكـرتى، بالـكاد لاحظـت الرسـالة التـى كانـت تنتظـرنى فى غرفتـى.

لم أفتحهـا حتـى انتهيـت مـن التفريـغ، وحـين انتهيـت، لم يكـن لـدى الكثـير لأفعلـه.

العزيزة الآنسة ليا،

بعد المساعدة التى قدمها لى والدك على مر السنين، اسمحى لى أن أعبر عن مدى امتنانى لإتاحة الفرصة لرد الجميل لابنته ولو على نحو بسيط.

لم يتوصل بحثى الأوّلى فى المملكة المتحدة إلى أى أدلة على مكان وجود السيدة "هيستر بارو" بعد فترة عملها فى "آنجلفيلد"، وقد وجدت عددًا محددًا من الوثائق تتعلق بحياتها قبل تلك الفترة، وأعد تقريرًا أتوقع أن يصل إليك فى غضون أسابيع قليلة.

لم يصل بحثى إلى نهايته بأى نحو، ولم أنتهِ بعد من تحقيقى بشأن صلتها فى إيطاليا، ومن المرجح للغاية أن تؤدى تفصيلة ما من سنواتها المبكرة إلى مسار تحقيق جديد.

لا تيأسى! إن كان أحد يستطيع العثور على المعلمة المنزلية خاصتك، فهو أنا.

المخلص،

إيمانويل دريك.

وضعت الرسالة بعيدًا فى درج، ثم جذبت معطفى والقفازين.

قلت لـ"شادو": "هيا بنا".

تبعنى وهبطنا السلم وخرجنا من المنزل، واتخذنا الطريق بطول جانب المنزل، بين الحين والآخر نجد شجيرة أمام الحائط فتجعلنا ننحرف عن مسارنا، وبالتدريج تبعدنا عن الجدار، بعيدًا عن المنزل، وتؤدى بنا إلى إغراءات الحديقة الشبيهة بالمتاهة، قاومت ذلك الميل البسيط وتابعت طريقى المستقيم، أن أبقى حائط المنزل إلى يسارى يعنى أن أنحشر وراء أجمة آخذة فى الاتساع من الشجيرات الناضجة

الكثيفـة، لقـد علقـت سـيقانها المتشـابكة فى كعبـى، فاضطـررت إلى لـف وشـاحى حـول وجهـى لتجنـب الخـدش، صاحبنـى القـط حتـى الآن، ثـم توقـف، حيـث غلبتـه كثافـة الأشـجار المتشـابكة.

ظللـت أتقـدم، ووجـدت مـا كنـت أبحـث عنـه، وجـدت نافـذة تغطيهـا أشـجار اللبـلاب بالكامـل تقريبًـا، وفى وجـود مثـل تلـك الكثافـة لـلأوراق دائمـة الخضرة بـين النافـذة والحديقـة، فـإن أى بصيـص ضـوء يهـرب منهـا لـن يُـرى أبـدًا.

داخـل النافـذة مبـاشرة، جلسـت أخـت السـيدة "وينـتر" أمـام طاولـة، وأمامهـا جلسـت "جوديـث"، كانـت ترفـع ملاعـق الحسـاء إلى شـفتى المرأة المقعـدة الجافتـين المتشـققتين، وفجـأة، فى منتصـف الطريـق بـين الوعـاء وفمهـا، توقفـت "جوديـث" لوهلـة ونظـرت تجاهـى مبـاشرة، لم تسـتطع رؤيتـى، فقـد كان اللبـلاب كثيفًـا للغايـة، لا بـد أنهـا شـعرت بحملقتـى، وبعدمـا توقفـت لوهلـة، عـادت إلى مهمتهـا، ولكننـى لاحظـت شـيئًا غريبًـا فى الملعقـة، إنهـا ملعقـة فضيـة عليهـا حـرف "إيـه" ممـدد بشـكل منمـق يزيـن المقبـض.

رأيـت ملعقـة مثلهـا مـن قبـل، حـرف "إيـه"، "آنجـل"، "آنجلفيلـد"، كانـت لـدى "إيميلايـن" ملعقـة مثـل هـذه، وكذلـك "أوريليـوس".

تملصـت إلى الخلـف مـن بـين الشـجيرات، وأنا ملتصقـة بالجـدار والأفرع متشـابكة فى شـعرى، تفـرج القـط وأنـا أزيـل أجـزاء الأفـرع والأوراق الميتـة عـن كمـى وكتفى.

اقترحت عليه: "إلى الداخل؟" وكان سعيدًا للغاية بأن يوافق.

لم يتمكـن السـيد "دريـك" مـن تعقـب "هيسـتر" مـن أجـلى، لكـن عـلى الجانـب الآخـر، وجـدت "إيميلايـن".

الشفق الأبدى

دونت القصة فى مكتبى، وتجولت فى الحديقة، ومسدت القط فى غرفة نومى وكبحت كوابيسى بالبقاء مستيقظة، بدت لى الليلة المقمرة التى رأيت فيها "إيميلاين" فى الحديقة كأنها حلم، لأن السماء انغلقت مجددًا، وأصبحنا مغمورين من جديد فى شفق بلا نهاية، بموت السيدة والآن "جون ذا ديج"، تسلل المزيد من الرعب إلى قصة السيدة "وينتر"، أكانت "إيميلاين" - ذلك الجسد المخيف فى الحديقة- هى من عبثت بالسلم؟ لم يكن أمامى إلا أن أنتظر حتى تكشف القصة نفسها لى، وفى أثناء ذلك، مع مرور أيام ديسمبر، يصبح الظل الحائم على نافذتى أكثر قوة بلا توقف، قربه نفّرنى، وبُعده فطر قلبى، كلما رأيته ثار داخلى مزيج مألوف من الخوف والاشتياق.

وصلت إلى المكتبة قبل السيدة "وينتر" -لا أعرف صباحًا أم عصرًا أم مساءً، فقد أصبحت متشابهة- ووقفت قرب النافذة وانتظرت، ضغطت أختى الشاحبة أصابعها تجاه أصابعى، وحبستنى داخل

نظرتها المتوسلة، وغشيت الزجاج بنفسها البارد، ليس أمامى إلا أن أكسر الزجاج حتى أكون معها.

جاء صوت السيدة "وينتر"من خلفى: "إلامَ تنظرين؟"

استدرت ببطء.

صاحت بي: "اجلسى"، ثم قالت: "ضعى جذعًا آخر فى الموقد يا (جوديث) إذا سمحتى، وأحضرى لهذه الفتاة شيئًا تأكله".

جلست.

جلبت "جوديث" الكاكاو والخبز المحمص.

تابعت السيدة "وينتر" قصتها وأنا أرتشف الكاكاو الساخن.

***

قال: "سأساعدك"، لكن كيف يساعدنى؟ إنه مجرد فتى.

أبعدته عن طريقى، بعثته ليجلب الطبيب "مودسلى"، وبينما هو بعيد أعددت كوب شاى حلوًا وقويًا، وشربت ملء قدر من الشاى، فكرت بأفكار صعبة، وفكرت فيها بسرعة، وبوصولى إلى تفل الشاى، كان وخز الدموع قد تراجع تمامًا من عينى، لقد حان وقت العمل.

كنت مستعدة حين عاد الفتى مع الطبيب، حالما سمعت خطواتهما تقترب من المنزل، تجاوزت حزنى حتى أقابلهما.

"(إميلاين)، أيتها الطفلة المسكينة!" صاح الطبيب وهو يقترب، رافعًا يده بإشارة متعاطفة، كأنه سيحتضننى.

تراجعت خطوة إلى الوراء، وتوقف هو، "(إميلاين)؟" لمعت الحيرة فى عينيه، "آديلاين"؟ هذا غير ممكن، لا يمكن، مات الاسم على شفتيه، وتلعثم قائلاً: "سامحينى"، لكنه لم يكن بعد متأكدًا.

لم أساعده في حيرته، بل بكيت.

ليست دموعًا حقيقية، فدموعي الحقيقية -وصدقيني، كانت لدي وفرة منها- كانت مُخزنة، وفي وقت ما، الليلة أو غدًا أو في وقت قريب، لم أعرف متى تحديدًا، سأكون وحدي وسأبكي لساعات، سأبكي على "جون"، وعلى نفسي، سأبكي بصوت عال، سأصيح بدموعي، مثلما اعتدت أن أفعل وأنا طفلة صغيرة حين كان "جون" وحده هو من يهدئني، ويمسد شعري بيده التي كانت برائحة التبغ والحديقة، ستكون تلك دموعًا ساخنة وقبيحة، وحين تأتي النهاية -إن جاءت- ستكون عيناي منتفختين للغاية لدرجة أنني لن يتبقى لي سوى شقين يحاصرهما الاحمرار لأرى من خلالهما.

لكن هذه الدموع لها خصوصية، وهي ليست لهذا الرجل، الدموع التي أرضيته بها كانت زائفة، دموع جملت عينيَّ الخضراوين مثلما تجمل الجواهر الزمرد، ولقد نجحت، إن أبهرتِ رجلاً بعينين خضراوين، فإنه سيصبح منومًا مغناطيسيًّا لدرجة أنه لن يلاحظ أن أحدًا ما يتجسس عليه من داخل العينين.

قال منتصبًا من جانب الجثة: "أخشى أن ليس بوسعي شيء لمساعدة السيد (ديجنس)".

كان وقع اسم "جون" الحقيقي غريبًا.

"كيف حدث ذلك؟" تطلع إلى الدرابزين حيث كان "جون" يعمل، ثم انحنى إلى السلم: "هل تعطل مفتاح الأمان؟"

استطعت النظر إلى الجثة بلا تأثر، تقريبًا، وتساءلت بصوت عال: "أيمكن أنه انزلق؟ هل تشبث بالسلم وهو يسقط فأسقطه معه؟"

"ألم يره أحد وهو يسقط؟"

"غرفنا فى الجانب الآخر من المنزل، والفتى كان فى حديقة الخضراوات"، وقف الفتى بعيدًا قليلاً عنا، متحاشيًا النظر إلى الجثة.

"هممم، ليست له عائلة، بحسب ما أتذكر".

"عاش دائمًا وحده تمامًا".

"حسنًا، وأين خالك؟ لماذا لم يخرج لمقابلتى؟"

لم تكن لدى أدنى فكرة عما قاله "جون" للفتى عن وضعنا، اضطررت إلى الارتجال.

بصوت منتحب، قلت للطبيب إن خالى قد رحل بعيدًا.

عبس الطبيب: "بعيدًا!"

لم يتأثر الفتى، إذًا، فلم يفاجئه شىء حتى الآن، ووقف ناظرًا إلى قدميه حتى لا ينظر إلى الجثة، وكان لدى وقت لأفكر فى أنه جبان قبل أن أتابع بقولى: "خالى لن يعود قبل بضعة أيام".

"كم يومًا؟"

"أوه! ومتى تحديدًا ذهب...؟" عبست ومثلت أننى أعد الأيام، ثم، سامحة لعينى بأن تستقرا على الجثة، تركت ركبتى تترنحان.

قفز الطبيب والفتى إلى جانبى، وأمسك كل منهما بأحد مرفقى.

"لا بأس، لاحقًا يا عزيزتى، لاحقًا".

سمحت لهما بأن يأخذانى حول المنزل نحو باب المطبخ.

قلت ونحن عند المنعطف: "لا أعرف ما يجب فعله!"

"بشأن ماذا؟"

"الجنازة".

"لسـت بحاجـة إلى فعـل أى شىء، سـأدبر أمـر الحانـوتى، والقـس سـيتولى البقيـة".

"لكن ماذا عن المال؟"

"سيتولى خالك هذا الأمر حين يعود، بالمناسبة، أين هو؟"

"لكن ماذا لو اضطر إلى التأخر؟"

"أتظنين أن تأخره مرجح؟"

"إنه.. رجل غير متوقع".

"حقًا"، وفتح الفتى باب المطبخ وقادنى الطبيب إلى الداخل وجذب كرسيًا، انهرت عليه.

"سيتولى المحامى كل ما هو ضرورى، لو بلغ الأمر هذه الدرجة، والآن، أين أختك؟ هل عرفت بشأن ما حدث؟"

لم أرمش: "إنها نائمة".

"جيد، أرى ألا توقظيها، أليس هذا أفضل؟"

أومأت.

"والآن، من يمكنه الاعتناء بكما إذًا، وأنتما وحدكما؟"

"يعتنى بنا؟"

"من الصعب أن تبقيا هنا وحديكما.. ليس بعد هذا، كان طيشًا من خالك أن يترككما من البداية بعد فترة وجيزة من فقدان مدبرة المنزل ومن دون بديلة، يجب أن يأتى أحد".

سألت: "هل هذا حقًا ضرورى؟" وخضار عينى تملؤه الدموع، فـ"إيميلاين" ليست الوحيدة التى تستطيع التصرف بأنوثة.

"بالتأكيد أنت..."

"الأمـر فقـط أن فى آخـر مـرة أتى أحـد للاعتنـاء بنـا.. بالتأكيـد تتذكـر المعلمـة، أليـس كذلـك؟" ورمقتـه بنظـرة شـديدة اللـؤم والسرعـة لدرجـة أنـه بالـكاد صـدق أنهـا منـى، كان لديـه مـا يكفـى مـن الكياسـة ليخجـل وينظـر بعيـدًا، وحـين عـاد بنظـره إلى، لم يـرَ إلا الزمـرد والجواهـر.

تنحنـح الفتـى: "يمكـن لجـدتى أن تـأتى لتلقـى نظـرة يـا سـيدى، لـن تقيـم هنـا، لكـن يمكنهـا أن تـأتى يوميًـا، لبعـض الوقـت فقـط".

فكـر الطبيـب "مودسـلى" فى الأمـر وهـو مرتبـك، كان ذلـك مخرجًـا مـن هـذا الموقـف، وهـو يبحـث عـن مخـرج.

"حسـنًا يـا (أمـبروز)، أظـن أن هـذا سـيكون حـلاً مثاليًـا، عـلى المـدى القريـب عـلى الأقـل، وبـلا شـك سـيعود خالـك خـلال أيـام قليلـة جـدًا، وفى هـذه الحالـة لـن تكـون هنـاك حاجـة، مثلـما تقولـين، لــ. آآآ.. لــ.."

"صحيـح"، وقمـت بسلاسـة مـن مقعـدى: "إن توليـت أمـر الحانـوتى، سـأتولى أمـر القـس"، ومـددت يـدى، "شـكرًا لمجيئـك سريعًـا".

فقـد الرجـل اتزانـه تمامًـا، ووقـف مسـتجيبًا لدعـوتى، وشـعرت باللمسـة السريعـة لأصابعـه عـلى أصابعـى، كانـت متعرقـة.

بحـث مجـددًا عــن اسـمى فى ملامحــى، "آديلايـن" أم "إيميلايـن"؟ "إيميلايـن" أم "آديلايـن"؟ وسـلك الطريـق الوحيـد لتجـاوز سـؤاله: "آسـف لوفـاة السـيد (ديجينـس)، أنـا حقًـا آسـف يـا آنسـة (مـارش)".

"أشكرك أيها الطبيب"، وأخفيت ابتسامتى وراء حجاب من الدموع.

أومـأ الطبيـب "مودسـلى" إلى الفتـى فى طريقـه للخـروج، وأغلـق البـاب وراءه.

والآن ليس لدى إلا الفتى نفسه.

انتظـرت أن يبتعـد الطبيـب، وفتحـت البـاب ودعـوت الفتـى إلى الخـروج، قلـت: "بالمناسـبة"، وهـو يقـترب مـن العتبـة، بصـوت يوضـح أننى سـيدة المنـزل: "لا حاجـة إلى أن تـأتى جدتـك".

رمقنـى بنظـرة فضوليـة، لقـد رأى عينـى الخضراويـن والفتـاة التـى داخلهـما.

رد: "جيـد جـدًّا"، بلمسـة مسـترخية لحافـة قبعتـه، "بمـا أننـى ليسـت لى جـدة".

***

قـال: "سأسـاعدك"، لكنـه مجـرد فتـى، ومـع ذلـك، فإنـه يعـرف كيـف يقـود العربـة ذات الإطاريـن.

فى اليـوم التـالى، قادهـا بنـا إلى المحامـى فى بانـبرى، جلسـت بجانبـه و"إيميلايـن" خلفـه، بعـد ربـع سـاعة مـن الانتظـار تحـت نظـر موظـف الاسـتقبال، طُلـب منـا أخيراً أن ندخـل إلى مكتـب السـيد "لوماكـس"، نظـر إلى "إيميلايـن" ونظـر إلىَّ وقـال: "لا حاجـة إلى السـؤال عـن هويتكـما".

أوضحـت: "نحـن بشـكل مـا فى مـأزق، خـالى متغيـب، والبسـتانى مـات فى حـادث، حـادث أليـم، وبمـا أنـه ليسـت لـه عائلـة وقـد عمـل لدينـا طـوال حياتـه، أشـعر أن العائلـة يجـب أن تدفـع تكلفـة الجنـازة، الأمـر فقـط أن لدينـا بعـض العجـز..."

تأرجحت عيناه بيننا ذهابًا وعودة.

"مـن فضلـك اعـذر أختـى، هـى ليسـت عـلى مـا يـرام"، وبالفعـل بـدت "إيميلايـن" غريبـة، تركتهـا تتحـلى بأناقتهـا قديمـة الطـراز، وعيناهـا مليئتـان بالجـمال فـلا تـتركان مسـاحة لأى شىء ممـل مثـل الـذكاء.

"نعم"، وخفض صوته إلى نبرة متعاطفة، "سمعت بشأن ذلك".

انحنيت نحو المكتب مستجيبة لطيبته وأفضيت إليه: "وطبعًا، خالى.. لقد تعاملت معه، لذا ستعرف، أليس كذلك؟ الأمور ليست دائمًا سلسة معه"، وواجهته بنظرتى الأكثر صدقًا: "فى الواقع، من دواعى السرور التعامل مع شخص عاقل على سبيل التغيير!"

قلَّب الشائعات التى سمعها فى باله، قالوا إن إحدى الفتاتين ليست على ما يرام، ويبدو واضحًا، بحسب ما استنتج، أن لا غبار على الأخرى.

"السرور متبادل بالتأكيد يا آنسة.. اعذرينى، ماذا كان اسم والدك؟"

"الاسم الذى تقصده (مارش)، لكننا اعتدنا على أن نُعرف باسم والدتنا، يطلقون علينا فى القرية توأمى (آنجلفيلد)، لا أحد يتذكر السيد (مارش)، خصوصًا نحن، لم نحظ قط بفرصة لقائه، كما تعرف، ولا تعامل لنا إطلاقًا مع عائلته، فكرت كثيراً فى أن من الأفضل تغيير اسمينا رسميًا".

"هذا ممكن، لم لا؟ الأمر سهل حقًا".

"لكن هذا فى يوم آخر، طلب اليوم..."

"بالطبع، والآن دعينى أطمئنك بشأن هذه الجنازة، لا تعلمين متى سيعود خالك، صحيح؟"

قلت: "قد يستغرق ذلك وقتًا طويلاً"، وهذه ليست كذبة.

"لا يهم، إما أنه سيعود فى الوقت المناسب لتسوية المصروفات بنفسه، وإن لم يعد، فإننى سأسويها بالنيابة عنه وسأقوم باللازم حين يعود".

حولت وجهى إلى هيئة الارتياح التى كان ينتظرها، وبينما لا يزال مسرورًا لأنه استطاع أن يزيح همًا عن كاهلى، كدست أمامه الأسئلة بشأن ما قد يحدث فى حالة فتاة مثلى، لديها مسئولية شقيقة مثل أختى، إن اضطرت إلى مواجهة مصيبة فقدان الوصى عليها للأبد، وشرح

لى الوضع بالكامل ببضع كلمات، وعرفت بوضوح الخطوات التى يجب أن أتخذها ومتى يجب أن أتخذها، واختتم: "أى من هذا لا ينطبق عليك، فى وضعك الحالى!" كأنه قد تمادى فى تخيل هذا السيناريو المخيف، وتمنى لو يستطع سحب ثلاثة أرباع ما قاله: "ففى النهاية، خالك سيعود خلال بضعة أيام قصيرة".

ابتسمت له: "بمشية الرب!"

كنا عند الباب حين تذكر السيد "لوماكس" أمرًا مهمًّا.

"بالمناسبة، أفترض أنه لم يترك عنوانًا، صحيح؟"

"أنت تعرف خالى!"

"هذا ما ظننته، لكنك تعرفين نطاق رحلته صحيح؟"

أحببت السيد "لوماكس"، لكن هذا لم يمنعنى من الكذب عليه حين اضطررت إلى ذلك، الكذب كان فطرة ثانية لفتاة مثلى.

"نعم.. فى الواقع، لا".

رمقنى بنظرة جادة: "لأنه إن كنت لا تعرفين مكانه..." وراجع عقله كل الجوانب القانونية التى عددها لى للتو.

"يمكننى أن أخبرك بالمكان الذى قال إنه ذاهب إليه".

نظر إلىَّ رافعًا حاجبيه: "قال إنه ذاهب إلى بيرو".

جحظت عينا السيد "لوماكس"، وانفتح فمه.

واختتمتُ: "لكن بالطبع، كلانا يعرف أن هذا هراء، صحيح؟ لا يمكن أن يكون فى بيرو، أليس كذلك؟"

وبابتسامتى الأكثر اطمئنانًا وجرأة، أغلقت الباب خلفى، تاركة السيد "لوماكس" ليقلق بالنيابة عنى.

***

جاء يوم الجنازة ولم تأتنى فرصة للبكاء، فى كل يوم يحدث شىء ما، أولاً القس، ثم القرويون الذين يقتربون بحذر، يريدون أن يسألوا بشأن الإكليل والزهور، وحتى السيدة "مودسلى" جاءت، وكانت مهذبة لكنها باردة، وكأننى كنت على نحو ما ملوثة بجريمة "هيستر"، قلت لها: "السيدة (بروكتور)، جدة الفتى، مذهلة، هلا شكرتِ زوجك لاقتراحها".

خلال كل ذلك شككت فى أن الفتى "بروكتور" يراقبنى، مع أننى لم أمسك به متلبسًا قط.

جنازة "جون" ليست مكانًا مناسبًا للبكاء، بل هى أقل الأماكن ملائمة لذلك، لأننى الآنسة "آنجلفيلد"، ومن هو؟ البستانى لا غير.

فى نهاية قداس الجنازة، بينما القس يتحدث بلطف وبلا فائدة لـ"إميلاين" -إن كانت تود أن تتردد إلى الكنيسة أكثر؟ فحب الرب نعمة لكل مخلوقاته- استمعت إلى السيد "لوماكس" والطبيب مودسلى اللذين ظنًا نفسيهما خارج مجال سمعى.

قال المحامى للطبيب: "إنها فتاة مقتدرة، لا أعتقد أنها مدركة لخطورة الموقف، أتدرك أن لا أحد يعرف مكان خالها؟ لكن حين تعرف هى، لا شك لدى فى أنها ستتأقلم مع الوضع، لقد أرسلت ما يلزم لتسوية الجانب المالى من الأمور، وهى كانت قلقة وسط كل هذا بشأن دفع مقابل جنازة البستانى، لديها قلب طيب يليق بعقلها الراجح".

قال الطبيب بصوت ضعيف: "نعم".

"كان لدى دائمًا انطباع -لا أعرف مصدره، عذرًا- بأن الفتاتين.. ليستا على ما يرام، لكن الآن بعدما قابلتهما، يبدو واضحًا كالشمس أن واحدة منهما فقط هى المصابة، إنها رحمة، بالطبع، أنت تعرف كيف آلت الأمور منذ البداية، كونك طبيبهما".

تمتم الطبيب بشىء لم أسمعه.

سأل المحامى: "ماذا؟ أتقول غشاوة؟"

لم أسمع ردًا، ثم طرح المحامى سؤالاً آخر: "لكنْ أىٌّ منهما مَن؟ لم أعرف ذلك قط حين جاءتا لزيارتى، ما اسم العاقلة منهما؟"

استدرت كفاية لأتمكن من رؤيتهما بزاوية عينى، كان الطبيب ينظر إلىّ بالنظرة نفسها التى كانت عليه طوال القداس، أين الطفلة الغبية التى أبقاها فى منزله لأشهر عدة؟ الفتاة التى لم تقدر على رفع ملعقة إلى شفتيها أو نطق كلمة إنجليزية، ناهيك بإعطاء التعليمات لإقامة جنازة وطرح أسئلة ذكية على المحامى، أدركت مصدر حيرته.

رمشت عيناه متأرجحتين منى إلى "إيميلاين"، ومن "إيميلاين" إلىّ.

"أعتقد أن هذه (آديلاين)"، رأيت شفتيه تنطقان الاسم، وابتسمت فى حين تتساقط نظرياته الطبية وتجاربه حول قدميه.

رفعت يدى إليهما والتقطت عينيه، قمت بإشارة لطيفة لشكرهما على المجىء إلى جنازة رجل بالكاد عرفاه من أجل مساعدتى، هكذا اعتبر المحامى الأمر، أما الطبيب فربما اعتبر الأمر على نحو مختلف.

***

لاحقًا، بعد ساعات عدة.

انتهت الجنازة، وأخيراً يمكننى البكاء.

لكننى لم أستطع، ظلت دموعى حبيسة أطول مما ينبغى، لقد تحجرت.

الآن يجب أن تبقى داخلى إلى الأبد.

دموع متحجرة

قالـت "جوديـث": "معـذرة..."، وسـكتت، ضغطـت شـفتيها بقـوة، ثـم تابعـت برعشـة يديـن لم أعتدهـا منهـا: "الطبيـب خـرج لأداء مهمـة ولـن يعـود قبـل سـاعة، مـن فضلـك..."

حزمـت ثـوب نومـى وتبعتهـا، وهـى تتقدمنـى ببضـع خطـوات مهرولـة، صعدنـا وهبطنـا السـلالم، وانعطفنـا إلى ممـرات وأروقـة، ووصلنـا إلى الطابـق الأرضى لكـن فى جـزء مـن المنـزل لم أره مـن قبـل، وأخـيراً وصلنـا إلى مجموعـة مـن الغـرف التـى اعتقـدت أنهـا الجنـاح الخـاص بالسـيدة "وينـتر"، وقفنـا لبرهـة أمـام بـاب مغلـق، ورمقتنـى "جوديـث" بنظـرة مضطربـة، تفهمـت قلقهـا جيـدًا، مـن وراء البـاب جـاءت أصـوات غامضـة غـير آدميـة، صيـاح متـألم يقاطعـه لهـاث حـاد يبحـث عـن الهـواء، فتحـت "جوديـث" البـاب الأخـير ودلفنـا.

كنـت مذهولـة، لا عجـب أن الضوضـاء لهـا مثـل هـذا الصـدى! فعلى عكـس بقيـة المنـزل، بأثاثـه المنتفـخ بالحشـو، وسـتائره الوافـرة، وجدرانـه

ومفروشاته الحاجبة للصوت، كانت هذه غرفة إضافية صغيرة عارية، الجدران من الطلاء العارى، والأرض عبارة عن ألواح بسيطة، رف كتب عادى فى الزاوية مملوء بأكوام من الأوراق المصفرة، وفى الزاوية يوجد سرير ضيق عليه أغطية بيضاء بسيطة، وعند النافذة، تتعلق ستارة قطنية بشكل هزيل عند طرفى الزجاج، تسمح لليل بدخول الغرفة، رأيت السيدة "وينتر"، وكانت منهارة على مكتب مدرسى صغير بسيط وظهرها لى، اختفى اللون البرتقالى النارى والأرجوانى المتألق، وكانت ترتدى قميصًا أبيض طويل الكُمين، وتنتحب.

سمعتُ الهواء يكشط حبالها الصوتية على نحو خشن وواهن، وعويل صارخ تحول إلى تأوهات حيوانية على نحو مخيف، ارتفع كتفاها وانسحقا، وارتجف جزعها، سافرت تلك القوة عبر عنقها الضعيف إلى رأسها، وبطول ذراعيها إلى يديها اللتين تضربان سطح المكتب، سارعت "جوديث" إلى استبدال الوسادة التى تحت صدغ السيدة "وينتر"، أما السيدة "وينتر"، المستغرقة تمامًا فى هذه الأزمة، بدا أنها غير مدركة لوجودنا.

قالت "جوديث": "لم أرها هكذا من قبل"، وضغطت أصابعها على شفتيها، وبنبرة هلع متصاعدة: "لا أعرف ما يجب فعله".

انفتح فم السيدة "وينتر" وكشَّر، وتلوى ليجسد أشكالاً قبيحة متوحشة بسبب الحزن الأكبر منه.

قلت لـ"جوديث": "لا بأس"، عرفت أنها تنازع، جذبت كرسيًا وجلست إلى جانب السيدة "وينتر".

"هس، هس، أعرف ما بك"، ومددت ذراع بطول كتفيها، ووضعت يديها بيدى، كفنت جسدها بجسدى، وأملت أذنى بالقرب من رأسها وتابعت تلاوة التعويذة: "لا بأس، هذا سيمر، هس أيتها الطفلة، أنت لست وحدك"، هززتها وهدأتها ولم أتوقف قط عن همس الكلمات

السحرية، لم تكن كلماتى، بل كلمات والدى، كلمات أعرف أنها ستنجح، لأنها نجحت دائمًا معى، همست: "هس، أعرف ما بك، هذا سيمر".

لم تتوقف التشنجات، ولم تصبح الصرخات أقل ألمًا، لكن بالتدريج أصبحت أقل حدة، بات لديها وقت بين كل احتدام للنوبة والآخر لتلتقط أنفاسًا يائسة مرتعدة.

"لستِ وحدك، أنا معك".

فى النهاية كانت هادئة، طُبعت جمجمتها على خدى، ولمست خصلات من شعرها شفتى، وشعرت عند ضلوعى بالارتعاشات القصيرة لتنفسها، والتشنجات اللينة لرئتيها، ويداها باردتان جدًّا بين يدى.

"جيد، هذا أفضل".

جلسنا فى صمت لدقائق، جذبت الشال ووضعته بشكل أكثر دفءً حول كتفيها، وحاولت أن أفرك يديها من أجل بعض الدفء، كان وجهها يبدو مدمرًا، بالكاد استطاعت أن ترى عبر جفنيها المتورمين، وشفتاها متقرحتان ومتشققتان، وظهرت بدايات كدمة على رأسها حيث كانت تضرب المكتب.

قلت: "كان رجلاً صالحًا، رجلاً صالحًا، ولقد أحبك".

أومأت ببطء، وارتجف فمها، هل حاولت أن تقول شيئًا؟ تحركت شفتاها مجددًا.

مفتاح الأمان؟ أهذا ما قالته؟

"أكانت أختك هى من عبثت بمفتاح الأمان؟" بدا ذلك سؤالاً قاسيًا الآن، لكن فى هذه اللحظة لم تبد الصراحة غريبة مع إزاحة فيض الدموع لكل قواعد الإتيكيت بعيدًا.

تسبب سؤالى فى تشنج أليم أخير، لكن حين تكلمت كانت واضحة.

"ليست (إميلاين)، ليست هى، ليست هى".

"مَن إذًا؟"

أغلقت عينيها بشدة، وبدأت تتمايل وهزت رأسها من جانب إلى آخر، رأيت تلك الحركة نفسها لدى الحيوانات فى حديقة الحيوان حين يجن جنونها من آسريها، استشعرتُ الخوف من تجدد نزاعها، وتذكرت ما اعتاد والدى فعله ليهدئنى وأنا طفلة، برفق، وبلين، مسدت شعرها حتى لجأت بهدوء إلى كتفى لتسند رأسها.

أخيرًا أصبحت هادئة كفاية لتنيمها "جوديث" فى سريرها، وبصوت طفولى ناعس طلبت منى أن أبقى لذا بقيت معها، راكعة على ركبتى بجانبها وأشاهدها وهى تنام، من حين إلى آخر، أرَّقت رعشة نعاسها وبدت على وجهها النائم نظرة خوف، حين حدث هذا داعبت شعرها حتى استقر جفناها مجددًا.

متى هدأنى والدى هكذا؟ تجلت حادثة من أعماق ذاكرتى، لا بد أن سنى حينها كانت اثنى عشر عامًا أو نحو ذلك، كان يوم أحد، وكنت ووالدى نأكل الشطائر عند النهر حين ظهرت توأمتان، فتاتان شقراوان لهما والدان أشقران، زوار يوم واحد جاءوا للافتتان بالمعمار والاستمتاع بضوء الشمس، لاحظهم الجميع، لا بد أنهما اعتادتا حملقة الغرباء، لكن ليست حملقتى، رأيتهما وانتفض قلبى، كان ذلك أشبه بالنظر إلى المرآة ورؤية نفسى كاملة، حملقت إليهما بكل ما لدى من غيرة، ومن جوع، وهما بدورهما توترتا وابتعدتا عن الفتاة ذات النظرة الملتهمة ولجأتا إلى يدى والدتهما، رأيت خوفهما، وضغطت يد قوية على رئتى، حتى أظلمت السماء، ثم لاحقًا فى المتجر، وأنا على مقعد النافذة أجلس بين النوم والكوابيس، جثم هو أرضًا يمسد شعرى، ويتمتم تعويذته: "هس، هذا سيمر، لا بأس، لست وحدك".

بعـد بعـض الوقـت جـاء الطبيـب "كليفتـون"، وحـين خرجـت لرؤيتـه في المدخـل، راودني شـعور بأنـه كان موجـودًا منـذ بعـض الوقـت، تجاوزتـه في طريقـي إلى الخـروج، وكان عـلى وجهـه تعبـير لم أعـرف كيـف أقـرؤه.

التشفير تحت الماء

عـدت إلى جناحـى، تتحـرك قدمـاى ببـطء حركـة أفـكارى، لا شىء يبـدو منطقيًـا، لِمَ مـات "جـون ذا ديـج"؟ لأن أحـدًا عبـث بمفتـاح الأمـان فى السـلم، لا يمكـن أن يكـون الفتـى، فقصـة السـيدة "وينـتر" أعطتـه حجـة غيـاب واضحـة: بينـما "جـون" وسـلمه يتأرجحـان مـن الدرابزيـن عـبر الهـواء إلى الأرض، كان الفتـى يراقـب سـيجارتها، دون جـرأة عـلى أن يطلـب نفسًـا، وبالتـالى فإنهـا بالتأكيـد "إيميلايـن"، باسـتثناء أن فى القصـة مـا مـن شىء يشـير إلى أن "إيميلايـن" قـد تفعـل شـيئًا كهـذا، كانـت طفلـة مسـالمة، وحتـى "هيسـتر" قالـت ذلـك، والسـيدة "وينـتر" نفسـها كانـت أوضـح مـا يمكـن بهـذا الشـأن، لا، ليسـت "إيميلايـن"، مـن إذًا؟ "إيزابيـل" ماتـت، و"تشـارلى" رحـل.

وصلـت إلى جناحـى، دلفـت، ووقفـت قبالـة النافـذة، الظـلام يمنـع أى مجـال للرؤيـة، ولا يوجـد غـير ظـلى، ظـل شـاحب تـرى الليـل مـن خلالـه، سـألته: "مَـن؟"

فى النهايـة اسـتمعت إلى الصـوت الهـادئ المثابـر داخـل رأسى الـذى كنـت أحـاول تجاهلـه، "آديلايـن".

قلت لا.

قال الصوت نعم إنها "آديلاين".

هـذا غـير ممكـن، صرخـات الحـزن عـلى "جـون ذا ديـج" لا تـزال تـتردد فى بـالى، لا أحـد يـرثى رجـلاً هكـذا بعـد قتلـه، صحيـح؟ لا أحـد يقتـل رجـلاً أحبـه كفايـة ليبـكى عليـه مثـل هـذه الدمـوع؟

لكـن الصـوت فى دماغـى سرد فصـلاً تلـو الآخـر مـن القصـة التـى عرفتهـا جيـدًا، الحادثـة العنيفـة فى الحديقـة التوبياريـة، كل جـزة بالمجزّات كانـت ضربـة إلى قلـب "جـون"، والهجـمات عـلى "إيميلايـن"، وشـد الشـعر، والـضرب المـبرح، والعـض، والرضيـع الـذى أزيـل مـن عربتـه وتـرك بـلا مبـالاة، ليمـوت أو ليجـده أحـد، لقـد قالـوا فى القريـة إن إحـدى التوأمـين لم تكـن عـلى مـا يـرام، تذكـرت ذلـك وتسـاءلت، هـل هـذا ممكـن؟ هـل الدمـوع التـى رأيتهـا للتـو دمـوع الذنـب؟ دمـوع النـدم؟ هـل احتضنـت للتـو قاتلـة وطمأنتهـا؟ أهـذا هـو الـسر الـذى أخفتـه السـيدة "وينـتر" عـن العـالم كل هـذا الوقـت؟ بـدأ شـك مزعـج يختمـر بداخـلى، أهـذا هـو الهـدف مـن قصـة السـيدة "وينـتر"؟ أن تجعلنـى أتعاطـف معهـا، أبرئهـا، أسـامحها؟ ارتعـدت.

لكـن تأكـد لى شىء واحـد عـلى الأقـل، كانـت تحبـه، وكيـف لا؟ تذكـرت حمـل جسـدها المعـذب المتـألم قبالـة جسـدى، وأدركـت أن الحـب المنسـحق وحـده يمكـن أن يتسـبب بمثـل هـذا اليـأس، تذكـرت تسـلل "آديلايـن" الطفلـة إلى "جـون" فى وحدتـه بعـد مـوت السـيدة، تعيـد إليـه الحيـاة عـبر تعليمـه لهـا تقليـم الحديقـة.

الحديقة التوبيارية التى خربتها.

ربما أنا لست واثقة من هذا فى النهاية!

تجولـت عينـاى فى الظـلام خـارج النافـذة، حديقتهـا الرائعـة، أهـى تحيتهـا إلى "جـون ذا ديـج"؟ توبتهـا المسـتمرة مـدى الحيـاة عـن الأذى الـذى أوقعتـه؟

فركـت عينـى المتعبتـين وأدركـت أننـى يجـب أن أخلـد إلى النـوم، لكننـى كنـت متعبـة إلى حـد منعنـى مـن النـوم، وأفـكارى، إن لم أفعـل شـيئًا لوقفهـا، سـتدور فى دوائـر طـوال الليـل، قـررت أن أتحمـم.

بينـما أنـا أنتظـر امتـلاء حـوض الاسـتحمام، بحثـت عـن شىء يشـغل بـالى، لفتـت كـرة مـن الـورق ظاهـرة جزئيًّـا تحـت طاولـة الزينـة انتباهـى، فردتهـا، وسـاويتها، وجـدت بهـا سـطرًا مـن نـص صـوتى.

فى المرحـاض والميـاه تـدوى فى الخلفيـة، قمـت ببضـع محـاولات قصـيرة الأجـل لالتقـاط أى معنـى مـن سلسـلة الرمـوز تلـك، دائمًـا مـا كان هنـاك ذلـك الشـعور المقيـد بأننـى لم ألتقـط مـا تفوهـت بـه "إيميلايـن" بدقـة، تخيلـت الحديقـة تحـت ضـوء القمـر، التـواءات أشـجار بنـدق السـاحرة، الوجـه الجروتسـكى اللاهـث، سـمعت مجـددًا صـوت "إيميلايـن" بمـا حملـه مـن مفاجـأة، لكـن مهـما حاولـت لا أسـتطيع تذكـر نطقـه.

نزلـت بحـوض الاسـتحمام، تاركـة قصاصـة الـورق عـلى الحافـة، والميـاه الدافئـة عـلى قدمـى وسـاقى وظهـرى، بـدت بـاردة بدرجـة مميـزة عـلى البقعـة التـى عـلى جانبـى، انزلقـت إلى داخـل الميـاه بعينـين مغلقتـين، غطـت الميـاه أذنى، وأنفـى، وعينـى وحتـى قمـة رأسى، رنـت الميـاه فى أذنى، وارتفـع شـعرى عـن جـذوره.

صعـدت مـن أجـل الهـواء، ثـم انغمسـت تحـت الميـاه مجـددًا، ثـم المزيـد مـن الهـواء، ثـم الميـاه.

بدأت الأفكار تسبح فى عقلى، بطريقة حرة، كأنها تحت المياه هى الأخرى، عرفت كفاية عن لغة التوأمين لأدرك أنها لم تُبتكر بالكامل، فى حالة "إيميلاين" و"آديلاين"، كانت مبنية على الإنجليزية والفرنسية، أو يمكن أن تضم عناصر من كلتيهما.

هواء، مياه.

تحريف مقصود، ربما فى طبقات الصوت، أو الحروف المتحركة، وأحيانًا، هناك أجزاء إضافية، من أجل التمويه وليس إضافة المعنى.

هواء، مياه.

إنها أحجية، كود سرى، شيفرة، لن تكون بصعوبة الهيروغليفية المصرية أو "النظام الخطى ب" اليونانى، كيف يمكن فكها؟ خذ كل مقطع لفظى على حدة، يمكن أن يكون كلمة أو جزء من كلمة، أزل عنه التنغيم أولاً، تلاعب بالنبرة، جرِّب مد الحروف المتحركة وتقصيرها وتقعيرها، ما الذى يشير إليه المقطع حينئذ بالإنجليزية؟ وبالفرنسية؟ ماذا لو تركته وتلاعبت بالبدايات والنهايات؟ ستجد عددًا هائلاً من التركيبات المحتملة، الآلاف منها، لكنه ليس عددًا لانهائيًا، يمكن لحاسوب أن يتوصل إلى الحل، كذا يستطيع عقل بشرى خلال عام أو اثنين.

الموتى يواريهم التراب.

ماذا؟ جلست منتصبة ومصدومة، هبطت تلك الكلمات على فجأة، إنها تقرع صدرى على نحو مؤلم، كان ذلك سخيفًا، غير ممكن!

مددت يدى مرتجفة إلى حافة حوض الاستحمام حيث تركت ورقتى، وجذبتها بالقرب منى، فحصتها بقلق، ملاحظاتى، رموزى، وعلاماتى، وخطوطى المتمايلة ونقاطى، كلها راحت، كانت مستقرة على بركة من المياه وغرقت.

حاولت مجددًا تذكر الأصوات التى وردت إلى تحت المياه، لكنها مُحيت من ذاكرتى، كل ما أمكننى تذكره كان وجهها العازم المشحون، وتسلسل النوتات الخمس التى كانت تغنيها وهى تبتعد.

الموتى يواريهم التراب، كلمات وصلت بصيغتها الكاملة إلى عقلى، دون ترك أى أثر وراءها، من أين أتت؟ أيَّة حيل كان عقلى يمارسها ليتوصل إلى هذه الكلمات من لا شىء؟

لم أعتقد حقًّا أن هذا هو ما قالته لى، صحيح؟

قلت لنفسى هيا، كونى عقلانية.

مددت يدى إلى الصابونة، وقررت أن أخرج خيالات ما تحت المياه خارج عقلى.

شَعر

لم أنظر إلى الساعة قط فى منزل السيدة "وينتر". فالكلمات كانت الثوانى، والدقائق كانت سطور النصوص بالقلم الرصاص، إحدى عشرة كلمة فى السطر، ثلاثة وعشرون سطرًا فى الصفحة، هذا هو نظام قياس الزمن الجديد الخاص بى، وعلى فترات زمنية منتظمة كنت أتوقف لأدير مقبض مبراة الأقلام، وأشاهد لفافات الخشب ذات الطرف الرصاصى تتدلى فى طريقها إلى سلة المخلفات الورقية، تلك التوقفات هى حدود "الساعات" فى نظامى.

كنت مشغولة البال للغاية بالقصة التى أسمعها وأكتبها، لدرجة أننى لم تكن لدى رغبة فى أى شىء آخر، حياتى نفسها - بكل ما كانت عليه- تقلصت إلى لا شىء، أفكار النهار وأحلام الليل باتت مسكونة بشخصيات ليست من عالمى، بل من عالم السيدة "وينتر"، "هيستر" و"إيميلاين" و"إيزابيل" و"تشارلى" هم من تجولوا فى مخيلتى، والمكان الذى تحولت نحوه أفكارى باستمرار هو "آنجلفيلد".

فى الواقع، كنت مستعدة إلى حد ما للتنازل عن حياتى، فالغطس العميق فى قصة السيدة "وينتر" كان طريقة لإيلاء ظهرى إلى حياتى، لكن المرء لا يستطيع ببساطة أن ينهى أمره بهذه الطريقة، فعلى الرغم من استعمائى عن الواقع، لم أستطع الهرب من معلومة أننا فى ديسمبر، ففى مؤخر عقلى، وعلى حافة نومى، وفى هوامش الصفحات التى ملأتها كالمسعورة بالنصوص، كنت مدركة أن العد التنازلى لأيام ديسمبر قد بدأ، وشعرت بأن الذكرى السنوية تزحف نحوى طوال الوقت.

لم أرَ السيدة "وينتر" فى اليوم التالى على ليلة البكاء، فقد بقيت فى سريرها، لا ترى إلا "جوديث" والطبيب "كليفتون"، وهذا مريح، فأنا لم أنم جيدًا، لكن فى اليوم التالى طلبتنى، ذهبت إلى غرفتها الصغيرة البسيطة، ووجدتها على السرير.

بدا أن عينيها قد كبرتا فى وجهها، لم تضع نقطة من مساحيق التجميل، ربما كانت أدويتها فى ذروة فاعليتها، لكن كان بها هدوء ما بدا جديدًا عليها، لم تبتسم لى، لكن حين تطلعت وأنا أدلف، وجدت بعينيها طيبة.

قالت: "لست بحاجة إلى مفكرتك وقلمك، أريدك أن تفعلى شيئًا آخر لى اليوم".

"ماذا؟"

دخلت "جوديث"، مدت ملاءة على الأرض، ثم جلبت كرسى السيدة "وينتر" من الغرفة المجاورة ورفعتها إليه، وفى وسط الملاءة وضعت الكرسى، وضبطت زاويته بحيث تتمكن السيدة "وينتر" من النظر عبر النافذة، ثم وضعت منشفة حول كتفيها، ونشرت شعرها البرتقالى عليها.

قبل أن تغادر ناولتنى مقصًا وقالت بابتسامة: "حظًا موفقًا".

سألت السيدة "وينتر": "لكن ماذا يفترض بى أن أفعل؟"

"بالتأكيد ستقصين شعرى".

"أقص شعرك؟"

"نعم، لا تقفى هكذا، ما من مشكلة فى ذلك".

"لكننى لا أعرف كيف".

"فقط خذى المقص وقصيه"، وتنهدت، "لا يهمنى كيف ستفعلين ذلك، لا يهمنى كيف سيبدو، فقط تخلصى منه".

"لكن أنا..."

"من فضلك".

وقفت خلفها على مضض، بعد يومين فى السرير، كان شعرها عبارة عن كتلة متشابكة من الخيوط البرتقالية الرقيقة، كان جاف الملمس، جافًّا للغاية لدرجة أننى توقعت أن أسمع له حفيفًا، وتتخلله عقد صغيرة قوية.

"الأفضل أن أمشطه أولاً".

كانت العقد كثيرة، ومع أنها لم تنطق بكلمة عتاب، شعرت بإجفالها مع كل تمسيدة بالفرشاة، وضعت الفُرشَة جانبًا، فالأفضل أن أقص العقد ببساطة.

قصصت أول قصة على سبيل التجربة، بضع سنتيمترات من النهايات، عند منتصف ظهرها، قطع المقص شعرها بلا زوائد، وسقطت القصاصات على الملاءة.

قالت السيدة "وينتر" برقة: "أقصر من هذا".

لمست كتفيها: "هنا؟"

"أقصر".

أخـذت خصلـة مـن شـعرها وقصصتهـا متوتـرة، وانزلقـت حيـة برتقالية إلى قدمـى، وبـدأت السـيدة "وينـتر" الحديث.

***

أذكـر أن بعـد الجنـازة ببضـع أيـام كنـت فى غرفـة "هيسـتر" القديمـة، لا لسـبب محـدد، كنـت أقـف هنـاك فقـط قبالـة النافـذة، أحـدق إلى الفـراغ، وجـدت أصابعـى نتـوءًا صغـيرًا فى السـتائر، مـزق كانـت قـد أصلحتـه، إن "هيسـتر" بارعـة جـدًّا فى اسـتخدام إبـر الحياكـة، لكننـى وجـدت طـرف خيـط طليـق عنـد النهايـة، وعـلى نحـو كسـول، وليـس شـارد، بـدأت أعبـث بهـا، لم أنـوِ شـده، حقًّـا لم تكـن لـدى أيَّـة نيـة لذلـك.. لكـن فجـأة، أصبـح حـرًّا بـين أصابعـى، الخيـط بطولـه كلـه متعـرج بتأثـير غُـرز الخياطـة، والثقـب فى السـتارة ينفتـح، الآن سـتبدأ فى التفسـخ.

لم يحـب "جـون" قـط وجـود "هيسـتر" فى المنـزل، كان ممتنًـا لرحيلهـا، لكـن الحقيقـة اسـتمرت: لـو كانـت موجـودة، مـا كان "جـون" ليصعـد إلى السـطح، لـو كانـت موجـودة، مـا كان أحـد ليعبـث بمفتـاح الأمـان، لـو كانـت موجـودة، لطلعـت شـمس هـذا اليـوم مثـل أى يـوم آخـر، ومثـل أى يـوم آخـر كان "جـون" ليهتـم بعملـه فى الحديقـة، وحـين يسـلط جنـاح المكتبـة ظلـه عـلى الحـصى، مـا كان السـلم ليكـون هنـاك، ولا درجاتـه، ولا "جـون" الممـدد عـلى الأرض يحتضنـه الظـل، كان اليـوم ليـأتى ويمـر مثـل أى يـوم وفى نهايتـه كان "جـون" سـيخلد إلى النـوم بسـلام، مـن دون حتـى أن يحلـم بالسـقوط فى الهـواء.

لو كانت "هيستر" موجودة.

أحسست بأن ذلك الثقب فى الستارة لا يُحتمل نهائيًّا.

***

كنت أقصقص شعر السيدة "وينتر" طوال الوقت وهى تتحدث، وحين بلغت شحمة أذنها، توقفت.

رفعت يدها إلى رأسها لتستشعر طوله.

قالت: "أقصر".

التقطت المقص مجددًا وباشرت مهمتى.

***

ظل الفتى يأتى كل يوم، حفر وأزال العشب الضار وزرع ورش السماد، افترضت أنه ظل يأتى بسبب المال المستحق له، لكن حين أعطانى المحامى بعض النقود -"لتسيِّرى أمورك حتى يعود خالك"- ودفعت للفتى، ظل يأتى، راقبته من نوافذ الطابق العلوى، فى أكثر من مرة نظر إلى الأعلى باتجاهى وسارعت أنا بالابتعاد، لكن فى إحدى المرات رآنى، وحينئذ لوح لى، ولم أرد التحية.

فى كل صباح كان يجلب الخضراوات إلى باب المطبخ، أحيانًا مع أرنب مسلوخ أو دجاجة منتوفة الريش، وفى كل مساء يأتى لجمع قشور الخضراوات من أجل السماد، كان يتسكع فى المدخل، والآن بعدما دفعت له، أراه فى غالب الأحيان بسيجارة بين شفتيه.

أنهيت سجائر "جون"، وقد أزعجنى أن الفتى يمكنه أن يدخن وأنا لا، لم أنبس بكلمة عن الأمر، لكن فى أحد الأيام، وكتفه مستند إلى إطار الباب، لمحنى أنظر إلى علبة السجائر فى جيب صدره.

قال: "سأعطيك واحدة مقابل كوب شاى".

دخل إلى المطبخ -كانت تلك أول مرة يدخل منذ موت "جون"- وجلس على كرسى "جون"، وأسند كوعيه إلى المائدة، وجلست أنا فى الكرسى بالزاوية، حيث اعتادت السيدة أن تجلس، شربنا الشاى فى

صمت، ونفثنا دخان السجائر الذى تصاعد نحو السقف الداكن فى صورة سحب وحلزونات بطيئة، حين التقطنا آخر نفسين وسحقنا العقبين فى صحنينا، قام من دون كلمة، ومشى إلى خارج المطبخ وعاد إلى عمله، لكن فى اليوم التالى، حين طرق الباب ومعه الخضراوات، دخل مباشرة، جلس على كرسى "جون"، ورمى إلىَّ سيجارة قبل حتى أن أشغل المغلاة.

لم نتحدث قط، لكن كانت لنا عاداتنا.

"إيميلاين"، التى لم تصحُ قبل موعد الغداء قط، أحيانًا تقضى فترات العصر فى الخارج تتابع الفتى وهو يعمل، وقد وبختها لهذا: "أنت ابنة هذا المنزل، وهو بستانى، بحق الرب يا (إيميلاين)!" لكن لم يُحدث ذلك أى تغيير، فهى ستبتسم ابتسامتها البطيئة لأى شخص يبدى لها اهتمامًا، تابعتهما من كثب، مدركة ما قالته السيدة لى عن الرجال الذين لا يستطيعون رؤية "إيزابيل" دون أن يرغبوا فى لمسها، لكن الفتى لم يبدِ أى مؤشر على أنه يريد لمس "إيميلاين"، لكن مع ذلك فقد تحدث معها بلطف، وأحب أن يضحكها، لكننى لم أشعر بالارتياح تجاه الأمر.

أحيانًا أشاهدهما معًا من نافذة الطابق العلوى، وفى يوم مشمس، رأيتها مسترخية على العشب، ورأسها على يدها وتستند إلى كوعها، أظهرت وضعيتها الارتفاع الذى بين خصرها وفخذيها، أدار رأسه ليرد على شىء قالته، وبينما هو ينظر إليها، تدحرجت لتصبح مستلقية على ظهرها، ورفعت يدًا ونحت خصلة ضالة من شعرها عن جبينها، كانت حركة حالمة وشبقة جعلتنى أعتقد أنها لن تمانع إن لمسها.

لكن حين أنهى الفتى ما كان يقوله، أولى لها ظهره كأنها لم يرَ وتابع عمله.

فى الصباح التالى كنا ندخن فى المطبخ، وكسرتُ صمتنا المعتاد.

قلت له: "لا تلمس (إيميلاين)".

بدا متفاجئًا: "لم ألمس (إيميلاين)".

"جيد، فلا تفعل إذًا".

اعتقدتُ أن الأمر انتهى عند ذلك، سحب كلانا نفسًا آخر من سيجارتينا واستعددت للتراجع مجددًا إلى صمتي، لكن بعد الزفير، تكلم مجددًا: "لا أريد أن ألمس (إيميلاين)".

سمعته، سمعت ما قاله، ذلك التنغيم القليل الغريب، لقد سمعت ما قصده.

سحبت نفسًا من سيجارتي ولم أنظر إليه، زفرت ببطء، لم أتطلع قط.

قال: "إنها ألطف منك".

لم أكن قد أنهيت حتى نصف سيجارتي، لكنني سحقتها، انطلقت نحو باب المطبخ وفتحته على آخره.

وقف أمامي لوهلة في المدخل، وقفت جامدة، أحدق أمامي مباشرة إلى أزرار قميصه.

صعدت وهبطت تفاحة آدم خاصته وهو يزدرد، صدرت منه غمغمة: "كوني لطيفة يا (آديلاين)".

رفعت عيني بنية أن أصب عليه جام غضبي والغضب يكتويني، لكن اللطافة البادية على وجهه حركتني، وللحظة كنت.. مرتبكة.

وقد استغل الفرصة، رفع يده، وكان على وشك مداعبة خدي.

لكنني كنت أسرع، رفعت قبضتي وضربت يده بعيدًا.

لم أوذه، لم أكن لأوذيه، لكنه بدا حائرًا، خائب الظن.

ثم رحل.

بدا المطبخ فارغًا بعد ذلك، السيدة رحلت، و"جون" رحل، والآن حتى الفتى رحل.

لقد قال: "سأساعدك"، لكن هذا كان مستحيلاً، كيف يمكن لفتى مثله مساعدتى؟ كيف يمكن لأى أحد مساعدتى؟

***

كانت الملاءة مغطاة بالشعر البرتقالى، أخطو على الشعر والشعر يلتصق بحذائى، كل الصبغة القديمة قُصت، والخصل المتفرقة المتعلقة بجمجمة السيدة "وينتر" بيضاء ناصعة.

أبعدت المنشفة، ونفخت قصاصات شعرها التائهة عن مؤخر عنقها.

قالت: "أعطنى المرآة".

ناولتها، بدت بشعرها المقصوص مثل طفلة شيباء.

حملقت إلى المرآة، والتقت عيناها ببعضها، بدت مجردة وكئيبة، ونظرت إلى نفسها مطولاً، ثم وضعت الجانب الزجاجى من المرآة على الطاولة.

"هذا هو ما أردته تحديدًا، شكرًا لك يا (مارجريت)".

تركتها، وحين عدت إلى غرفتى فكرت بشأن الفتى، فكرت بشأنه و"آديلاين"، وفكرت بشأنه و"إميلاين"، ثم فكرت بشأن "أوريليوس"، الذى عُثر عليه رضيعًا، يرتدى ملابس قديمة الطراز وملفوف داخل حقيبة، معه ملعقة من "آنجلفيلد" وصفحة من "جين أير"، فكرت بشأن الأمر مطولاً، لكن رغم كل تفكيرى، لم أتوصل إلى شىء.

لكن شيئًا ما حدث لى، فى واحدة من انحرافات العقل غير المفهومة، تذكرت ما قاله "أوريليوس" فى آخر زيارة لى إلى "آنجلفيلد": "أتمنى لو يوجد أحد يستطيع فقط أن يخبرنى الحقيقة"، ووجدت صدى لمقولته: "أخبرينى الحقيقة"، إنه الفتى ذو البذلة البنية، هذا يفسر أن بانبرى هيرالد ليس لديها أى سجل للمقابلة التى سافر مراسلهم الشاب إلى يوركشاير من أجلها، لم يكن مراسلاً قط، بل كان "أوريليوس" منذ البداية.

مطر وكعكة

استيقظت فى اليوم التالى على نداء: إنه اليوم، اليوم، اليوم، كأنه قرع جرس لا يسمعه أحد غيرى، بدا أن الشفق قد اخترق روحى، شعرت بإرهاق غير عادى، إنه يوم ميلادى، إنه يوم مماتى.

جلبت "جوديث" بطاقة من والدى مع صينية الإفطار، كعادته أرسل صورة زهور وتحيات مصاغة على نحو غامض وملاحظة، تمنى أن أكون بخير، وهو بخير، ولديه بعض الكتب لى، أيجب أن يرسلها؟ لم توقع والدتى البطاقة، وقعها هو بالنيابة عنها، بكل الحب من بابا ووالدتك، كان ذلك خطأ تمامًا، أدركت ذلك وأدرك هو ذلك، لكن ما الذى يمكن فعله؟

جاءت "جوديث": "تسأل السيدة (وينتر) إن كان هذا وقت...؟"

دفعت البطاقة تحت وسادتى قبل أن تراها: "الآن وقت مناسب"، والتقطت قلمى وأوراقى.

أرادت السيدة "وينتر" أن تعرف: "هل تنامين جيدًا؟" ثم قال: "تبدين شاحبة، أنت لا تأكلين كفاية".

طمأنتها: "أنا بخير"، مع أننى لم أكن بخير.

طوال الصباح كنت أصارع الشعور بأطياف ضالة من عالم تتسلل عبر شقوق عالم آخر، أتعرف ذلك الشعور حين تبدأ قراءة كتاب جديد قبل أن تحظى بالوقت الكافى لتجاوز الكتاب الأخير؟ تترك الكتاب السابق بأفكار وموضوعات -وربما حتى شخصيات- عالقة فى ثنايا ملابسك، وحين تفتح الكتاب الجديد تجدهم معك، كان الأمر شبيهًا بذلك، طوال اليوم كنت فريسة للإلهاء، أفكار، وذكريات، ومشاعر، وأجزاء غير مهمة من حياتى، كلها تعيث فسادًا فى ساحة تركيزى.

كانت السيدة "وينتر" تخبرنى شيئًا حين قاطعت نفسها: "هل تستمعين إلىّ يا آنسة (ليا)؟"

انسحبت سريعًا من ساحة خيالى، وتلعثمت بحثًا عن إجابة، هل كنت أستمع؟ ليست لدى فكرة، فى تلك اللحظة لم أستطع أن أخبرها بما كانت تقوله، مع أننى واثقة من أن كل كلامها مسجل فى مكان ما برأسى، لكن فى تلك اللحظة جعلتنى أنسحب سريعًا إلى خارج نفسى، كنت فى أرض ما محايدة، مكان بين مكانين، يمارس العقل كل أنواع الحيل، يفكر فى كل ما يخطر على البال فى حين نحن أنفسنا نغفو فى منطقة محايدة، تبدو للجميع كأنها لامبالاة، حملقت إليها لدقيقة بلا قدرة على التعبير، وهى تزداد انزعاجًا، ثم لجأت سريعًا إلى أول جملة متماسكة قدمت نفسها إلى.

"هل أنجبت طفلاً من قبل يا سيدة (وينتر)؟"

"يا إلهى، يا لهذا السؤال، بالتأكيد لا، هل جننت يا فتاة؟"

"ماذا عن (إيميلاين) إذًا؟"

"أبيننـا اتفـاق أم لا؟ لا أسـئلة؟" ثـم تغـير تعبـير وجههـا، مالـت إلى الأمـام مدققـة بوجهـى مـن قـرب: "هـل أنـت مريضـة؟"

"لا أعتقد ذلك".

"حسنًا، يبدو واضحًا أنك لست فى حالة تسمح بالعمل".

كان ذلك أمرًا بالانصراف.

بعـد عـودتى إلى غرفتـى قضيـت سـاعة مـن الملـل، مضطربـة، مبتـلاة بنفـسى، جلسـت عنـد مكتبـى، قلمـى فى يـدى، لكننـى لم أكتـب، شـعرت بالـبرد ورفعـت درجـة حـرارة المـبرد، ثـم شـعرت بالحـر الشـديد، فخلعـت سـترتى، كنـت لأود أن أتحمـم، لكـن لم تكـن هنـاك ميـاه سـاخنة، أعـددت الـكاكاو وأضفـت إليهـا سـكرًا زائـدًا، ثـم أصابتنـى حلاوتـه بالغثيـان، هـل أقـرأ كتابًـا؟ أيسـاعدنى ذلـك؟ فى المكتبـة تصطـف عـلى الرفـوف كلـمات ميتـة، لا شىء هنـاك قـد يسـاعدنى.

حـدث اندفـاع مـن قطـرات المطـر، انتـشرت عـلى زجـاج النافـذة، وقفـز قلبـى مـن مكانـه، الخـروج، نعـم، هـذا هـو مـا أحتـاج إليـه، وليـس فقـط الحديقـة، احتجـت إلى أن أذهـب بعيـدًا، فى الحـال، نحـو الأراضى البـور.

أعـرف أن البوابـة الرئيسـة تكـون مقفلـة، ولم تكـن لـدى أيَّـة رغبـة فى أن أطلـب مـن "موريـس" أن يفتحهـا لى، بـدلاً مـن ذلـك، اتجهـت عـبر الحديقـة إلى أبعـد نقطـة مـن المنـزل، حيـث يوجـد بـاب فى الجـدار، لم يُفتـح البـاب الـذى يكسـوه نبـات اللبـلاب منـذ فـترة طويلـة، واضطـررت إلى إبعـاد أوراق الشـجر بيـدى قبـل أن أتمكـن مـن فتـح المـزلاج، وحـين تأرجـح البـاب نحـوى، وجـدت المزيـد مـن اللبـلاب الـذى تجـب إزاحتـه قبـل أن أتمكـن مـن أن أخطـو خـارج المنـزل، وأنـا شـعثاء قليـلاً.

اعتـدت الظـن أننـى أحـب المطـر، لكننـى فى الواقـع بالـكاد عرفتـه، المطر الـذى أحببتـه هـو مطـر البلـدة الرقيـق، الـذى تخففـه كل العقبـات التـى وضعتهـا أطـراف الأبنيـة فى طريقـه، وتدفئـه الحـرارة الصـادرة مـن البلـدة نفسـها، لكـن فى الأراضى البـور، كان المطـر شـديدًا، يكـدره الـبرد، وتزيـده الريـاح حـدة، إبـر مـن الثلـج لسـعت وجهـى وظهـرى، وأوعيـة مـن الميـاه المتجمـدة اندفعـت عـلى كتفـى.

عيد ميلاد سعيد.

لـو كنـت فى المتجـر، لـكان والـدى ليخـرج هديـة مـن تحـت المكتـب وأنـا أهبـط السـلم، قـد تكـون كتابـًا أو كتبـًا، اشـتراها مـن مـزاد ووضعهـا جانبـًا خـلال العـام، ودفـتر وعطـر وصـورة، كان ليغلفهـا فى المتجـر عنـد المكتـب، فى عـصر يـوم هـادئ وأنـا فى مكتـب البريـد أو المكتبـة، كان ليذهـب فى وقـت غـداء يـوم مـا وحـده ليختـار البطاقـة، وكان ليكتـب عليهـا "بـكل الحـب مـن بابـا ووالدتـك" عـلى المكتـب، وحـده، وحـده تمامًـا، كان ليذهـب إلى المخبـز مـن أجـل الكعكـة، وفى مـكان مـا بالمتجـر -لم أعـرف قـط أيـن، وهـذا واحـد مـن الأسرار القليلـة التـى لم أعرفهـا- أبقـى شـمعة، تخـرج فى ذلـك اليـوم مـن كل عـام، وتُشـعَل، لأطفئهـا أنـا، بأقـصى مـا يمكننـى جمعـه مـن تعبـيرات السـعادة، ثـم نـأكل الكعكـة مـع الشـاى ونجلـس مـن أجـل هضـم هـادئ وبعـض الفهرسـة.

عرفـت الأمـر مـن وجهـة نظـره، الأمـر أسـهل الآن وأنـا بالغـة بالمقارنـة مـع حـينَ كنـت طفلـة، فكـم كانـت أعيـاد الميـلاد أصعـب فى المنـزل، الهدايا تُخبـأ ليلاً فى الظـلام، ليـس منـى، بـل مـن والـدتى التـى لا تحتمـل رؤيتهـا، سـبب الصـداع الحتمـى هـو حراسـتها الصارمـة لطقـوس الذكـرى السـنوية، مـا يجعـل مـن المسـتحيل دعـوة أطفـال آخريـن إلى المنـزل، أو تركهـا بالمنـزل مـن أجـل متعـة زيـارة حديقـة الحيـوان أو الحديقـة، كانـت ألعـاب عيـد الميـلاد خاصتـى دائمًـا هادئـة، الكعـكات لم تكـن قـط منزليـة

الصنـع، والبقايـا يجـب تجريدهـا مـن الشـموع وطبقـة زينتهـا العلويـة قبـل أن توضـع فى الصفيحـة مـن أجـل اليـوم التـالى.

عيـد ميـلاد سـعيد؟ همـس والـدى تلـك الكلـمات فى أذنى مبـاشرة بسـعادة بالغـة، عيـد ميـلاد سـعيد، لعبنـا ألعـاب بطاقـات صامتـة، الفائـز تكسـو وجهـه تعبـيرات المـرح والخـاسر يكـشر وينهـار، ولا شيء مـن هـذا يُسـمع فى الغرفـة التـى أعلانـا، لا صـوت صفـارة، ولا صـوت نحنحـة، وبـين الألعـاب، كان والـدى المسـكين يصعـد ويهبـط، بـين الألم الصامـت فى غرفـة النـوم وعيـد الميـلاد الـسرى بالأسـفل، يغـير تعبـيرات وجهـه عـلى السـلم مـن البهجـة إلى التعاطـف، ومـن التعاطـف رجوعًـا إلى البهجـة.

عيـد ميـلاد غـير سـعيد، منـذ يـوم وُلـدت والحـزن دائمًـا حـاضر، اسـتقر مثـل الغبـار فى المنـزل، غطـى الـكل وكل شيء، غـزا أجسـادنا فى كل نفـس نتنفسـه، غلـف كل شـخص بمآسـيه.

تحملـت التفكـير فى هـذه الذكريـات فقـط لأننـى كنـت أشـعر بالـبرد للغايـة.

لِمَ لم تسـتطع أن تحبنـى؟ ألم تعنـى حيـاتى لهـا أقـل مـما يعنيـه مـوت أختـى؟ هـل لامتنـى؟ ربمـا كانـت محقـة، أنـا عـلى قيـد الحيـاة الآن لأن أختـى ماتـت، وكلـما رأتنـى تذكـرت خسـارتها.

أكان الأمر ليكون أسهل عليها لو ماتت كلتانا؟

مشـيت كأننـى مخـدرة، قـدم أمـام الأخـرى، مـرارًا وتكـرارًا، منومـة مغناطيسـيًّا، بـلا أدنى اهتـمام بوجهتـى، لا أنظـر إلى شيء، لا أرى شـيئًا، فتعـثرت.

ثم اصطدمت بشىء ما.

"(مارجريت)! (مارجريت)!"

كنت أشعر بالبرد إلى درجة تمنع أيَّة استجابة منى، إلى درجة تمنع وجهى من التفاعل مع الهيئة العملاقة التى وقفت أمامى، مغلفًا فى كساء شبيه بالخيم من القماش الواقى من المطر، تحركت الهيئة وهبطت يدان على كتفى وهزتانى.

"(مارجريت)!"

إنه "أوريليوس".

"انظرى إليك! أنت مزرقة من البرد! بسرعة، تعالى معى"، أخذ ذراعى وقادنى بخفة، تعثرت قدماى بالأرض خلفه حتى وصلنا إلى طريق وسيارة، حملنى إلى الداخل، سمعت الأبواب تُصفق، وصوت تشغيل المحرك، ثم تيار دافئ عند كاحلى وركبتىّ، فتح "أوريليوس" قنينة حافظة للحرارة وصب كوبًا من الشاى البرتقالى.

"اشربى!"

شربت، كان الشاى ساخنًا وحلوًا.

"كلى!"

قضمت الشطيرة التى قدمها.

فى دفء السيارة، وأنا أشرب الشاى الساخن وآكل شطائر الدجاج، شعرت ببرودة لم أشعر بها من قبل، بدأت أسنانى تصطك، وارتجفت بلا توقف.

"يا إلهى!" تعجب "أوريليوس" بهدوء وهو يمرر لى شطيرة لذيذة تلو الأخرى: "رباه!"

بدا أن الطعام يعيدنى إلى رشدى قليلاً: "ماذا تفعل هنا يا (أوريليوس)؟"

"جئت لأعطيك هذا"، ومد يده إلى الخلف ورفع علبة صفيح بها كعكة من الفراغ الذى بين المقاعد.

وضع العلبة على حجرى، وابتسم إلى بسعادة غامرة وهو يرفع الغطاء.

رأيت بالداخل كعكة، كعكة منزلية الصنع وعليها كلمات بحروف زينة متعرجة: "عيد ميلاد سعيد يا (مارجريت)".

منعنى الشعور بالبرد من البكاء، بدلاً من ذلك، جعلنى خليط البرد والكعكة أتحدث، خرجت الكلمات منى على نحو عشوائى، مثل أشياء تلفظها الأنهار الجليدية وهى تذوب، غناء ليلى، حديقة لها أعين، أخوات، طفل رضيع، ملعقة، "إنها حتى تعرف المنزل"، هكذا ثرثرت فى حين جفف "أوريليوس" شعرى بمناديل ورقية، "منزلك ومنزل السيدة (لاف)، لقد نظرت عبر النافذة وظننت أن السيدة (لاف) شبيهة بجدة من الحكايات الخيالية.. ألا ترى ما يعنيه ذلك؟"

هز "أوريليوس" رأسه: "لكنها قالت لى..."

"لقد كذبت عليك يا (أوريليوس)! حين جئت لرؤيتها ببذلتك البنية، لقد كذبت، لقد اعترفت بذلك".

صاح "أوريليوس": "يا إلهى!"

"كيف عرفت بشأن بذلتى البنية؟ اضطررت للادعاء أننى صحفى"، لكن عندئذ، بعدما بدأ يستوعب ما قلته: "أقلتى ملعقة مثل ملعقتى؟ وهى عرفت المنزل؟"

"إنها خالتك يا (أوريليوس)، و(إميلاين) هى والدتك".

توقف "أوريليوس" عن تمسيد شعرى، وللحظة طويلة حملق عبر نافذة السيارة فى اتجاه المنزل، غمغم: "والدتى، هناك".

أومأت.

ساد صمت آخر، ثم التفت إلى: "خذينى إليها يا (مارجريت)".

بدا أننى استيقظ: "المشكلة يا (أوريليوس) أنها ليست على ما يرام".

"مريضة؟ إذًا يجب أن تأخذينى إليها، بلا تأخير!"

"ليست مريضة تحديدًا"، كيف أشرح له ذلك؟ "لقد أصيبت فى الحريق يا (أوريليوس)، ليس فى وجهها فقط، بل فى عقلها".

استوعب تلك المعلومة الجديدة، وأضافها إلى مستودع الخسارة والألم خاصته، وحين تكلم مجددًا، تكلم بثبات مقصد حاسم: "خذينى إليها".

أكان المرض هو ما أملى على ردى؟ أكانت حقيقة أنه عيد ميلادى؟ أكان فقدانى لأمى؟ ربما أثرت هذه العوامل، لكن الأهم منها كلها كان وجه "أوريليوس" وهو ينتظر ردى، هناك مئة سبب وواحد لأرفض طلبه، لكن فى مواجهة ضراوة احتياجه، تلاشت الأسباب كلها.

قلت حسنًا.

لم الشمل

نجح الاستحمام إلى حد ما فى تدفئتى، لكنه أخفق فى تلطيف الألم وراء عينى، تخليت عن كل أفكار العمل لبقية عصر اليوم وتسللت إلى السرير، وجذبت كل الأغطية الإضافية حتى تجاوزت أذنى، تحتها كنت لا أزال أرتجف، ورأيت رؤى غريبة فى نوم خفيف، رؤى حمل الكل فيها وجه شخص آخر، "هيستر" ووالدى والتوأمان ووالدتى، الكل متنكر فى هيئة شخص آخر، وحتى وجهى نفسه كان مزعجًا لى، وتحول وتغير، أحيانًا أكون نفسى، وأحيانًا أكون شخصًا آخر، ثم ظهر رأس "أوريليوس" اللامع فى حلمى: كان هو نفسه دائمًا، هو فقط، وابتسم وابتعدت الأشباح، ثم أطبق على الظلام مثل المياه، وغرقت فى أعماق النوم.

استيقظت بصداع، ووجع فى أطراف ومفاصلى وظهرى، أثقلنى إرهاق لا علاقة له بالمجهود ولا نقص النوم وأبطأ تفكيرى، ازداد الظلام حلكة، هل نمت حتى موعدى مع "أوريليوس"؟ وبختنى تلك الفكرة لكن عن بُعد فقط، ومرت دقائق طويلة قبل أن أتمكن من النهوض

لتفقد ساعتى، تشكل بداخلى خلال نومى شعور غامض -أهو ارتياب؟ أم حنين؟ أم حماس؟- وأثار بدوره شعورًا بالانتظار، الماضى يعود! أختى قريبة، لم يكن من شك فى ذلك، لم أستطع رؤيتها، ولا شمها، لكن أذنى الداخلية، المتناغمة دائمًا معها، ومعها فقط، التقطت موجاتها، وقد ملأنى ذلك ببهجة مخدِرة ومعتمة.

لا حاجة إلى تأجيل موعد "أوريليوس"، وأختى ستجدنى أينما كنت، أليست توأمى؟ فى الواقع كان أمامى نصف ساعة قبل موعد لقائه عند باب الحديقة، جررت نفسى متثاقلة من السرير، وارتديت تنورة ثقيلة وسترة فوقها حين شعرت بالبرد والإرهاق لدرجة منعتنى من خلع بيجامتى قبل ارتداء ملابس الخروج، هبطت إلى المطبخ مثقلة ومحزمة بملابسى مثل طفل فى ليلة العيد، تركت "جوديث" لى وجبة باردة لكنى لم أشعر بأيَّة شهية وتركت الطعام مثلما وجدته، لمدة عشر دقائق جلست إلى مائدة المطبخ، مشتاقة إلى إغلاق عينى ولا أجرؤ على ذلك، إذ قد أستسلم للخدر الذى يدعو رأسى إلى تحية سطح المائدة الصلب.

تبقت خمس دقائق، ففتحت باب المطبخ وتسللت إلى الحديقة.

لا يصدر أى ضوء من المنزل، ولا من النجوم، تعثرت بالظلام، وأخبرتنى التربة اللينة تحت قدمى وأجمة أوراق الأشجار وأفرعها حين انحرفت عن المسار، وفجأة خربش فرع شجرة وجهى وأغلقت عينى لحمايتهما، شعرت داخل رأسى باهتزازة نصفها ألم ونصفها الآخر بهجة، فهمت كل شىء، إنها أغنيتها، أختى قادمة.

وصلت إلى نقطة الالتقاء، شعرت بأن الظلام يتحرك، لكنها كانت حركته هو، ضربته يدى على نحو أخرق، ثم شعرت بأنها مشبوكة.

"أأنت بخير؟"

سمعت السؤال عن بُعد.

"أحرارتك مرتفعة؟"

الكلمات موجودة، لكن الغريب أنها بلا معنى.

كنت لأود أن أخبره عن الذبذبات الرائعة التى أشعر بها، أن أخبره أن أختى قادمة، وأنها ستصل فى أيّة لحظة الآن، عرفت ذلك، عرفته من الحرارة المنبعثة من أثرها على جانبى، لكن صوتها النقى حال بينى وبين كلماتى وجعلنى صماء.

ترك "أوريليوس" رأسى لينزع القفاز، وشعرت بكفه البارد على نحو غريب فى الليل الحار على جبهتى، علق: "يجب أن تبقى فى السرير".

جذبت كم "أوريليوس" جذبة ضعيفة لكنها كافية، وتبعنى عبر الحديقة بسلاسة كأنه تمثال على عجلات.

لا أتذكر كيف وصلت مفاتيح "جوديث" إلى يدى، لا بد أننى أخذتها، لا بد أننا مشينا عبر الممرات الطويلة إلى سكن "إيميلاين"، لكن هذا أيضًا مُحى من ذاكرتى، أتذكر الباب، لكن الصورة التى ترد إلى بالى هى أنه انفتح متأرجحًا حين وصلنا إليه، ببطء ومن تلقاء ذاته، وهو ما أعرف أنه مستحيل، لا بد أننى فتحت قفله، لكن تلك القصاصة من الحقيقة ضاعت، وبقيت صورة الباب مفتوحًا.

ذاكرتى عما حدث فى سكن "إيميلاين" تلك الليلة مفتتة، انهارت مسارات زمنية كاملة على نفسها، فى حين أن ذاكرتى بدا فيها أن أحداثًا أخرى قد حدثت مرارًا وتكرارًا بتتالٍ سريع، تلوح وجوه وتعبيرات كبيرة على نحو مخيف، ثم تظهر "إيميلاين" و"أوريليوس" كالدمى المتحركة بعيدًا، أما أنا فكنت مأخوذة، وناعسة وأشعر بالبرد، ومشتتة طوال المقابلة بشغلى الشاغل: أختى.

بإعمال العقل والمنطق، حاولت أن أوجد ترتيبًا ذا معنى للصور التي سجلها عقلي على نحو غير مكتمل وبطريقة عشوائية، مثل أحداث حلم.

دخلت وأوريليوس سكن "إيميلاين"، خطواتنا بلا صوت على السجاد الثقيل، تقدمنا عبر مدخل تلو الآخر، وجدناها جسدًا له شعر أبيض يقف في المدخل وظهرها إلينا، كانت تدندن، لا لا لا لا لا، ذلك اللحن المكسور دون بداية ولا نهاية الذي طاردني منذ جئت إلى المنزل، شق طريقه إلى داخل رأسي كأنه دودة، حيث تنافس مع ذبذبات أختي ذات النبرة المرتفعة، وبجانبي انتظر "أوريليوس" لأقدم كلينا إلى "إيميلاين"، لكنني عجزت عن الكلام، تقلص الكون في رأسي إلى زغردة لا تُحتمل، وامتد الوقت ليكون ثانية واحدة أبدية، وأحسست بالصمم، رفعت يدي إلى أذني، يائسة من تخفيف هذا النشاز، كان "أوريليوس" هو من تكلم حين رأى ما فعلته: "(مارجريت)!"

استدارت "إيميلاين" حين سمعت صوتًا لا تعرفه وراءها.

بدا الشعور بالألم في عينيها الخضراوين أمام تلك المفاجأة، انفتح فمها منعدم الشفتين ليشكِّل حرف "أو" منحرفًا، لكن الدندنة لا تتوقف، فقط تنحرف وتتمايل لتصبح صرخة حادة، مثل سكين في رأسي.

يتحول "أوريليوس" مصدومًا نحو "إيميلاين"، مذهولاً أمام الوجه المكسور للمرأة التي هي أمه، يشق الصوت الصادر من بين شفتيها الهواء كأنه مقص.

لوهلة كنت بلا بصر ولا سمع، وحين ارتد إليَّ بصري، رأيت "إيميلاين" جاثمة على الأرض، يتحول ركوعها إلى تشنج، ويركع "أوريليوس" فوقها، يداها تخربشه، ولا أعرف إن كانت تقصد التشبث بها أم صده، لكنه يأخذ يدها بيده، ويمسكها.

يدها بيده، ودمها بدمه.

إنه وحدة متراصة من الحزن.

يستمر داخل رأسى عذاب ذلك الصوت النقى المبتهج.

أختى.. أختى...

ينسحب العالم وأجد نفسى وحيدة وسط عذاب الضوضاء.

أعرف ما حدث لاحقًا، حتى لو كنت لا أتذكره، يترك "أوريليوس" "إميلاين" برفق على الأرض إثر سماع خطوات فى الردهة، تتعجب "جوديث" حين تدرك أن مفاتيحها ليست معها، فى الوقت الذى تستغرقه لتجلب مجموعة مفاتيح ثانية - مجموعة "موريس"، غالبًا- ينطلق "أوريليوس" سريعًا نحو باب الحديقة ويختفى، وحين تدخل "جوديث" الغرفة أخيرًا تحملق إلى "إميلاين" على الأرض ثم تتقدم نحوى وهى تصرخ ذعرًا.

لكن حينها لم أدرك أيًّا من ذلك، فقد احتضننى النور الذى هو أختى، وتملكنى، وحررنى من وعيى.

أخيرًا.

الكل له حكاية

قلـق حـاد مثـل واحـدة مـن نظـرات السـيدة "وينـتر" الخضـراء وخـزنى حتـى اسـتيقظت، مـا الاسـم الـذى نطقتـه خـلال نومـى؟ مـن خلـع عنـى ملابـسى ووضعنـى فى سريـرى؟ مـاذا ظنـوا بشـأن العلامـة التـى عـلى جلـدى؟ ومـاذا حـدث لـ"أوريليـوس"؟ ومـاذا فعلـت بـ"إميلايـن"؟ وجههـا المضطـرب هـو أكـثر مـا يعـذب ضمـيرى حـين بـدأ اسـتفاقته البطيئـة مـن النـوم.

حـين اسـتيقظت لم أعـرف أى يـوم أو أيَّـة سـاعة هـذه، "جوديـث" موجـودة، تـرانى أقلّـب كوبًـا وأرفعـه إلى شـفتى، وأشرب.

وقبل أن أتمكن من الكلام، يغلبنى النوم مجددًا.

فى ثـانى مـرة أسـتيقظ فيهـا، كانـت السـيدة "وينـتر" بجانـب سريـرى ولديهـا كتـاب فى يدهـا، كان كرسـيها منفوخًـا بوسـائد مخمليـة، لكـن خصـلات الشـعر الباهـت حـول وجههـا العـارى جعلتهـا تبـدو مثـل طفلـة شـقية تسـلقت عـرش الملكـة عـلى سـبيل المـزاح.

سمعتنى أتحرك، فرفعت رأسها عن الكتاب.

"جاء الطبيب (كليفتون)، كانت حرارتك مرتفعة للغاية".

لم أقل شيئًا.

تابعت: "لم نعرف أنه عيد ميلادك، لم نستطع أن نجد بطاقة معايدة، لا نحظى بالكثير من أعياد الميلاد هنا، لكننا جلبنا لك بعض نبات الدفنة من الحديقة".

رأيت فى المزهرية أفرع داكنة بلا أوراق، لكن عليها ورود أرجوانية رقيقة بطولها، ملأت الهواء برائحة حلوة مسكرة.

"كيف عرفت أنه عيد ميلادى؟"

"لقد أخبرتنا، فى أثناء نومك، متى ستخبرينى حكايتك يا (مارجريت)؟"

"أنا؟ ليست لى حكاية".

"بالتأكيد لك، الكل له حكاية".

هززت رأسى: "ليس أنا"، وسمعت فى رأسى صدى كلمات ربما قلتها خلال نومى.

وضعت السيدة "وينتر" الشريط على صفحتها وأغلقت الكتاب.

"الكل له حكاية، الأمر مثل العائلات، ربما لا تعرفين عائلتك، ربما تفقدينها، لكنها مع ذلك موجودة، ربما تفترقا، أو تولى لها ظهرك، لكن لا يمكنك قول إن ليس لديك عائلة، ينطبق هذا على الحكايات أيضًا، لذا، الكل له حكاية، متى ستخبرينى حكايتك؟"

"لن أفعل".

أمالت رأسها إلى جانبه وانتظرتنى أن أتابع كلامى.

"لم أخبر أحدًا قط حكايتى، إن كانت لى حكاية، فها هى، ولا أرى دافعًا لتغييرها الآن".

قالت برقة: "فهمت"، وأومأت برأسها كأنها فهمت حقًّا، "حسنًا، بالتأكيد هذا شأنك"، أدارت يدها فى حجرها وحملقت إلى كفها المشوه، "أنت حرة ألا تقولى شيئًا إن كان هذا ما تريدينه، لكن الصمت ليس البيئة الطبيعية للحكايات، إنها بحاجة إلى كلمات، من دونها تصبح القصص شاحبة، وتمرض وتموت، ثم تطاردك"، والتفتت عينيها إلىَّ مجددًا: "صدقينى يا (مارجريت)، أنا أعرف".

نمت لفترات ممتدة، وحينما أستيقظ، أجد وجبة للمرضى بجوار سريرى أعدتها "جوديث"، آكل لقيمة أو اثنتين فقط، حين جاءت "جوديث" لأخذ الصينية، لم تستطع أن تخفى خيبة أملها بسبب ما أتركه من الطعام، لكنها لا تذكر ذلك قط، لم أكن أشعر بأى ألم -لا صداع، ولا برد، ولا مرض- إلا إن احتسبت الإرهاق وتأنيب الضمير الشديدين الذين أثقلا عقلى وقلبى، ماذا فعلت بـ"إيميلاين"؟ و"أوريليوس"؟ تعذبنى ذكرى تلك الليلة خلال ساعات استيقاظى، ويدفعنى الشعور بالذنب إلى النوم.

سألت "جوديث": "كيف حال (إيميلاين)؟ أهى بخير؟"

كانت إجاباتها غير مباشرة: لمَ يجب أن أقلق بشأن السيدة "إيميلاين" وأنا نفسى بهذه الحالة السيئة؟ كانت السيدة "إيميلاين" على غير ما يرام لفترة طويلة جدًّا، والسيدة "إيميلاين" تتقدم بالسن.

ممانعتها لقول الحقيقة أخبرتنى كل شىء أردت معرفته، "إيميلاين" ليست بخير، وهذا خطئى.

أما "أوريليوس"، فلم أستطع فعل شىء له سوى الكتابة، بمجرد أن أصبحت قادرة، طلبت من "جوديث" قلمًا وورقة، واستندت إلى وسادة وصغت رسالة، لم تعجبنى النتيجة، فجربت غيرها وغيرها،

لم أواجه قط مثل هذه الصعوبة فى استخدام الكلمات، ولما اكتسى غطاء سريرى بالنسخ المرفوضة لدرجة أننى يئست من نفسى، اخترت واحدة على نحو عشوائى وصنعت منها نسخة أنيقة:

العزيز أوريليوس،

هل أنت بخير؟

آسفة للغاية لما حدث، لم أقصد قط إيذاء أحد، كنت مجنونة، أليس كذلك؟

متى يمكننى مقابلتك؟

أما زلنا أصدقاء؟

"مارجريت".

يجدر بهذه أن تكون كافية.

جاء الطبيب "كليفتون" واستمع إلى نبضى وسألنى الكثير من الأسئلة: "الأرق؟ النوم غير المنتظم؟ الكوابيس؟"

أومأت ثلاث مرات.

"هذا ما ظننته". أخذ ميزان الحرارة وأمرنى أن أضعه تحت لسانى، ثم نهض ومد الخطى نحو النافذة، سألنى وهو يولى إلىَّ ظهره: "وماذا تقرئين؟"

لم أستطع الرد والميزان فى فمى.

"مرتفعات ويذيرنج، هل قرأتها؟"

"مممممم".

"وجين أير؟"

"مممم".

"العقل والعاطفة؟"

"هممم".

التفت ونظر إلىَّ بوجه جاد: "وأفترض أنك قرأت هذه الكتب أكثر من مرة".

أومأت وعبس هو.

"قرأتها وأعدت قراءتها؟ مرات عدة؟"

أومأت مجددًا، وازداد عبوسه.

"منذ الطفولة؟"

أربكتنى أسئلته، لكن جدية نظرته أجبرتنى على الإيماء مجددًا.

تحت جفنه الداكن، ضاقت عينه لتصبح شقًا عرضيًّا، استطعت أن أرى بوضوح كيف أنه ربما يخيف مرضاه إلى درجة التعافى، فقط ليتخلصوا منه.

ثم انحنى بقربى لقراءة الميزان.

يبدو الناس مختلفين عن قرب، الجفن الداكن لا يزال جفنًا داكنًا، لكن يمكن تمييز الشعيرات المنفردة وسطه، وكيف أنها متراصة ومتقاربة، وآخر شعيرات الجفن، رقيقة للغاية، شبه خفية، شاردة فى اتجاه صدغه، موجهة نحو القوقعة الحلزونية التى تشكل أذنيه، وتوجد ثقوب دبابيس متراصة ومتقاربة فى حبيبات جلدهتخرج منها لحيته، وها هو مجددًا: ذلك الاتساع الدقيق جدًا لدرجة ألا يُلاحظ لفتحة الأنف، وذلك الانقباض عند طرف الفم، دائمًا ما اعتبرتها علامات على القسوة، ودليل على أنه يحتقرنى، لكن الآن، وأنا أراها

على بعد بضع سنتيمترات، خطر ببالى أن ذلك قد لا يكون رفضًا قط، سألت نفسى أيمكن أن يكون الطبيب "كليفتون" كان يسخر منى سرًا؟

أخذ ميزان الحرارة من فمى وثنا ذراعيه، وأدلى بتشخيصه: "تعانين من وعكة تصيب الآنسات ذوات المخيلات الرومانسية، الأعراض تشمل الإغماء، والإرهاق، وفقدان الشهية، وتعكر المزاج، وفى حين يمكن إرجاع الأزمة على أحد المستويات إلى التجول تحت الأمطار قارسة البرودة دون ما يكفى من ملابس الوقاية من المطر، فإن السبب الأعمق يرجح أن يكون جزءًا من صدمة عاطفية، ولكن على خلاف بطلات رواياتك المفضلة، لم تضعف صحتك الجسدية بسبب الحرمان من متطلبات الحياة فى القرون السابقة الأكثر قسوة، فلا وجود لمرض السل، ولا شلل الأطفال، ولا الأوضاع المعيشية غير الصحية، ستنجين من هذه الوعكة".

نظر إلى عينىَّ مباشرة، وكنت غير قادرة على إبعاد نظرى حين قال: "لا تأكلين كفاية".

"ليست لدىَّ شهية".

قال بالفرنسية، ورددت عليه بترجمة ما قاله: "الشهية تأتى بتناول الطعام".

"بالضبط، ستعود إليك شهيتك، لكن يجب أن تسعى نحوها، يجب أن تريدى عودتها".

كان هذا دورى أن أعبس.

"العلاج ليس معقدًا: كلى، وارتاحى، والتزمى بهذا..." كتب كلمات بسرعة على دفتر، ومزق صفحة ووضعها بجانب الطاولة، "سيختفى التعب والإرهاق خلال أيام قليلة"، مد يده إلى حقيبته، حيث أخفى

قلمـه والـورق، ثـم، وهـو يهـم بالمغـادرة، تـردد: "أود أن أسـألك عـن تلـك الأحـلام خاصتـك، لكننـى أظـن أنـك لـن تـودى إخبـارى..."

ودعته بلا مشاعر: "لن أخبرك".

ارتسم الإحباط على وجهه: "هكذا ظننت".

حيانى من عند الباب، ورحل.

مـددت يـدى إلى الروشـتة، وجدتـه قـد كتـب بخـط متعجـل ونشـيط: "كتـاب ملـف قضايـا شـيرلوك هوملـز للسـيد (آرثـر كونـان دويـل)، عـشرة صفحـات، مرتـين يوميًـا، حتـى نهايـة البرنامـج العلاجـى".

أيام ديسمبر

اتبعت تعليمات الطبيب "كليفتون" وقضيت يومين فى السرير آكل وأنام وأقرأ قصص "شيرلوك هولمز"، أعترف بأننى تجاوزت جرعتى من الدواء متجرعة القصة تلو الأخرى، وقبل نهاية اليوم الثانى، كانت "جوديث" قد ذهبت إلى المكتبة وحصلت على مجلد آخر لـ"كونان دويل"، أصبحت فجأة طيبة تجاهى منذ انهيارى، لم تكن حقيقة أنها آسفة من أجلى هى ما غيرتها -مع أنها كانت بالفعل آسفة- بل حقيقة أن وجود "إيميلاين" لم يعد الآن سرًّا فى المنزل، أصبحت حرة لتترك مشاعرها الطبيعية تحكم محادثاتها معى، بدلاً من الإبقاء على ذلك المظهر المزيف الحذر باستمرار.

سألتنى وهى تتمنى لو يحدث ذلك فى يوم ما: "ألم تقل شيئًا قط بشأن الحكاية الثالثة عشر؟"

"ولا كلمة، أقالت لك شيئًا؟"

هـزت رأسـها: "أبـدًا، الأمـر غريـب، أليـس كذلـك؟ بعـد كل مـا كتبتـه، أن تكـون القصـة الأشـهر مـن بـين كل قصصهـا هـى التـى لم تُكتـب قـط، فقـط فكـرى بالأمـر: يمكنهـا عـلى الأرجـح أن تنـشر كتابًـا يضـم كل القصص الناقصـة، وسيُشـترى كأنـه كنـز"، ثـم هـزت رأسـها لتفـرغ بالهـا، وقالـت بنـبرة مختلفـة: "إذًا فـما رأيـك بالطبيـب (كليفتـون)؟"

حـين مـر الطبيـب "كليفتـون" بالمنـزل ليطمـئن عـلى تحسـنى، هبطـت عينـاه عـلى المجلـدات المجـاورة لسريـرى، لم يقـل شـيئًا لكـن فتحتـى أنفـه انتفضتا.

فى اليـوم التـالى، اسـتيقظت أشـعر بالضعـف كأنى طفلة رضيعـة، وغرقت غرفتـى فى الضـوء النقيّالمنعـش وأنـا أفتـح السـتائر، بالخارج امتدت السـماء الزرقـاء الزاهيـة بـلا غيـوم مـن الأفـق إلى الأفـق، ولمعـت تحتهـا الحديقـة بالثلـوج، بـدا كأن خـلال تلـك الأيـام الغائمـة الطويلـة كان الضـوء يتراكـم وراء السـحاب، والآن بعدمـا زال السـحاب لم يعـد شـيئًا يوقـف تدفقـه، ينقعنـا فى حصيلـة أسـبوعين مـن الضـوء فى مـرة واحـدة، شـعرت كأن الحيـاة بـدأت تـدب ببـطء فى عروقـى وأنـا أرمـش قبالـة هـذا الإشراق.

خرجـت مـن المنـزل قبـل الإفطـار، ببـطء وبحـذر خطـوت حـول العشـب وفى أعقـابى "شـادو"، كانـت الأرض تحتـى منتعشـة، والشـمس متألقـة فى كل مـكان عـلى أوراق الأشـجار المثلجـة، حمـل العشـب المكسـو بالثلـوج آثـار نعـلى، لكـن "شـادو" خطـا بجانبـى مثـل شـبح رقيـق بـلا آثـار، فى البدايـة شـعرت بالهـواء البـارد الجـاف مثـل سـكينة فى حلقـى، لكـن شـيئًا فشـيئًا أعـاد إلىّ حيويتـى، وابتهجـت بهـذا الانتعـاش، ومـع ذلـك، كانـت بضـع دقائـق كافيـة، فقـد آثـرت أن أعـود إلى الداخـل بعدمـا تخـدر خـداى، وأصبحـت أصابعـى ورديـة وتألمـت أصابـع قدمـى، وآثـر "شـادو" أن يتبعنـى، تناولـت الإفطـار أولاً، ثـم انتقلـت إلى أريكـة المكتبـة، والموقـد المسـتعر ومعـى شىء أقـرؤه.

أمكننـي أن أستشـعر مـدى تحسـنى عـبر حقيقـة أن أفـكارى لم تتحـول نحـو كنـوز مكتبـة السـيدة "وينـتر"، بـل إلى قصتهـا، فقـد اسـتعدت كومـة أوراقـى التـى أهملتهـا منـذ يـوم انهيـارى مـن الطابـق العلـوى، وجلبتهـا معـى إلى دفء الموقـد حيـث قضيـت أفضـل سـاعات النهـار أقرأ، و"شـادو" إلى جانبـى، قـرأت وقـرأت بـلا توقـف، مستكشـفة القصـة بالكامـل مـن البدايـة، وذكّـرت نفـسى بـكل معضلاتهـا وألغازهـا وأسرارهـا، لكننـى لم أكتشـف أىّ جديـد، وفى نهايتهـا كنـت متحـيرة مثلـما كنـت قبـل أن أبـدأ، هـل عبـث أحـد بسـلم "جـون ذا ديـج"؟ لكـن مـن؟ ومـا ذلـك الـذى رأتـه "هيسـتر" حـين ظنـت أنهـا رأت شـبحًا؟ واللغـز الأعقـد مـن كل هـذا، كيـف لـ"آديلايـن" تلـك الطفلـة العنيفـة المتـشردة، العاجـزة عـن التواصـل مـع أىّ أحـد سـوى أختهـا الغبيـة، والقـادرة عـلى إتيـان أفعـال تدمـر حدائـق وتفطـر قلوبًـا، أن تكـبر لتكـون السـيدة "وينـتر"، المؤلفـة المنضبطـة ذاتيًّـا، صاحبـة عـشرات الروايـات الأكـثر مبيعًـا، وصانعـة تلـك الحديقـة البديعـة؟

دفعـت كومـة أوراقـى جانبًـا، ومسـدت "شـادو" وحملقـت إلى الموقـد، مشـتاقة إلى الارتيـاح الـذى تبعثـه قصـة جـرى التخطيـط لـكل شيء فيهـا مسـبقًا، حيـث حـيرة العقـدة مصممـة فقـط لإمتاعـى، وحيـث يمكننـى قيـاس مـدى قـربى مـن الحـل عـبر تفقـد سُـمك الصفحـات المتبقيـة، لم تكـن لـدى فكـرة عـن عـدد الصفحـات المتبقيـة عـلى اكتـمال قصـة "إيميلايـن" و"آديلايـن"، ولا حتـى مـا إذا تبقـى وقـت كاف لإكمالهـا.

عـلى الرغـم مـن انهـماكى فى أوراقـى، لم أسـتطع منـع نفسى من التسـاؤل عـن سـبب عـدم رؤيتـى للسـيدة "وينـتر"، فى كل مـرة أسـأل عنهـا، كانـت "جوديـث" تعطنـى الإجابـة نفسـها: إنهـا مـع السـيدة "إيميلايـن"، حتـى المسـاء، حـين جـاءت برسـالة مـن السـيدة، "وينـتر" نفسـها: هـل أنـا بخـير كفايـة لأقـرأ لهـا قليـلاً قبـل العشـاء؟

حين ذهبت إليها وجدت كتابًا -سر السيدة "أودلى"- على الطاولة بجانب السيدة "وينتر"، فتحته عند الشريطة وقرأت، لكننى كنت قد قرأت فصلاً واحدًا حين توقفت، مستشعرة أنها تريد التحدث إلى.

سألتنى: "ماذا حدث فى تلك الليلة؟ ليلة مرضك؟"

كنت ممتنة على نحو متوتر لأننى حظيت بفرصة للتفسير: "كنت أعرف مسبقًا أن (إيميلاين) فى المنزل، سمعتها خلال الليل، رأيتها فى الحديقة، ووجدت جناحها، ثم فى تلك الليلة تحديدًا جلبت أحدًا ليراها، فتفاجأت (إيميلاين)، وأبعد ما قد أقصده هو أن أخيفها، لكنها تفاجأت حين رأتنا، و..." توقف صوتى فى حلقى.

"يجب أن تعرفى أن هذا ليس خطأكِ، فلا تتحاملى على نفسك، العويل والانهيار العصبى، إنه أمر رأيته و(جوديث) والطبيب كثيرًا، لو كان هناك مُلام فهو أنا، لأننى لم أخبرك قبلها أنها هنا، لدى ميل لأن أكون مفرطة فى الحماية، كنت مغفلة بألا أخبرك"، وسكتت: "هل تنوين إخبارى بهوية من جلبته معك؟"

قلت: "أنجبت (إيميلاين) طفلاً، هذا هو الشخص الذى جاء معى، الرجل ذو البذلة البنية"، وبعدما قلت ما أعرفه، هرعت الأسئلة التى لا أعرف لها إجابة إلى شفتى، كأن صراحتى قد تشجعها على أن تكون صادقة بالمقابل: "عم كانت (إيميلاين) تبحث فى الحديقة؟ كانت تحاول أن تحفر لتخرج شيئًا حين رأيتها، إنها تفعل ذلك كثيرًا، لقد قال (موريس) إنه عمل الثعالب، لكننى أعرف أنها ليست الحقيقة".

كانت السيدة "وينتر" صامتة وثابتة للغاية.

اقتبست عنها: "الموتى يواريهم التراب"، وتابعتُ: "هذا ما قالته لى، ما الذى تظن أنه مدفون؟ أهو طفلها؟ (هيستر)؟ عمن تبحث تحت التراب؟"

ندت عن السيدة "وينتر" همهمة، ومع أنها كانت خافتة، فإنها أيقظت على الفور الذكرى الضائعة للصوت الأجش الذى أطلقته "إميلاين" تجاهى فى الحديقة، إنها الكلمات نفسها تحديدًا! أضافت السيدة "وينتر": "أهذا كل الأمر؟ أهذا ما قالته؟"

أومأتُ.



"بلغة التوأمين؟"

أومأتُ مجددًا.

تطلعت إلى السيدة "وينتر" باهتمام: "أنت تبلين حسنًا يا (مارجريت)، أفضل مما توقعت، المشكلة أن توقيت هذه القصة يخرج عن سيطرتى، نحن نستبق الأحداث"، وصمتت محدقةً إلى كفها، ثم نظرت إليّمباشرة: "قلت إننى قصدت إخبارك الحقيقة يا (مارجريت)، وهذا ما أفعله، لكن قبل أن أتمكن من إخبارك، يجب أن يحدث شىء أولاً، وهو سيحدث، لكنه لم يحدث بعد".

"ما...؟"

لكن قبل أن أكمل سؤالى هزت رأسها: "هلا نعد إلى قصة السيدة (أودلى) وسرها".

قرأت لنصف ساعة أخرى أو نحو ذلك، لكن عقلى لم يركز فى القصة، وتشكل لدىّ انطباع بأن انتباه السيدة "وينتر" أيضًا كان يتجول، حين جاءت "جوديث" لتطرق الباب فى وقت العشاء، أغلقت الكتاب ووضعته جانبًا، وقالت السيدة "وينتر" كأن أحد لم يقاطعنا، وكأننا نتابع نقاشنا السابق: "لِمَ لا تأتين لترى (إميلاين) هذا المساء إن لم تكونى متعبة؟"

أختان.

ذهبت إلى سكن "إيميلاين" فى الوقت المحدد، إنها المرة الأولى التى أذهب فيها إلى هناك بصفتى ضيفة مدعوة، وأول ما لاحظته قبل حتى أن أدلف إلى غرفة النوم كان كثافة الصمت، توقفت لوهلة فى المدخل -إذ لم تلحظا قدومى بعد- وأدركت أن ذلك تأثير همسهما، فعند حافة السمع، يصنع احتكاك الأنفاس بالأحبال الصوتية تموجات فى الهواء، إنها الأصوات الانفجارية الرقيقة التى مرت قبل أن تسمعها، والأصوات الاحتكاكية التى ربما ظننتها صوت دمك فى أذنيك، وفى كل مرة أظن أنها توقفت، يمر بأذنى همس مكتوم مثل فراشة تهبط على شعرى ثم ترفرف مبتعدة.

تنحنحت.

"مارجريت"، وأشارت السيدة "وينتر"، وهى على كرسيُّها المتحرك الموضوع بجانب أختها، إلى كرسى على الجانب الآخر من السرير، "يا له من لطف منك".

نظـرتُ إلى وجـه "إيميلايـن" الأحمـر والأبيـض عـلى الوسـادة، كانـا الأحمـر والأبيـض نفسـيهما المميـزان لتشـوهات الحـروق والندبـات التـى رأيتهـا مـن قبـل، ولم تفقـد سـمنتها جيـدة التغذيـة، وشـعرها لا يـزال خصلـة متشـابكة مـن اللـون الأبيـض، تجولـت عيناهـا فى السـقف بخمـول، وبـدت غـير مباليـة بوجـودى، مـا الاختـلاف إذًا؟ فقـد بـدت مختلفـة، حـدث تحـول مـا داخلهـا، تغيـير واضـح مباشرة للعـين، مـع أنـه مـراوغ إلى حـد يمنـع تعريفـه، ومـع ذلـك فإنهـا لم تفقـد شيئًا مـن قوتهـا، إحـدى يديهـا ممـدودة خـارج الغطـاء وتمسـك بيـد السـيدة "وينـتر" بقبضـة قوية.

سألتها بتوتر: "كيف حالك يا (إيميلاين)؟"

قالت السيدة "وينتر": "إنها ليست بخير".

تغـيرت السـيدة "وينـتر" أيضًـا فى الأيـام الأخـيرة، لكـن مرضهـا أشـبه بعمليـة التقطـير، كلـما أضعفهـا، أظهـر حقيقتهـا، كلـما رأيتهـا بـدت منكمشـة: أنحـف، وأضعـف، وأكـثر صدقًـا، وكلـما ضعفـت، ظهـرت صلابـة جوهرهـا.

ومـع ذلـك، كانـت "إيميلايـن" تمسـك بقبضتهـا الثقيلـة يـدًا نحيفـة وضعيفـة للغايـة.

سألتها: "أتودين أن أقرأ؟"

"بلا شك".

قـرأتُ فصلاً، ثـم تمتمـت السـيدة "وينـتر": "إنها نائمـة"، عينـا "إيميلاين" مغلقتـان، وتنفسـها عميـق ومنتظـم، وقـد أرخـت قبضتهـا عـن يـد أختهـا، والسـيدة "وينـتر" تمسـدها كأنهـا تعيـد إليهـا الحيـاة، حينهـا رأيـت بدايـات كدمـات عـلى أصابعها.

حـين رأت اتجـاه نظـرى جذبـت يدهـا داخـل شـالها وقالـت: "آسـفة بشـأن هـذا التعطيـل لعملنـا، اضطـررت إلى إبعـادك مـرة مـن قبـل حـين

كانت (إيميلاين) مريضة، والآن أيضًا يجب أن أقضى وقتى معها، ويجب أن ينتظر مشروعنا، لكن لن يطول ذلك، وعيد الميلاد قريب، ستريدين أن تغادرى لتبقى مع عائلتك، حين تعودين بعد الإجازة سنرى إلام آلت الأمور، أتوقع..."-وكان هذا أقصر توقف ممكن- "أن نتمكن من متابعة عملنا حينها".

لم أفهم ما تقصده فى الحال، كانت كلماتها غامضة، لكن صوتها هو ما كشفها، قفزت عيناي إلى وجه "إيميلاين" النائم.

"أتقصدين...؟"

تنهدت السيدة "وينتر": "لا تنخدعى بحقيقة أنها تبدو قوية، لقد كانت مريضة لفترة طويلة جدًا، طوال سنوات افترضت أننى سأعيش لأراها ترحل أمامى، ثم حين مرضتُ لم أعد متأكدة جدًا، والآن يبدو أننا فى سباق إلى خط النهاية".

إذًا فهذا ما كنا بانتظاره، الحدث الذى لولاه ما كانت القصة لتنتهى.

فجأة جف حلقى وارتعد قلبى مثل قلب طفلة.

إنها تحتضر، "إيميلاين" تحتضر.

"أهذا خطئى؟"

هزت السيدة "وينتر" رأسها: "خطؤك؟ كيف يمكن أن يكون خطأك؟ تلك الليلة لا شأن لها بهذا"، ورمقتنى بواحدة من نظراتها القديمة الحادة التى تفهم منى أكثر مما أقصد كشفه: "لمَ يزعجك هذا يا (مارجريت)؟ أختى غريبة عنك، ويصعب علىّ تصديق أن التعاطف هو ما يحزنك هكذا، أهو التعاطف؟ أخبرينى يا (مارجريت): ما الأمر؟"

كانت مخطئة جزئيًّا، لقد تعاطفت معها، لأننى اعتقدت أننى أدرك ما تمر به السيدة "وينتر"، كانت على وشك الانضمام إلى صفوف البُتر، التوائم الثكالى يعيشون بنصف روح، بين الحياة والموت خيط رقيق ومظلم، والتوائم الثكالى يعيشون أقرب إليه من معظم الناس، ومع أنها عادةً سريعة الغضب وعنيدة، فقد ازداد حبى للسيدة وينتر، وبالتحديد، أحببت الطفلة التى كانت هى، الطفلة التى ظهرت على نحو متكرر أكثر فى هذه الأيام، بشعرها المقصوص، ووجهها العارى، ويديها الضعيفتين المتجردتين من أحجارهما الثقيلة، بدا أنها تزداد طفولة فى كل يوم، فى عقلى هى الطفلة التى تفقد أختها، وهناك التقى حزن السيدة "وينتر" وحزنى، فاجعتها ستحدث فى هذا المنزل خلال الأيام المقبلة، وهى الفاجعة نفسها التى شكلت حياتى، مع أنها حدثت لى قبل أن أدرك العالم.

رأيت وجه "إيميلاين" على الوسادة، إنها تقترب من البرزخ الذى أبعدنى عن أختى، قريبًا ستعبره وسنفقدها، ستكون وافدة جديدة فى ذلك الجانب الآخر، ملأتنى رغبة سخيفة فى أن أهمس بأذنها رسالة إلى أختى، بعهدة سيدة قد تراها قريبًا، لكن ماذا أقول؟

شعرت بحملقة السيدة "وينتر" الفضولية إلى وجهى، وكبحت حماقتى الوشيكة.

سألتها: "كم تبقى لها؟"

"أيام، ربما أسبوع، ليس كثيرًا".

أطلت السهر فى تلك الليلة مع السيدة "وينتر"، وحضرت مجددًا على جانب سرير "إيميلاين" فى اليوم التالى، جلسنا نقرأ بصوت مرتفع أو فى صمت لفترات طويلة، لا يقاطع سهرنا إلا الطبيب "كليفتون"، بدا أنه يعتبر وجودى هناك أمرًا طبيعيًّا، وشملنى بالابتسامة الجادة نفسها التى منحها للسيدة "وينتر" وهو يتحدث بلطف عن تدهور

"إيميلايـن"، وأحيانًـا كان ينضـم إلينـا لسـاعة أو نحـو ذلـك، يشـاركنا التيـه، يسـتمع وأنـا أقـرأ. كتـب مـن أى رف، مفتوحـة عنـد أيّـة صفحـة، أبدؤهـا مـن أى صفحـة وأنهيهـا فى أى صفحـة، فى منتصـف جملـة أحيانًـا، اصطدمـت روايـة "مرتفعـات ويذيرنـج" بروايـة "إيمـا"، والتـى أفسـحت الطريـق لروايـة "ذى يوسـتاس دايمونـدز"، والتـى تداخلـت مـع روايـة "أوقـات عصيبـة"، والتـى أفضـت إلى روايـة "ذات الـرداء الأبيـض"، كلهـا فتـات، لكـن ذلـك لم يهـم، فالفـن واكتمالـه وتشـكله وانتهاؤه ليسـت لـه قـدرة عـلى التعزيـة، وعـلى الجانـب الآخـر كانـت الكلـمات حبـل نجـاة، لقـد تركـت الكلـمات إيقاعهـا المكتـوم وراءهـا، تـوازن الشـهيق والزفـير البطـيء لـ"إيميلايـن".

ثـم تـلاشى اليـوم وكانـت عشـية عيـد الميـلاد فى اليـوم التـالى، وهـو يـوم رحيـلى، عـلى نحـو مـا لم أرد أن أرحـل، هـدوء هـذا المنـزل والعزلـة البديعة التـى توفرهـا حديقتـه هـما كل مـا أريـده مـن العـالم حاليًـا، بـدا المتجـر ووالـدى صغيريـن وبعيديـن جـدًا، ووالـدتى -كحالهـا دائمًـا- أبعـد، أمـا عيـد الميـلاد فى منزلنـا.. إنـه قريـب للغايـة مـن عيـد مولـدى، أقـرب مـن أن تتحمـل والـدتى الاحتفـال بطفـل امـرأة أخـرى فيـه، ولا يهـم كـم قرنًـا مـر عـلى ذلـك، فكـرت بشـأن والـدى وهـو يفتـح بطاقـات المعايـدة مـن أصدقـاء والـدى القليلـين، ويرتـب عنـد الموقـد صـور "بابـا نويـل" وطيـور روبـين والثلـوج غـير المؤذيـة وينحـى صـور مريـم العـذراء جانبًـا، ويجمـع سـنويًا كومـة سرية مـن تلـك الصـور، صـور ملونـة بالأحجـار الكريمـة لـلأم المتطلعـة ببهجـة إلى رضيعهـا الوحيـد المكتمـل المثـالى، ويتطلـع الرضيـع إليهـا، ويشـكل كلاهـما دائـرة مباركـة مـن الحـب والكـمال، فى كل عـام يوضـع الكثـير مـن تلـك الصـور فى صنـدوق.

أعـرف أن السـيدة "وينـتر" لـن تعـترض لـو طلبـتُ البقـاء، بـل قـد تمـتن لوجـود رفيقـة فى أيامهـا المقبلـة، لكننـى لم أطلـب، لم أسـتطع، لقـد رأيـت تدهـور "إيميلايـن"، وبينـما هـى تضعـف، اشـتدت القبضـة الضاغطـة

على قلبى، ويخبرنى عذابى المتزايد بأن النهاية ليست بعيدة، هذا جبن منى، لكن حين جاء عيد الميلاد، وجدت تلك فرصة للهرب، واستغللتها.

فى المساء ذهبت إلى غرفتى وحقبت أشيائى، ثم ذهبت إلى سكن "إيميلاين" لأودع السيدة "وينتر"، رفرفت كل همسات الأختين بعيدًا، وأصبحت العتمة أثقل، وثابتة أكثر من ذى قبل، على حجر السيدة "وينتر" كتاب، لكنها إن كانت من قبل تقرأ، فإنها لم تعد قادرة على الرؤية لتقرأ، بل تطلعت عيناها بحزن إلى وجه أختها، واستلقت "إيميلاين" بلا حراك على سريرها، وارتفعت الأغطية وهبطت برقة مع أنفاسها، عيناها مغلقتان وتبدو فى سبات عميق.

تمتمت السيدة "وينتر": "مارجريت"، مشيرة إلى كرسى، بدت مسرورة بقدومى، وانتظرنا معًا خفوت الضوء، مستمعتين إلى حركة أنفاس "إيميلاين".

دخلت وخرجت أنفاس "إيميلاين" بيننا على سرير المرض، بإيقاع سلس هادئ، مريح مثل صوت الموج على الشاطئ.

لم تتكلم السيدة "وينتر"، وكنت أنا أيضًا صامتة، أصوغ فى بالى رسالة مستحيلة قد أرسلها إلى أختى بواسطة هذه المسافرة قريبًا إلى العالم الآخر، ومع كل زفير، بدا أن الغرفة تمتلئ بحزن أعمق وأبقى.

تحرك ظل السيدة "وينتر" المظلم على النافذة.

قالت: "يجب أن تحصلى على هذا"، وأخبرتنى حركة فى الظلام أنها تمد شيئًا لى أعلى السرير.

أغلقت أصابعى على شىء مستطيل من الجلد له قفل معدنى، يبدو كأنه كتاب.

"هـذا مـن صنـدوق كنـوز (إيميلايـن)، لا حاجـة إليـه بعـد الآن، غـادرى واقرئيـه، وسـنتكلم حـين تعوديـن".

قطعـت الغرفـة نحـو البـاب والكتـاب فى يـدى، أستشـعر طريقـى بواسـطة الأثـاث الـذى يقطعـه، وورائى مـد وجـذر أنفـاس "إيميلايـن".

دفتر مذكرات وقطار.

كان دفتر مذكرات "هيستر" تالفًا، المفتاح مفقود، والمشبك صدئ للغاية لدرجة أنه ترك بقعًا برتقالية على أصابعى، الصفحات الثلاث الأولى ملتصقة معًا لأن صمغ الغلاف الداخلى ذاب عليها، الكلمة الأخيرة فى كل صفحة متلاشية إلى علامة بنية كأن المذكرات تعرضت للتراب والرطوبة معًا، مُزقت بضع صفحات، وتوجد قائمة محيرة من عدة حروف بطول الحواف الممزقة: "إيه بى إن"، "سى آر"، "تى إيه"، "أيإس تى". والأسوأ من كل ذلك، بدا أن المذكرات قد نُقعت فى وقت ما فى الماء، فالصفحات متموجة، وحين إغلاقها، يصبح الدفتر أسمك.

النقع هو أسوأ ما سأواجهه، بدا واضحًا من أول نظرة إلى إحدى الصفحات أنهاكتابة يدوية، وليست أىّ كتابة قديمة، بل كتابة "هيستر". هذه خطوطها الصاعدة بثبات، ودوائرها المتوازنة السلسة، وتلك خطوطها المائلة المرتاحة، ومسافاتها الاقتصادية مع أنها عملية، لكن عند تدقيق النظر، وجدت الكلمات باهتة ومتلاشية، أهذا الخط

حـرف "آى" أم "تى"؟ أهـذه الانحنـاءة حـرف "إيـه" أم "إى"؟ أم "إس"؟ أهـذا الرسـم يُقـرأ "تائهـة" أم "مائـدة"؟

سـيكون ذلـك الدفـتر لغـزًا حقيقيًـا، ومـع أننـى نسـخت المذكـرات لاحقًـا، كان قطـار الإجـازة فى ذلـك اليـوم مزدحـمًا للغايـة لدرجـة تمنـع اسـتخدام قلـم وورقـة، انحنيـت فى مقعـد النافـذة خاصتـى، وقرّبـت الدفـتر إلى أنفـى، واسـتغرقت فى دراسـة الصفحـات مكرسـة تركيـزى عـلى فـك شـيفراتها، نجحـت فى قـراءة كلمـة مـن كل ثـلاث كلـمات فى البدايـة، ثـم مـع اندماجـى وتدفـق المعـانى، بـدأت الكلـمات تلاقينـى فى منتصـف الطريـق، تكافـؤنى عـلى جهـودى ببـوح سـخى، حتـى تمكنـت مـن قلـب الصفحـات بسرعـة تقـارب سرعـة القـراءة، عـادت "هيسـتر" إلى الحيـاة فى ذلـك القطـار، فى اليـوم السـابق عـلى عيـد الميـلاد.

لـن أختـبر صـبرك عـبر نسـخ مذكـرات "هيسـتر" هنـا مثلـما وصلـت إلى، مفتتـة ومهشـمة، بـل عـلى طريقـة "هيسـتر" نفسـها، سـأصلحها وأرتبهـا وأنظمهـا، فأبعـدت الفـوضى والـركام، واسـتبدلت اليقـين بالشـك، والوضـوح بالضبابيـة، واللحـام بالثغـرات، ربمـا أقحمـت أحيانًـا فى صفحاتهـا كلـمات لم تكتبهـا قـط، لكننـى أعـد بأننـى إن ارتكبـت أخطـاء فهـى فى التفاصيـل الصغـيرة فقـط، فقـد تفحصـت ودققـت فى الأجـزاء المهمـة حتـى تأكـدت إلى مبلـغ التأكـد مـن أننـى ميـزت مقصدهـا الأصـلى.

لم أهتـم بالمذكـرات كلهـا، بـل فقـط بأجـزاء منتقـاة ومحـررة منهـا، اخترتهـا عـلى أسـاس درجـة أهميتهـا لهـدفى، وهـو أن أحـكى قصـة السـيدة "وينـتر"، وثانيًـا رغبتـى فى أن أقـدم فكـرة دقيقـة عـن حيـاة "هيسـتر" فى "آنجلفيلـد".

***

يبدو منزل "آنجلفيلد" لطيفًا كفاية عن بُعد، مع أن واجهته تنظر إلى الاتجاه الخطأ ونوافذه موقعها سيئ، لكن عند الاقتراب منه، ترى في الحال الخراب التي سُمح للمنزل بالانحدار إليه، أجزاء من البناء الحجري تآكلت على نحو خطير بسبب الطقس، إطارات النوافذ متعفنة، يبدو كأن أجزاء من السقف متضررة من العواصف، سأجعل تفقد السقوف في العليا أولوية لي.

رحبت بي مدبرة المنزل عند الباب، وفهمت في الحال أنها تواجه صعوبة في البصر والسمع مع أنها تحاول إخفاء الأمر، وهذا ليس مفاجئًا بالنظر إلى سنها الكبير، كذا فإنه يفسر الحالة القذرة للمنزل، لكنني أفترض أن عائلة "آنجلفيلد" لا تريد التخلص منها بعدما خدمتهم طوال حياتها في المنزل، يمكنني استحسان تقديرهم للولاء، لكنني لا أجد سببًا لعدم مساعدتها بأيدٍ أصغر سنًّا وأقوى.

أخبرتني السيدة "دان"بشأن المنزل، لقد عاشت العائلة هنا لسنوات بما يعتبر في الغالب خفضًا كبيرًا لعدد العاملين، وأصبح ذلك مقبولاً باعتباره جزءًا من أسلوب الحياة في المنزل، لم يتأكد لي بعد لمَ يجب أن يظل الوضع هكذا، لكن الأكيد لي أن باستثناء أفراد العائلة، يوجد بستاني يدعى "جون ديجنس"، وتوجد غزلان (مع أن الصيد قد توقف)، لكن الرجل الذي يعتني بها لا يُرى قط قرب المنزل، بل يتلقى التعليمات من المحامي نفسه الذي جلبني، والذي يتصرف كأنه بشكل ما مدير الممتلكات بقدر ما تحتاج الممتلكات إلى إدارة، وتتولى السيدة "دان" بنفسها ماليات المنزل المنتظمة، افترضت أن "تشارلز آنجلفيلد" يشرف على السجلات والفواتير أسبوعيًا، لكن لم يكن من السيدة "دان" إلا أن ضحكت وسألتني إن كنت أظن أن نظرها يمكنها من تسجيل قوائم أرقام في سجل، لا يسعني سوى الظن أن هذا الوضع غير تقليدي للغاية، لا أقصد أن السيدة "دان" غير أهل للثقة، فمما رأيته، لديها كل ما يدل على أنها امرأة صادقة

طيبة القلب، وأملى أننى سأرجع تحفظها إلى الصمم حين أعرفها أكثر، كتبت مذكرة إلى السيد "آنجلفيلد" لأوضح مميزات الاحتفاظ بسجلات دقيقة، وفكرت فى عرض أن أتولى هذه الوظيفة بنفسى إن كان أكثر انشغالاً من أن يتولاها.

بالتفكير مليًا فى الأمر، بدأت أرى أن الوقت قد حان لمقابلة مديرى، وبلغت مفاجأتى مبلغها حين أخبرتنى السيدة "دان" أنه يقضى يومه بالكامل فى الحضانة القديمة وأن من غير عاداته أن يغادرها، وبعد أسئلة كثير جدًّا، تأكد لى فى النهاية أنه يعانى من خلل ما فى عقله، أمر مؤسف حقًّا! أمن شىء محزن أكثر من عقل اختلت وظائفه؟

قدمت لى السيدة "دان" الشاى (الذى ادعيت أننى أشربه من باب الذوق، لكننى صببته لاحقًا فى الحوض لأننى لم أثق مطلقًا بنظافة الكوب بعدما رأيت حالة المطبخ) وحكت لى قليلاً عنها، إنها فى ثمانيناتها، ولم تتزوج قط وعاشت هنا طوال حياتها، من الطبيعى كفاية أن يتحول حديثنا حينئذ إلى العائلة، عرفت السيدة "دان" والدة التوأمين خلال طفولتها وشبابها، وأكدت ما فهمته بالفعل: رحيل الأم مؤخرًا إلى مصحة لمرضها العقلى هو ما عجل بتوظيفى، وحكت لى رواية ملتوية عن الأحداث التى عجلت بإيداع الأم بالمصحة جعلتنى غير واثقة إن كانت قد هاجمت زوجة الطبيب بالكمان أم لا، بالكاد يمثل هذا فارقًا: فمن الواضح أن للعائلة ماض من الاختلالات العقلية، وأعترف بأن قلبى أسرع قليلاً حين تأكد لى الأمر، فكيف تَقنع معلمة منزلية بإرشاد عقول غير مقيدة وتعمل بسلاسة؟ أين التحدى فى الحفاظ على التفكير المنظم لدى أطفال عقولهم مرتبة وأنيقة؟ لست مستعدة لهذه الوظيفة فقط، بل وقضيت سنوات أتطلع إليها، هنا سأكتشف أخيرًا قيمة أساليبى فى العمل!

سألت عن عائلة الأب، لأنه على الرغم من أن السيد "مارش" متوفى والطفلتان لم تعرفاه قط، فإن دماءهما دماؤه وله تأثير على طبيعتهما، لكن السيدة "دان" لم تخبرنى إلا القليل جدًّا، وبدلاً من ذلك، بدأت سلسلة من الحكايات عن الأم والخال والتى لو قرأت بين سطورها (وأنا واثقة بأنها أرادت منى ذلك) فإن هناك تلميحات إلى شىء فاضح.. بالتأكيد ما تشير إليه ليس مرجحًا على الإطلاق، ليس فى إنجلترا على الأقل، وأظن أنها متوهمة بدرجة ما. الخيال شىء صحى، والكثير من الاكتشافات العلمية العظيمة ما كانت لتوجد لولا الخيال، لكن يجب تسخيره من أجل هدف جاد حتى يحقق أىّ نتائج، ولو تُرك ليشق طريقه الخاص، فإنه عادة ما يؤدى إلى الحماقة، ربما السن هى ما تجعل عقلها يهيم، لأنها تبدو طيبة بأشكال أخرى، وليست من النوع الذى يخترع النمائم حبًّا فيها فقط. وعلى أيّة حال، أبعدت هذا الموضوع فى الحال من دماغى.

بينما أنا أكتب هذه الكلمات أسمع أصواتًا خارج غرفتى، لقد خرجت الفتاتان من مخبئهما وتتجولان خلسة فى المنزل، لم تحظيا بأى رعاية وسُمح لهما بالتعود على هذا الوضع، ستستفيدان جدًّا من نظام الترتيب والنظافة الشخصية والانضباط الذى أنوى تطبيقه فى المنزل، لن أخرج لهما، بلا شك تتوقعان أن أخرج لهما، وسيخدم أهدافى أن أحبطهما فى هذه المرحلة.

أخذتنى السيدة "دان" فى جولة بغرف الطابق الأرضى، القذارة فى كل مكان، الأسطح كلها مغطاة بطبقة سميكة من الغبار، والستائر فى حالة يُرثى لها، لكنها لا تراها، وتتصورها مثلما كانت منذ سنوات فى زمن جد التوأمين، حين كان هناك طاقم عاملين كامل، يوجد بيانو ربما لا يمكن إنقاذه، لكننى سأرى ما يمكن فعله، ومكتبة ربما تكون مملوءة بالمعرفة، لكن هذا سيتضح بعد مسح الغبار عنها ورؤية ما بها.

استكشـفت الطوابـق الأخـرى وحـدى، إذ لم أرد أن تتـضرر السـيدة "دان" بصعـود الكثـير مـن السلالم دفعـة واحـدة، فى الطابـق الأول سـمعت تشـاجرًا وهمسًـا وضحـكًا مكتومًـا، وجـدتُ مَـن كُلفـت بأمرهـما، لقـد أقفلتـا البـاب، وصمتتـا حـين حاولـت فتحـه، ناديـت اسـميهما مـرة، ثـم تركتهـما إلى مكائدهـما وصعـدت إلى الطابـق الثـانى، إنهـا قاعـدة أساسـية أننـى لا أطـارد مَـن كُلفـت بأمرهـم، بـل أعلمهـم أن يأتـوا إلى.

وجـدت أفظـع درجـات الفـوضى فى غـرف الطابـق الثـانى، إنهـا قـذرة، لكننـى توقعـت ذلـك، ميـاه المطـر تسربـت عـبر السـقف (توقعـت ذلـك أيضًـا) ووجـدت الفطريـات تنمـو عـلى بعـض ألـواح الأرضيـة المتعفنـة، إنهـا حقًّـا بيئـة غـير صحيـة لتربيـة الأطفـال، كان عـدد مـن ألـواح الأرضيـة مفقـودًا، ويبـدو كأنهـا أزيلـت عـن عمـد، يجـب أن أقابـل السـيد "آنجلفيلـد" لأخـبره بشـأن إصـلاح ذلـك، يجـب أن أوضـح لـه أن أحـدًا يمكـن أن يسـقط إلى الطابـق السـفلى، أو عـلى الأقـل جـدًّا أن يلـوى كاحلـه، وتحتـاج المفصـلات كلهـا إلى التزييـت، وأطـر الأبـواب كلهـا معوجـة، أينـما ذهبـت يتبعنـى صريـر الأبـواب المتأرجحـة عـلى مفصلاتهـا، وصريـر ألـواح الأرضيـة، وتيـار هـواء يجعـل السـتائر ترفـرف مـع أن مـن المسـتحيل أن تعـرف مصـدره تحديـدًا.

عـدت إلى المطبـخ حالمـا اسـتطعت، كانـت السـيدة "دان" تعـد لنـا وجبـة المسـاء، وأنـا بـلا أى رغبـة فى تنـاول طعـام مُعـد فى قـدور بشـعة كالتـى رأيتهـا، لـذا علِقـتُ مـع كـم هائـل مـن الصحـون المتسـخة (بعـد تنظيـف الحـوض بدرجـة غـير مشـهودة منـذ عقـد)، وأبقيـت عينـى عـلى السـيدة وهـى تعـد الطعـام، إنهـا تفعـل كل مـا بوسـعها.

لا تـأتى الفتاتـان لتنـاول الطعـام، ناديـت عليهـما مـرة واحـدة فقـط، كانـت السـيدة "دان" تؤيـد بشـدة مناداتهـما وإقناعهـما، لكننـى أخبرتهـا أن لى وسـائلى الخاصـة، وأنهـا يجـب أن تدعمنـى.

جاء الطبيب لتناول العشاء، ومثلما جعلونى أتوقع، لم يظهر كبير المنزل، ظننت أن الطبيب سيشعر بالإهانة بسبب ذلك، لكن بدا أنه يجد ذلك طبيعيًّا للغاية، لذا لم يكن هناك إلا كلانا، والسيدة "دان" تفعل ما بوسعها لتخدم المائدة، لكنها احتاجت إلى الكثير من مساعدتى.

الطبيب رجل ذكى ومثقف، لديه رغبة صادقة فى أن يرى تحسن حالة الفتاتين، وهو المحرك الأساسى لتعيينى فى "آنجلفيلد"، شرح لى باستفاضة كبيرة الصعوبات التى يرجح أن أقابلها هنا، واستمعت إليه بكل ما لدى من تهذب، ستتكون لدى أىّ معلمة منزلية بعد الساعات القليلة التى قضيتها فى هذا المنزل صورة كاملة وواضحة للمهمة التى تنتظرها، لكنه رجل، وبالتالى فإنه لا يرى مدى إرهاق أن يُشرح لك باستفاضة ما فهمته بالفعل، لم يلحظ الطبيب مطلقًا تململى، ولا الحدة الطفيفة لواحدة أو اثنتين من إجاباتى، وأخشى أن طاقته ومهاراته التحليلية لا تعادل قدراته على الملاحظة، لا أنتقده بلا داعٍ لأنه يتوقع أن كل من سيقابله سيكون أقل منه قدرة، فهو رجل ذكى، والأهم من ذلك، إنه سمكة كبيرة فى بركة صغيرة، لقد تلبّس شخصية متواضعة هادئة، لكننى أستطيع تمييز ذلك بسهولة كافية، لأننى أخفيت حقيقتى بالطريقة ذاتها، ومع ذلك فإننى سأحتاج إلى دعمه فى المشروع الذى توليته، وسأعمل على جعله حليفى رغم عيوبه.

أسمع أصوات اضطراب من الطابق السفلى، وأفترض أن الفتاتين قد اكتشفتا القفل على باب خزانة الطعام، ستغضبان وتحبطان، لكن كيف بغير ذلك قد أعودهما على المواعيد المناسبة للوجبات؟ ومن دون مواعيد الوجبات، كيف يمكن استعادة النظام؟

غـدًا سـأبدأ بتنظيـف غرفـة النـوم هـذه، لقـد مسـحت الأسـطح بقطعـة قـماش رطبـة هـذا المساء، وأغرتنـى فكـرة تنظيـف الأرض، لكننـى امتنعـت، فسـأضطر إلى إعـادة تنظيـف الأرض غـدًا بعدمـا أنظـف الجدران، وسـأخلع السـتائر التـى يكسـوها الغبـار، سـأنام الليلـة فى الـتراب، لكـن غـدًا سـأنام فى غرفـة نظيفـة زاهيـة، سـتكون هـذه بدايـة جيـدة، لأننـى أخطـط لاسـتعادة النظـام والانضبـاط فى هـذا المنـزل، ولينجـح هـذا، يجـب قبـل أىّ شىء أن أوجـد لنفسى غرفـة نظيفـة لأفكـر فيهـا، لا أحـد يسـتطيع أن يفكـر بذهـن صـاف ويحقـق تقدمًـا إن لم تحطـه النظافـة والنظـام.

الفتاتان تبكيان فى الردهة، حان وقت مقابلتى لمن كُلفت بأمرهما.

***

انشـغلت جـدًا بتنظيـم المنـزل لدرجـة أننـى لم يكـن لـدى متسـع مـن الوقـت لمذكـراتى مؤخـرًا، لكـن يجـب أن أخصـص لهـا وقتًـا، لأن الكتابـة هـى طريقتـى الأساسـية فى تسـجيل وسـائلى وتطويرهـا.

أحـرزت تقدمًـا جيـدًا مـع "إيميلايـن"، وتجربتـى معهـا تتناسـب مـع نمـوذج السـلوك الـذى رأيتـه فى حـالات صعبـة أخـرى، أظـن أنهـا ليسـت مضطربـة بقـدر مـا قيـل لى، ومـع تأثـيرى سـتكون طفلـة لطيفـة، إنهـا عاطفيـة وقويـة، وتعلمـت تقديـر فوائـد النظافـة الشـخصية، وتـأكل بشـهية جيـدة، ويمكـن تعليمهـا إطاعـة التعليـمات بواسـطة الترغيـب اللطيـف والوعـد بجوائـز صغـيرة، قريبًـا يمكـن أن تفهـم أن الطيبـة مجزيـة عـبر نيـل تقديـر الآخريـن، ومـن ثـم سـأتمكن مـن تقليـل الرشـاوى، لـن تكـون ذكيـة أبـدًا، لكـن عندئـذ سـأعرف حـدود وسـائلى، وأيًـا كانـت نقـاط قـوتى، يمكننـى العمـل بمـا لـدى فقـط.

أنا مسرورة بنتائج عملى مع "إيميلاين".

حالة أختها أصعب، فقد رأيت العنف من قبل، ولم يفاجئنى الأمر كثيرًا أن "آديلاين" تفكر بواسطة ميولها التدميرية، لكننى متفاجئة بشيء واحد: يكون التدمير عمومًا لدى الأطفال الآخرين عرضًا جانبيًا للغضب، وليس هدفًا أساسيًا له، فالتصرف العنيف، بحسب ما لاحظت لدى حالات أخرى، يكون فى غالب الحالات محفَزًا بفيض الغضب، وصب الغضب يكون بالصدفة فقط فى صورة تدمير الممتلكات والأشخاص، لكن هذا النموذج لا ينطبق على حالة "آديلاين"، لقد رأيت حوادث لها، وحُكِىَ لى غيرها، وبدا التدمير فيها حافز "آديلاين" الوحيد، والغضب شيء تستخلصه وتخزنه داخلها حتى تولد الطاقة اللازمة للدمار، لأنها شيء صغير وضعيف، جلد على عظام، وتأكل الفتات فقط، أخبرتنى السيدة "دان" عن حادثة وقعت فى الحديقة، حيث يُعرف أن "آديلاين" دمرت عددًا من أشجار الصنوبر، لو كان هذا حقيقيًا فإنه عار كبير، فمن الواضح أن الحديقة كانت جميلة جدًّا، ويمكن إصلاح ذلك، لكن "جون" فقد حماسه للأمر، وليست الحديقة التوبيارية فقط التى تعانى من نقص الاهتمام، بحديقة المنزل عمومًا، سأجد الوقت والوسيلة لأعيد إليه فخره، إن شعر بالسعادة بعمله، وعادت الحديقة إلى نظامها، سيعود ذلك بالكثير على المظهر والجو العام بالمنزل.

الحديث عن "جون" يذكرنى بشيء، يجب أن أتحدث معه بشأن الطفل، كنت أتجول عصر اليوم قرب غرفة الدراسة، واقتربت من النافذة، كانت السماء تمطر وأردت أن أغلق النافذة حتى لا يدخل المزيد من الرطوبة، فحافة النافذة من الداخل بالفعل تنهار، لو لم أكن قريبة للغاية من النافذة وأنفى يكاد يكون مضغوطًا على الزجاج، أشك فى أننى كنت لأراه، لكننى رأيته: طفل مقرفص فى حوض الأزهار يقتلع الأعشاب الضارة، كان يرتدى بنطالاً رجاليًا مقصوصًا عند الكاحل ويرفعه زوج من الدبابيس، غطى ظل القبعة عريضة الحواف

وجهه ولم تتح لى الفرصة لتقدير سنه بوضوح، لكنه على الأرجح فى الحادية أو الثانية عشرة، أعرف أنها ممارسة شائعة فى المناطق الريفية أن يشارك الأطفال فى أعمال البستنة، مع أننى ظننت أن الشائع أكثر أن يقوموا بأعمال الزراعة، وأقدر مميزات تعلمهم لمجال عملهم من سن صغيرة، لكننى لا أحب أن أرى طفلاً خارج المدرسة خلال ساعات الدراسة، سأتحدث مع "جون" بشأن ذلك، وسأتأكد من إدراكه أن الفتى يجب أن يقضى ساعات الدراسة فى المدرسة.

لكن عودة إلى موضوعى: حين يتعلق الأمر بشر "آديلاين" تجاه أختها، فقد تتفاجأ هى بمعرفة أننى رأيت كل هذا من قبل، الغيرة والغضب بين الإخوة أمر شائع، وتكثر بين التوائم المنافسة، سأتمكن مع الوقت من تقليل العدوانية، لكن إلى أن يتحقق ذلك ستكون اليقظة الدائمة مطلوبة لمنع "آديلاين" من إيذاء أختها، من المؤسف أن هذا سيعيق التقدم فى جبهات أخرى، لم أفهم بعد لمَ تترك "إيميلاين" نفسها تتعرض للضرب (وشد الشعر، ومطاردة "آديلاين" التى تشهر تجاهها ملاقيط النيران الممسكة بقطع الفحم الساخنة)، حجمها ضعف حجم أختها ويمكنها الدفاع عن نفسها بأشرس مما تفعل، ربما تحجم عن إيقاع الأذى بأختها، إن لها روحًا حنونًا.

***

انطباعى الأول عن "آديلاين" فى أيامى الأولى أنها طفلة قد لا تعيش قط حياة طبيعية مستقلة مثل أختها، لكن يمكن إيصالها إلى نقطة توازن، واستقرار، ويمكن احتواء نوبات غضبها عبر فرض روتين صارم، لم أتوقع قط أن أصل إلى تفاهم معها، المهمة التى توقعت أن أنفذها مع "آديلاين" أكبر من تلك الخاصة بأختها، لكننى توقعت شكرًا أقل بكثير مقابلها، لأنها ستبدو أقل بنظر الآخرين.

لكننـى تفاجـأت لدرجـة أنى غـيرت هـذا الـرأى بسـبب علامـات الـذكاء المشـوش والغامـض لديهـا، جـاءت فى هـذا الصبـاح إلى غرفـة الدراسـة تجـر قدميهـا، لكـن مـن دون أسـوأ مظاهـر انعـدام الرغبـة، وبمجـرد جلوسـها فى مقعدهـا، أرخـت رأسـها عـلى ذراعهـا مثلـما رأيـت مـن قبـل، بـدأتُ الـدرس الـذى لم يكـن إلا قصـة، إنهـا معالجـة أعددتهـا للفصـول الافتتاحيـة مـن "جـين أيـر"، قصـة يحبهـا الكثـير مـن الفتيـات، كنـت أركـز عـلى "إيميلايـن"، وأشـجعها عـلى متابعـة القصـة عـبر تمثيلهـا بقـدر ما اسـتطعت، خصصـت صوتًـا للبطلـة، وآخـر للعمـة، وثالـث لابـن العمـة، وصاحبـت الحـكى بحـركات وتعبـيرات توضـح مشـاعر الشـخصيات، لم ترفـع "إيميلايـن" عينيهـا عنـى، وسرّنى تأثـيرى.

لمحـت بطـرف عينـى حركـة، أدارت "آديلايـن" رأسـها باتجاهـى، ظـل رأسـها مسـتقرًا عـلى ذراعهـا، وبـدت عيناهـا مغلقتـين، ومـع ذلـك كان لـدى انطبـاع قـوى بأنهـا تسـتمع إلى، حتـى لـو كان تغيـير وضعيتهـا بـلا معنـى (وهـذا غـير صحيـح، لقـد كانـت دائمًـا تديـر لى ظهرهـا)، هنـاك تغـير فى وضعيتهـا، فهـى عـادة تنهـار عـلى طاولتهـا حـين تنـام، فى حالـة مـن فقـدان الوعـى عـلى نحـو همجـى، اليـوم بـدا جسـدها كلـه منتبهًـا: وضعيـة الكتفـين بهـا درجـة مـا مـن الجمـود، كأنهـا مجذوبـة إلى القصـة، ولكـن مـع تصديـر انطبـاع بأنهـا فى سـبات خامـل.

لم أرد أن تنتبـه إلى ملاحظتـى لأىّ شىء، ظللـت أتـصرف كأننـى أقـرأ لـ"إيميلايـن" فقـط، ظللـت أمثـل بوجهـى وصـوتى، لكـن طـوال الوقت كنت أبقـى عينـى عـلى "آديلايـن"، وهـى لم تكـن تسـتمع فقـط، فقـد لمحـت رجفـة فى جفنيهـا، ظننـت أن عينيهـا مغلقتـان، لكـن لا عـلى الإطـلاق، إنهـا تراقبنـى مـن بـين رموشـها!

إنه تطور مثير للاهتمام للغاية، وأتوقع أنه سيكون محور مشروعى هنا.

***

ثـم حـدث آخـر مـا كنـت أتوقعـه، تغير وجـه الطبيـب، نعـم، تغـير، أمـام عينـى مبـاشرة، كانـت واحـدة مـن اللحظـات التـى يتخـذ فيهـا وجهـه بُعـدًا جديـدًا، تظـل ملامحـه مألوفـة مثلـما كانـت مـن قبـل، لكـن يحـدث لهـا تحـول مذهـل وتقـدم نفسـها مـن منظـور جديـد غـير متوقـع، أود أن أعـرف الجـزء المسـئول داخـل العقـل البـشرى عـن تحـول وجـوه مـن نعرفهـم وتراقصهـا هكـذا، لقـد اسـتبعدتُ الخـداع البـصرى والظواهـر المرتبطـة بالضـوء ومـا إلى ذلـك، وتوصلت إلى اسـتنتاج أن التفسـير له جذور فى نفسـية الناظـر، عـلى أىّ حـال، الحركـة المفاجئـة وإعـادة ترتيـب ملامـح وجهـه جعلتنـى أحملـق إليـه لبضـع لحظـات، وهـو مـا بـدا غريبًـا جـدًا لـه بـلا شـك، ورأيـت شـيئًا غريبًـا فى تعبـير وجهـه حـين توقفـت ملامحـه عـن الحركـة، شـيئًا لم أسـتطع، ولا أسـتطيع سـبر غـوره، ولا يعجبنـى مـا لا أسـتطيع سـبر غـوره.

تبادلنا الحملقة لبضع ثوان، كل ثانية محرجة كالأخرى، ثم غادر فجأة.

***

أتمنـى ألا تنقـل السـيدة "دان" كتبـى، كـم مـرة يجـب أن أقـول لهـا إن الكتـاب لا ينتهـى إلا حـين أنهيـه؟ وإن كان واجبًـا أن تنقلـه، لِمَ لا تعيـده إلى المكتبـة مـن حيـث جـاء؟ مـا الهـدف مـن تركـه عـلى السـلم؟

***

أجريت محادثة غريبة مع "جون" البستانى.

إنــه عامــل جيــد، وأصبــح الآن أكــثر ابتهاجًــا لأن حديقتــه التوبياريــة تتعـافى، ووجـوده مفيـد عمومًـا فى المنـزل، إنـه يـشرب الشـاى ويـدردش فى المطبـخ مـع السـيدة "دان"، أحيانًـا أجدهـما يتحدثـان بصـوت خفيـض، مـا يجعلنـى أعتقـد أنهـا ليسـت صـماء مثلـما تدعـى، كنـت لأتخيـل أن ثمـة علاقـة حـب بينهـما لـولا سـنها الكبـيرة، لكـن بمـا أن هـذا مسـتبعد فإننـى

فى حيرة بشأن سرهما، واجهت السيدة "دان" بالأمر، ولم يكن هذا من دواعى سرورى، لأنها وأنا لدينا تفاهم ودى بشأن غالب الأمور، وأظن أنها تؤيد وجودى هنا -لا أقصد أن عدم تأييدها كان ليشكل فارقًا- وقد أخبرتنى أنهما لا يتحدثان إلا عن شئون المنزل، الدجاجات التى ستُقتل، والبطاطس التى ستُقلع من الأرض، وما إلى ذلك، أصررت: "ولم الحديث بصوت خفيض هكذا؟" وأخبرتنى أنه ليس خفيضًا مطلقًا، أو على الأقل ليس هكذا بالضبط، قلت: "لكنك لا تسمعيننى حين أتحدث بصوت خفيض"، وردت بأن الأصوات الجديدة أصعب من التى اعتادتها، وإن كانت تفهم "جون" حين يتحدث بصوت خفيض فهذا لأنها عرفت صوته لسنوات، وصوتى لم تعرفه إلا منذ شهرين.

كنت قد نسيت تمامًا أمر الأصوات الخفيضة فى المطبخ، حتى ذلك الموقف الغريب مع "جون"، فى الصباح قبل بضعة أيام كنت أتمشى فى الحديقة قبل الغداء مباشرة حين رأيت الطفل الذى كان يقتلع النباتات الضارة من حوض الأزهار تحت نافذة غرفة الدراسة، تطلعت إلى ساعتى، ومجددًا، كان وقت الدراسة، لم يرنى الطفل، لأننى كنت مختفية وراء الأشجار، راقبته لدقيقة أو اثنتين، لم يكن يعمل مطلقًا، بل يسترخى على العشب، منهمك بشىء على العشب، تحت أنفه مباشرة، كان معتمرًا القبعة نفسها، تقدمت نحوه بنية أن أعرف اسمه وأعطيه محاضرة عن أهمية التعليم، لكن بمجرد أن رآنى هب واقفًا، وشد قبعته بإحكام على رأسه بيد واحدة، وركض بعيدًا بسرعة لم أرها من قبل، ذعره دليل كاف على ذنبه، الفتى يدرك تمامًا أنه يجب أن يكون بالمدرسة، بدا أنه يمسك كتابًا بيده وهو يجرى مبتعدًا.

ذهبت إلى "جون"، وحكيت له ما حدث للتو، قلت له إننى لن أسمح بعمل الأطفال لحسابه خلال ساعات الدراسة، وإن من الخطأ الإخلال بتعليمهم من أجل البنسات القليلة التى يتقاضونها، وإن لم يتقبل والداه ذلك فإننى سأذهب لمقابلتهما بنفسى، قلت له

إن كان ضروريًا للغاية أن يساعده أحد فى أعمال البستنة فإنه يجب أن يتحدث مع السيد "آنجلفيلد" ويعين رجلاً، كنت قد اقترحت هذا من قبل، أن نجلب المزيد من العمالة، للحديقة وللمنزل، لكن "جون" والسيدة "دان" عارضا الفكرة جدًا ففكرت فى أن من الأفضل أن أنتظر قليلاً حتى أتعرف أكثر على كيفية سير الأمور هنا.

رد "جون" بأن هز رأسه وأنكر معرفته بالطفل، وحين أكدت فكرة أننى رأيته بأم عينى، قال إنه لا بد أن يكون أحد أطفال القرية جاء إلى هنا ليتجول، وإن هذا يحدث أحيانًا، وإنه غير مسئول عن المتغيبين عن مدارسهم فى القرية الذين يأتون إلى الحديقة، قلت له حينئذ إننى رأيت الطفل من قبل، يوم وصلت، وبدا واضحًا أنه يعمل، كان "جون" صامتًا، فقط يكرر أنه ليس على علم بشأن الطفل، وأن أيًا من يريد يمكنه أن يقتلع النباتات الضارة من حديقته، وأن لا وجود لمثل هذا الطفل.

قلت لـ"جون" ببعض الغضب إننى لن أتراجع، وإننى أنوى الحديث إلى مديرة المدرسة بشأن الطفل، وإننى سأذهب إلى والديه وأحل الأمر معهما مباشرة، لوح بيده ببساطة، كأنه يقول إن لا علاقة له بالأمر وأن أفعل ما يحلو لى (وهو ما سأفعله حقًا)، أنا واثقة من أنه يعرف الفتى، وأنا مصدومة من رفضه لمساعدتى فى واجبى تجاهه، بدا غريبًا على شخصيته أن يعرقل جهودى، لكن حينئذ افترضت أنه بدأ تدريبه المهنى حين كان طفلاً واعتقد أن الأمر لم يضره مطلقًا، مثل تلك السلوكيات بطيئة الزوال فى المناطق الريفية.

======================

كنت منهمكة فى المذكرات، وأجبرتنى المعوقات على القراءة ببطء لأحل الألغاز ولأستخدم كل خبرتى ومعرفتى وخيالى فى إكمال أشباح الكلمات، لكن يبدو أن المعوقات لا توقفنى، على العكس، بدا أن

الهوامش المتلاشية، وغياب الوضوح، والكلمات الباهتة تنبض بالمعنى، إنها حية بوضوح.

بينما أنا أقرأ بهذا الأسلوب المستغرق، كان قرار يتشكل فى جزء آخر تمامًا من عقلى، فحين دخل القطار المحطة التبادلية، وجدت القرار محسومًا فى عقلى، لن أذهب إلى البيت فى النهاية، سأذهب إلى "آنجلفيلد".

القطار المحلى إلى بانبرى مزدحم للغاية بمسافرى عيد الميلاد للدرجة التى تمنع جلوسى، وأنا لا أقرأ أبدًا وقوفًا، ومع كل هزة للقطار، وكل تدافع وتعثر للمسافرين معى، شعرت بالشكل المستطيل لمذكرات "هيستر" على صدرى، لقد قرأت نصفها فقط، ويمكن للبقية أن تنتظر.

سألت نفسى: ماذا حدث لك يا "هيستر"؟ إلى أين ذهبت؟

هدم الماضى.

رأيـت عـبر النافـذة أن مطبخـه خـالٍ، ولم أجـد ردًّا حـين عـدت إلى مقـدم البيـت وطرقـت البـاب.

ربمـا سـافر؟ يسـافر النـاس فى هـذه الفـترة مـن العـام، لكنهـم بالطبـع يذهبـون إلى عائلاتهـم، لـذا فـ"أوريليـوس"، الـذى بـلا عائلـة، سـيبقى هنـا، ورد سـبب غيـاب "أوريليـوس" إلى بـالى متأخـرًا: إنـه بالخـارج يوصـل الكعـكات إلى حفـلات عيـد الميـلاد، وأيـن غـير ذلـك قـد يكـون متعهـد أغذيـة قبـل عيـد الميـلاد مبـاشرة؟ يجـب أن أعـود لاحقًـا، وضعـت البطاقـة التـى اشـتريتها فى صنـدوق البريـد وانطلقـت عـبر الغابـة إلى منـزل آنجلفيلـد.

الجـو بـارد، بـارد كفايـة لدرجـة هبـوط الثلـوج، والأرض جليديـة تحـت قدمـى، والسـماء فوقـى بيضـاء عـلى نحـو مخيـف، تقدمـت بحـذر، ورفعـت شـالى بعلـو أنفـى فتدفـأت سريعًـا.

توقفت فى الأرض مقطوعة الأشجار، ورأيت نشاطًا غير عادى على مبعدة، عند المنزل، عبست، تُرى ماذا يحدث؟ كاميرتى معلقة برقبتى تحت معطفى، وتسلل البرد إلى الداخل بمجرد أن فككت أزرار المعطف، راقبت ما يحدث باستخدام عدستى طويلة المدى، رأيت سيارة شرطة فى مدخل العربات، وعربات البنائين وآلاتهم ساكنة، وهم أنفسهم محتشدون فى كتلة غير منتظمة، لا بد أنهم أوقفوا العمل قبل وهلة، لأنهم يضربون يدًا بيد وينبشون الأرض بأرجلهم للتدفئة، خوذاتهم إما على الأرض وإما متدلية بأربطتها عند أكواعهم، قدّم أحدهم علبة سجائر، وبين الحين والآخر يوجه أحدهم تعليقًا للآخرين، لكن تلك المحاولات لم تُبدأ أىّ محادثات، حاولت أن أفهم تعبيرات وجوههم غير المبتسمة، أهو ملل؟ قلق؟ فضول؟ وقفوا مولين ظهورهم للموقع، يواجهون الغابة وعدستى، لكن بين الحين والآخر يلقى أحدهم نظرة وراء كتفه على المشهد وراءهم.

انتصبت خيمة بيضاء لتغطى جزءً من الموقع وراء مجموعة الرجال، لقد اختفى المنزل، لكننى خمنت أن الخيمة منصوبة مكان المكتبة بناء على مكان استراحة العربات وطريق الحصى والكنيسة، وإلى جانب الخيمة يقف أحد زملائهم ورجل استنتجت أنه مديرهم، وكانا فى خضم محادثة مع رجلين آخرين، يرتدى أحد هذين الرجلين بذلة وعليها معطف، والآخر يرتدى زى الشرطة، كان المدير هو من يتحدث، بسرعة وبإيماءات وهزات رأس تدل على الشرح، لكن حين طرح الرجل ذو المعطف سؤالاً، كان البنّاء هو من أجابه، وحين أجابه، تطلع إليه الرجال الثلاثة باهتمام.

بدا غير متأثر بالبرد، وتكلم بجمل قصيرة، ولم يتكلم الآخرون بسبب وقفاته الطويلة والمتكررة، لكنهم تطلعوا إليه بصبر واهتمام، وفى لحظة ما، رفع إصبعًا باتجاه آلة وقلد أسنانها المدببة وهى تعض

الأرض، وفى النهاية، هز كتفيه وعبس وجهه، ومسح بيديه على عينيه كأنه يطهرها من الصورة التى استحضرها للتو.

انفتح باب فى جانب الخيمة البيضاء، وخرج منه رجل خامس وانضم إلى المجموعة، حدث تشاور سريع غير مبتسم وفى نهايته ذهب المدير إلى مجموعة الرجال خاصته وتحدث إليهم بضع كلمات، أومؤوا، وكأن ما قيل لهم هو ما كانوا يتوقعونه بالكامل، وبدؤوا جمع الخوذات والقوارير الحرارية عند أقدامهم واتخذوا طريقهم إلى سياراتهم المتوقفة قرب بوابات المنازل، تمركز الشرطى بزى الشرطة عند مدخل الخيمة، وأرشد الآخر البناء ومديره إلى سيارة الشرطة.

خفضت الكاميرا ببطء، لكننى تابعت الحملقة إلى الخيمة البيضاء، وميزت تلك البقعة، فقد ذهبت إليها بنفسى، وتذكرت الخراب الذى فى تلك المكتبة المدنسة، تذكرت رفوف الكتب المنهارة، والعوارض التى هبطتمحطمة الأرضية، وتذكرت تلذذى بالخوف وأنا أتعثر بالأخشاب المكسورة والمحترقة.

توجد جثة بتلك الغرفة، مدفونة فى الصفحات المحترقة، وتتخذ خزانة الكتب نعشًا لها، إنه قبر مخفى ومحمى لنصف قرن بالعارضات التى سقطت.

لم أستطع مقاومة ذلك الإحساس، لقد كنت أبحث عن شخص، ويبدو أن أحدًا قد عُثر عليه، ذلك التزامن لا يُقاوم، كيف لا أربط بين الحدثين؟ لكن "هيستر" غادرت قبل الحريق بعام، أليس كذلك؟ لمَ قد تعود؟ ثم صدمتنى الفكرة، وبساطتها هى ما جعلتنى أفكر فى أنها قد تكون صحيحة.

ماذا لو أن "هيستر" لم تغادر بالأساس؟

حين بلغت حافة الغابة رأيت الطفلين الأشقرين قادمين عند الطريق الداخلى والبؤس بادٍ عليهما، تمايلا وترنحا وهما يمشيان،

وتوجـد قنـوات سـوداء متعرجـة مـن آثـار حفـر آلات البنائـين الثقيلـة فى الأرض تحـت أقدامهـما، ولم يكونـا ينظـران إلى حيـث يخطـوان، بـل تطلعـا وراء كتفيهـما باتجـاه مجيئهـما.

الفتـاة هـى مـن التفتـت ورأتنـى أولاً، حـين فقـدت توازنهـا وكادت تسـقط، فتوقفـت، وحـين رآنى أخوهـا اعتـد بنفسـه بسـبب مـا يعرفـه وتكلـم.

"لا يمكنـك الذهـاب إلى هنـاك، هكـذا قـال الشرطـى، يجـب أن تظلـى بعيـدة".

"أفهم ذلك".

أضافت الفتاة بخجل: "لقد نصبوا خيمة".

قلت لها: "رأيت ذلك".

ظهـرت أمهـما تحـت قنطـرة بوابـة المنـازل الصغـيرة وكانـت منقطعـة الأنفـاس قليـلاً: "أنتـما الاثنـان بخـير؟ رأيـت سـيارة الشرطـة فى شـارع (ذا سـتريت)"، ثـم التفتـت إلى: "مـاذا يحـدث؟"

أجابتهـا الفتـاة: "لقـد نصبـت الشرطـة خيمـة ولـن يُسـمح لـك بالاقـتراب، قالـوا إننـا يجـب أن نعـود إلى المنـزل".

تطلعـت المـرأة الشـقراء إلى الموقـع وعبسـت باتجـاه الخيمـة البيضـاء: "أليـس هـذا مـا يفعلونـه حـين...؟" لم تكمـل سـؤالها أمـام الطفلـين، لكننـى عرفـت مقصدهـا.

قلـت: "أعتقـد أن هـذا مـا حـدث"، رأيـت رغبتهـا فى جـذب طفليهـا نحوهـا لطمأنتهـما، لكنهـا اكتفـت بتعديـل شـال الولـد وتمسـيد شـعر ابنتهـا لتبعـده عـن عينيهـا.

قالـت للطفلـين: "هيـا، الطقـس بـارد ولا يجـب أن نظـل بالخـارج عـلى أىّ حـال، لنعـد إلى المنـزل ونحتـسِ الـكاكاو".

اندفـع الطفـلان عـبر بوابـة المنـازل وتسـابقا فى شـارع "ذا سـتريت"، ربطهـما معًـا خيـط خفـى، وسـمح لكليهـما بالتأرجـح حـول الآخـى أو الاندفـاع فى أىّ اتجـاه، وكل منهـما مـدرك أن الآخـر سـيظل قريبًـا، عـلى بُعـد الخيـط.

راقبتهما وشعرت بفراغ فظيع إلى جانبى.

تباطـأت أمهـما إلى جانبـى: "سـيفيدك أنـت أيضًـا بعـض الـكاكاو، أليـس كذلـك؟ تبدين شـاحبة كالشـبح".

تسـايرنا وراء الطفلـين وقلـت لهـا: "اسـمى (مارجريـت)، أنـا صديقـة (أوريليـوس لـوف)".

ابتسمت: "أنا (كارين)، أعتنى بالغزلان هنا".

"أعرف، أخبرنى (أوريليوس)".

ضحكـت الفتـاة عـلى أخيهـا أمامنـا، فركـض فجـأة إلى نهـر الطريـق ليهـرب منهـا.

صاحت رفيقتى: "(توماس أمبروز بروكتور)! عد إلى الرصيف!"

وقع هذا الاسم علىّ كالصاعقة: "ما اسم ابنك مجددًا؟"

التفتت إلىّ الأم، بفضول.

"الأمر فقط.. أن رجلاً عمل هنا منذ سنوات اسمه (بروكتور)".

"إنه والدى (أمبروز بروكتور)".

توقفـت حتـى أفكـر بوضـوح: "(أمـبروز بروكتـور).. الفتـى الـذى عمـل مـع (جـون ذا ديـج).. والـدك؟"

"(جـون ذا ديـج)؟ أتقصديـن (جـون ديجنـس)؟ نعـم، هـو مـن أمـن لوالـدى العمـل هنـاك، لكـن ذلـك كان قبـل مولـدى بفـترة طويلـة، كان والـدى فى خمسـيناته حـين وُلـدت".

بدأت ببطء أتابع السير: "سأقبل بعرض الكاكاو، إذا لم تمانعى، ولدى شىء أريه لك".

أخذت علامتى من دفتر مذكرات "هيستر"، وابتسمت "كارين" لحظة رأت الصورة، وجه ابنها الجاد، يملؤه الفخر، تحت حافة الخوذة، وكتفاه جامدتان، وظهره مستقيم: "أذكر يوم عاد إلى المنزل وقال إنه سيرتدى خوذة صفراء، سيسر جدًّا إن أخذ الصورة".

"هل رأت ربة عملك، السيدة (مارش)، (توم) من قبل؟"

"رأت (توم)؟ بالتأكيد لا! يوجد اثنتان كما تعرفين، السيدتان (مارش)، إحداهما كانت دومًا متأخرة ذهنيًا قليلاً، أعرف ذلك، لذا فالأخرى هى من تدير الأملاك، مع أنها منعزلة بعض الشىء، لم تعد إلى آنجلفيلد منذ الحريق، حتى أنا لم أرها قط، محاموها هم وسيلتنا الوحيدة للاتصال بها".

وقفت "كارين" أمام الموقد منتظرة أن يسخن الحليب، ووراءها، أظهرت النافذة الصغيرة الحديقة وما يليها، إنها الحقول حيث جرّت "آديلاين" و"إيميلاين" فى الماضى عربة "ميرلى" والرضيع بداخلها، ربما تغيرت قليلاً بضع تفصيلات منذ حينها.

احتجت إلى توخى الحذر لئلا أحكى أكثر من اللازم، لم تبد "كارين" أىّ إشارة إلى أنها تعرف أن السيدة "مارش" خاصتها، سيدة "آنجلفيلد"، هى نفسها السيدة "وينتر" التى رأيت كتبها فى الخزانة بالردهة وأنا أدلف.

أوضحت: "الأمر فقط أننى أعمل لحساب عائلة (آنجلفيلد)، أكتب عن طفولتهم هنا، وحين كنت أُرى ربة عملك بعض الصور للمنزل، وصلنى انطباع بأنها تعرفه".

"لا يمكن، إلا إذا..."

أخـذت الصـورة ونظـرت إليهـا مجـددًا، ثـم دعـت ابنهـا مـن الغرفـة المجـاورة: "(تـوم)؟ (تـوم)، هـلا أحـضرت تلـك الصـورة مـن رف المدفـأة، ذات الإطـار الفـضى".

جاء "توم" حاملاً الصورة تتبعه أخته.

قالت له: "انظر، الآنسة لديها صورة لك".

تسـللت ابتسـامة مفاجئـة سـارة إلى وجهـه حـين رأى نفسـه: "أيمكننـى الاحتفـاظ بهـا؟"

قلت: "نعم".

"اجلب لـ(مارجريت) صورة لجدك".

جاء إلى جانبى من المائدة وقدم الصورة المؤطرة إلىّ بخجل.

صـورة قديمـة لرجـل صغير السـن جـدًّا، بالـكاد بلـغ شـبابه، سـنه ربمـا ثمانيـة عـشر عامًـا أو أصغـر، كان يقـف قـرب دكـة ووراءه أشـجار صنوبـر مقصوصـة، عرفـت المـكان فى الحـال، إنهـا الحديقـة التوبياريـة، خلـع الفتى قبعتـه وحملهـا بيـده، وتخيلـت حركتـه بعـين عقـلى، يزيـح قبعتـه بيـد ويمسـح بالأخـرى جبهتـه، رأسـه مائـل إلى الخلـف قليـلاً، يحـاول ألا يغمـض عينيـه تحـت الشـمس، وينجـح فى هـذا بدرجـة كبـيرة، كـماه مرفوعـان إلى أعـلى كوعيـه، والـزر الأعـلى مـن قميصـه مفتـوح، لكـن ثنايـا بنطالـه مكويـة بأناقـة، وقـد نظـف حـذاء البسـتنة خاصتـه مـن أجـل الصـورة.

"أكان يعمل هناك حين حدث الحريق؟"

وضعـت "كاريـن" أكـواب الـكاكاو عـلى الطاولـة وجـاء الطفـلان وجلسـا ليشربـاه: "أعتقـد أنـه التحـق بالجيـش بحلـول ذلـك الوقـت، لقـد غـاب عـن (آنجلفيلـد) لفـترة طويلـة، قرابـة خمسـة عـشر عامًـا".

نظـرت بتمعـن إلى الصـورة وقـد بـدا عليهـا القـدم، نظـرت إلى وجـه الفتـى، وأذهلنـى التشـابه بينـه وحفيـده، بـدا لطيفًـا.

"لم يتحدث كثيراً عن شبابه، كان رجلاً متحفظًا، لكن هناك أمورًا أتمنى لو كنت عرفتها، مثل سبب زواجه متأخرًا جدًا، كان فى منتصف أربعيناته حين تزوج بأمى، لا أستطيع مقاومة فكرة أن شيئًا ما حدث بماضيه، ربما انفطر قلبه؟ لكنك لا تفكرين بطرح مثل هذه الأسئلة وأنت طفلة، وحين كبرت..." وهزت كتفيها، بحزن، "كان والدًا لطيفًا، صبورًا، طيبًا، كان دائمًا ما يساعدنى بأية وسيلة، ولكن الآن وأنا بالغة، أحيانًا يراودنى شعور بأننى لم أعرفه حق المعرفة قط".

لفتت تفصيلة أخرى فى الصورة نظرى.

سألت: "ما هذا؟"

انحنت لتنظر: "إنها حقيبة لحمل الصيد، صيد الطيور تحديدًا، يمكن مدها على الأرض لوضع الصيد بداخلها، ثم تربطينها حوله، لا أعرف لمَ تظهر فى الصورة، فهو لم يكن حارس الصيد قط، أنا واثقة بذلك".

قلت: "اعتاد أن يجلب للفتاتين أرنب أو طائرًا حين أرادتا"، وسُرّت هى لحصولها على هذه النبذة عن شباب والدها.

فكرت فى "أوريليوس" وميراثه، فالحقيبة التى حُمل فيها كانت حقيبة صيد، وبالطبع كان بها ريش، فقد استُخدمت لحمل الطيور، وفكرت فى قصاصة الورق، تذكرت قول "أوريليوس": "رسم يشبه حرف (إيه) فى البداية"، وهو يرفع القصاصة الباهتة إلى النافذة، "ثم حرف (إس)، هنا، عند النهاية، بالتأكيد هى متلاشية قليلاً بتأثير السنين، يجب أن تمعنى النظر، لكنك تستطيعين رؤيتها، صحيح؟" لم أتمكن من رؤيته، لكن ربما تمكن هو، ماذا لو لم يكن ذلك اسمه على قصاصة الورق؟ بل اسم والده، (أمبروز).

طلبت سيارة أجرة من منزل "كارين" إلى مكتب المحامي في بانبرى، عرفت العنوان من تبادل الرسائل المتعلقة بـ"هيستر" معه، والآن تأخذني "هيستر" إليه مجددًا.

لم ترد موظفة الاستقبال أن تزعج السيد "لوماكس" حين عرفت أنني لم أتفق على موعد: "إنها عشية عيد الميلاد، تفهمين قصدي".

لكنني أصررت: "قولي له إنني (مارجريت ليا)، وجئت بشأن منزل (آنجلفيلد) والسيدة (مارش)".

بمظهر يوحي بأن هذا لن يمثل فارقًا، نقلت الرسالة إلى مكتبه، وحين خرجت أخبرتني، على مضض بعض الشيء، أن أدخل مباشرة.

السيد "لوماكس" الشاب ليس شابًا مطلقًا، إنه على الأرجح في سن السيد "لوماكس" الكبير تقريبًا حين ظهرت الفتاتان في مكتبه تريدان المال لجنازة "جون ذا ديج"، صافحني بلمعة فضولية في عينيه، وبنصف ابتسامة على شفتيه، وفهمت أننا بنظره متآمران، فلسنوات كان هو الوحيد الذي يعرف الهوية الأخرى لعميلته السيدة "مارش"، لقد ورث السر عن أبيه مع المكتب المصنوع من خشب الكرز وخزائن الملفات والصور على الجدار، والآن، بعد كل تلك الأعوام من السرية، جاءه شخص يعرف ما يعرفه.

"يسرني لقاؤكِ يا سيدة (ليا)، كيف يمكنني أن أساعدكِ؟"

"لقد جئت من (آنجلفيلد)، من موقع البناء، والشرطة هناك، لقد وجدوا جثة".

"أوه، أوه، يا إلهي!"

"أتظن أن الشرطة ستريد التحدث إلى السيدة (وينتر)؟"

حين ذكرت الاسم، ترددت عيناه إلى الباب بتروى، ليتأكد من أن لا أحد يسمعنا.

"سيريدون الحديث مع مالكة المنزل كإجراء روتينى".

"ظننت ذلك"، وتابعت سريعًا، "الأمر أنها، ليست مريضة فقط.. أفترض أنك تعرف ذلك".

أومأ.

"فأختها تحتضر".

أومأ، بجدية، ولم يقاطعنى.

"سيكون من الأفضل فى ضوء هشاشتها وحالة أختها الصحية ألا تسمع بشأن الاكتشاف على نحو مفاجئ، يجب ألا تسمع الخبر من شخص غريب، ويجب ألا تكون وحيدة حين تعرف الخبر".

"ماذا تقترحين؟"

"بإمكانى العودة إلى يوركشاير اليوم، لو استطعت الوصول إلى المحطة خلال الساعة التالية، أستطيع أن أكون هناك هذا المساء، ستضطر الشرطة إلى التواصل معك للوصول إليها، أليس كذلك؟"

"نعم، لكن يمكننى تأخير الأمر لبضع ساعات، إنه وقت كافٍ لتصلى إلى هناك، يمكننى أيضًا أن أقلك إلى المحطة إن شئت".

فى هذه اللحظة رن الهاتف، تبادلنا نظرة قلقة وهو يرفع السماعة.

"عظام؟ حسنًا.. إنها مالكة العقار، نعم.. إنها مسنة وصحتها ليست على ما يرام.. أختها، مريضة على نحو خطير.. هناك احتمالية ما لشكل وشيك.. قد يكون من الأفضل.. فى ضوء الظروف.. أعرف أحدًا سيذهب إلى هناك شخصيًا هذا المساء.. جديرة بالثقة تمامًا.. جدًّا.. بالفعل.. بكل معانى الكلمة".

كتب ملاحظة على ورقة، ودفعها إلى عبر المكتب، عليها اسم ورقم هاتف.

"يريدك أن تهاتفيه حين تصلين إلى هناك لتخبريه كيف آلت أمور السيدة، وسيتحدث معها إن كانت قادرة، ويمكنه الانتظار إن لم تكن قادرة، فالبقايا على ما يبدو ليست حديثة، والآن، متى موعد قطارك؟ يجب أن ننطلق".

رآني السيد "لوماكس" الكهل قليلاً غارقة في التفكير فقاد السيارة في صمت، ومع ذلك فقد بدا أن حماسًا هادئًا يتغذى عليه، وفي النهاية حين انحرف إلى طريق المحطة لم يعد قادرًا على احتواء نفسه، قال: "الحكاية الثالثة عشرة.. لا أفترض أنك...؟"

قلت له: "أتمنى لو كنت أعرفها، آسفة".

كست خيبة الأمل وجهه.

حين لوحت المحطة في الأفق، طرحت سؤالي: "أيتصادف أنك تعرف (أوريليوس لاف)؟"

"متعهد الطعام! نعم، أعرفه، إنه عبقري في المطبخ!"

"منذ متى عرفته؟"

أجاب بلا تفكير -"في الواقع، ارتدنا المدرسة نفسها"- وفي منتصف جملته شابت صوته رجفة غريبة، كأنه استوعب عواقب سؤالي، فلم يفاجئه سؤالي التالي.

"متى عرفت أن السيدة (مارش) هي السيدة (وينتر)؟ أكان ذلك حين توليت أعمال والدك؟"

ازدرد وقال: "لا"، ورمش، "قبل ذلك، كنت لا أزال في المدرسة، جاءت إلى المنزل في يوم ما لتقابل والدي، فالمنزل أكثر خصوصية من المكتب، وكان لديهما بعض الأعمال ليتفقا بشأنها، ومن دون الخوض في تفاصيل سرية، أصبح واضحًا خلال المحادثة أن السيدة (مارش) والسيدة (وينتر) هما الشخص نفسه، لم أكن أتنصت، بل حدث ذلك بغير

قصـد، كنـت تحـت مائـدة الطعـام حـين دخـلا -وقـد كسـا المفـرشُ المائـدةَ وجعلهـا شـبيهة بالخيمـة- ولم أرد أن أحـرج والـدى بالظهـور فجـأة، لـذا ظللـت هادئـًا".

تُـرى مـاذا قالـت لـه السـيدة "وينـتر"؟ فـلا توجـد أسرار فى بيـت بـه أطفـال.

توقفنـا أمـام المحطـة، والتفـت السـيد "لوماكـس" الصغـير بعينيـه المذهولتـين إلى: "لقـد قلـت لـ(أوريليـوس) يـوم أخـبرنى أنـه عُـثر عليـه فى ليلـة الحريـق، قلـت لـه إن السـيدة (آديلايـن آنجلفيلـد) والسـيدة (فيـدا وينـتر) هـما الشـخص نفسـه، أنـا آسـف".

"لا تقلق بشأن هذا، لا يهم الآن على أيّحال، كنت أتساءل فقط".

"أتعلم هى أننى كشفت لـ(أوريليوس) هويتها؟"

فكـرت بشـأن الرسـالة التـى أرسـلتها إلى السـيدة "وينـتر" فى البدايـة، وبشـأن "أوريليـوس" وبذلتـه البنيـة وهـو عـن قصـة أصولـه: "لـو خمنـت هـى الأمـر، فقـد كان ذلـك منـذ عقـود، وإن كانـت تعـرف، أظـن أن مـن الممكـن افـتراض أنهـا لا تهتـم".

زال الظل عن جبهته.

"شكرًا على التوصيلة".

وركضت نحو القطار.



مذكرات "هيستر"
(الجزء الثانى).

مـن المحطـة أجريـت اتصـالاً بمتجـر الكتـب، لم يسـتطع والـدى أن يخفـى خيبـة أملـه حـين أخبرتـه أننـى لـن آتى إلى البيـت: "والدتـك ستأسـف لذلـك".

"حقًّا؟"

"بالطبع".

"يجب أن أعود، أظن أننى وجدت (هيستر)".

"أين؟"

"لقد وجدوا عظامًا فى (آنجلفيلد)".

"عظامًا؟"

"أحد البنّائين اكتشفها وهو يحفر فى موقع المكتبة اليوم".

"رحمتك يا إلهى".

"يجب أن يتواصلوا مع السيدة (وينتر) ليسألوها عن الأمر، وأختها تحتضر، لا يمكنني تركها وحدها هناك، إنها بحاجة إلى".

بدا صوته جادًا: "فهمت".

حذرته: "السيدة وينتر وأختها توأمان، لكن لا تخبر والدتى".

صمت، ثم اكتفى بقول: "ستنتبهين لحالك، أليس كذلك يا (مارجريت)؟"

بعد ربع ساعة كنت قد استقررت فى مقعدى المجاور للنافذة وأخرجت مذكرات "هيستر" من جيبى.

***

يجب أن أهتم بفهم المزيد عن البصريات، فقد كنت جالسة مع السيدة "دان" فى المرسم لمراجعة خطة وجبات الطعام للأسبوع، حين لمحت حركة مفاجئة فى المرآة، صحت بانزعاج: "(إيميلاين)!" لأنها لم يكن من المفترض أن تكون موجودة فى المنزل من الأساس، بل فى الخارج، تمارس تمرينها اليومى وتستنشق الهواء المنعش، لكنه خطئى بالتأكيد، فما كان علىّ إلا أن أنظر عبر النافذة ولو لمرة لأرى إذا ما كانت بالخارج، هى وأختها، وتلعبان بلطف أم لا، ولا بد أن ما رأيته -أو لمحته بشكل مضلِل، لأكون دقيقة- كان وميض ضوء شمس جاء من النافذة وانعكس على المرآة.

عند التبصر بشأن الانعكاس (التبصر بشأن الانعكاس! إنها تورية غير مقصودة!)، نجد أن سيكولوجيا الرؤية هى ما سببت سوء فهمى، أو شىء ما له الغرابة نفسها فى عالم البصريات، فعند الاعتياد على رؤية الفتاتين تتجولان فى المنزل بأماكن لا يُتوقع وجودهما فيها، وحين يُتوقع أن تكونا فى مكان آخر، يعتاد المرء على تفسير كل حركة عند طرف عينه على أنها دليل على وجودهما، وبالتالى فإن انعكاس

وميض أشعة الشمس على المرآة يقدم نفسه بشكل مقنع جدًّا كأنه فتاة ترتدى فستانًا أبيض، وللوقاية من أخطاء كهذه، يجب أن يعلم المرء نفسه أن يرى كل شىء بلا تصورات مسبقة، حتى يهجر كل أنماط التفكير المبنية على إعادة، يمكن أن يُساق الكثير من القول دعمًا لهذا الأسلوب من حيث المبدأ، مثل حيوية العقل! والتفاعل مع العالم على نحو عذرى! فالكثير من الاكتشافات العلمية تقوم على التطلع من منظور جديد إلى ما رآه الناس وظنوا أنهم فهموه لقرون، ومع ذلك، لا يستطيع المرء عيش حياته العادية بمثل هذه المبادئ، تخيل الوقت الذى سنحتاج إليه إن اضطررنا إلى إعادة التدقيق فى كل جوانب الحياة فى كل دقيقة يوميًا، لا، حتى نحرر أنفسنا مما هو دنيوى، من الضرورى أن نعهد بالكثير من تفسيرنا للعالم إلى ذلك الجزء السفلى من المخ الذى يتعامل مع المحتمل والمفترض والمرجح، مع أن فى بعض الأحيان يقودنا ذلك إلى الضلال ويتسبب فى رؤيتنا لوميض شعاع الشمس على أنه فتاة ترتدى فستانًا أبيض، فى حين أن كلتيهما أبعد ما تكون عن الأخرى.

يتجول عقل السيدة "دان" أحيانًا، أخشى أنها استوعبت القليل جدًّا من محادثتنا عن خطط الوجبات، وأننا سنضطر إلى مراجعتها بالكامل مجددًا غدًا.

***

لدى خطة صغيرة بشأن نشاطاتى هنا والطبيب.

لقد أخبرته مطولاً عن اعتقادى أن "آديلاين" تظهر اضطرابًا عقليًّا لم أره ولم أقرأ عنه من قبل، ذكرت الأوراق البحثية التى كنت أقرؤها عن التوائم ومشكلات النمو المرتبطة بهم، ورأيت وجهه يستحسن قراءاتى، أظن أن لديه فهم أوضح الآن لقدراتى وموهبتى، لم يكن يعرف أحد الكتب التى تحدثت عنها وقدمت له ملخصًا للحجج

والبراهين الواردة فيه، وتابعت بأن أشرت إلى أوجه التضارب الهامة والقليلة التى لاحظتها فيه، وأن أوضح كيف، لو كان كتابى، كنت لأعدل استنتاجاتى وتوصياتى.

ابتسم إلىّ الطبيب فى نهاية حديثى، وقال، بلطف: "ربما يجب أن تكتبى كتابًا خاصًا بك". وهذا تحديدًا هو ما أتاح لى الفرصة التى كنت أسعى لها منذ فترة.

أوضحت له أن دراسة الحالة المثالية لمثل هذا الكتاب موجودة، هنا فى منزل "آنجلفيلد"، وأننى يمكننى تكريس بضع ساعات يوميًا للعمل على كتابة ملاحظاتى، صغت عددًا من المحاولات والتجارب التى يمكن تنفيذها لاختبار نظريتى، وتعرضت باختصار للأهمية التى سيحظى بها الكتاب النهائى فى عيون المؤسسة الطبية، ثم أعربت عن أسفى لحقيقة أن خبراتى ومؤهلاتى الرسمية كلها ليست فخمة كفاية لإغراء ناشر، وفى النهاية اعترفت بأننى، بصفتى امرأة، لست واثقة من قدرتى على تنفيذ مثل هذا المشروع الطموح، لكن وجود رجل سيحقق أفضل نتائج، فقط لو وجدت رجلاً ذكيًا وواسع الحيلة، وحساسًا وعلميًا، ومطلعًا على تجربتى ودراسة الحالة خاصتى.

زرعت بذلك فى باله بذرة فكرة، وحققت المرجو منها تحديدًا: أن نعمل معًا.

***

أخشى أن السيدة "دان" ليست بخير، أقفل الأبواب وهى تفتحها، أفتح الستائر وهى تغلقها، وكتبى لا تزال تغادر أماكنها! إنها تحاول أن تتجنب المسئولية عن أفعالها عبر التأكيد أن المنزل مسكون.

يأتى حديثها عن الأشباح بالصدفة تمامًا فى اليوم الذى يختفى فيه الكتاب الذى قرأت نصفه، لتحل محله رواية قصيرة لـ"هينرى

جيمس"، لا أظن أن السيدة "دان" هي من أبدلتهما، فهي نفسها بالكاد تعرف القراءة، ولا تميل إلى نظم المقالب، من الواضح أنها إحدى الفتاتين، ما يجعل الأمر جديرًا بالملاحظة هو أن صدفة مذهلة جعلتها خدعة أذكى مما اعتقدتها، لأن الكتاب عبارة عن قصة سخيفة جدًّا عن معلمة منزلية وطفلين تلازمهما الأشباح، أخشى أن السيد "جيمس" قد فضح جهله، فهو يعرف القليل عن الأطفال ولا يعرف شيئًا عن المعلمات المنزليات.

***

قُضي الأمر، لقد بدأت التجربة.

كان الفصل بينهما مؤلمًا، ولو لم أعرف ما فيه من خير، لاعتبرت نفسى قاسية لأننى جلبته عليهما، تنجح شهقات "إيميلاين" فى فطر قلبى، تُرى كيف وقع الأمر على "آديلاين"؟ لأنها ستكون الأكثر تغيرًا بتجربة الحياة المستقلة، سأعرف غدًا فى اجتماعنا الأول.

***

ليس هناك وقت لأىّ شيء سوى الأبحاث، لكننى نجحت فى فعل شيء إضافى مفيد، أجريت محادثة مع معلمة المدرسة بالصدفة خارج مكتب البريد، أخبرتها أننى تحدثت إلى "جون" بشأن التلميذ الهارب، وأنها يجب أن تأتى إلىّ إن غاب الفتى مجددًا بلا سبب، تقول إنها معتادة على التدريس لنصف الفصل فقط فى أوقات الحصاد حين يذهب الأطفال لمساعدة والديهم فى الحقول، لكنه ليس وقت الحصاد، والطفل كان يقتلع الأعشاب الضارة من الحديقة، أو هكذا قلت لها، سألتنى أىّ طفل كان ذلك، وشعرت بالحماقة لأننى لم أستطع أن أخبرها، القبعة المميزة لا تساعد مطلقًا فى التعريف به، بما أن الأطفال

لا يرتدون قبعات فى الفصول، يمكننى سؤال "جون" بشأن ذلك، لكننى أشك بأن يعطينى معلومات أكثر من المرة السابقة.

***

لا أكتب يومياتى كثيرًا مؤخرًا، أجد أنى بعدما أنتهى بوقت متأخر من الليل من كتابة تقاريرى اليومية عن تقدم "إيميلاين"، أكون عادة متعبة للغاية إلى حد يمنعنى من متابعة تسجيل أنشطتى، وأريد أن أبقى سجلاً لتلك الأيام والأسابيع، لأننى أشارك الطبيب فى بحث مهم للغاية، وفى السنوات التالية حين أرحل بعيدًا وأغادر هذا المكان، ربما أود النظر إلى الوراء والتذكر، ربما جهودى مع الطبيب ستفتح لى بابًا للمزيد من العمل من هذا النوع، لأننى أجد العمل الفكرى والعلمى أكثر استحواذًا علىّ وأكثر إرضاءً لى من أىّ شىء فعلته مطلقًا، هذا الصباح مثلاً، أجريت والطبيب "مودسلى" المحادثة الأكثر إثارة بشأن موضوع استخدام "إيميلاين" للضمائر، إنها تظهر ميلاً أكبر من أىّ وقت سبق للتحدث إلى، وقدرتها على التواصل تتحسن يوميًا، لكن الجانب الوحيد من كلامها المقاوم للتطور هو استخدام ضمير المتكلمين، فتقول: "نحن ذهبنا إلى الغابة"، ودائمًا ما أصحح لها: "أنا ذهبت إلى الغابة"، ومثل ببغاء صغير ستكرر "أنا ذهبت"، لكن فى العبارة التالية مباشرة تقول: "نحن رأينا قطة صغيرة فى الحديقة"، أو شيئًا مثل هذا.

الطبيب وأنا مأسوران للغاية بهذه الخصلة الغريبة، إنها ببساطة عادة كلامية راسخة نقلتها من لغة التوأمين إلى الإنجليزية، هل ستصحح نفسها بمرور الوقت؟ أم أن التوأم راسخة فيها لدرجة أن حتى لغتها مقاومة لفكرة أن تكون لها هوية منفصلة عن أختها؟ أخبرت الطبيب بشأن الأصدقاء الخياليين الذين يبتكرهم الكثير من الأطفال المضطربين، واستكشفنا معًا آثار ذلك، ماذا لو أن اعتمادية الطفلة على توأمها كبيرة جدًا لدرجة أن الفصل يسبب صدمة عقلية

تجعل العقل التالف يبث السلوى عبر خلق أخت خيالية، أو رفيقة خيالية؟ لم نصل إلى استنتاج مُرضٍ، لكننا افترقنا برضا عن أننا حددنا مجالاً آخر للدراسة المستقبلية: علم اللغويات.

***

بين ما يحدث مع "إيميلاين"، والأبحاث، وأعمال المنزل العامة التى يجب القيام بها، أجد نفسى أنام قليلاً جدًّا، وعلى الرغم من احتياطى من الطاقة، الذى أحافظ عليه بالنظام الغذائى الصحى والتمرين، يمكننى تمييز أعراض الحرمان من النوم، أزعج نفسى بأن أضع أشياء فى أماكن وأنسى أين تركتها، وحين أعود إلى كتابى ليلاً، تخبرنى علامتى أننى فى الليلة الماضية طويت الصفحات بلا قراءة، لأننى لا أتذكر مطلقًا الأحداث التى فى الصفحة السابقة أو التى قبلها، مسببات الإزعاج تلك والإرهاق الدائم هى الثمن الذى أدفعه مقابل رفاهية العمل بجانب الطبيب على مشروعنا.

ومع ذلك، فإن هذا ليس ما أردت الكتابة بشأنه، قصدت أن أكتب عن عملنا، ليس عن اكتشافاتنا الموثقة باستفاضة فى أوراقنا، بل عن أنماط عقلينا، الطلاقة التى يفهم بها كل منا الآخر فهمنا اللحظى المتبادل الذى يمكننا من التصرف بلا كلام تقريبًا، مثلاً حين يستغرق كلانا فى تسجيل التغيرات فى أنماط نوم مدروستينا، ويود لفت انتباهى إلى شىء، لا يكون بحاجة إلى الكلام، لأننى أشعر بعينيه على، عقله يناديني، فأرفع رأسى عما أنشغل به، مستعدة تمامًا له ليوضح أيًّا كان ما سيوضحه.

المتشككون قد يعتبرون هذا صدفة بحتة، أو يظنون أننى أضخّم توالى الصدف وأتخيل أنه يحدث كأنه عادة، لكننى اكتشفت أنه حين يعمل شخصان معًا على نحو وثيق على مشروع مشترك -أقصد شخصين ذكيين- تتطور بينهما رابطة تواصل يمكنها تطوير عملهما،

فحين يكونان مستغرقين معًا فى مهمة، يكون كل منهما واعيًا بأدق حركات الآخر، ويكون حساسًا نحوها للغاية، ويمكنه تفسيرها على هذا الأساس، ويحدث ذلك من دون حتى رؤية الحركات لا متناهية الصغر، ولا يشتت عن العمل، على العكس، يحسنه، فسرعة فهمنا تصبح أكبر، دعونى أضيف مثالاً بسيطًا صغير، لكنه ينوب عن الكثير غيره من الأمثلة، فى صباح اليوم، كنت عاكفة على بعض الملاحظات، أحاول أن أرصد نمطًا سلوكيًا يظهر فى ملاحظاته عن "آديلاين"، وحين مددت يدى لآخذ قلمًا لتدوين تعليق توضيحى فى الهامش، شعرت بيد الطبيب تمس يدى برفق ومرر إلىّ القلم الذى أردته، تطلعت إليه لأشكره، لكنه كان مستغرقًا بشدة فى أوراقه، غير واع تمامًا بما حدث، نعمل معًا بمثل هذه الطريقة: العقل واليد دائمًا متزامنان، ويتوقعان احتياجات الآخر وأفكاره، وحين نكون بعيدين، وهى حالنا معظم اليوم، نفكر دائمًا فى الأفكار الصغيرة المتعلقة بالمشروع، أو ملحوظات أخرى عن الجوانب الأوسع للحياة والعلوم، وحتى هذا يوضح مدى تلاؤمنا للعمل معًا.

لكننى ناعسة، ومع أننى بإمكانى الكتابة مطولاً عن مباهج المشاركة فى تأليف ورقة بحثية، فإن الوقت قد حان حقًّا للنوم.

***

لم أكتب منذ أسبوع تقريبًا، ولن أقدم أعذارى المعتادة، لقد اختفى دفتر يومياتى.

تحدثت مع "إيميلاين" بشأن الأمر -بطيبة، وبجدية، وبعرض الشوكولاتة، وبالتهديد بالعقاب (نعم، لقد انهارت أساليبى، لكن بصراحة فقدان دفتر اليوميات يمس المرء على نحو شخصى أكثر من أىّ شىء)- لكنها تستمر فى إنكار كل شىء، محاولات إنكارها متسقة وتظهر علامات عدة على حسن النية، أىّ شخص لا يعرف السياق

العـام كان ليصدقهـا، وبنـاء عـلى معرفتـى الكبـيرة بهـا، وجـدت السرقـة غـير متوقعـة، وأجـد صعوبـة فى تفسـيرها ضمـن التقـدم العـام الـذى أحرزتـه، إنهـا لا تسـتطيع القـراءة وليـس لديهـا اهتـمام بأفـكار الآخريـن وشـئونهم الداخليـة، باسـتثناء مـا قـد يؤثـر فيهـا مبـاشرة، لم قـد تريـد الدفـتر؟ أفـترض أن لمعـان القفـل هـو مـا أغراهـا، فولعهـا بالأشـياء اللامعـة لا يقـل، ولا أحـاول أن أقللـه، فهـو عـادة غـير ضـار، لكننـى خائبـة الأمـل فيهـا.

لـو كنـت سـأحكم عـلى أسـاس محاولاتهـا للإنـكار وشـخصيتها فقـط، فإننـى سأسـتنتج أنهـا بريئـة مـن السرقـة، لكـن الحقيقـة تظـل أنـه لا يمكـن أن يكـون شـخصًا آخـر.

"جـون"؟ السـيدة "دان"؟ حتـى عنـد افـتراض أن الخادمـين كانـا يريـدان سرقـة دفـتر يومياتى، وهـو مـا لا أصدقـه لدقيقـة، أذكـر بوضـوح أنهـما كانـا منشـغلين فى مـكان آخـر فى المنـزل حـين اختفـى الدفـتر، وفى حـال كنـت مخطئـة بشـأن ذلـك، فإننـى وجهـت محادثـاتى معهـما إلى أنشـطتهما، وأكـد "جـون" أن السـيدة "دان" كانـت فى المطبـخ طـوال الصبـاح (قـال: "وأحدثـت الجلبـة المميـزة لهـا أيضًـا")، وأكـدت هـى أن "جـون" كان فى اسـتراحة العربـات يصلـح السـيارة ("إنهـا قديمـة مزعجـة")، لا يمكـن أن يكـون أحدهـما.

وبالتـالى، بعدمـا اسـتبعدت المشـتبه بهـم الآخريـن، أنـا مجـبرة عـلى تصديـق أنهـا "إيميلايـن".

وحتـى الآن لا أسـتطيع التخلـص مـن شـكوكى، حتـى الآن يمكننـى تخيـل وجههـا -ذى المظهـر الـبرىء للغايـة، والمكـروب للغايـة أمـام هـذا الاتهـام- وأنـا مجـبرة عـلى التسـاؤل، أيوجـد عامـل إضـافى مـا مؤثـر هنـا لم أضعـه فى الحسـبان؟ حـين أنظـر إلى الأمـر مـن هـذا المنظـور يثـير داخـلى اضطرابًـا: أجـد نفسـى فجـأة غارقـة فى الشـعور بأنـه ليـس مخططًـا لأىّ مـن خططـى

أن تُثمر، شىء ما يقف ضدى منذ جئت إلى هذا المنزل! شىء يريد أن يعيقنى ويحبطنى فى كل مشروع أنفذه! لقد فكرت وأعدت التفكير، وأعدت تتبع كل خطوة فى منطقى، لا أستطيع إيجاد أىّ عيب، ومع ذلك لا أزال أجد الشكوك تهاجمنى، ما الذى أخفق فى أن أراه؟

بعد إعادة قراءة تلك الفقرة السابقة، أنا مصدومة أمام نقص الثقة بالنفس غير المعهود فى نبرتى، بالتأكيد إنه الإرهاق فقط هو ما يجعلنى أفكر فى ذلك، فالعقل غير المرتاح محكوم عليه بالتجول فى سبل غير مجدية، وهو ليس بالشىء الذى لا يقدر نوم ليلة هنيئة على معالجته.

إلى جانب ذلك، فإن الأمر كله منتهٍ الآن، فها أنا، أكتب فى دفتر يومياتى المفقود، لقد حبست "إميلاين" فى غرفتها لأربع ساعات، ولستّ ساعات فى اليوم التالى، وعرفت هى أن فى اليوم التالى ستكون ثمانى ساعات، وفى اليوم الثانى، بعد فترة قصيرة من هبوطى بعد فتح قفل غرفتها، وجدت الدفتر على مكتبى فى غرفة الدراسة، لا بد أنها تسللت بهدوء جدًّا لتضعه هناك، لم أرها تمر من أمام باب المكتبة إلى غرفة الدراسة مع أننى تركت الباب مفتوحًا عمدًا، لكن الدفتر رُد، لذا لم يعد من مجال للشك، أليس كذلك؟

***

أنا متعبة جدًّا ومع ذلك لا أستطيع النوم، أسمع أصوات خطوات فى الليل، لكن حين أذهب إلى باب غرفتى وأنظر إلى الممر لا أجد أحدًا.

***

أعترف بأن الأمر أزعجنى -ولا يزال يزعجنى- أن أفكر فى أن هذا الكتاب الصغير لم يكن معى لمدة يومين، فكرة أن يقرأ شخص آخر

كلماتى هى أكثر ما يزعجنى، لا يسعنى إلا التفكير فى كيفية تفسير شخص آخر لأشياء معينة كتبتها، لأنى حين أكتب لنفسى فقط، وأعرف تمام المعرفة حقيقة ما أكتب، ربما أكون أقل حرصًا فى تعبيرى، وأكتب بسرعة، وربما أعبر أحيانًا عن نفسى بطريقة تمكن إساءة فهمها من قبل الشخص الآخر، الذى لن يحمل رؤيتى نفسها لما أقصده حقًّا، بالتفكير فى بعض الأمور التى كتبتها (الطبيب والقلم -حدث غير مهم كهذا- بالكاد يستحق أن يُذكر من الأساس) أدرك أنها قد تبدو لشخص غريب بشكل مختلف جدًّا عما قصدته، وأنا أتساءل إن كان يجب أن أمزق هذه الصفحات وأتلفها أم لا، لكننى لا أريد فعل هذا، لأن مثل هذه الصفحات هى أكثر ما أريد قراءته لاحقًا، حين أكون مسنة ورحلت من هنا، وألتفت إلى ما يبثه عملى من سرور، وإلى التحدى الكامن فى مشروعنا العظيم.

لِمَ لا يجب أن تكون صداقة علمية مصدرًا للفرح؟ هذا لا يجعلها أقل علمية، أليس كذلك؟

لكن ربما الحل هو أن أتوقف عن الكتابة تمامًا، لأننى حين أكتب، حتى الآن وأنا أكتب هذه الجملة تحديدًا، وهذه الكلمة بالذات، أدرك وجود قارئ شبح يميل فوق كتفى ويشاهد قلمى، يلوى كلماتى ويشوه مقصدى، ويجعلنى غير مرتاحة فى خصوصية أفكارى.

الأمر مزعج للغاية أن يُقدَّم المرء لنفسه فى صورة مختلفة جدًّا عن الصورة المألوفة لديه، حتى حين يبدو بوضوح أنها صورة مزيفة.

سأتوقف عن الكتابة.

النهايات

الشبح فى الحكاية.

رفعت عينىّ عن الصفحة الأخيرة من يوميات "هيستر" والأفكار تزاحم رأسى، اخترق عدد من الأشياء مجال انتباهى وأنا أقرأ، والآن وقد أنهيت القراءة، لدى الوقت المناسب للتفكير فيها على نحو منهجى.

قلت فى بالى، أوه.

أوه.

ثم، أوه!

كيف أصف لحظة الإدراك؟ بدأت بسؤال "ماذا لو؟" ضال، ثم تخمين جامح، ثم فكرة لا تُصدق، لقد كانت.. حسنًا، ربما ليست مستحيلة، لكنها غير معقولة! فبداية...

كنت على وشك بدء ترتيب الحجج المضادة المعقولة لهذه الفكرة، لكننى تجمدت فى مكانى، لأن عقلى الذى يسابق نفسه بحدس لحظى

قد صدق بالفعل هذه الرواية المنقحة للأحداث، ففى لحظة واحدة، لحظة من الإبهار المحير، تفككت القصة التى حكتها لى السيدة "وينتر" وتشكلت من جديد، الأحداث جميعها متطابقة، والتفاصيل كلها متشابهة، لكن القصة مختلفة تمامًا وبعمق، مثل تلك الصور التى ترى فيها طائرًا صغيرًا إذا أمسكت الصفحة من ناحية، وعجوزًا شمطاء إذا أمسكت بها من الناحية الأخرى، مثل أجوبة الألغاز المخفية فى الصور، التى لن تحلها إلا إن تعلمت أن ترى الحلول، لقد كانت الحقيقة أمامى منذ البداية، لكننى لم أرها إلا الآن.

تلت ذلك ساعة من التفكير العميق، فكرت فى عنصر تلو الآخر، ونظرت عبر الزوايا المختلفة على حدة، وراجعت كل ما أعرفه، وكل ما قيل لى، وكل ما اكتشفته، قلت لنفسى، هذا صحيح، وهذا أيضًا صحيح، وذلك وذاك أيضًا، بث اكتشافى الحياة فى القصة، فبدأت تتنفس، وحين تنفست، بدأت تلتئم، فنعّمت الأطراف المدببة نفسها، وملأت الثغرات نفسها، وأعادت الأجزاء الناقصة تشكيل نفسها، وفسّرت الأحاجى نفسها، ولم تعد الألغاز ألغازًا.

فى النهاية، بعد كل الحكى وسرد الخطوط الطويلة، وبعد الستائر الدخانية والمرايا الخادعة والخدع المزدوجة، عرفت الحقيقة.

***

عرفت ما رأته "هيستر" يوم ظنت أنها رأت شبحًا.

عرفت هوية الطفل فى الحديقة.

عرفت من هاجم السيدة "مودسلى" بالكمان.

عرفت من قتل "جون ذا ديج".

عرفت من كانت "إيميلاين" تبحث عنه تحت الأرض.

سقطت التفاصيل فى مكانها الصحيح، كلام "إيميلاين" مع نفسها وراء باب مغلق فى أثناء إقامة أختها فى منزل الطبيب، و"جين أير"، الكتاب الذى يظهر ثميظهر مجددًا فى القصة، مثل خيط فضى فى زخارف سجادة حائط، وفهمت لغز علامة القراءة المتجولة الخاصة بـ"هيستر"، وظهور الكتاب واختفاء دفتر يومياتها، أفهم غرابة قرار "جون ذا ديج" بتعليم الفتاة التى دنست من قبل حديقته كيف تعتنى بها.

أفهم الفتاة وراء الغشاوة، وكيف ولماذا خرجت منها، أفهم كيف يمكن أن تذوب فتاة مثل "آديلاين" وتترك السيدة "وينتر" مكانها.

قالت لى السيدة "وينتر": "سأحكى لك حكاية عن توأمين"، فى المساء الأول بالمكتبة حين كنت على وشك المغادرة، كلمات أحدثت لقصتى صدى غير متوقع، وعلقتنى بقصتها على نحو لا يُقاوم.

فى يوم من الأيام كانت هناك فتاتان توأمان...

الاختلاف الوحيد أننى الآن أعرف أكثر.

لقد وجهتنى إلى الاتجاه الصحيح فى تلك الليلة الأولى، فقط لو كنت أعرف كيف أسمع.

"أتصدقين وجود الأشباح يا آنسة (ليا)؟" هكذا سألتنى، "سأحكى لك حكاية عن الأشباح".

وقلت لها: "فى فرصة أخرى".

لكنها حكت لى حكاية عن أشباح.

فى يوم من الأيام كانت هناك طفلتان رضيعتان...

أو بدلاً من ذلك: فى يوم من الأيام كانت هناك ثلاث.

فى يوم من الأيام كان هناك منزل، وكان المنزل مسكونًا.

كان الشـبح، عـلى الطريقـة التقليديـة للأشـباح، خفيًـا أغلـب الوقـت، ومـع ذلـك لم يكـن خفيًـا تمامًـا، فقـد أُغلقـت الأبـواب التـى تُركـت مفتوحـة، وفُتحـت الأبـواب التـى تُركـت مغلقـة، والحركـة السريعـة فى المرآة التـى تجعلـك تتطلـع إليهـا، وتيـار الهـواء وراء السـتارة فى حـين أنَّ كل النوافـذ مغلقـة، الشـبح الصغـير كان موجـودًا فى الحركـة غـير المتوقعـة للكتـب مـن غرفـة إلى أخـرى، وفى الحركـة الغامضـة لعلامـة القـراءة مـن صفحـة إلى أخرى، تلـك كانـت يدهـا التـى رفعـت دفـتر مذكرات "هيسـتر" مـن مـكان وأخفتـه فى آخـر، ويدهـا التـى بدلتـه لاحقًـا، حـين انعطفـت إلى ممـر، إن راودتـك الفكـرة الغريبـة أنـك لمحـت نعـل حـذاء يختفـى عنـد الزاويـة البعيـدة، فـإن الشـبح الصغـير لم يكـن بعيـدًا، وحـين فاجـأك هـذا الشـعور فى مؤخـر عنقـك بـأن أحـدًا يراقبـك، ورفعـت رأسـك لتجـد الغرفـة خاويـة، يمكنـك أن تثـق بـأن الشـبح الصغـير يختبـئ فى الفـراغ بمـكان مـا.

يمكـن لمـن يمكنـه أن يـرى أن يتكهـن بوجودهـا بعـدد لانهـائى مـن الطـرق، لكـن أحـدًا لم يرهـا.

لقـد سـكنت المنـزل بلطـف، ولم تُحـدث قـط صوتًـا بأطـراف قدميهـا العاريتـين، ومـع ذلـك فقـد ميـزت موطـئ قـدم كل مَـن سـكنوا المنـزل، وعرفـت كل لـوح أرضيـة وكل بـاب لـه صريـر، كل ركـن مظلـم فى المنـزل كان مألوفًـا لهـا، كل ركـن وكل زاويـة، لقـد عرفـت الفراغـات وراء الخزانات وبـين الرفـوف، وعرفـت مؤخـر الأرائـك وتحـت المقاعـد، تكـوّن المنـزل فى عقلهـا مـن مئـة مـكان ومـكان للاختبـاء، وقـد عرفـت كيـف تنتقـل بـين هـذه الأماكـن عـلى نحـو خفـى.

لم تـرَ "إيزابيـل" و"تشـارلى" الشـبح قـط، فبأسـلوب عيشـهما خـارج حـدود المنطـق وخـارج حـدود المعقـول، لم يكونـا مـن النـوع الـذى يحـيره مـا يتعـذر تفسـيره، إذ بـدت لهـما الأشـياء الضائعـة والمكسـورة وتغـير مـكان الأغـراض بعشـوائية جـزءًا مـن الكـون الطبيعـى، وسـقوط ظـل عـلى

السـجادة حيـث لا يفـترض أن يوجـد ظـل لم يجعلهـما يتوقفـان ويفكـران، فمثـل تلـك الألغـاز لم يبـد إلا امتـدادًا طبيعيًـا للظـلال التـى فى قلبيهـما وعقليهـما، كان الشـبح الصغـير هـو الحركـة عنـد طـرف عينيهـما، والأحجية غـير المعترف بهـا فى مؤخـر دماغيهما، والظـل الدائـم المعلـق بحياتهما دون معرفتهـما، لقـد فتشـت عـن بقايـا الطعـام فى خزانـة طعامهـما مثـل الفـأر، ودفـأت نفسـها بجمـر موقدهـما بعـد خلودهـما إلى النـوم، واختفـت فى تجاويـف خرابهـما لحظـة ظهـور أحـد.

كانت هى سر المنزل.

ومثل كل الأسرار، كان لها أمناؤها.

رأت مدبـرة المنـزل الشـبح الصغـير بوضـوح الشـمس، عـلى الرغـم مـن ضعـف بصرهـا، وهـذا جيـد، فمـن دون تعاونهـا مـا كان ليوجـد بقايـا كافيـة فى خزانـة المـؤن ولا فتـات كاف مـن خبـز الإفطـار لتغذيـة الشـبح الصغير، لأن مـن الخطـأ الاعتقـاد أن ذلـك الشـبح عبـارة عـن طيـف أثيرى روحـى، لا، إن لـه معـدة، وحـين تفـرغ يجـب ملؤهـا.

لكنهـا كسـبت قوتهـا، لأنهـا كانـت تقـدم بقـدر مـا تأخـذ. أمـا الشـخص الآخـر الـذى لديـه بصـيرة رؤيـة الأشـباح فهـو البسـتانى، وكان ممتنًـا للحصـول عـلى بعـض المسـاعدة، إذ ارتـدت قبعـة عريضـة الحـواف وأحـد بناطيـل "جـون" القديمـة، بعدمـا قُـص مـن كاحلـه وشـكّلته الدبابيـس، فـكان سـكنها للحديقـة مثمـرًا، حيـث أصبحـت البطاطـس تحـت الأرض أكـبر حجـمًا تحـت رعايتهـا، وفـوق الأرض ازدهـرت شـجيرات الفاكهـة، مثمـرة عناقيـد التـوت التـى قطفتهـا يداهـا تحـت الأفـرع المنخفضـة، لم تكـن لهـا لمسـة سـحرية عـلى الفواكـه والخـضراوات فقـط، بـل وازدهـرت الـورود مثلـما لم تزدهـر مـن قبـل، وعرفـت لاحقًـا الرغبـة السريـة لـدى الأشـجار بـأن تتخـذ شـكلاً هندسـيًّا، فـإن أرادت الصغـيرة، تُنمـى الأفـرع والأوراق أركانًـا وزوايـا، ومنحنيـات وخطـوط مسـتقيمة رياضيًـا.

لم يحتج الشبح الصغير إلى الاختباء فى الحديقة وفى المطبخ، فمدبرة المنزل والبستانى هما حامياها، والوصيان عليها، لقد علماها سبل المنزل وكيف تكون آمنة فيه، وأطعماها، واعتنيا بها، وحين جاءت غريبة للعيش فى المنزل، بعينين أكثر حدة من البقية، وبرغبة بإبعاد الظلال وإغلاق الأبواب، قلقا بشأنها.

لم يُكِنّا لها شيئًا أكثر من الحب.

لكن من أين أتت؟ وما قصتها؟ فالأشباح لا يظهرون على نحو عشوائى، بل يأتون إلى حيث يعرفون أنه بيتهم، وقد كان الشبح الصغير ببيته فى هذا المنزل، ووسط هذه العائلة، ومع أنها لم يكن لها اسم، مع أنها لم تكن أحدًا، عرف البستانى ومدبرة المنزل من هى جيدًا، فقد كُتبت قصتها فى شعرها النحاسى وعينيها الزمرديتين.

هذا الجزء هو الأغرب فى القصة بالكامل، فقد حمل الشبح شبهًا خارقًا بالتوأمين اللتين تعيشان فى المنزل، وكيف غير ذلك يمكن أن تعيش هناك دون أى شكوك طوال هذا الوقت؟ ثلاث فتيات بشعر نحاسى يغطى ظهورهن، ثلاث فتيات لهن أعين زمردية مذهلة، الأمر غريب، ذلك الشبه الذى تتشاركه ثلاثتهن، أليس كذلك؟

قالت لى السيدة "وينتر": "حين ولدت، لم أكن إلا حبكة فرعية"، وبدأت الحكاية التى ذهبت فيها "إيزابيل" إلى النزهة، وقابلت "رولاند" وفى النهاية هربت للزواج به، فارة من عشق أخيها المظلم غير الأخوى، أما "تشارلى"، أمام تجاهل أخته له، فقد انطلق فى حالة هياج، ينفس عن غضبه وعشقه وغيرته مع الأخريات، بنات الإيرلات[1] أو أصحاب المتاجر، بنات موظفى البنوك أو منظفى المداخن، لم تمثل هويتهن فارقًا حقيقيًا له، وبموافقتهما أو من دونها، ألقى بنفسه عليهن يائسًا من أجل النسيان.

---

(1) إيرل لقب إنجليزي يعادل لورد.

ولـدت "إيزابيـل" توأميهـا فى مستشـفى بلنـدن، فتاتـين بـلا أى ملامـح مـن زوج أمهـما، شـعرهما نحـاسى، مثـل خالهـما تمامًـا، وأعينهـما خـضراء، مثـل خالهـما تمامًـا.

هنـا تـأتى الحبكـة الفرعيـة: فى الوقـت ذاتـه، فى إسـطبل مـا أو فى غرفـة نـوم منـزل ريفـى معتـم، ولـدت امـرأة أخـرى، ليسـت ابنـة إيـرل، حسـبما أظـن، ولا موظـف بنـك، فمُتيـسّرو الحـال لديهـم وسـائل للتعامـل مـع المشـكلات، لا بـد أنهـا كانـت ابنـة امـرأة مـا مجهولـة عاديـة بـلا حيلـة، وقـد ولـدت فتـاة أيضًـا، بشـعر نحـاسى وعينـين زمرديتـين.

إنها طفلة الغضب، طفلة الاغتصاب، إنها طفلة "تشارلى".

فى يوم من الأيام كان هناك منزل اسمه "آنجلفيلد".

فى يوم من الأيام كانت هناك توأمان.

فى يـوم مـن الأيـام جـاءت إلى "آنجلفيلـد" ابنـة خـال، أو عـلى الأرجـح نصـف شـقيقة.

أجلـس فى القطـار ويوميـات "هيسـتر" مغلقـة عـلى حجـرى، وقـد تقلصـت نوبـة التعاطـف الشـديد التـى بـدأت أشـعر بهـا تجـاه السـيدة "وينـتر" حـين تبـادر إلى ذهنـى طفـل آخـر غـير شرعـى، "أوريليـوس"، وتحـول تعاطفـى إلى غضـب، لمَ فُـرِّق عـن أمـه؟ ولمَ هُجِـر؟ ولمَ تُـرِك ليدافـع عـن نفسـه فى العـالم دون أن يعـرف قصتـه؟

فكـرت أيضًـا فى الخيمـة البيضـاء والبقايـا التـى تحتهـا التـى أعـرف الآن أنهـا لا تخـص "هيسـتر".

تـؤدى كل تلـك المسـارات إلى ليلـة الحريـق، إنـه حريـق متعمـد، وقتـل، وهجـر رضيع.

حين وصل القطار إلى هاروجيت ونزلت إلى الرصيف، تفاجأت حين وجدت الثلوج تصل إلى كاحلى، فمع أننى كنت أحدق عبر نافذة القطار لمدة ساعة، لم أرَ أى شىء من المشهد بالخارج.

ظننت أننى عرفت كل شىء حين جاءتنى لحظة الإدراك.

حين أدركت أن "آنجلفيلد" لم يضم فتاتين فقط، بل ثلاثًا، ظننت أن بين يدى مفتاح القصة كلها.

فى نهاية تأملاتى، أدركت أننى إلى أن أعرف ما حدث فى ليلة الحريق، أنا لا أعرف شيئًا.

عظام

إنها عشية عيد الميلاد والثلوج تهطل بكثافة، رفض سائق التاكسى الأول والثانى أن يقلّنى إلى مكان بعيد هكذا خارج البلدة فى ليلة كهذه، أما الثالث فلا بد أنه تأثر بحماسة طلبى، لأنه هز كتفيه بلا مبالاة ودعانى للركوب، وقال بخشونة: "سنحاول أن نذهب".

أخذتنا السيارة إلى خارج المدينة واستمر هطول الثلوج، متراكمًا بشكل دقيق للغاية، رقاقة تلو الأخرى، على كل سنتيمتر من الأرض وكل قمة سياج وكل غصن شجرة، وبعد القرية الأخيرة، وآخر بيت ريفى، وجدنا نفسينا وسط مشهد أبيض، والطريق غير مميز أحيانًا عن الأرض المسطحة حوله، فانكمشت فى مقعدى، متوقعة أن يستسلم السائق ويعود أدراجه فى أيَّة لحظة، توجيهاتى الواضحة فقط هى ما طمأنه بأننا على الطريق الصحيح، نزلت لأفتح البوابة الأولى، ثم وجدنا نفسينا أمام الثانية، البوابة الرئيسة للمنزل.

قلت: "آمل أن ترجع بخير".

قال بهزة كتف أخرى: "أنا؟ أنا سأكون بخير".

ومثلما توقعت، كانت الأبواب مقفلة، لم أرد أن يظن السائق بشكل ما أنني سارقة، فمثّلت أنني أبحث عن مفاتيحي في حقيبتي في حين أدار هو السيارة، وحين ابتعد أمسكت بقضبان البوابة وتسلقتها.

لم يكن باب المطبخ مقفلاً، فخلعت حذائي، ونفضت الثلوج عن معطفي وعلقته، سرت عبر المطبخ الفارغ، واتخذت طريقي إلى سكن "إيميلاين" حيث أعرف أن السيدة "وينتر" ستكون موجودة، أذكيت غضبي المليء بالاتهامات، والمليء بالأسئلة، من أجل "أوريليوس" والمرأة التي استلقت عظامها لستين عامًا في حطام مكتبة "آنجلفيلد" المحترقة، ورغم كل ما يعصف بداخلي، اقتربت بهدوء واستوعبت السجادة خطواتي الغاضبة.

لم أطرق بل دفعت الباب ودخلت مباشرة.

كانت الستائر لا تزال مغلقة، وتجلس السيدة "وينتر" بهدوء بجوار "إيميلاين"، فاجأها دخولي وحملقت إليّ، رأيت لمعة استثنائية في عينيها.

همست لها: "عظام! لقد وجدوا عظامًا في (آنجلفيلد)!"

كلي أعين ناظرة، وآذان صاغية، تنتظر على أحر من الجمر أن يصدر منها اعتراف، لا يهم إن كان بالكلمات أو بتعبيرات وجهها أو بحركاتها، ستدلي به، وسأقرؤه.

باستثناء أن شيئًا في الغرفة يحاول تشتيتي عن التدقيق فيها.

قالت السيدة "وينتر": "عظام؟" كانت شاحبة كالورقة وبعينيها محيط شاسع كفاية ليُغرق غضبي المستعر.

قالت: "أوه".

أوه، كم هذا المقطع الصوتى الواحد غنى بالمشاعر! الخوف، واليأس، والحزن والاستسلام، والارتياح، المظلم غير المعزى، والحزن العميق والقديم.

ثم تضخم ذلك التشتيت العنيد فى الغرفة بسرعة جدًّا فى عقلى لدرجة أنه لم يترك مساحة لأى شىء آخر، ما هذا؟ يوجد شىء دخيل على صدمة العظام خاصتى، شىء ما سبق اقتحامى، وأصابتنى حيرة عاجزة لمدة ثانية، ثم تجمعت كل الأشياء التافهة التى لاحظتها دون اهتمام، الجو فى الغرفة، والستائر المغلقة، الشفافية المائية بعينى السيدة "وينتر"، وحقيقة أن الصلابة التى كان دائمًا جوهرها قد تركتها ببساطة.

تقلص مجال انتباهى إلى شىء واحد: أين مد وجزر أنفاس "إيميلاين" البطيئة؟ لم يعد صوتها يبلغ أذنى.

"لا! إنها..."

هبطت على ركبتى بجانب السرير وحملقت.

قالت السيدة وينتر برقة: "نعم"، "لقد رحلت، منذ بضع دقائق".

حملقت إلى وجه "إيميلاين" الخاوى، لم يتغير شىء حقًّا، ندباتها لا تزال حمراء بشكل غاضب، وبشفتيها الميل الجانبى نفسه، ولا تزال عيناها خضراوين، لمست يدها ذات الجلد المُرقَّع ووجدته دافئًا، أصحيح أنها رحلت؟ بالتأكيد، رحلت بلا رجعة؟ بدا مستحيلاً أن يحدث ذلك، بالتأكيد هى لم تهجرنا بالكامل؟ بالتأكيد سيبقى شىء منها ليواسينا؟ أليست هناك تعويذة ولا طلسم ولا سحر يمكنه ردها إلينا؟ أليس هناك ما يمكننى قوله ليصل إليها؟

دفء يدها هو ما أقنعنى بأنها يمكنها سماعى، دفء يدها هو ما جلب كل الكلمات إلى صدرى، يسقط بعضها على بعض فى توق للطيران إلى أذن "إيميلاين".

"اعثرى على أختى يا (إيميلاين)، أرجوك اعثرى عليها، أخبريها أننى أنتظرها، أخبريها..." ضاق حلقى للغاية بكل الكلمات وقد تحطم بعضها أمام بعض وهى تخرج منى مختنقة، "أخبريها أننى أفتقدها! أخبريها أننى وحيدة!" أطلقت الكلمات بتهور وسرعة من بين شفتى، وطارت بحماسة تطارد "إيميلاين"، "أخبريها أننى لا أطيق الانتظار! أخبريها أن تأتى!"

لكننى كنت قد تأخرت جدًّا، لقد فرض الرحيل نفسه علينا، إنه خفى وبلا رجعة وعنيد.

طارت كلماتى مثل طيور فى لوح زجاج النافذة.

"يا طفلتى المسكينة"، شعرت بلمسة يد السيدة "وينتر" على كتفى، وظلت هناك بخفة وأنا أبكى على جثث كلماتى المحطمة.

فى النهاية جففت عينى، وتبقت بضع كلمات فقط، تخشخش فى الأنحاء بحرية من دون رفيقاتها القديمات، قلت: "إنها توأمتى، كانت هنا، انظرى".

سحبت الكنزة المطوية داخل تنورتى، وكشفت جذعى للضوء، كشفت ندبتى، نصف القمر الخاص بي، لونه بين الوردى الفضى الباهت، شفاف كأم اللؤلؤ، إنه الخط الذى يفصل بيننا.

"هنا كانت، هنا كنا موصولتين، ثم فصلونا، وماتت، لم تستطع العيش من دونى".

شعرت بارتعاش أصابع السيدة "وينتر" وهى تتبع الهلال المرسوم على جلدى، ثم شعرت بالتعاطف الحنون فى عينيها.

"الأمـر أن..." (هـذه كلـماتى الأخـيرة عـن الأمـر، كلـماتى الأخـيرة تمامًـا، بعدهـا لـن أحتـاج إلى قـول أى شىء، مطلقًـا) "أننـى لا أعتقـد أننـى يمكننى العيـش مـن دونهـا".

"يا صغيرتى"، ونظرت إلىَّ السيدة "وينتر"، وحملتنى بتعاطف عينيها.

لم أفكـر بـشىء، بـدا عقـلى جامـدًا تمامًـا، لكـن بداخلـه كان يتغـير ويتقلـب، شـعرت بتيـار خفـى يتضخـم بداخلـه، فقـد اسـتقر الحطـام لسـنوات فى الأعـماق، إنهـا سـفينة صدئـة عليهـا حمولـة مـن العظـام، والآن تغـيرت، لقـد بعثرتهـا، وأحدثـت اضطرابًـا رفـع سـحبًا مـن الرمـل مـن قـاع البحـر، ذرات مـن الرمـل تتحـرك فى دوامـات جامحـة فى الميـاه المظلمـة المضطربـة.

احتضنتنى السيدة "وينتر" طوال الوقت بحملقتها الخضراء الطويلة.

ثـم اسـتقر الرمـل ببـطء مجـددًا وعـادت الميـاه إلى هدوئهـا، ببـطء، واسـتقرت العظـام مجـددًا فى حصنهـا الصـدئ.

قلت: "سألتنى من قبل عن قصتى".

"أخبرتنى أن ليس لك قصة".

"الآن تعرفين أن لى قصة".

"لم أشـك بالأمـر قـط"، وابتسـمت ابتسـامة مسـكينة آسـفة، "حـين دعوتـك لتـأتى كنـت أظـن أننـى أعـرف قصتـك بالفعـل، كنـت قـد قـرأت مقالـك عـن الأخويـن (لانديـير)، يـا لـه مـن مقـال جيـد، أنـت تعرفـين الكثـير عـن الإخـوة، قلـت لنفسـى إنهـا معرفـة عـن تجربـة، وكلـما نظـرت إلى مقالـك أكـثر، فكـرت أكـثر فى أنـه لا بـد مـن أن لـك توأمًـا، لذا اسـتقررت عـلى اختيـارك كاتبـة لسـيرتى الذاتيـة، لأن بعـد كل تلـك السـنوات مـن سرد القصـص لـو أغرتنـى فكـرة أن أكـذب عليـك فإنـك ستكشـفيننى".

"لقد كشفتك".

أومأت، بهدوء وبحزن وبلا مفاجأة، "وفى الوقت المناسب أيضًا، إلى أى حد تعرفين؟"

"أعرف ما أخبرتنى به، إنها ليست إلا حبكة ثانوية، هكذا وصفتِ الأمر، حكيت لى حكاية (إيزابيل) وتوأميها، ولم أكن منتبهة، والحبكة الثانوية كانت (تشارلى) ونوبات اهتياجه، ظلت توجهنى نحو (جين أير)، كتبه الغريبة عن العائلة، ابنة الخال التى بلا أم، لا أعرف من أمك ولا كيف انتقلت للعيش فى (آنجلفيلد) من دونها".

هزت رأسها بحزن، "أى شخص يمكن أن يعرف إجابات هذه الأسئلة مات يا (مارجريت)".

"ألا تتذكرين؟"

"أنا إنسان، وكحال كل البشر، لا أتذكر مولدى، فحين ندرك العالم، نكون أطفالاً صغارًا، ويكون قد مر على قدومنا إلى العالم دهر، إنه بداية الزمن، إننا نعيش مثل من وصلوا إلى المسرح متأخرين، يجب أن نلحق بركب الأحداث بأقصى سرعة، فنتوقع البداية بناء على الأحداث التالية، كم مرة عدت إلى حدود ذاكرتك وتطلعت إلى الظلمة الكامنة وراءها؟ لكنها ليست الذكريات فقط هى ما يحوم هناك عند الحدود، فهناك توجد كل أشكال الوهم، كوابيس طفلة وحيدة، وقصص خيالية استولى عليها عقل متعطش للقصص، وخيالات طفلة صغيرة جامحة الخيال متلهفة لمعرفة ما لا يمكن أن تعرفه بنفسها، أيًا كانت القصة التى ربما اكتشفتها عند حافة النسيان، لا أدعى أمام نفسى أنها الحقيقة".

"كل الأطفال ينسجون الأساطير عن مولدهم".

"بالضبط، الشىء الوحيد الأكيد لى هو ما أخبرنى به (جون ذا ديج)".

"وماذا أخبرك؟"

"أننى ظهرت مثل نبتة ضارة، بين شجرتى فراولة".

وحكت لى القصة.

***

كان أحد يعبث بأشجار الفراولة، ليست طيورًا، لأن الطيور تنقر الفراولة وتتركها منقورة، وليس الفتاتين لأنهما سحقتا الأشجار وتركتا آثار أقدامهما فى كل مكان، لا، إنه لص خفيف الحركة يأخذ ثمرة فراولة من هنا وثمرة أخرى من هناك، وبشكل أنيق دون أن يبعثر شيئًا، لم يكن بستانى آخر ليلاحظ، لكن فى اليوم نفسه وجد "جون" بركة مياه تحت صنبور الحديقة، فقد كان الصنبور يقطر، فأدار المقبض، وضيقه، وحك رأسه وعاد إلى عمله، لكنه ظل منتبهًا.

فى اليوم التالى رأى أحدًا عند أشجار الفراولة، رث الثياب، بالكاد يبلغ طوله ركبة "جون"، يعتمر قبعة كبيرة للغاية تهبط على وجهه، ثم هرب حين رآه، لكن فى اليوم التالى كان عازمًا على أخذ فاكهته لدرجة أنه اضطر إلى الصياح والتلويح بذراعيه ليبعده، بعدها فكر فى أنه لا يعرف اسمه، من فى القرية لديه مخلوق بهذا الحجم، صغير ولا يتغذى كفاية؟ من فى الأنحاء قد يترك طفله ليسرق فاكهة من حدائق الآخرين؟ تحير "جون" بحثًا عن إجابة.

ودخل أحد كوخ البستنة؛ فـ"جون" لم يترك الصحف القديمة على هذه الحالة، وتلك الصناديق وُضعت جانبًا بشكل مرتب، لقد كان واثقًا بذلك.

فوضع قفلاً للمرة الأولى على الباب قبل أن يعود إلى المنزل.

وحين مر بصنبور الحديقة لاحظ التقطير مجددًا، فأدار مقبضه نصف دائرة بقوة دون حتى أن يفكر فى الأمر، ثم أدار المقبض ربع دائرة أخرى مستخدمًا وزنه فى ذلك، يجب أن يكون هذا كافيًا.

استيقظ فى الليل، غير مرتاح البال لأسباب لم يستطع تذكرها، وجد نفسه يتساءل: أين قد تنام إن لم تستطع أن تدخل كوخ البستنة وتصنع سريرًا لنفسك من الصحف داخل صندوق؟ ومن أين قد تحصل على المياه إن كان الصنبور مغلقًا بقوة لدرجة أن يصعب تحريكه؟ ثم فتح النافذة ليستشعر درجة الحرارة وهو يؤنب نفسه على حماقته فى منتصف الليل، لقد ولت فترة هطول الثلوج، لكن الجو أبرد من المتوقع بهذا الوقت من السنة، وكم سيصبح أبرد إن كنت جائعًا؟ وكم سيصبح العالم أكثر ظلامًا لو كنت طفلاً؟

هز رأسه وأغلق النافذة، لم يهجر أحد طفلاً فى حديقته، أليس كذلك؟ بالتأكيد لا، ومع ذلك، كان قد غادر سريره قبل مرور خمس دقائق، وتمشى حول الحديقة مبكرًا يرصد أحوال خضراواته والحديقة التوبيارية، ويخطط لعمله اليوم، ظل منتبهًا طوال الصباح بحثًا عن قبعة عريضة وسط شجيرات الفاكهة، لكن لم يظهر شىء.

حين جلس صامتًا عند مائدة مطبخها يشرب كوب قهوة قالت السيدة: "ماذا بك؟".

قال: "لا شىء".

أنهى كوبه وعاد إلى الحديقة، وفحص شجيرات الفاكهة بعينين قلقتين.

لا شىء.

فى وقت الغداء أكل نصف شطيرة، واكتشف أن لا شهية لديه، وترك النصف الآخر على أصيص زهور مقلوب بجوار صنبور الحديقة، ووضع إلى جواره قطعة بسكويت، وقال لنفسه إنه كان غبيًا، وفتح

الصنبـور، الـذى تطلـب فتحـه بعـض الجهـد حتـى منـه هـو، وتـرك المياه تهبـط محدثـة ضوضـاء داخـل صفيحـة قصديريـة للـرى، وأفرغهـا فى أقـرب حـوض وأعـاد ملأهـا، دوى المياه المتناثـرة تـردد قـرب حديقـة الخـضراوات، وانتبـه إلى ألا يتطلـع إلى الأعـلى أو حولـه.

ثـم أبعـد نفسـه قليـلاً، وركـع عـلى العشـب، موليًـا ظهـره إلى الصنبـور، وبـدأ تنظيـف بعـض الأصـص القديمـة، وذلـك مهـم ويجـب فعلـه، إذ يمكـن أن تنتـشر الأمـراض لـو لم تنظـف الأصـص عـلى النحـو السـليم بـين مـرات زراعتهـا.

سمع صرير الصنبور وراءه.

لم يلتفـت عـلى الفـور، بـل أنهـى الأصيـص الـذى كان ينظفـه، عـلى مهلـه.

ثم كان سريعًا، انطلق على قدميه نحو الصنبور، أسرع من الثعلب.

لكن لم تكن من حاجة إلى مثل هذه العجلة.

فقـد حـاول الطفـل الخائـف أن يهـرب لكنـه تعـثر، أقـام نفسـه، وعـرج لبضـع خطـوات، ثـم تعـثر مجـددًا، أمسـك بـه "جـون"، ورفعـه -وزنـه لا يزيـد عـن وزن قطـة- وقلبـه ليواجهـه، وسـقطت القبعـة.

الغـلام عبـارة عـن كيـس مـن العظـام، يتضـور جوعًـا وتحيـط قـشرة قاسـية بعينيـه، وشـعره اسـودّ بسـبب الـتراب، ورائحتـه قـذرة، لديـه بقعتـان حمـراوان توضحـان مـكان خديـه، ثـم وضـع "جـون" يـده عـلى جبهـة الطفـل ووجدهـا مشـتعلة، أخـذه إلى كـوخ البسـتنة حيـث رأى قدميـه، وجدهـما بـلا حـذاء ومظهرهـما حقـير ومتـورم، ويتـسرب منهـما الصديـد مـن بـين الـتراب، إذ بلغـت شـوكة أو شيء يشـبهها عمـق القـدم، وارتعـد الطفـل، إنـه يعـانى مـن الحمـى، والألم، والجـوع، والخـوف، قـال

"جـون" لنفسـه إنـه لـو وجـد حيوانًـا عـلى هـذه الحـال لجلـب مسدسـه وأنهـى معاناتـه.

حبسـه في كوخـه وذهـب لإحضـار السـيدة، وحـين جـاءت السـيدة تطلعـت إليـه واقتربـت، وحـين استنشـقت رائحتـه تراجعـت.

"لا، لا، لا أعرف ابن من هذا، ربما نعرف لو نظفناه قليلاً؟"

"تقصدين أن نغمره في برميل مياه كبير؟"

"برميل مياه كبير! سأذهب وأملأ الحوض في المطبخ".

خلعـا قطـع القـماش النتنـة عـن الطفـل، "سـنرميها في الموقـد"، هكـذا قالـت السـيدة ورمتهـا نحـو الفنـاء، وشـق الـتراب الـذي كسـا الطفـل طريقـه إلى البالوعـة، وتحولـت أول مـلأة حـوض بالميـاه في الحـال إلى اللـون الأسـود، فرفعـا الطفـل منـه حتـى يفرغـاه ويعيـدا مـلأه، وقـد وقـف الطفـل متمايـلاً عـلى قدمـه الأفضـل، يقـف عاريًـا ويقطـر مـاءً، وتجـري عـلى جسـده نهـيرات صغـيرة مـن الميـاه البنيـة الرماديـة.

نظرا إلى الطفل، وتبادلا النظرات، ثم نظرا إليه مجددًا.

"(جون)، ربما أنا نظري ضعيف، أخبرني، أترى شيئًا لا أراه؟"

"لا".

"أي غلام! إنها فتاة صغيرة".

غليـا إنـاءً تلـو الآخـر، وحـكا جلدهـا وشـعرها بالصابـون، وأزالا الـتراب المتصلـب مـن تحـت أظفارهـا، بمجـرد أن أصبحـت نظيفـة، عقـما الملاقيـط وسـحبا الشـوكة مـن قدمهـا -جفلـت لكنهـا لم تبـكِ- وضمـدا الجـرح وغطيـاه، وحـكا بلطـف زيـت خـروع دافئًـا بالقـشرة المحيطـة بالعينـين، ووضعـا غسـول الكالامـين عـلى عضـات البراغيـث والفازلـين عـلى شـفتيها المتشـققتين الممزقتـين، ومشـطا شـعرها الطويـل المتشـابك لفـك تشـابكه، وضغطـا بعـض الأقمشـة البـاردة عـلى جبهتهـا وخديهـا المشـتعلين، وأخـيرًا،

لفاهـا فى منشـفة نظيفـة وأجلسـاها عنـد مائـدة المطبـخ، حيـث صبـت السـيدة ملاعـق الحسـاء فى فمهـا، وقـشر "جـون" لهـا تفاحـة.

تبتلـع الفتـاة رشـفات الحسـاء، وتنتـزع شرائـح التفـاح، لكنهـا تسـتطيع بلعهـا بسرعـة كافيـة، فقطعـت السـيدة شريحـة مـن العيـش وغطتهـا بالزبـد، فأكلتهـا الطفلـة بشراهـة.

راقباهـا، وجـدا عينيهـا بعدمـا نُظفتـا مـن القـشرة عبـارة عـن قطعـين مـن أخـضر الزمـرد، وجـف شـعرها ليصبـح أحمـر ذهبيًّـا لامعًـا، وعظـام خديهـا بـارزة وعريضـة وسـط وجههـا الجائـع.

قال "جون": "أتفكرين فى ما أفكر به؟"

"نعم".

"أسنخبره؟"

"لا".

"لكنها تنتمى إلى هذا المنزل".

"نعم".

فكرا لدقيقة أو اثنتين.

"ماذا عن الطبيب؟"

البقـع الورديـة فى وجـه الطفلـة ليسـت لامعـة جـدًّا، وحـين وضعـت السـيدة يدهـا عـلى جبهـة الطفلـة وجـدت حرارتهـا لا تـزال مرتفعـة.

"سنرى كيف ستبلى الليلة، وسنجلب الطبيب فى الصباح".

"إن كان ضروريًّا".

"نعم، إن كان ضروريًّا".

***

قالت السيدة "وينتر": "وقُضى الأمر، وبقيت فى المنزل".

"ماذا كان اسمك؟"

"حاولت السيدة مناداتى (مارى)، لكن الاسم لم يلتصق بى، ودعانى "جون" بـ"شادو"، لأننى التصقت به مثل ظله، علمنى القراءة بواسطة فهارس البذور فى الكوخ، لكننى اكتشفت المكتبة سريعًا، ولم تنادنى "إيميلاين" بأى اسم، لم تحتج إلى ذلك لأننى كنت دائمًا موجودة، تحتاجين إلى أسماء للغائبين فقط".

فكرت بشأن الأمر لوهلة فى صمت، الطفلة الشبح، بلا أم وبلا اسم، الطفلة التى كان وجودها سرًا، يستحيل ألا تتعاطف معها، ومع ذلك...

"ماذا عن (أوريليوس)؟ لقد عرفت كيف يكون الأمر حين تكبرين من دون أم! لماذا هُجر؟ والعظام التى وجدوها فى (آنجلفيلد).. لا بد أن (آديلاين) هى التى قتلت (جون ذا ديج)، لكن ماذا حدث لها بعد ذلك؟ أخبرينى، ماذا حدث فى ليلة الحريق؟"

كنا نتحدث فى الظلام، ولم أتمكن من رؤية تعبير وجه السيدة "وينتر"، لكنها بدت مرتجفة وهى تلقى نظرة على الجسد الذى على السرير.

"هلا جذبت الغطاء على وجهها، سأخبرك عن الرضيع، وسأخبرك عن الحريق، لكن أولاً، ربما يمكنك مناداة (جوديث)؟ فهى لم تعرف بعد، ويجب أن تتصل بالطبيب (كليفتون)، هناك أشياء يجب فعلها".

حين جاءت، كان اهتمام "جوديث" الأول بالأحياء، من أول نظرة إلى شحوب وجه السيدة "وينتر" أصرت على وضعها فى سريرها وجلب أدويتها قبل أى شىء، دفعنا كرسيها معًا إلى جناحها، وساعدتها

"جوديـث" فى ارتـداء ثـوب النـوم، ومـلأت أنـا زجاجـة ميـاه سـاخنة وطويـت غطـاء السريـر.

قالـت "جوديـث": "سـأهاتف الطبيـب (كليفتـون) الآن، هـلا بقيـت مع السـيدة (وينـتر)"، لكـن بعـد بضـع دقائـق فقـط ظهـرت مجـددًا فى مدخـل غرفـة النـوم وأشـارت لى للدخـول إلى غرفـة الانتظـار.

همســت إلى: "لم أتمكــن مــن الوصــول إليــه، لقــد عطلــت الثلــوج خطــوط الهاتــف".

لقد عُزلنا.

تذكــرت رقــم هاتــف الشرطــى عــلى قصاصــة الــورق فى حقيبتــى وشــعرت بالارتيــاح.

اتفقنـا عـلى أن أبقـى مـع السـيدة "وينـتر" لأول مناوبـة، حتـى تتمكـن "جوديـث" مـن الذهـاب إلى غرفـة "إيميلايـن" وتفعـل مـا يجـب فعلـه، وسـتريحنى لاحقًـا، حـين يحـين موعـد دواء السـيدة "وينـتر" التـالى.

ستكون هذه ليلة طويلة.

الرضيع

السيدة "وينتر" على سريرها الضيق، ولا يميز جسدها إلا أصغر التضاريس فى أغطية السرير، استرقت كل نفس بحذر، كأنها توقعت أن يُنصَب لها كمين فى أيَّة لحظة، سعى ضوء المصباح إلى رأسها: فغطى عظمتى خديها وأضاء القوس الأبيض بجبينها، فأغرق عينيها فى بركة عميقة من الظلال.

على ظهر مقعدى استقر شال حريرى ذهبى، فعلقته على المصباح لعله ينشر الضوء ويدفئه ويجعله يهبط بقسوة أقل على وجه السيدة "وينتر".

جلستُ بهدوء، وراقبتها بهدوء، وحين تكلمت، بالكاد سمعت همسها.

"الحقيقة؟ لنرَ..."

انجرفت الكلمات من بين شفتيها إلى الهواء، وتعلقت فيه مرتجفة، ثم وجدت طريقها وبدأت رحلتها.

***

لم أكـن طيبـة مـع "أمـبروز"، كان ذلـك بإمـكانى، ربمـا كنـت لأفعـل ذلـك فى عـالم آخـر، مـا كان الأمـر ليكـون بهـذه الصعوبـة: فقـد كان طويـلاً وقويًـا وشـعره ذهبـى تحـت الشـمس، وعرفـت أنـه معجـب بى، وأنـا لم أكـن غـير مباليـة بذلـك، لكننـى قسَّـيت قلبـى، فأنـا ملزمـة بـ"إيميلايـن".

سـألنى فى يـوم: "هـل أنـا غـير جيـد كفايـة بنظـرك؟" كان سـؤاله مباشرًا واضحًـا هكذا.

ادعيت أننى لم أسمعه، لكنه أصر.

"إن كنت غير جيد كفاية، فقليها إلى وجهى!"

قلت: "أنت لا تجيد القراءة، ولا تجيد الكتابة!"

ابتسـم، وأخـذ قلـمًا مـن عتبـة نافـذة المطبـخ وبـدأ بنقـش الحـروف عـلى قصاصـة ورق، كان بطيئًـا، والحـروف غـير متسـاوية، لكنهـا كانـت واضحـة كفايـة، "أمـبروز"، كتـب اسـمه وحـين انتهـى منـه، أخـذ الورقـة ورفعهـا إلى ليرينـى.

انتزعتها من يده، وشكلتها على هيئة كرة ورميتها إلى الأرض.

توقـف عـن المجـىء إلى المطبـخ فى اسـتراحة الشـاى خاصتـه، وشربـت الشـاى عـلى مقعـد السـيدة، مفتقـدة سـيجارتى، وأنـا أسـتمع إلى أصـوات خطواتـه أو إيقـاع مجرفتـه، حـين جـاء إلى المنـزل باللحـم، مـرر الكيـس بـلا كلام، يتفـادى تلاقـى نظراتنـا، وبوجـه مجمـد، لقـد استسـلم، وصادفـت لاحقًـا قصاصـة الـورق التـى عليهـا اسـمه وأنـا أنظـف المطبـخ، شـعرت بالخجـل مـن نفسـى ووضعـت الورقـة فى حقيبـة صيـده المعلقـة وراء بـاب المطبـخ، حتـى أبعدهـا عـن ناظـرىّ.

متـى أدركـت أن "إيميلايـن" حبـلى؟ بعـد بضعـة أشـهر مـن توقـف الفتـى عـن المجـىء لـشرب الشـاى، عرفـتُ قبـل أن تعـرف هـى نفسـها، فهـى بالـكاد كانـت لتلاحـظ التغـيرات فى جسـدها، أو لتـدرك العواقـب،

استجوبتها بشأن "أمبروز"، كان من الصعب جعلها تفهم معنى أسئلتى، وفشلت تمامًا فى إدراك سبب غضبى، "كان حزينًا للغاية" هو كل ما قالته لى، "لقد كنتِ فظة معه للغاية"، تكلمت بلطف جدًّا، يملؤها التعاطف تجاه الفتى، وموجهة عتابها إلى.

كان بإمكانى أن أصدمها.

"أنت تدركين أنك ستلدين رضيعًا، صحيح؟"

مر بوجهها ذهول ضعيف، ثم عاد لهدوئه السابق، بدا أن لا شىء يمكن أن يعكر سكونها.

صرفتُ "أمبروز"، أعطيته أجره حتى نهاية الأسبوع وأبعدته، لم أنظر إليه وأنا أتحدث إليه، لم أقدم له أى أسباب، وهو لم يسأل أى أسئلة، قلت له: "بإمكانك أيضًا المغادرة فى الحال"، لكن هذه لم تكن طريقته، بل أنهى غرس صف النباتات الذى قاطعته أنا، ونظف أدواته بدقة، مثلما علمه "جون"، وأعادها إلى كوخ الحديقة تاركًا كل شىء نظيف ومرتب، ثم طرق باب المطبخ.

"ماذا ستفعلين لتحصلى على اللحم؟ أتعرفين كيف تقتلين دجاجة على الأقل؟"

هززت رأسى نافية.

"تعالى".

هز رأسه باتجاه الحظيرة، وتبعته.

أرشدنى: "لا تضيعى أى وقت، أفضل طريقة هى أن تكونى نظيفة وسريعة، لا ترددى".

انقض على أحد الطيور ذات الريش النحاسى التى تنقر عند أقدامنا، وثبت جسدها بقوة، وقلَّد الحركة التى ستكسر عنقها، "أترين؟"

أومأت.

"أرينى إذًا".

أطلـق سراح الطائـر، الـذى سـقط إلى الأرض وأصبـح سريعًـا غـير مميـز وسـط أقرانـه.

"الآن؟"

"ماذا ستأكلان الليلة؟"

كانـت أشـعة الشـمس تلمـع عـلى ريـش الدجاجـات وهـى تنقـر الأرض لتتنـاول البـذور، مـددت يـدى إلى إحداهـا، لكنهـا هرولـت مبتعـدة، الثانية انزلقـت مـن بـين أصابعـى بالطريقـة نفسـها، حاولـت الإمسـاك بالثالثـة، وأمسـكت بهـا عـلى نحـو أخـرق، قرقـرت وحاولـت التخفيـق بجناحيهـا، وتسـاءلتُ كيـف حملهـا الفتـى بهـذه السـهولة، وأنـا أعـانى لأبقيهـا ثابتـة تحـت ذراعـى وألـف يـدىّ حـول عنقهـا فى الوقـت نفسـه، شـعرت بعينـى الفتـى الحادتـين تحملقـان إلى.

ذكَّرَنى: "بنظافـة وبسرعـة"، لقـد شـكك بى، يمكننـى استشـعار ذلـك مـن صوته.

سـوف أقتـل الطائـر، لقـد قـررت أن أقتلـه، لـذا ضغطـت وأنـا ممسـكة بعنـق الدجاجـة، لكـن يـدىّ لم تطيعـانى حتـى النهايـة، حلقـت صرخـة مختنقـة مـن حلـق الدجاجـة، وتـرددتُ للحظـة، فانزلقـت مـن تحـت ذراعـى بالتـواء وخفقـة جناحـين قويـة، حـدث ذلـك فقـط لأن الهلـع شـل حركتـى وأنـا ممسـكة بعنقهـا بـين يـدى، الجناحـان يضربـان، والمخلبـان يتخبطـان بجمـوح فى الهـواء، كادت الدجاجـة أن تترنـح مبتعـدة عنـى.

بسرعـة وبقـوة، أخـذ الفتـى الدجاجـة مـن قبضتـى وبحركـة واحـدة أنهـى الأمـر.

قدمها إلىّ وأجبرت نفسى على أخذها، كانت دافئة وثقيلة، وجامدة.

لمعت الشمس على شعره وهو ينظر إلى، كانت نظرته أسوأ من المخالب، وأسوأ من الأجنحة الضاربة، أسوأ من الجسد اللين بين يدى.

التفت وسار مبتعدًا دون أن ينطق كلمة.

ما نفع الفتى لى؟ لم يكن قلبى لى لأقدمه له، بل انتمى إلى أحد آخر، مثلما كان دائمًا.

لقد أحببت "إيميلاين".

وأعتقد أن "إيميلاين" أحبتنى أيضًا، لكنها أحبت "آديلاين" أكثر.

الأمر مؤلم أن تحب توأمين، حين تكون "آديلاين" موجودة، يمتلئ قلب "إيميلاين"، لم تكن لها حاجة إلىّ، وأُترك أنا بالخارج منبوذة، كأننى شىء زائد، مجرد مراقبة للتوأمين وتوأمهما.

يصبح بقلب "إيميلاين" مكان لأحد آخر فقط حين ذهبت "آديلاين" لتهيم وحيدة، حينئذ يصبح حزنها فرحى، استملتها إلى خارج وحدتها شيئًا فشيئًا، أقدم لها هدايا من الخيوط الفضية والحلى اللامعة، حتى كادت تنسى أن أحدًا قد هجرها، واستسلمت للصداقة والرفقة التى عرضتها، لعبنا بالبطاقات قرب الموقد، وغنينا، وتحدثنا، كنا سعيدتين معًا.

حتى تعود "آديلاين" غاضبة بسبب البرد والجوع، كانت تأتى إلى المنزل مهتاجة، وفى لحظة وصولها تأتى معها نهاية عالمنا الثنائى، وأصبح أنا بالخارج مجددًا.

لم يكن ذلك عادلاً، فمع أن "آديلاين" كانت تضربها وتشد شعرها، أحبتها "إيميلاين"، ومع أن "آديلاين" هجرتها، أحبتها "إيميلاين"، أيًّا كان ما تفعله "آديلاين"، لا شىء يتغير، لأن حب "إيميلاين" لها كان كاملاً، وأنا؟ كان شعرى نحاسيًّا مثل "آديلاين"، وعيناى خضراوين مثل

"آديلايـن"، وفى غيـاب "آديلايـن"، يمكننـى خـداع أى شـخص بجعلـه يظـن أننـى هـى، لكننـى لم أخـدع "إيميلايـن" قـط، لقـد عـرف قلبهـا الحقيقـة.

وضعت "إيميلاين" رضيعها فى يناير.

لم يعـرف أحـد بشـأن الأمـر، فقـد أصبحـت أكسـل مـع تضخـم حجمهـا، ولم يكـن صعبًـا عليهـا ألا تغـادر حـدود المنـزل، كانـت سـعيدة لبقائهـا بالداخـل، تتثـاءب فى المكتبـة، والمطبـخ، وغرفـة نومهـا، لم يلحـظ أحـد انسـحابها، ولمَ قـد يلحظـه أحـد؟ فالزائـر الوحيـد للمنـزل كان السـيد "لوماكـس"، وهـو يـأتى فى أيـام وسـاعات منتظمـة، والأمـر سـهل للغايـة أن أبعدهـا عـن طريقـه حـين يطـرق البـاب.

كان تواصلنـا مـع الآخريـن طفيفًـا، لأننـا مكتفيـات ذاتيًـا مـن اللحـوم والخـضراوات، لم أتعلـم قـط أن أحـب قتـل الدجاجـات، لكننـى تعلمـت قتلهـا، أمـا بقيـة المـؤن، فكنـت أذهـب إلى المزرعـة بنفسى لأجلـب الجـبن والحليـب، وحـين يرسـل المتجـر فتـى عـلى دراجـة باحتياجاتنـا الأخـرى مرة أسـبوعيًّا، أقابلـه عنـد الطريـق الخـاص، وأحمـل السـلة إلى المنـزل بنفـسى، ظننتـه سـيكون احتياطًـا معقـولاً أن يـرى أحـد إحـدى التوأمـين بـين الحـين والآخـر عـلى الأقـل، مـرة حـين بـدت "آديلايـن" هادئـة كفايـة، أعطيتهـا العملـة المعدنيـة وأرسـلتها لمقابلـة الفتـى عـلى الدراجـة، أتخيلـه يقـول حـين يعـود إلى المتجـر: "جـاءت لى الأخـرى اليـوم، الغريبـة"، وتسـاءلت عـما قـد يسـتنتجه الطبيـب مـن ذلـك، لـو بلغـت روايـة الصبـى أذنيـه، لكـن سريعًـا أصبـح مـن المسـتحيل اسـتخدام "آديلايـن" هكـذا، فحمـل "إيميلايـن" أثـر فى توأمهـا عـلى نحـو غريـب: فللمـرة الأولى فى حياتهـا اكتشـفت أن لهـا شـهية، وبعدمـا كانـت كيـس عظـام هزيـل، أصبـح لهـا منحنيـات ممتلئـة ونهـدان كامـلان، فى بعـض الأحيـان -فى ضـوء ضعيـف، ومـن زوايـا محـددة- حتـى أنـا لم أسـتطع التمييـز بينهـما للحظـات، لـذا فبـين الحـين والآخـر فى صباحـات الأربعـاء، أكـون "آديلايـن"، أعبـث بشـعرى،

وأوسخ أظفارى، وأرسم وجهًا صارمًا محتدًا، وأخرج إلى الطريق الخاص لمقابلة الفتى على الدراجة، وحين يرى سرعة مشيتى وأنا أتقدم عبر الطريق الخاص الحصَوى لمقابلته، كان يعرف إن كنت الأخرى، فأرى أصابعه تلتف بقلق حول مقود دراجته، يسلمنى السلة وهو يراقبنى خلسة، ثم يضع بقشيشه فى جيبه ويكون مسرورًا لأنه يبتعد، فى الأسبوع التالى، يقابلنى وأنا نفسى، وأجد فى ابتسامته صدى ارتياح.

لم يكن إخفاء الحمل صعبًا، لكننى كنت قلقة خلال أشهر الانتظار تلك بشأن الولادة نفسها، فقد عرفت ما يمكن أن تحمله مخاطر الولادة، والدة "إيزابيل" لم تنج من الولادة الثانية، ولم أستطع إبعاد هذه الفكرة عن رأسى لأكثر من بضع ساعات فى كل مرة، لم يكن هذا واردًا.. أن تعانى "إيميلاين"، وأن تُعرِّض حياتها للخطر، وعلى الجانب الآخر، لم يعد الطبيب صديقنا وأنا لم أرد وجوده بالمنزل، لقد رأى"إيزابيل" وأبعدها، لا يمكن السماح بحدوث ذلك لـ"إيميلاين"، لقد فصل "إيميلاين" و"آديلاين"، ولا يمكن السماح بحدوث ذلك لى و"إيميلاين"، وعلاوة على ذلك، كيف يمكن أن يأتى دون أن تحدث تعقيدات فورية؟ ومع أنه اقتنع -على الرغم من عدم فهمه للأمر- بأن الفتاة داخل الغشاوة اخترقت درع "إيميلاين" الدمية القماشية البكماء التى قضت فى السابق شهورًا معه، فإنه سيدرك الحقيقة فورًا إن عرف فجأة أن بمنزل "آنجلفيلد" ثلاث فتيات، خلال زيارة وحيدة منه من أجل الولادة، يمكننى حبس "آديلاين" فى الحضانة القديمة ولن يشعر الطبيب بالأمر، لكن بمجرد أن يُعرف أن هناك رضيعًا فى المنزل، لن تنتهى الزيارات، وسيكون مستحيلاً أن نحفظ سرنا.

كنت مدركة جيدًا لهشاشة وضعى، أدرك أننى أنتمى إلى هنا، أدرك أنه مكانى، ليس لى بيت سوى "آنجلفيلد"، ولا حب سوى "إيميلاين"، ولا حياة سوى هذه هنا، ومع ذلك لم تكن لدى أى أوهام بشأن كم سيبدو استحقاقى هشًّا فى نظر الآخرين، من أصدقائى؟ يصعب توقع

أن يدافع الطبيب عنى، ومع أن السيد "لوماكس" لطيف معى الآن، فإنه بمجرد أن يعرف أننى أنتحل شخصية "آديلاين"، سيكون حتميًا أن يتغير أسلوبه، تعلق "إيميلاين" بى وتعلقى بها لن يكون له أى وزن.

"إيميلاين" نفسها، الغارقة فى جهلها وسكونها، تركت أيام حبسها تمر بلا قلق، أما أنا فقد قضيت تلك الفترة فى عذاب من الحيرة، كيف أُبقى "إيميلاين" آمنة؟ كيف أبقى نفسى آمنة؟ فى كل يوم أؤجل القرار إلى اليوم التالى، كنت واثقة خلال الشهور الأولى بأن الحل سيأتى إلىَّ فى الوقت المناسب، ألم أحل كل المشكلات الأخرى مع أن ذلك لم يكن مرجحًا؟ إذًا فهذا أيضًا يمكن حله، لكن مع اقتراب الموعد، ازدادت المشكلة إلحاحًا، وأنا لم أقترب من الحل، ترددت لمدة دقيقة بين أخذ معطفى والذهاب إلى منزل الطبيب، فى التو واللحظة، لأخبره بكل شىء، والفكرة المضادة: أننى حتى أفعل ذلك سأكشف نفسى، وأن كشف نفسى لن يؤدى إلا إلى إبعادى.

غدًا، هكذا قلت لنفسى وأنا أعيد معطفى إلى الشماعة، سأفكر بحل غدًا.

لكن حينئذ كان قد فات الأوان.

أيقظتنى صرخة، "إيميلاين"!

لكنها لم تكن "إيميلاين"، فـ"إيميلاين" كانت تنفخ وتلهث، وتشخر وتتعرق كأنها وحش، وبرزت عيناها وأظهرت أسنانها، لكنها لم تصرخ، تغذت على ألمها وتحول إلى قوة بداخلها، الصرخة التى أيقظتنى، والصرخات التى ظلت تتردد بجميع أنحاء المنزل، لم تكن منها بل من "آديلاين"، ولم تتوقف حتى الصباح، حين وُلد رضيع "إيميلاين".

كان يوم السابع من يناير.

نامت "إيميلاين"، وابتسمت فى نومها.

حممـــتُ الرضيــع، وفتــح عينيــه وحملــق، مذهــولاً بملمــس الميــاه الدافئــة.

أشرقت الشمس.

جـاء وقـت اتخـاذ القـرارات وراح، ولم يُتخـذ أى قـرار، ومـع ذلـك هـا نحـن ذو، عـلى الشـاطئ الآخـر مـن الكارثـة، بأمـان.

يمكن لحياتى أن تستمر.

الحريق

بدا أن السيدة "وينتر" استشعرت وصول "جوديث"، فحين ظهرت مدبرة المنزل عند حافة الباب، وجدتنا صامتتين، جلبت لى الكاكاو على صينية، لكنها عرضت أيضًا أن تحل محلى إن أردت النوم، هززت رأسى: "أنا على ما يرام، شكرًا".

ورفضت السيدة "وينتر" حين ذكرتها "جوديث" بأنها يمكنها تناول المزيد من الأقراص البيضاء إن احتاجت إليها.

حين ذهبت "جوديث"، أغلقت السيدة "وينتر" عينيها مجددًا.

سألتُ: "كيف حال الذئب؟"

قالت: "هادئ فى الركن، ولم لا؟ إنه واثق بانتصاره، لذا فهو سعيد بانتظار الحين المناسب، يعرف أننى لن أحدث ضجيجًا، لقد اتفقنا على شروط".

"أى شروط؟"

"سيدعنى أنهى حكايتى، ثم سأدعه ينهينى".

حكت لى قصة الحريق، والذئب يعدّ المتبقى من الكلمات.

***

لم أفكر كثيراً بشأن الطفل قبل أن يولد، بالتأكيد درست الجوانب العملية لإخفاء رضيع فى المنزل، وكانت لدى خطة لمستقبله، إن تمكنا من إبقائه سرًّا لفترة، كانت نيتى أن أسمح بالمعرفة بوجوده لاحقًا، ومع أن هذا بلا شك سيثير القيل والقال، يمكن تقديمه على أنه الطفل اليتيم لأحد الأقارب البعيدين، وإن اختار الناس التساؤل حول نسبه الدقيق، فإن لهم مطلق الحرية فى ذلك، لا شىء بإمكانهم سيجبرنا على كشف الحقيقة، حين رسمت تلك الخطط، تصورت الرضيع على أنه مشكلة يجب حلها، ولم أضع فى اعتبارى أنه من لحمى ودمى، لم أتوقع أن أحبه.

إنه رضيع "إيميلاين"، وهذا سبب كافٍ، وهو ابن "أمبروز"، وهذا موضوع لم أسهب بالتفكير فيه، لكنه رضيعى أنا أيضًا، لقد ذهلت أمام بشرته اللؤلؤية، والنتوء الوردى فى شفتيه، والحركة المترددة ليديه الدقيقتين، غمرتنى رغبتى الشديدة فى حمايته: أردت حمايته من أجل "إيميلاين"، وأن أحميها من أجله، وأن أحمى كليهما من أجلى، حين كنت أشاهدهما معًا، لم أستطع إبعاد عينى عنهما، كانا جميلين، كانت رغبتى الوحيدة أن أبقيهما آمنين، وعرفت سريعًا أنهما بحاجة إلى وصى ليبقيهما بأمان.

شعرت "آديلاين" بالغيرة من الرضيع، تجاوزت تلك الغيرة غيرتها من "هيستر"، وغيرتها منى، بالطبع كان هذا متوقعًا، فـ"إيميلاين" كانت متعلقة بـ"هيستر"، وأحبتنى، لكن مشاعرها تجاه كلينا لم تمس قط

مستوى حبها لـ"آديلايـن"، لكـن الرضيـع، كان وضعـه مختلفًـا، اسـتحوذ الرضيـع عـلى كل مشـاعرها.

مـا كان يجـب أن أفاجـأ بحجـم الكراهيـة التـى لـدى "آديلايـن"، أعـرف مـدى البشـاعة التـى قـد يصـل إليهـا غضبهـا، ورأيـت مـدى عنفهـا، ولكـن يـوم فهمـت للمـرة الأولى الأشـواط التـى قـد تقطعهـا فى سـبيل ذلـك، صَعُـب عـلىّ التصديـق، فبينـما أنـا أمـر بغرفـة نـوم "إيميلايـن"، دفعـت البـاب بصمـت لأرى إن كانـت لا تـزال نائمـة، وجـدت "آديلايـن" فى الغرفـة منحنيـة أعـلى سريـر الرضيـع بجـوار سريـر "إيميلايـن"، ثـم اسـتدارت واجتازتنـى مندفعـة إلى خـارج الغرفـة، وتشـبثت يداهـا بوسـادة صغـيرة.

شـعرت بـضرورة أن أندفـع إلى سريـر الرضيـع، كان مسـتغرقًا فى النـوم، ويـداه مضمومتـان عنـد أذنيـه، ويتنفـس تنفـس الرضـع الخفيـف الرقيـق.

إنه بأمان!

حتى المرة التالية.

بـدأت أتجسـس عـلى "آديلايـن"، أصبـح عهـدى القديـم بحيـاة الأشـباح مفيـدًا مجـددًا، إذ راقبتهـا مـن وراء السـتائر وأشـجار الصنوبـر، كانـت تصرفاتهـا عشـوائية داخـل المنـزل وخارجـه، كانـت تنشـغل بتصرفـات متكـررة بـلا معنـى، بـلا تقيـد بوقـت أو بطقـس محـدد، كانـت تطيـع إمـلاءات تتجـاوز إدراكى، لكـن بالتدريـج اسـترعى أحـد أنشـطتها انتباهـى عـلى نحـو خـاص، إذ كانـت تذهـب إلى اسـتراحة العربـات مـرة ومرتـين وثـلاث مـرات يوميًـا وتغادرهـا فى كل مـرة حاملـة صفيحـة بنزيـن، تأخـذ الصفيحـة إلى المرسـم أو إلى المكتبـة أو إلى الحديقـة، ثـم يبـدو أنهـا تفقـد الاهتـمام، إنهـا تعـرف مـا تفعلـه، لكـن الفكـرة غـير تامـة الوضـوح، وهـى كثـيرة النسـيان، كنـت آخـذ الصفائـح فى غفلـة منهـا، تُـرى مـاذا اسـتنتجت مـن اختفـاء الصفائـح؟ لا بـد أنهـا ظنـت أن للصفائـح إرادة خاصـة بهـا، وأن بإمكانهـا التنقـل حسـب رغبتهـا، أو ربمـا اعتـبرت ذكرياتهـا عـن نقـل

الصفائح أحلامًا أو خططًا لم تتحقق بعد، وأيًا كان السبب، لم يبد أنها تجد اختفاء الصفائح غريبًا، لكن على الرغم من تمرد صفائح البنزين، استمرت فى جلبها من الاستراحة وإخفائها فى أماكن عدة بأنحاء المنزل.

بدا أننى أقضى نصف يومى فى إعادة الصفائح إلى الاستراحة، لكن فى أحد الأيام، ولعدم رغبتى فى ترك "إيميلاين" والرضيع نائمين بلا حماية، وضعت أحد الصفائح فى المكتبة، بعيدة عن الأنظار وراء الكتب وعلى رف مرتفع، وفكرت فى أن هذا قد يكون مكانًا أفضل، لأن بإعادتى للصفائح دائمًا إلى الاستراحة، كل ما كنت أفعله هو أن أضمن أن يستمر هذا إلى الأبد، كدوامة الملاهى، وبإخراج الصفائح من الدائرة تمامًا، ربما أضع نهاية لهذا الهراء.

مراقبتها أتعبتنى، أما هى! فلا تتعب أبدًا، بعض النوم يبقيها نشطة لفترة طويلة، يمكن أن تكون مستيقظة ونشيطة فى أيَّة ساعة من الليل، وأنا أنعس، وفى أحد الأيام، لاذت "إيميلاين" إلى سريرها بساعة مبكرة من المساء، وكان الفتى فى سريره بغرفتها، كان مصابًا بالمغص وظل مستيقظًا ويبكى طوال اليوم، لكنه الآن مستغرق فى النوم بعدما شعر بتحسن.

أسدلتُ الستائر.

حان الوقت لأتفقد "آديلاين"، كنت متعبة من كونى متيقظة دائمًا، أراقب "إيميلاين" وطفلها خلال نومهما، وأراقب "آديلاين" خلال صحوهما، بالكاد نمت مطلقًا، كم كانت الأجواء مسالمة فى الغرفة، تنفس "إيميلاين" يبطئنى ويجعلنى أسترخى، وبجواره نسمة الهواء الخفيفة التى يتنفسها الرضيع، أذكر الاستماع إليهما والتناغم بينهما، وأفكر بمدى طمأنة ذلك، أفكر بطريقة لوصفه -هكذا سليت نفسى دائمًا، أن أصف بالكلمات ما أراه وما أسمعه- وفكرت فى أننى يجب أن أصف كيف أشعر بأن تنفسهما يخترقنى ويستولى على أنفاسى، كأن

ثلاثتنا جزء من الشىء نفسه، أنا و"إميلاين" ورضيعنا، نحن الثلاثة بنفس واحد، سيطرت علىّ هذه الفكرة، وشعرت بنفسى أنجرف معهما، إلى النوم.

شىء ما أيقظنى، كنت مثل القطة أستيقظ قبل أن تُفتح عيناى، لم أتحرك، أبقيت تنفسى منتظمًا، وراقبت "آديلاين" من بين رموشى.

انحنت على سرير الرضيع ورفعته، وكانت فى طريقها إلى خارج الغرفة، كان بإمكانى أن أصرخ لأوقفها، لكننى لم أصرخ، فإن صرخت ستؤجل خطتها، لكن إن تركتها تستمر بها، تمكننى معرفة ما تنويه ووقفه لمرة وللأبد، تحرك الرضيع بين ذراعيها، كان يفكر فى الاستيقاظ، لم يحب أن يُحمل بين أى ذراعين غير ذراعى "إميلاين"، والرضع لا ينخدعون بالتوائم.

تبعتها هبوطًا إلى المكتبة، واختلست النظر عبر الباب الذى تركته مواربًا، كان الرضيع على المكتب، بجوار كومة كتب التى لم تُرد إلى رفوفها لأننى أعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا، وإلى جوار مستطيل الكتب المنظم، رأيت حركة فى ثنايا بطانية الرضيع، وسمعت همهماته المكتومة، لقد استيقظ.

كانت "آديلاين" راكعة على الأرض بجوار الموقد، أخذت قطع فحم من القفة، وجذوع أشجار من مكانها بجوار الموقد، وأودعتها فى الموقد بعشوائية، لم تكن تعرف الطريقة الصحيحة لإشعال الموقد، ولقد تعلمت من السيدة الترتيب الصحيح للأوراق والمادة الملتهبة، وقطع الفحم والجذوع، ونيران "آديلاين" عبارة عن شىء عشوائى وجامح لا يفترض أن يشتعل على الإطلاق.

ببطء تكشف ببالى ما كانت تنويه.

لن تنجح، أليس كذلك؟ كان بالرماد أثر دفء، لا يكفى ليشعل قطع فحم أو جذوع، وأنا لم أترك قط المادة الملتهبة أو الثقاب فى

المتناول، حريقها كان أخرق، لا يمكن أن يشتعل، عرفت أنه لا يمكن أن يشتعل، لكننى لم أستطع طمأنة نفسى، فرغبتها فى رؤية ألسنة اللهب كانت هى المادة الملتهبة التى تحتاج إليها، وكل ما احتاجت إلى فعله هو أن تبحث عن شىء لتشعلها به، سحرها الحارق كان قويًّا للغاية لدرجة أنها تستطيع إشعال النار فى المياه لو أرادت ذلك بشدة.

راقبتها برعب وهى تضع الرضيع الملفوف ببطانيته على قطع الفحم.

ثم جالت بنظرها فى الغرفة، عم تبحث؟

حين تحركت نحو الباب وفتحته، عدت قفزًا إلى الظل ولم تكشف تجسسى، كانت تبحث عن شىء آخر، انعطفت إلى الممر تحت السلم، واختفت.

ركضت نحو الموقد وأخرجت الرضيع من المحرقة، لففت بطانيته سريعًا حول وسادة من الأريكة أكلتها العثة ووضعتها على قطع الفحم مكانه، لكن لم يتبق وقت للهرب، سمعت خطوات على البلاط الحجرى، وصوت جر يحدثه كشط صفيحة البنزين بالأرض، وانفتح الباب بمجرد أن تراجعت إلى إحدى مدات المكتبة.

"صه، لا تبكِ الآن"، صليت بصمت، وحملت الرضيع قرب جسدى حتى لا يفتقد دفء بطانيته.

فحصت "إيميلاين" الموقد وهى تميل رأسها إلى الجانب، ما المشكلة؟ هل لاحظت التغيير؟ لكن يبدو أنها لم تلحظه، تجولت بعينيها فى الغرفة، ما الذى تبحث عنه؟

تحرك الرضيع، رعشة بذراعيه وركلة بقدميه وانقباضة بعموده الفقرى والتى عادة ما تسبق بكاءه، غيرتُ وضعية جسده، رأسه ثقيل على كتفى وأنفاسه على عنقى، "لا تبكِ، أرجوكَ لا تبكِ".

عاد لسكونه مجددًا، وعدت أنا للمراقبة.

كتبي التي على المكتب، الكتب التي لا أمر بها دون أن أفتحها على صفحة عشوائية، لأحظى بمتعة بضع كلمات، وتحية سريعة، كم يبدو هذا متناقضًا حين أرى الكتب بين يديها، "آديلاين" والكتب؟ بدا المشهد خطأ تمامًا، حتى حين فتحت الغلاف، فكرتُ للحظة طويلة وغريبة أنها سوف تقرأ.

مزقت الصفحات بملء يدها ونثرتها على المكتب وانزلق بعضها على الأرض، وحين انتهت من التمزيق، أمسكت حفنة منها وصنعت منها كرات، بسرعة! كانت أشبه بدوامة هوائية! مجلداتى الصغيرة المنظمة، فجأة أصبحت جبلاً من الورق، من المذهل أن كتابًا يمكن أن يحتوى على كل هذا الورق! أردت الصياح، لكن بماذا؟ كل الكلمات، الكلمات الجميلة، تمزقت وتكومت، وأنا فى الظلام عاجزة عن الكلام.

جمعت من الأوراق ملء ذراعيها ورمتها على قمة البطانية البيضاء فى الموقد، راقبتها تتردد من المكتب إلى الموقد ثلاث مرات، تمتلئ ذراعاها بالصفحات، حتى تكدس الموقد وارتفع بالكتب الممزقة، "جين أير"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"ذات الرداء الأبيض". سقطت كرات من الورق من قمة المحرقة، البعض الآخر تدحرج وصولاً إلى السجاد، لينضم إلى الكرات التى أسقطتها فى طريقها إلى الموقد.

توقفت إحدى الكرات عند قدمى، وهبطت بصمت لأستردها.

أوه! ذلك الشعور الشنيع الخاص بالورق المتجعد، كلمات جن جنونها، تطير فى كل الاتجاهات بلا معنى، لقد فُطر قلبى.

اجتاحنى الغضب، وحملنى مثل قطعة من حطام سفينة، لا أرى ولا أتنفس، اعتلج مثل المحيط فى رأسى، كان يمكن أن أصرخ، أو أن أقفز كالمجنونة من مخبئى وأفاجئها، لكن كنز "إيميلاين" كان بين ذراعى،

ولـذا وقفـت متفرجـة، أرتجـف وأنتحـب فى صمـت، فى حـين تدنـس أختهـا الكنـز الـذى يخصنـى.

فى النهايـة كانـت راضيـة بمحرقتهـا، ولكـن أيًّـا كان رأيـك، فـإن الجبـل فى الموقـد كان هـو الجنـون بعينـه، كانـت السـيدة لتقـول إنـه منقلِـب، ولـن يشـتعل أبـدًا، يجـب أن تكـون الأوراق فى الأسـفل، ولكـن حتـى إن أعدتـه "آديلايـن" عـلى نحـو سـليم فلـن يشـكل ذلـك فارقًـا، فهـى لـن تسـتطيع إشـعاله لأنهـا ليسـت تملـك ثقابًـا، وحتـى إن اسـتطاعت الحصـول عـلى ثقـاب، فإنهـا لـن تحقـق هدفهـا المتعلـق بالفتـى، الضحيـة التـى تقصدهـا، الـذى بـين ذراعـى، أمـا الجنـون الأكـبر مـن كل هـذا: لنفـترض أننـى لم أكـن موجـودة لأوقفهـا؟ لنفـترض أننـى لم أنقـذ الرضيـع وأنهـا أحرقتـه حيًّـا! كيـف تصـورت أن حـرق طفـل أختهـا سـيعيدها إليهـا؟

كان ذلك حريق امرأة مجنونة.

بـين ذراعـى تحـرك الرضيـع، وفتـح فمـه ليبـكى، مـاذا أفعـل؟ انسـحبت بخفـة وراء ظهـر "آديلايـن"، وهربـت إلى المطبـخ.

يجـب أن أوصـل الرضيـع إلى مـكان آمـن، ثـم أتعامـل مـع "آديلايـن" لاحقًـا، كان عقـلى يعمـل بشراسـة، يفكـر بخطـة تلـو الأخـرى، لـن يتبقـى لـدى "إيميلايـن" أى حـب لأختهـا حـين تعـرف مـا حاولـت فعلـه، سـنبقى أنـا وهـى، سـنخبر الشرطـة أن "آديلايـن" قتلـت "جـون ذا ديـج"، وهـم سـيأخذونها بعيـدًا، لا! سـنخبر "آديلايـن" أننـا سـنخبر الشرطـة إن لم تغـادر "آنجلفيلـد"، لا! ثـم فجـأة وجدتهـا! سـنترك "آنجلفيلـد"، نعـم! سـأغادر و"إيميلايـن" مـع الرضيـع، وسـنبدأ حيـاة جديـدة دون "آديلايـن" ودون "آنجلفيلـد"، لكـن معًـا.

وقـد بـدت الفكـرة بسـيطة جـدًّا لدرجـة أنى تعجبـت مـن أننـى لم أفكـر فيهـا مـن قبـل.

تتعلـق حقيبـة صيـد "أمـبروز" بخطـاف عـلى بـاب المطبـخ، ففككـت أبازيمهـا سريعًـا ولففـت الرضيـع بـين ثناياهـا، ووضعـت فى حقيبـة الصيـد تلـك الصفحـة مـن روايـة "جـين أيـر"، مـن أجـل الحمايـة، وملعقـة أخذتهـا مـن عـلى مائـدة المطبـخ، سـنحتاج إليهـا فى طريقنـا نحـو حياتنـا الجديـدة، وفى بـالى مسـتقبل مـشرق للغايـة لدرجـة أنـه بـدا حقيقـة أكـثر مـن الحاضر.

والآن إلى أيـن؟ مـكان ليـس بعيـدًا عـن المنـزل، حيـث لا شيء قـد يؤذيه، حيـث سيشـعر بالـدفء كفايـة خـلال بضـع الدقائـق التـى سأسـتغرقها حتـى أعـود إلى المنـزل وأجلـب "إيميلايـن"، وأقنعهـا باتباعـى.

ليـس فى اسـتراحة العربـات، فأحيانًـا تذهـب "آديلايـن" إلى هنـاك، بـل الكنيسـة، فهـذا مـكان لا تذهـب إليـه مطلقًـا.

ركضـت عـلى الطريـق الخـاص، وعـبر المدخـل المسـقوف، وإلى داخـل الكنيسـة، توجـد فى الصفـوف الأماميـة وسـائد منسـوجة صغـيرة للركـوع، رتبتهـا عـلى شـكل سريـر ووضعـت الرضيـع عليهـا بحقيبتـه الكتانيـة.

والآن، يجب أن أعود إلى المنزل.

كـدت أصـل حـين تحطـم مسـتقبلى، رأيـت شـظايا زجاجيـة تطـير فى الهـواء، ونافـذة تنكـسر تلـو الأخـرى، وشـعاع لهـب مشـئوم يطـوف فى المكتبـة، يظهـر إطـار النافـذة الفـارغ نـيران سـائلة تُـرش بالغرفـة، وصفائـح بنزيـن تنفجـر بسـبب الحـرارة، وجسـدين بشريـين.

"إيميلاين"!

ركضـت، تصـل رائحـة الحريـق إلى فتحتـى أنفـى حتـى وأنـا فى ردهـة المدخـل مـع أن الأرض والجـدران الحجريـة بـاردة ولـن يصـل إليهـا الحريـق، لكننـى توقفـت عنـد بـاب المكتبـة، الألسـنة يطـارد بعضهـا بعضًـا وهـى تصعـد السـتائر، رفـوف الكتـب مشـتعلة، والموقـد نفسـه جحيـم، والفتاتـان فى وسـط الغرفـة، تجمـدت مـكانى مندهشـة للحظـة وسـط

ضوضـاء وحـرارة الحريـق، لأن "إيميلايـن" السـاكنة، الطيِّعـة، تـرد الضربـة بضربـة، والركلـة بركلـة، والعضـة بعضـة، لم تـرد الأذى لأختهـا مـن قبـل، لكنهـا تفعـل هـذا الآن، مـن أجـل طفلهـا.

أرى ضـوءًا منفجـرًا تلـو الآخـر حولهـما وفـوق رأسـيهما مـع انفجـار صفائـح البنزيـن، والأمطـار الناريـة تهبـط عـلى الغرفـة.

أفتـح فمـى لأقـول لـ"إيميلايـن" إن الرضيـع بخـير، لكـن مـع أول نفـس أستنشـقه لا أجـد إلا حـرارة، وأختنـق.

أقفـز فـوق النـيران، وأخطـو مـن حولهـا، وأبعـد النـيران التـى تهبط على مـن الأعـلى، وأصـد النـيران بيـدى، وأضرب النـيران التـى تمسـك بملابـسى، حـين أبلـغ الأختـين دون أن أسـتطيع رؤيتهـما، لكننـى أمـد يـدى كالعميـاء عـبر الدخـان، لمسـتى تفاجئهـما فتتباعـدان عـلى الفـور، تـأتى لحظـة أرى فيهـا "إيميلاين"بوضـوح وهـى تـرانى، أمسـك بيدهـا وأجذبهـا عـبر ألسـنة اللهـب وعـبر الحريـق، حتـى وصلنـا إلى البـاب، لكنهـا تتوقـف حـين تـدرك مـا أفعلـه، أقودهـا بعيـدًا عـن النـار إلى الأمـان، فأشـدها بقـوة.

"إنه بأمان"، جاءت كلماتى أجشة مبحوحة، لكنها واضحة كفاية.

لِمَ لا تفهم؟

أحاول مجددًا: "الرضيع، لقد أنقذته".

بالتأكيـد سـمعتنى، أليـس كذلـك؟ لكنهـا تقاومنـى عـلى نحـو عجـزت عـن تفسـيره، وتنزلـق يدهـا مـن قبضتـى، أيـن هـى؟ لا أرى إلا الظـلام.

أتعثر إلى الأمام نحو ألسنة اللهب، وأصطدم بجسدها، فأمسك بها وأشد.

لكنها لا تبقى معى، بل تستدير وتعود إلى الغرفة مجددًا.

لِمَ؟

إنها معلَّقة بأختها.

إنها معلقة.

أتبعها إلى داخل الدخان بلا بصر وبرئتين تحترقان.

سأكسر الرابطة بينهما.

اقتحمت المكتبة وعيناى مغلقتان فى مواجهة الحرارة وأبحث وذراعى أمامى، لا أتركها حين تبلغها يداى وسط الدخان، لن أدعها تموت، سوف أنقذها، أجرها بشراسة إلى الباب وخارجه على الرغم من مقاومتها.

الباب مصنوع من البلوط وثقيل، ولا يحترق بسهولة، فأدفعه لأغلقه وراءنا، وأُعشّق مزلاج الباب.

تتقدم هى إلى جانبى وتوشك أن تفتحه مجددًا، هناك شىء أقوى من الحريق يجذبها إلى هذه الغرفة.

المفتاح الذى استقر فى القفل، غير المستخدم منذ أيام "هيستر"، ساخن، فيحرق كفى وأنا أديره، لم يؤذنى شىء آخر فى تلك الليلة، لكن المفتاح يكوى كفى وأشم رائحة جلدى وهو يحترق، تمد "إيميلاين" يدها لتقبض على المفتاح وتفتحه مجددًا، فيحرقها المعدن وتصيبها صدمة.

أجذب يدها بعيدًا.

تملأ رأسى صرخة قوية، أهى صرخة بشرية؟ أم هو صوت الحريق نفسه؟ لا أعرف حتى إن كانت آتية من داخل الغرفة أم من الخارج معى، تبدأ بداية حلقية وتستجمع قوتها وهى تتصاعد، وتصل إلى ذروة صاخبة، وحين أظن أن هذه نهاية نَفَسها، تستمر، بصوت منخفض وطويل على نحو مستحيل، صوت لا نهائى يملأ العالم ويبتلعه ويحتويه.

ثم يختفى الصوت ولا يتبقى سوى أجيج النار.

تهطل الأمطار خارج المنزل، والعشب غارق فى المياه، فهبطنا على الأرض، وتدحرجنا على العشب المبتل لنبلل ملابسنا وشعرنا الداخن بلا لهب، ونشعر بالبلل البارد على جلدنا المحروق، استقررنا على ظهرينا هناك، مسطحتين على الأرض، أفتح فمى وأشرب المطر، ويسقط على وجهى، ويبرد عينى، ويرتد إلىّ بصرى، لم أرَ قط سماء كهذه، لون أزرق داكن عميق به سحب سوداء أردوازية سريعة الحركة، والمطر يهبط بلون فضى كحواف الشفرات، وبين الحين والآخر يتصاعد من المنزل وابل من اللون البرتقالى اللامع، كأنه نافورة من النيران، وتقسم صاعقة السماء إلى شطرين، وتظل تقسمها مرارًا وتكرارًا.

الرضيع، يجب أن أخبر "إيميلاين" بشأن الرضيع، ستسر لأننى أنقذته، سيجعل هذا الأمور على ما يرام.

التفتُّ إليها وفتحت فمى لأتكلم، وجهها.

وجهها الجميل المسكين أمسى أسود وأحمر، يغطيه الدخان والدم والنار.

عيناها، نظرتها الخضراء مدمرة، لا ترى، ولا تعرف.

أنظر إلى وجهها ولا أجد فيه محبوبتى.

أهمس: "(إيميلاين)؟ (إيميلاين)؟"

لا ترد.

أشعر بموت قلبى، ماذا فعلتُ؟ هل قمتُ...؟ أيمكن أن...؟

لن أحتمل أن أعرف.

ولن أحتمل ألا أعرف.

"(آديلاين)؟" قلتها بصوت مكسور.

لكنها -هذه الإنسان، هذه الفتاة، هذه أو الأخرى، هذه قد تكون أو قد لا تكون، هذه الحبيبة، هذه الوحش، هذه التى لا أعرف من هى- لا ترد.

الناس يتوافدون، يجرون على الطريق الخاص، وهناك أصوات تنادى بتعجل فى الليل.

أنهض جاثمة وأركض سريعًا مبتعدة، وأظل منحنية ومختبئة، ويصل الناس إلى الفتاة على العشب، وحين يتأكد لى أنهم وجدوها أترك أمرها لهم، ثم ذهبت إلى الكنيسة، وعلقت الحقيبة على كتفى، وتشبثت بالرضيع فى حقيبته بجانبى، وانطلقت.

الغابة هادئة، فالمطر الذى تبطئ أوراق الشجر هبوطه، ينزل برقة على الأشجار المتشابكة، والطفل يتذمر ثم ينام، تحملنى قدماى إلى المنزل الصغير عند حافة الغابة، أعرف ذلك المنزل، رأيته كثيراً خلال سنوات حياة الأشباح، تعيش به امرأة وحدها، دائمًا ما اعتقدت أنها تبدو لطيفة وأنا أتجسس عليها عبر النافذة وهى تحوك أو تخبز، وحين أقرأ عن الجدات الطيبات والعرابات الخياليات فى الكتب، أزودهن بوجهها.

آخذ الرضيع إليها وأتطلع عبر النافذة مثلما فعلت من قبل، وأراها فى مكانها المعتاد قرب النار، تحوك وهى هادئة وتفكر، إنها تفكك ما حاكته، لا تفعل شيئًا سوى الجلوس وفك الغرز، والإبر على الطاولة بجوارها، هناك مكان جاف فى المدخل المسقوف للرضيع، فأضعه هناك وأنتظر وراء الشجرة.

فتحت الباب ورفعت الرضيع، وأدركت حين رأيت تعبير وجهها أنه سيكون بأمان معها، تنظر إلى الأعلى وحولها وباتجاهى، تبدو كأنها رأت شيئًا، هل أحدثت حفيفًا بأوراق الشجر فكشفت مخبئى؟ تمر ببالى فكرة أن أتقدم من مكانى، بالتأكيد ستصادقنى، أليس كذلك؟

ترددتُ، وغيرت الرياح اتجاهها، وشممت رائحة الحريق فى اللحظة نفسها مثلها، تلفتت بعيدًا ونظرت إلى السماء، وشهقت أمام الدخان المرتفع من البقعة التى يقف فيها منزل "آنجلفيلد"، ثم تظهر الحيرة على وجهها، قربت الرضيع إلى أنفها وشمته، انتقلت رائحة الحريق إليه من ملابسى، عندها ألقت نظرة أخرى إلى الدخان وتراجعت بخطوات حازمة إلى المنزل وأغلقت الباب.

أنا وحدى.

بلا اسم.

بلا منزل.

بلا عائلة.

أنا لا شىء.

ليس لى مكان أذهب إليه.

ليس لى أحد ينتمى إلىّ.

أحملق إلى كفى المحترقة لكننى لا أشعر بالألم.

ما أنا؟ هل أنا حتى على قيد الحياة؟

يمكننى الذهاب إلى أى مكان، لكننى سرت رجوعًا إلى "آنجلفيلد"، إنه المكان الوحيد الذى أعرفه.

أبرز من بين الأشجار وأقترب من المشهد، هناك سيارة إطفاء، والقرويون يتراجعون بدِلائهم، مذهولين بوجوه سوَّدها الدخان، ويراقبون رجال الإطفاء وهم يحاربون ألسنة اللهب، والنساء مذهولات بالدخان المتصاعد نحو السماء السوداء، هناك سيارة إسعاف، والطبيب "مودسلى" راكع بجوار جسد على العشب.

لا أحد يرانى.

أقف خفية على حافة كل ما يحدث، ربما أنا بالفعل لا شيء، ربما لا أحد يرانى مطلقًا، ربما مت فى الحريق ولم أدرك الأمر بعد، ربما أصبحت أخيرًا ما كنته دائمًا: شبحًا.

حينها نظرت إحدى النساء باتجاهى.

صاحت وهى تشير بإصبعها: "انظروا، إنها هنا!" فالتفت الواقفون وحملقوا، وركضت إحدى النساء لتنبيه الرجال، فصرفوا نظرهم عن الحريق ونظروا إلىّ، قال أحدهم: "الشكر للرب!"

فتحت فمى لأقول.. لا أعلم ماذا، لم أقل شيئًا، وقفت هناك فقط، أصنع أشكالاً بفمى، بلا صوت، وبلا كلمات.

الطبيب "مودسلى" بجانبى الآن: "لا تحاولى الكلام".

أحملق إلى الفتاة التى على العشب، ويقول الطبيب: "إنها ستنجو".

أنظر إلى المنزل.

ألسنة اللهب، كتبى، لا أظن أننى يمكننى تحمل هذا، أذكر صفحة "جين أير"، وكرة الكلمات التى أنقذتها من المحرقة، لقد تركتها مع الرضيع.

أبدأ البكاء.

يقول الطبيب لإحدى النساء: "إنها فى حالة صدمة، أبقيها دافئة وابقَى معها ونحن نوصل أختها إلى الإسعاف".

تأتى إلىّ امرأة، وتعبر عن قلقها بأصوات، وتخلع معطفها وتلفه حولى بحنان، كأنها تُلبس رضيعة، وتغمغم: "لا تقلقى، ستكونين بخير، وأختك على ما يرام، أوه، يا عزيزتى المسكينة".

رفعوا الفتاة من العشب ووضعوها على السرير النقال فى سيارة الإسعاف، ثم ساعدونى على الدخول وأجلسونى عكسها، وأخذونا إلى المشفى.

إنها تحملق إلى الفضاء، عيناها مفتوحتان وفارغتان، أتوقف عن النظر إليها بعد اللحظة الأولى، وينحنى المسعف فوقها، ويطمئن نفسه بأنها تتنفس، ثم يلتفت إلىّ.

"ماذا عن هذه اليد، ها؟"

تشبثت بيمناى فى يسراى، وعقلى غير مدرك للألم، لكن جسدى يفضحنى.

أخذ يدى، وسمحت له بفك أصابعى، هناك علامة منقوشة بعمق فى كفى، إنها علامة المفتاح.

يقول لى: "هذا سيُشفى، لا تقلقى، والآن هل أنت (آديلاين) أم (إيميلاين)؟"

يشير إلى الأخرى: "هل هذه (إيميلاين)؟"

لا أستطيع الإجابة، لا أستطيع الشعور بنفسى، لا أستطيع الحركة.

قال: "لا تقلقى، كلٌّ فى وقته".

يفقد الأمل فى جعلى أفهمه، ويتمتم من أجل منفعته الشخصية: "لكن مع ذلك، يجب أن ندعوك باسم ما، (آديلاين)، (إيميلاين)، (إيميلاين)، (آديلاين)، نصف ونصف، أليس كذلك؟ لا تقلقى، كل ذلك سيروح بالاغتسال".

وصلنا إلى المشفى، وانفتح باب سيارة الإسعاف، لا يوجد شىء إلا الضوضاء والصخب، أصوات تتكلم بسرعة، ثم رُفعت النقالة على حامل متحرك ودُفعت بعيدًا بسرعة، جلبوا لى كرسيًّا متحركًا وشعرت بيدين على كتفىّ: "اجلسى يا عزيزتى"، تحرك الكرسى وقال صوت من وراء ظهرى: "لا تقلقى يا صغيرتى، سنرعاك وأختك، أنت بأمان الآن يا (آديلاين)".

***

نامت السيدة "وينتر".

رأيت الضعف بفمها المفتوح، وخصلة من الشعر الجامح لم تستقم عند صدغها، وبدت خلال نومها مسنة للغاية، وشابة للغاية، أغطية السرير ترتفع وتنخفض على كتفيها الرقيقتين مع كل نفس لها، ومست حافة البطانية ذات الشريط وجهها عند كل انقباضة صدر، بدت غير مدركة لها، لكن مع ذلك انحنيت فوقها لأطوى الأغطية وأعيد لفافة الشعر الباهت إلى مكانها.

لم تتحرك، تساءلت إن كانت نائمة حقًّا أم أن هذه إغماءة؟

لا أستطيع أن أجزم لكم من الوقت راقبتها بعد ذلك، توجد ساعة، لكن حركات عقاربها بلا معنى كأنها خريطة لسطح البحر، أطبقت على موجة تلو الأخرى من الوقت وأنا أجلس بعينين مغلقتين، لست نائمة، بل منتبهة مثل أم تراقب تنفس طفلتها.

بالكاد أعرف ما يجب قوله عما حدث تاليًا، أيمكن أن التعب أصابنى بالهلوسة؟ هل غفوت وحلمت؟ أم هل تكلمت السيدة "وينتر" حقًّا للمرة الأخيرة؟

"سأوصل رسالتك إلى أختك".

هززت عينى لأفتحهما، لكن عينيها كانتا مغلقتين، بدا أنها مستغرقة فى النوم مثلما كانت من قبل.

لم أرَ الذئب حين أتى، لم أسمعه، لم يحدث إلا أننى أحسست بسكوت قبل الفجر بقليل، وأدركت أن التنفس الوحيد المسموع فى الغرفة هو تنفسى .

بدايات

الثلوج

ماتت السيدة "وينتر" وظلت الثلوج تتساقط.

حـين جـاءت "جوديـث"، وقفـت معـى لبعـض الوقـت عنـد النافـذة، وراقبنـا سـماء الليـل والضـوء يغزوهـا عـلى نحـو مقبـض، ثـم أرسـلتنى إلى سريـرى حـين أخبرنـا تغـير اللـون أبيـض أن الصبـاح قـد حـل.

استيقظت فى نهاية عصر اليوم.

الثلـوج التـى عطلـت الهاتـف بلغـت الآن حـواف النافـذة، ونصـف الأبـواب، لقـد عزلتنـا عـن بقيـة العـالم كأنهـا مفتـاح سـجن، وهربـت السـيدة "وينـتر"، كـذا السـيدة التـى أشـارت إليهـا "جوديـث" باسـم "إيميلايـن"، والتـى تجنبـتُ تسـميتها، وأصبح بقيتنـا، "جوديـث" و"موريس" وأنـا عالقـين.

كان القـط مضطربًـا، فقـد أزعجتـه الثلـوج، لم يحـب القـط هـذا التغـير فى عالمـه، وانتقـل مـن عتبـة نافـذة إلى أخـرى بحثًـا عـن عالمـه المفقـود، ومـاء بإلحـاح أمـام "جوديـث" و"موريـس" وأنـا، كأن اسـتعادة عالمـه

المفقود بأيدينا، وعند المقارنة، فقد اعتبر فقدان سيدته شأنًا صغيرًا، لو كان لاحظه من الأساس، ولم يزعجه على نحو حقيقى.

حاصرتنا الثلوج داخل امتداد جانبى من الوقت، ووجد كل منا طريقته الخاصة ليواكب الوضع، "جوديث" كانت هادئة، أعدت حساء الخضراوات ونظفت خزانات المطبخ، وحين لم تجد ما تفعله وضعت طلاء أظفارها ووضعت لوجهها مرطبًا، أما "موريس" فقد أغضبه الحبس وقلة النشاط، فلعب جولات بلا نهاية من ألعاب الورق، لكن حين اضطر إلى شرب الشاى أسود بسبب نقص الحليب، شاركته "جوديث" ألعاب الورق لتلهيه عن مرار مشروبه.

أما أنا فقضيت يومين أفرغ ملاحظاتى الأخيرة، وحين أكملتها وجدت أننى لا أكتفى بالقراءة، فحتى "شارلوك هولمز" لم يستطع الوصول إلىَّ فى ذلك المكان الحبيس بالثلوج، قضيت ساعة وحيدة فى غرفتى أدرس أحزانى، محاولة تسمية ما اعتقدت أنه عنصر جديد بها، أدركت أننى أفتقد السيدة "وينتر"، لذا اتجهت إلى المطبخ باحثة عن صحبة البشر، سُرَّ "موريس" للعب الورق معى، مع أننى لا أعرف إلا ألعاب الأطفال، وأعددت الكاكاو والشاى بلا حليب إلى أن تجف أظفار "جوديث"، ولاحقًا تركتها تهذب وتطلى أظفارى.

بهذه الطريقة انتظر ثلاثتنا والقط مرور الأيام، محبوسين مع ميتتنا ومع السنة الماضية التى مدت إقامتها.

فى اليوم الخامس سمحت لأحزان واسعة بأن تغلبنى.

غسلت الصحون وجففها "موريس" وأنا ألعب مع "جوديث" بالأوراق على المائدة، كنا مسرورين جميعًا ببعض التغيير، وحين انتهى غسل الصحون، انسحبت من رفقتهما إلى المرسم، أطلت نافذة المرسم على جزء من الحديقة محجوب عن الطقس، هنا لم ترتفع الثلوج كثيرًا، ففتحت النافذة وعبرت إلى اللون الأبيض بالخارج وخطوت على

الثلـوج، الأحـزان التـى أبقيتهـا تحـت السـيطرة لسـنوات، اعتمـادًا عـلى الكتـب ورفوفهـا، جاءتنـى كلهـا الآن، أسـلمت نفسى عـلى دكـة يحميهـا سـياج طويـل مـن الصنوبـر لحـزن يشـبه عـرض وعمـق الثلـوج التـى حـولى، وبالنقـاء نفسـه، بكيـت السـيدة "وينـتر" وشـبحها، و"آديلايـن" و"إيميلايـن"، بكيـت أختـى ووالـدتى ووالـدى، أمـا أكـثر وأصعـب مـا بكيتـه فـكان نفسى، حـزنى هـو حـزن الرضيعـة، التـى فُصلـت للتـو عـن نصفهـا الآخـر، إنـه حـزن طفلـة منكبـة عـلى صفيحـة قديمـة، تفهـم بعـض الأوراق عـلى نحـو صـادم ومفاجـئ، وحـزن امـرأة بالغـة، تجلـس باكيـة عـلى دكـة وسـط ضـوء وصمـت الثلـوج المثـيرة للهلوسـة.

حـين عـدت إلى نفـسى وجـدت الطبيـب "كليفتـون"، مـد ذراعـه حـولى وقـال: "أنـا أعـرف، أعـرف".

بالتأكيـد لم يعـرف، ليـس حقًّـا، لكـن هـذا مـا قالـه، وارتحـت أنـا لسـماعه، لأننـى عرفـت مـا يقصـده، كلنـا لنـا أحزاننـا، ومـع أن الحـدود الدقيقـة للحـزن وثقلـه وأبعـاده مختلفـة لـدى الجميـع، فـإن لـون الحـزن موجـود لدينـا جميعًـا، قـال: "أنـا أعـرف"، لأنـه بـشر، وبالتـالى فقـد عـرف بطريقـة مـا.

قادنى إلى الداخل، إلى الدفء.

قالت "جوديث": "يا عزيزتى، هل أجلب لك الكاكاو؟"

جذب لى "موريس" كرسيًّا وبدأ يغذى الموقد.

ارتشـفت الـكاكاو ببـطء، ووجـدت حليبًـا جلبـه الطبيـب حـين جـاء مـع المـزارع عـلى الجـرار.

طـوت "جوديـث" شـالاً حـولى، ثـم بـدأت تقشـير البطاطـس مـن أجـل العشـاء، أصـدر ثلاثتهـم التعليقـات بـين الحـين والآخـر -مـا قـد نتناولـه فى العشـاء، ومـا إذا كانـت الثلـوج أخـف الآن أم لا، وكـم ستسـتغرق عـودة

خطـوط الهاتـف للعمـل- وفى خضـم ذلـك، أخـذوا عـلى عاتقهـم مهمـة شـاقة وهـى ضـخ الحيـاة مجـددًا بعدمـا أوقفنـا المـوت جميعًـا فى متاهاته.

شيئًا فشيئًا، امتزجت التعليقات وأصبحت محادثة.

استمعت إلى أصواتهم، وبعد وهلة، انضممت إليهم.

عيد ميلاد سعيد

عدت إلى المنزل.

إلى متجر الكتب.

قلت لوالدي: "ماتت السيدة (وينتر)".

سألني: "وأنت؟ كيف حالك؟"

"على قيد الحياة".

ابتسم.

سألته: "أخبرني عن ماما، لمَ تتصرف هكذا؟"

قال لي: "كانت مريضة جدًّا حين ولدت، لم ترَكِ قط قبل أن تؤخذي منها، لم ترَ أختك قط، كانت على حافة الموت، وحين استعادت وعيها، كانت جراحتك انتهت وأختك..."

"أختي ماتت".

"نعـم، لم يكـن أحـد متأكـدًا بشـأن مصـيرك، كنـت أنتقـل مـن جوارهـا إلى جـوارك، ظننـت أننـى سـأفقد ثلاثتكـم، صليـت لـكل إلـه سـمعت بـه فى حيـاتى لينقذكـن، وأُجيبـت صلـواتى، جزئيًـا، إذ نجـوت أنـت، ووالدتـك لم تتعـافَ".

كنت بحاجة إلى معرفة شيء واحد.

"لِمَ لم تخبرنى أن لى توأمًا؟"

وجهـه الـذى التفـت إلىّ كان مدمـرًا، ازدرد ريقـه، وحـين تكلـم كان صوتـه أجشًـا: "قصـة مولـدك حزينـة، ظنـت والدتـك أنهـا أثقـل مـن أن تتحملهـا طفلـة، كنـت لأنقلهـا إليـك يـا (مارجريـت)، لـو اسـتطعت، لكنـت لأفعـل أى شيء لأجنبـك ذلـك".

جلسـنا فى صمـت، فكـرت فى كل الأسـئلة الأخـرى التـى قـد أسـألها، لكـن جـاءت اللحظـة التـى لا أحتـاج فيهـا إلى طرحهـا.

مددت يدى إلى يد والدى فى اللحظة نفسها التى مد هو يده إلىّ.

***

حضرت ثلاث جنازات فى ثلاثة أيام.

كان المعـزون بوفـاة السـيدة "وينـتر" كثرًا، وأعلنـت الأمـة الحـداد عـلى قاصتهـا المفضلـة وخـرج آلاف القـراء لتقديـم العـزاء، أمـا أنـا فغـادرت بـأسرع مـا يمكـن، فقـد ودعتهـا بالفعـل.

كانـت الثانيـة هادئـة، لم يحضرهـا إلا "جوديـث" و"موريـس" والطبيـب، وأنـا لرثـاء المرأة المشـار إليهـا طـوال العـزاء باسـم "إيميلايـن"، بعدهـا قلنـا وداعـات موجـزة وافترقنا.

أمـا الثالثـة فكانـت أكـثر وحـدة، فى محرقـة للجثـث فى بانـبرى، كنـت الوحيـدة الحـاضرة حـين أشرف قـس لـه ملامـح عاديـة عـلى عمليـة تمريـر

مجموعة من العظام مجهولة الهوية إلى يدى الرب، إنها بين يدى الرب، باستثناء أننى حصلت على جرة الرماد لاحقًا: "بالنيابة عن عائلة (آنجلفيلد)".

***

ظهرت زهور الثلج بـ"آنجلفيلد"، أو على الأقل أولى علامات ظهورها، تشق طريقها عبر الأرض المتجمدة وتظهر أطرافها، خضراء ومنعشة، أعلى طبقة الجليد.

سمعت صوتًا وأنا واقفة، إنه "أوريليوس" الذى وصل عند البوابة المسقوفة، وكان يحمل زهورًا والثلوج مستقرة على كتفيه.

"(أوريليوس)!" كيف أصبح بهذا الحزن؟ وهذا الشحوب؟ قلت له: "لقد تغيرت".

"لقد أرهقت نفسى فى مطاردة بلا طائل"، عيناه اللتان تبدوان دائمًا وديعتين، انفتح لونهما إلى أزرق باهت مثل سماء يناير، تُمكِن رؤية قلبه المفطور فى عينيه الشفافتين، "طوال حياتى أردت العثور على عائلتى، أردت أن أعرف من أنا، ومؤخرًا شعرت بالتفاؤل، ظننت أن فرصة للشفاء من هذا قد تأتى، والآن أخشى أننى كنت مخطئًا".

تمشينا بطول العشب بين المقابر، وأزحنا الثلوج عن الدكة وجلسنا قبل سقوط المزيد، فتش "أوريليوس" فى جيبه وفض غطاء قطعتين من الكعك، مد واحدة إلىَّ بشرود وغرس أسنانه فى الأخرى.

سألنى: "أهذا ما لديك لى؟" متطلعًا إلى علبة الجواهر، "أهذه بقية قصتى؟"

ناولته العلبة.



"أليست خفيفة؟ إنها خفيفة كالهواء، ومع ذلك..." ومد يده إلى قلبه في محاولة للإشارة إلى ثقل قلبه، ولما فشل في التعبير، وضع العلبة جانبًا وأخذ قضمة أخرى من الكعكة.

حين أنهى آخر قضمة تكلم: "لو كانت أمي، لِمَ لم أكن معها؟ لِمَ لم أمت معها في هذا المكان؟ لِمَ أبعدتني إلى منزل السيدة (لاف) ثم عادت إلى منزل يحترق؟ لماذا؟ الأمر ليس منطقيًا".

تبعته وانحرف هو عن الممر الرئيس وشق طريقه في متاهة الحدود الضيقة بين المقابر، توقف عند قبر نظرت إليه من قبل وترك زهوره، كان شاهد القبر بسيطًا.

"جوان ماري لاف".

"لا تُنسى أبدًا".

مسكين "أوريليوس"، كان مرهقًا للغاية، بالكاد ألاحظ وأنا أدس ذراعي تحت ذراعه، لكن حينها التفت لينظر إلي: "ربما من الأفضل ألا تكون لي قصة مطلقًا، ذلك أفضل من قصة تتغير باستمرار، لقد قضيت حياتي كلها أطارد قصتي، ولم أعرفها حقًّا، كنت أطارد قصتي، في حين أن السيدة (لاف) كانت لدي طوال الوقت، لقد أحبتني".

"لم أشك بهذا قط"، لقد كانت أمًّا صالحة له، أفضل مما قد تكون عليه الفتاتان، قلتُ: "ربما من الأفضل ألا تعرف".

التفت من شاهد القبر إلى السماء البيضاء: "أتظنين ذلك؟"

"لا".

"إذًا فلم تقترحين ذلك؟"

سحبت ذراعي من تحت ذراعه ودسست يديّ الباردتين تحت ذراعي معطفي، "إنه ما قد تقوله والدتي، إنها تعتقد أن قصة بلا وزن أفضل من قصة بالغة الثقل".

"إذًا فقصتى ثقيلة".

لم أعلق، وحين طال الصمت، لم أخبره قصته بل قصتى.

قلت: "كانت لى أخت، توأم".

حولت وجهى نحوه، كانت كتفاه جامدتين وعريضتين أمام السماء، واستمع بجدية إلى القصة التى صببتها إليه.

"كنا ملتصقتين، هنا..." وحركت يدى على جانبى الأيسر، "لم تستطع العيش من دونى، احتاجت إلى قلبى لينبض من أجلها، لكننى لم أستطع العيش معها، كانت تستنزف قوتى، ففصلونا، وماتت هى".

انضمت يدى إلى يدى الثانية على ندبى، وضغطتُ بقوة.

"لم تخبرنى والدتى قط، اعتقدت أن من الأفضل لى ألا أعرف".

"قصة بلا وزن".

"نعم".

"لكنك تعرفين".

ضغطت بقوة أكبر، "اكتشفت بالصدفة".

قال: "آسف لذلك".

شعرت بيديه تأخذان يدىّ، وضمهما على شكل قبضة كبيرة، ثم جذبنى إليه بذراعه الأخرى، شعرت بنعومة بطنه عبر طبقات من المعاطف، واندفعت ضوضاء إلى أذنى، وفكرت فى أنه نبض قلبه، إنه قلب بشرى، ويقف بجانبى، إذًا فهكذا صوته. فاستمعت.

ثم تباعدنا.

سألنى: "وهل من الأفضل أن تعرفى؟"

"لا يمكننى إخبارك، لكن بمجرد أن تعرف يستحيل أن تعود بالزمن".

"وأنت تعرفين قصتى".

"نعم".

"قصتى الحقيقية".

"نعم".

بالكاد تردد، أخذ نفسًا وبدا أنه يتضخم قليلاً.

قال: "من الأفضل أن تخبرينى إذًا".

حكيت له، وتمشينا وأنا أحكى له، وحين انتهيت كنا واقفين حيث تبرز زهور الثلوج عبر بياض الثلوج.

تردد "أوريليوس" وهو يحمل العلبة بين يديه: "لدى شعور بأن هذا مخالف للقواعد".

ظننت هذا أيضًا، "لكن ماذا أمامنا غير ذلك؟"

"القواعد لا تنطبق على هذه الحالة، أليس كذلك؟"

"لا يصح غير هذا".

"هيا بنا إذًا".

استخدمنا سكين الكعكة لنحت فراغ فى الأرض المجمدة أعلى نعش المرأة التى عرفتها باسم "إيميلاين"، قلب "أوريليوس" الرماد فيها، وأعدنا التربة لتغطيه، ضغط "أوريليوس" بكل وزنه، ثم أعدنا ترتيب الزهور لإخفاء عبثنا.

قال: "سيظهر مع ذوبان الثلوج"، ومسح الثلوج عن بنطاله.

"(أوريليوس)، يوجد المزيد فى قصتك".

قدته إلى جزء آخر من باحة الكنيسة، "أنت تعرف بشأن والدتك الآن، لكنك كان لك أب أيضًا"، أشرت إلى شاهد قبر "أمبروز"، "حرفى

الـ(إيـه) والـ(إس) عـلى الورقـة التـى أريتهـا لى، كان ذلـك اسـمه، وحقيبتـه أيضًـا، كانـت تسـتخدم فى حمـل الصيـد، وهـذا يفـسر وجـود الريشـة".

سـكتُّ لوهلـة، كان ذلـك كثـيرًا عـلى "أوريليـوس"، وحـين أومـأ بعـد وهلـة طويلـة، تابعـت: "كان رجـلاً صالحًـا، أنـت تشـبهه جـدًا".

حملـق "أوريليـوس" مبهـورًا، فكلـما عـرف أكـثر، فَقَـد أكـثر، "إنـه ميـت، أعـرف ذلك".

قلـت برقـة: "هـذا ليـس كل شيء"، أدار عينيـه ببـطء نحـوى، وقـرأت فيهـما الخـوف مـن أن قصـة التخـلى عنـه لا نهايـة لهـا.

أخذت يده، وابتسمت له.

"بعد ولادتك تزوج (أمبروز)، وأنجب مرة أخرى".

اسـتغرقه الأمـر وهلـة ليـدرك مـا يعنيـه ذلـك، وحـين أدركـه، أعـادت هـزة مـن الحـماس جسـده إلى الحيـاة: "أتقصديـن.. أن لى.. وهـى.. هـو.. هـى..."

"نعم! أخت!"

أصبحت الابتسامة عريضة على وجهه.

تابعت: "وهى لديها طفلان، ولد وفتاة!"

"ابنة أخت! وابن أخت!"

أخـذت يديـه بيـدى لأمنعهـما مـن الارتجـاف، "إنهـا عائلـة يـا (أوريليـوس)، عائلتـك، أنـت تعرفهـم بالفعـل، وهـم ينتظرونـك".

بالـكاد اسـتطعت مجاراتـه ونحـن نمـر عـبر البوابـة المسـقوفة ونمـد الخطـى عـلى الطريـق المشـجر المـؤدى إلى بيـت الحـارس الأبيـض، لم ينظـر "أوريليـوس" إلى الـوراء، ولم نتوقـف إلا عنـد بيـت الحـارس، وكان هـذا بسـببى.

"(أوريليوس)! كدت أنسى أن أعطيك هذا".

أخذ المغلف الأبيض وفتحه، والبهجة تشتته، أخرج البطاقة وتطلع إليّ: "ماذا؟ ليس حقًّا؟"

"نعم، حقًّا".

"اليوم؟"

"اليوم! تلبّسنى شىء فى هذه اللحظة، وفعلت شيئًا لم أفعله بحياتى قط ولم أتوقع أيضًا أن أفعله، فتحت فمى وصحت بأعلى صوتى، "عيد ميلاد سعيد!"

لا بد أننى كنت مجنونة قليلاً، وعلى أيّة حال، فقد شعرت بالخجل، لا أقصد أن "أوريليوس" قد يهتم لهذا، كان واقفًا بلا حركة، وذراعاه ممدودتان إلى جانبيه، وعيناه مغلقتان ووجهه متجه إلى السماء، كل سعادة العالم تهبط عليه مع الثلوج.

فى حديقة "كارين"، حملت الثلوج آثار ألعاب المطاردة، آثار أقدام صغيرة وآثار أقدام أصغر تطارد بعضها فى دوائر واسعة، لم يكن الطفلان فى أى مكان ظاهر، لكن كلما اقتربنا كنا نسمع أصواتهما آتية من الفجوة فى شجرة الصنوبر.

"لنلعب لعبة (سنو وايت)".

"هذه قصة للفتيات".

"ما القصة التى تريد أن تلعبها؟"

"قصة عن الصواريخ".

"لا أريد أن أكون صاروخًا، لنكن قوارب".

"كنا قوارب بالأمس".

حين سمعا صوت مزلاج الباب تطلعا إلى خارج الشجرة، "هل أخبركم من هذا؟" هكذا سألت طفليها وهى تبتسم بخجل لـ"أوريليوس"، "هذا خالكم".

بدل "أوريليوس" نظراته بين الطفلين و"كارين"، بالكاد كانت عيناه كبيرتين كفاية لتريا كل شيء أراده، كان عاجزاً عن التعبير، لكن "كارين" مدت يدها مترددة، وأخذها بيده.

بدأ كلامه: "الأمر كله..."

وافقته هى: "أليس كذلك؟ لكننا سنعتاد الأمر، صحيح؟"

أومأ.

كان الطفلان يحملقان بفضول إلى البالغين.

سألتهما "كارين" لتلهيهما: "ماذا تلعبان؟"

أجابت الفتاة: "لا نعرف".

وقال أخوها: "لا نستطيع أن نقرر".

سألت "إيما" "أوريليوس": "أتعرف أيَّة قصص؟"

قال لها: "واحدة فقط".

اندهشت: "واحدة فقط؟ أبها أيَّة ضفادع؟"

"لا".

"ديناصورات؟"

"لا".

"ممرات سرية؟"

تبادل الطفلان النظرات، فهذه ليست قصة دسمة، على ما يبدو.

قال "توم": "نحن نعرف الكثير من القصص".

رددت هـي عـلى نحـو حـالم: "الكثـير، أمـيرات، وضفـادع، وقصـور سـحرية، وعرابـات..."

"يرقات، وأرانب، وأفيال..."

"جميع أنواع الحيوانات".

"جميع أنواعها".

خيـم عليهـما الهـدوء، مسـتغرقين فى تأمـل مشـترك للعـوالم المختلفـة التـى لا تُحـصى.

شاهدهما "أوريليوس" كأنهما معجزة.

ثم عادا إلى العالم الحقيقى، قال الفتى: "ملايين القصص".

سألت الفتاة: "هل أخبرك قصة؟"

ظننـت أن "أوريليـوس" قـد عـرف مـا يكفـى مـن القصـص ليـوم واحـد، لكنـه أومأ.

التقطـت غرضًـا خياليًـا ووضعتـه فى راحـة يدهـا اليمنـى، وقلـدت بيسراهـا حركـة فتـح غـلاف كتـاب، واسـترقت نظـرة لتتأكـد مـن أنهـا تحظـى بكامـل انتبـاه رفاقهـا، ثـم عـادت عيناهـا إلى الكتـاب بـين يديهـا، وبـدأت.

"فى يوم من الأيام..."

"كارن" و"تـوم" و"أوريليـوس"، ثلاثـة أزواج مـن الأعـين كلهـا تسـتقر عـلى "إيمـا" وقصّهـا، سـيكونون جميعًـا عـلى مـا يـرام معًـا.

تراجعـت مـن البوابـة وانسـللت بعيـدًا بطـول الشـارع دون أن يلاحـظ أحد.

الحكاية الثالثة عشرة

لـن أنـشر السـيرة الذاتيـة للسـيدة "فيـدا وينـتر"، ربمـا العـالم متشـوق لمعرفـة القصـة، لكنهـا ليسـت قصتـى لأحكيهـا، "آديلايـن" و"إيميلايـن"، الحريـق والشـبح، كلهـا قصـص خاصـة بـ"أوريليـوس" الآن، كـذا المقابـر التـى فى باحـة الكنيسـة خاصـة بـه، وعيـد الميـلاد الـذى يسـتطيع تحديـده بحسـب مـا يريـد، فالحقيقـة ثقيلـة كفايـة مـن دون الثقـل الإضـافى لعيـون العـالم عـلى كتفيـه، وإن أرادا، يمكنـه و"كاريـن" أن يطويـا الصفحـة، وأن يبـدآ مـن جديـد.

لكـن الوقـت يمـر، وفى يـوم مـن الأيام لـن يكـون "أوريليـوس" موجـودًا، و"كاريـن" أيضًـا سـتغادر هـذا العـالم، والطفـلان، "تـوم" و"إيمـا"، بعيـدان عـن الأحـداث التـى حكيتهـا هنـا أكـثر مـن خالهـما، وبمسـاعدة والدتهـما، بـدآ ينسـجان قصصهـما الخاصـة، قصـص قويـة ومتماسـكة وحقيقيـة، سـيأتى يـوم تكـون فيـه "إيزابيـل" و"تشـارلى"، و"آديلايـن" و"إيميلايـن"، والسـيدة و"جـون ذا ديـج"، والفتـاة التـى بـلا اسـم، قدمـاء جـدًا لدرجـة أن عظامهـم القديمـة لـن تتحـلى بأيّـة قـوة لتثـير الخـوف أو الألم، لـن

يكونوا أى شىء إلا قصة قديمة، غير قادرة على إيذاء أحد، وحين يأتى ذلك اليوم -سأكون أنا نفسى مسنة- سأعطى "توم" و"إيما" هذه الحكاية، ليقرآها، ولينشراها إن قررا ذلك.

آمل أن ينشراها، لأن إلى أن يفعلا ذلك، ستظل روح تلك الطفلة الشبح تطاردنى، ستتجول فى خواطرى، وستبقى فى أحلامى، وستكون ذاكرتى ملعبها الوحيد، لم أقدم لها الكثير بهذا الإحياء بعد وفاتها، لكنها على الأقل ليست منسية، سيكون هذا كافيًا، حتى اليوم الذى ينشر فيه "توم" و"إيما" هذا النص، وستكون قادرة على الوجود أكثر بعد موتها، أكثر مما عاشت قط.

وبالتالى، فإن قصة الفتاة الشبح لن تُنشر لسنوات عدة، إن نُشرت من الأساس، لكن ذلك لا يعنى أنى ليس لدى ما أعطيه للعالم فى الحال لإرضاء فضوله بشأن "فيدا وينتر"، لأن لدى شيئًا ما، ففى نهاية اجتماعى الأخير مع السيد "لوماكس"، كنت على وشك المغادرة حين أوقفنى قائلاً: "هناك شىء آخر بعد"، وفتح مكتبه وأخرج مظروفًا.

كان ذلك المظروف معى حين انسللت دون أن يلاحظنى أحد إلى خارج حديقة "كارين" وحولت خطاى نحو بوابات المنزل، لقد سويت الأرض من أجل الفندق الجديد، وحين حاولت تذكر المنزل القديم، لم أجد إلا صورًا فوتوجرافية فى ذاكرتى، لكن حينئذ وردت ببالى فكرة أنه بدا دائمًا مواجهًا للجهة الخطأ، لقد كان ملتويًا، سيكون المبنى الجديد أفضل، سيواجه الناظر مباشرة.

انحرفت من ممر الحصى لأعبر العشب المغطى بالثلوج إلى حديقة الغزلان القديمة والغابة، كانت أفرع الأشجار المظلمة مثقلة بالثلوج، التى تهبط منها أحيانًا كتل كبيرة لينة عند مرورى، وصلت أخيراً إلى النقطة المرتفعة عند المنحدر، يمكنك رؤية كل شىء من هنا، الكنيسة ومقابرها، وأكاليل الزهور الزاهية على الجليد، وبوابات المنازل

البيضاء كالطباشير تحت السماء الزرقاء، واستراحة العربات المجردة من غطائها، لم يختفِ إلا المنزل، وقد اختفى تمامًا، قلص الرجال ذوو الخوذات الصفراء الماضى إلى صفحة فارغة، وقد بلغنا نقطة التحول، لم يكن ممكنًا أن يُطلق على هذا موقع هدم، فغدًا، أو ربما اليوم، سيعود العمال وسيصبح موقع بناء، هُدم الماضى، وحان الوقت ليشرعوا فى بناء المستقبل.

أخرجت المظروف من الحقيبة، لقد كنت أنتظر الوقت المناسب، والمكان المناسب.

الحروف التى على المظروف مرسومة بشكل خاطئ على نحو غريب، جرات القلم غير المتساوية إما متلاشية إلى لا شيء وإما محفورة فى الورقة، لم تعطِ أى انطباع بالسلاسة: كل حرف أعطى انطباعًا بأنه قد اكتمل على نحو فردى، وبجهد كبير، والتالى فقد رُسم كأنه مغامرة جديدة شاقة، كأن الحروف قد كُتبت بيد طفل أو شخص مسن للغاية، والمظروف موجه للآنسة "مارجريت ليا".

نقضت الظرف وأخرجت محتوياته، وجلست على شجرة مبتورة لأقرأها، لأننى لم أقرأ شيئًا واقفة قط.

عزيزتى مارجريت،

إليك النص الذى أخبرتك عنه.

حاولت أن أنهيه، ووجدت أننى لا أستطيع، لذا فإن هذه القصة التى أحدث العالم ضجة كبيرة جدًا بشأنها يجب أن تنجح على حالها، إنها شىء واهٍ: شىء من لا شىء، افعلى بها ما تشائين.

أما العناوين، فإن العنوان الذى يثب إلى بالى هو "طفلة سندريلا"، لكننى أعرف كفاية بشأن القراء لأفهم أن أيًّا كان الاسم الذى سأختار لها، ستُعرف للأبد بعنوان واحد، ولن يكون عنوانى.

لم تحمل الرسالة توقيعًا، ولا اسمًا.

لكن القصة موجودة.

كانت قصة "سندريلا"، كأننى لم أقرأها من قبل، كانت مقتضبة وصعبة وغاضبة، كانت عبارات السيدة "وينتر" شظايا زجاجية، براقة وقاتلة.

تخيل هذا، تبدأ القصة، ويوجد فتى وفتاة، الفتى غنى، والفتاة فقيرة، فى غالب الأحيان تكون الفتاة هى من لا تملك الذهب، وهذه هى الحال فى قصتنا هذه، لم تكن هناك حاجة إلى حفل، فتمشية فى الغابة كانت كافية ليتعثر كل منهما بمسار الآخر، وفى يوم من الأيام كانت هناك عرابة ساحرة، لكنها لم تبقَ إلى الأبد، وهذه القصة عن واحدة من مرات غيابها، وعربة فتاتنا عادية، تزحف إلى منزلها بعد منتصف الليل، وعلى ثوبها التحتىّ دماء لأنها اغتُصبت، ولن يأتى خادم إلى بابها بحذاء فرو فى اليوم التالى، وهى تعرف ذلك بالفعل، إنها ليست غبية، بل هى حبلى.

فى بقية القصة، تلد "سندريلا" طفلة، وتربيها فى الفقر والقذارة، وتتخلى عنها بعد بضع سنوات فى أرض المنزل المملوك لمغتصبها، وتنتهى القصة فجأة.

تشعر الطفلة بالبرد والجوع فى منتصف طريق فى حديقة لم تذهب إليها من قبل، وتدرك فجأة أنها وحيدة، وراءها باب الحديقة المؤدى إلى الغابة، والذى يظل مواربًا، ألا تزال والدتها وراءه؟ وأمامها كوخ،

يبدو لعقلها الطفولى مثل منزل صغير، مكان قد تلجأ إليه، ومن يعرف، ربما يوجد به شىء يؤكل.

باب الحديقة؟ أم المنزل الصغير؟

الباب؟ أم المنزل؟

تتردد الطفلة.

تتردد...

وتنتهى القصة هنا.

أهى أقدم ذكرى لدى السيدة "وينتر"؟ أم أنها مجرد قصة؟ أم قصة ابتكرتها طفلة واسعة الخيال لتملأ الفراغ الذى كان يجب أن تشغله والدتها؟

الحكاية الثالثة عشرة، القصة الأخيرة، الأشهر، غير المنتهية.

قرأت القصة وحزنت.

بالتدريج تحولت أفكارى بعيدًا عن السيدة "وينتر" وإلى نفسى، ربما والدتى ليست مثالية، لكن على الأقل لى أم، هل فات أوان الأمل؟ لكن هذه قصة أخرى.

وضعت المظروف فى حقيبتى، ووقفت، ومسحت غبار لحاء الشجرة عن بنطالى قبل العودة إلى الطريق.

كنت ملزمة بكتابة قصة حياة السيدة "وينتر"، وقد فعلتها، لا يوجد شىء آخر أحتاج إلى فعله لأتمم شروط التعاقد، إحدى نسخ هذه الوثيقة ستودع لدى السيد "لوماكس"، الذى سيخزنها فى خزانة بنك ثم سيرتب اللازم ليحول لى مبلغًا ضخمًا من المال، من الواضح أنه ليس مضطرًا حتى إلى تفقد ما إذا كانت الصفحات التى قدمتها إليه بيضاء.

قال لى: "لقد وثقت بك".

من الواضح أنها وثقت بى، تبدو نواياها فى العقد الذى لم أقرأه ولم أوقعه جلية جدًّا، أرادت أن تحكى لى القصة قبل أن تموت، أرادتنى أن أسجلها، ما أفعله بها بعد ذلك كان قرارى، أخبرت المحامى بشأن نواياى تجاه "توم" و"إيما"، وحددنا موعدًا لإضفاء طابع رسمى عليها فى صورة وصية احتياطية، وهذا يجب أن تكون نهاية الأمر.

لكننى لا أشعر أنى قد تجاوزت التجربة حقًّا، لا أعرف مَن سيقرأ هذا فى النهاية، أو كيف، لكن لا يهم إن كانوا قلة، ولا يهم إن حدث ذلك بعد زمن بعيد، فأنا أشعر بالمسئولية تجاههم، ومع أننى حكيت لهم كل ما تُمكِن معرفته عن "آديلاين" و"إيميلاين" والطفلة الشبح، أدرك أن هذا لن يكون كافيًا بنظر البعض، أعرف كيف يكون الأمر أن تُنهى كتابًا وتجد نفسك تتساءل بعد يوم أو أسبوع، عما حدث للجزار، أو من حصل على الماس، أو ما إذا كانت الأرملة الغنية قد اجتمعت مع ابنة أختها مجددًا، يمكننى تخيل القراء يتفكرون فى ما حدث لـ"جوديث" و"موريس"، وإذا ما كان أحدٌ ظل يهتم بالحديقة البهية، ومَن انتقل للعيش فى المنزل.

لذا، إن كنت تتساءل، دعنى أخبرك، بقت "جوديث" و"موريس" فى المنزل، والمنزل لم يُبع، فقد أضيف شرط فى وصية السيدة "وينتر" يفيد بأن يُحول المنزل والحديقة إلى متحف للأدب، بالتأكيد الحديقة هى ما تحمل القيمة الحقيقية (إنها "جوهرة غير معروفة" بحسب ما وصفتها مجلة بستنة فى وقت مبكر)، لكن السيدة "وينتر" أدركت أن سمعتها فى قص القصص ستجذب الحشود أكثر من مهاراتها فى البستنة، ولذا سيضم المتحف جولات بالغرف، ومحل شاى، ومتجر كتب، يمكن للحافلات التى تجلب السياح إلى متحف "برونتى" أن تأتى بعدها إلى حديقة (فيدا وينتر) السرية"، ستستمر "جوديث" فى

منصب مدبرة للمنزل، و"موريس" مديرًا للبستنة، مهمتهما الأولى، قبل أن يمكن بدء تحويل المنزل إلى متحف أن يفرغا سكن "إيميلاين"، فهذا لن تسمح بزيارته، لأن لا شىء به يُرى.

أما "هيستر"، وهذا سيفاجئك، فقد فاجأنى بالطبع، وصلتنى رسالة من "إيمانويل درايك"، ولأصدقكم القول فقد نسيت أمره تمامًا، لقد كان يباشر أبحاثه ببطء وبأسلوب منهجى، وعلى الرغم من كل الصعاب، وجدها، "لقد ضللتنى الصلة بإيطاليا"، بحسب ما وضح فى رسالته، "فى حين ذهبت معلمتك المنزلية بالاتجاه الآخر تمامًا، إلى أمريكا!"، عملت "هيستر" لمدة عام مساعدة كتابية لمتخصص أكاديمىّ فى علم الأعصاب، وحين انتهت السنة، خمِّنوا من جاء لينضم إليها؟ الطبيب "مودسلى"! فقد ماتت زوجته (لا لشىء أكثر شرًا من الأنفلونزا، لقد بحثت الأمر)، وخلال أيام من الجنازة كان على متن قارب، إنه تأثير الحب، وكلاهما ميت الآن، لكن بعد حياة سعيدة ومديدة معًا، أنجبا أربعة أطفال، أحدهما كتب رسالة إلىّ، وأرسلت أنا إليه النسخة الأصلية من دفتر مذكرات والدته ليحتفظ بها، أشك فى أنه سيتمكن من تمييز أكثر من كلمة من كل عشر كلمات، إن طلب منى توضيحًا سأخبره أن والدته عرفت والده هنا فى إنجلترا، خلال فترة زواج والده الأول، لكن إن لم يسأل، سأبقى صامتة، فى رسالته إلىّ، أرفق قائمة بالمنشورات المشتركة لوالديه، لقد بحثا وكتبا العشرات من المقالات ذات الشأن (لا يتعلق أى منها بالتوائم، أظن أنهما عرفا متى يجب التوقف) ونشراها على نحو مشترك: الطبيب "إى"، والسيدة "إتش جى مودسلى".

"إتش جى"؟ كان لـ"هيستر" اسم أوسط: "جوزافين".

ماذا تريد أن تعرف أيضًا؟ من اعتنى بالقط؟ حسنًا، انتقل "شادو" للعيش معى فى متجر الكتب، يجلس على الرفوف، فى أيَّة مساحة يستطيع إيجادها بين الكتب، وحين يصادفه الزبائن هناك يستجيب

لنظراتهم برباطة جأش هادئة، وبين الحين والآخر، يجلس عند النافذة، لكنه لا يطيل الجلوس، فالشارع يحيره، والسيارات والمارة والأبنية المقابلة، لقد أريته طريقًا مختصرًا عبر الحارة إلى النهر، لكنه يرفض استخدامه.

قال والدى: "ماذا تتوقعين؟ النهر بلا فائدة بنظر قِطٍّ من يوركشاير، إنه يبحث عن الأراضى البور".

أعتقد أنه على حق، فـ"شادو" يقفز إلى النافذة والتطلعات مسيطرة عليه، وينظر عبرها، ثم يلتفت إلىَّ بنظرة طويلة محبطة.

لا أود التفكير فى أنه يفتقد بيته.

جاء الطبيب "كليفتون" إلى متجر والدى إذ صادف أنه يزور البلدة، بحسب ما قال، وحين تذكر أن والدى يملك متجرًا للكتب هنا، فكر فى أن زيارتنا مستحقة، ليرى إن كان لدينا مجلد محدد عن طب القرن الثامن عشر كان مهتمًا به، رغم أن احتمالية ذلك ضعيفة، وما حدث هو أن كانت لدينا نسخة، ودردش ووالدى على نحو ودى عن الكتاب باستفاضة، حتى تجاوزنا موعد الإغلاق بفترة طويلة، ولتعويضنا عن البقاء لوقت متأخر هكذا، دعانا لتناول وجبة، كان الأمر لطيفًا للغاية، وبما أنه كان فى البلدة لليلة أخرى، دعاه والدى فى المساء التالى لوجبة مع العائلة، أخبرتنى والدتى فى المطبخ أنه "رجل لطيف جدًّا يا (مارجريت)، لطيف جدًّا"، عصر اليوم التالى كان الأخير له فى البلدة، ذهبنا للتمشية قرب النهر، لكن فى هذه المرة كنا كلينا فقط، فانشغال والدى بكتابة الرسائل منعه من مصاحبتنا، وحكيت للطبيب قصة شبح "آنجلفيلد"، استمع بإنصات وحين انتهيت تابعنا السير، ببطء وفى صمت.

"أذكر رؤية صندوق الكنوز هذا"، بحسب ما قال فى النهاية، "كيف نجا من الحريق؟"

توقفت مكانى أتساءل، "لم أفكر قط فى أن أسأل".

"لن تعرف مطلقًا الآن، صحيح؟"

أخذ ذراعى وتابعنا المسير.

على أيَّة حال، بالعودة إلى موضوعى، وهو "شادو" وحنينه إلى بيته، حين زار الطبيب "كليفتون" متجر والدى ورأى حزن القط اقترح أن يفتح بيته لـ"شادو". سيسر "شادو" كثيراً بالعودة إلى يوركشاير، لا شك لدى فى ذلك، لكن هذا العرض، على الرغم من لطفه، أغرقنى فى حالة من الحيرة المؤلمة، لأننى لست متأكدة إن كنت أستطيع تحمل الانفصال عنه، أنا واثقة بأنه سيتحمل غيابى برباطة الجأش نفسها التى تقبل بها اختفاء السيدة "وينتر"، لأنه قِط، لكن لأننى إنسان، فقد أصبحت مولعة به، وأفضِّل لو أمكن أن أبقيه بقربى.

أفشيت واحدة من هذه الأفكار للطبيب "كليفتون" فى رسالة، ورد بأنه ربما يجب أن نأتى كلانا، "شادو" وأنا، لنقضى إجازة، إنه يدعونا لمدة شهر فى الربيع، وبحسب ما يقول فإن أى شىء يمكن أن يحدث خلال شهر، وبنهايته يعتقد أن من الممكن أن نتوصل إلى حل يناسبنا جميعًا لهذه المعضلة، ولا يسعنى إلا التفكير بأن "شادو" سيحظى بهذه النهاية السعيدة.

وهذا كل ما فى الأمر.



استدراك

استدراك

ربما ذلك ليس كل ما فى الأمر، إذ يعتقد المرء أنه قد انتهى من شىء، ثم يكتشف فجأة أنه لم ينتهِ منه تمامًا.

جاءتنى زائرة.

كان "شادو" أول من لاحظها، كنت أدندن وأنا أحقب أشيائى من أجل عطلتنا، الحقيبة مفتوحة على السرير، و"شادو" يخطو إلى داخلها وخارجها، ويلهو بفكرة أن يصنع لنفسه عشًّا على جواربى وستراتى، حين توقف فجأة، وبدا عازمًا للغاية وهو يحملق نحو الباب ورائى.

لم تأتِ فى صورة ملاك ذهبى، ولا شبح الموت الذى يرتدى معطفًا، بل كانت مثلى: امرأة طويلة إلى حد ما، نحيفة وبنية الشعر، لن تلاحظها إن مرت بجوارك فى الشارع.

هنـاك مئـات، بـل آلاف الأشـياء التـى ظننـت أننـى أريـد سـؤالها عنهـا، لكننـى كنـت متأثـرة لدرجـة صعبـت حتـى نطـق اسـمها، خطـت نحـوى، ولفتنـى بذراعهـا وضغطـت علـى إلى جانبهـا.

نجحـت فى أن أهمـس: "(مويـرا)، كنـت بـدأت أظـن أنـك لسـت حقيقيـة".

لكنهـا كانـت حقيقيـة، خدهـا علـى خـدى، وذراعهـا علـى كتفـى، ويدى علـى وسـطها، تلامسـنا بنبدتينـا، وتلاشـت أسـئلتى كلهـا وأنـا أشـعر بتدفـق دمهـا إلى دمـى، ونبـض قلبهـا مـع نبـض قلبـى، كانـت لحظـة مبهـرة، لحظة عظيمـة وهادئـة، وأدركـت أننـى أتذكـر هـذا الشـعور، لقـد حُبـس بداخلى، بعيـدًا، والآن جـاءت هـى وأطلقـت سراحـه، هـذا الاتصـال البهيـج، هـذا الاتحـاد كان فى السـابق عاديًـا، ووجدتـه اليـوم إعجازيًـا بعدمـا اسـتعدته.

جاءت وكنا معًا.

أدركـت أنهـا جـاءت لتودعنـى، فى لقائنـا التـالى سـأكون أنـا الآتيـة إليهـا، لكـن هـذا اللقـاء التـالى لـن يحـدث إلا بعـد وقـت طويـل جـدًا، ولا داعـى للتعجـل، يمكنهـا الانتظـار، وأنـا كذلـك.

شـعرت بلمسـة أصابعهـا علـى وجهـى وأنـا أمسـح دموعهـا، ثـم، تحـت تأثـير السـعادة، وجـدت أصابعنـا بعضهـا بعضًـا وتشـابكت، أنفاسـها علـى خـدى، ووجههـا علـى شـعرى، ودفنـت أنفـى فى انحنـاءة عنقها واستنشـقت حلاوتها.

يا لها من سعادة.

لا يهم أنها لن تستطيع البقاء، لقد أتت، لقد أتت.

لسـت واثقـة بكيـف أو متـى غـادرت، أدركـت ببسـاطة أنهـا لم تعـد موجـودة، جلسـت علـى السريـر هادئـة للغايـة، وسـعيدة للغايـة، انتابنـى ذلـك الشـعور الغريـب بـأن دمـى يعيـد توجيـه نفسـه، وأن قلبـى يعيـد

ضبط نبضه ليكفيني وحدى، لقد أعادت الحياة إلى ندبي حين لمسته، والآن، تبرد حرارته بالتدريج حتى تتساوى مع بقية جسدى.

لقد أتت ورحلت، لن أراها مجددًا في هذه الناحية من العالم، وحياتي ملكي وحدى.

كان "شادو" نائمًا في الحقيبة، مددت يدى لأمسده ففتح عينًا خضراء هادئة، وتطلع إليَّ للحظة، ثم أغلقها مجددًا.



هل تـؤمن بالأشباح؟

أعرف أن ذلك الشعور في مؤخر العنق شائع إلى حد ما؛ لكن هذه أول مرة أختبره. مثل الكثير من الوحيدين، حواسي معتادة على وجود الآخرين، فأنا معتادة على أن أكون المتجسِسة الخفية في الغرفة أكثر من كوني المتجسَس عليها. والآن أحد يراقبني، وليس هذا فقط، بل وكان يراقبني لبعض الوقت. لكم من الوقت ظل هذا الشعور غير القابل للشك يدغدغني؟ تأملت الدقائق الأخيرة محاولة تتبع ذاكرة جسدي مع أحداث الكتاب. أكنت أراقَب منذ أن بدأت الراهبة الحديث إلى الشاب؟ منذ أن أُرشدت إلى داخل المنزل؟ أم قبل ذلك؟ حاولت أن أتذكر من دون تحريك عضلة واحدة، كنت منكبة على الصفحة كأن شيئًا لم يحدث.

الغلاف: مويرة عادل





ISBN 978-977-313-798-4

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات